محمد المنسي قنديل

لحظة تاريخ

٣٠ حكاية من الزمن العربي



رسوم: عمرو الكفراوي

بيـن ضفتي هذا الكتاب ثلاثين حكاية مـن الزمن العربي الممتد، بـدءً من زمـن الفرسـان، الذيـن لا تقـف حـدود طموحاتهم عند حاضرهم، فكان لهم مع مجيء رسـالة الإسلام والشهادة في سبيله ما أرادوه من مواجهة وانتصار على الزمان ذاته، ثم عطفًا على زمن بدأ بفتنة كُبرى، لافظًا الشـجاعة ومعتنقًا الدهاء، وهو زمن الملوك. زمـن ضاقت الأرض فيه على المتصارعيـن على العرش بما رحبت مـن فتوحات وانتصارات، فكان لابد لهم مـن التخلص من بعضهم البعـض ولو جمعتهم أخوة الدم. وسـرعان ما أدت هذه الصراعات لسـقوط الأمويين والعباسـيين، ممهدة الطريق لزمن الجلبان، جُندٌ مرتزقة من الترك والمماليك والسلاجقة وغيرهم. فصار بدل الخليفة ألف خليفة، لا يملكون ولا يحكمون.

ومـن بعدهـا، تناوبت الدول المحتلة مـن كل حدب وصوب حتى صرنا في زمن الخصيان. زمن مليء باليأس حقًا ولكنه لا يخلو من الأمـل. فيه رجال حالمون، وانتفاضات ذبيحة، ورغبة تواقة للتغيير وثورات كامنة تحت التراب وأخرى ظهرت للنور، ومازلنا في انتظار زمن عربي جديد، ومخاض جديد، وولادة جديدة.



محمد المنسـي قنديل، روائي مصري، ولد فـي المحلة الكبرى عام ١٩٤٩. تخـرج من كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥، ولكنه انشـغل بإعادة كتابة التراث فاعتزل الطب وتفرغ للكتابة. له عدة مجموعات قصصية وخمـس روايات هي«الوداعة والرعب» و«انكسـار الروح» و«قمر على سمرقند» التي فازت بجائزة «ساويرس» للآداب (٢٠٠٦) وتُرجمت إلى الإنجليزيـة، و«يوم غائم في البـر الغربي» التي وصلت للقائمة القصيرة في جائزة البوكر للرواية العربية (٢٠١٠) وأخيرًا رواية «أنا عشقت».



9 789770 932247

دار الشروق
www.shorouk.com


لحظة تاريخ
٣٠ حكاية من الزمن العربي

لحظة تاريخ

٣٠حكاية من الزمن العربي

محمد المنسي قنديل

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية : عمرو الكفراوي

خطوط: محمود إبراهيم

الطبعة الأولى ٢٠١٤

الطبعـة الثانية ٢٠١٤

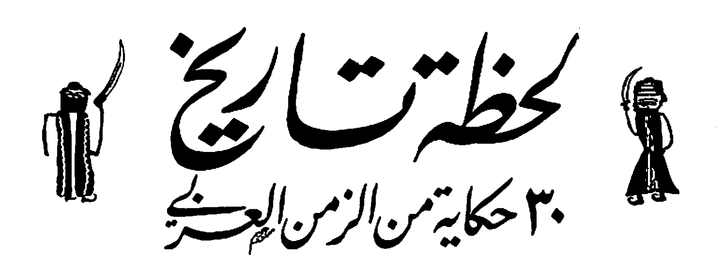
تصنيف الكتاب: أدب / قصص تاريخي

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٠١٣/٣٦٨٩

ISBN 978-977-09-3224-7

محمد المنسي قنديل



لحظة تاريخ

٣٠ حكاية من الزمن العربي

رسوم عمرو الكفراوي

دار الشروق

المحتويات

توطئة: من أين ينبع نهر الزمن العربي؟ ٧
١. المغرور ببقاء النسور ٢٧
٢. الحيرة.. مدينة العشق والغدر ٤١
٣. الجارية.. ولسع السياط ٥٩
٤. كل نساء الصحراء ٧٥
٥. غواية السلطان ٨٩
٦. هذه ليلتنا الأخيرة معًا ٩٩
٧. النبوءة ١١١
٨. زفاف أخت الرشيد ١١٩
٩. الجياع يحلمون.. قراءة في تغريبة بني هلال ١٣١
١٠. رحلة الخراساني إلى الموت ١٤٧
١١. قاضي إشبيلية.. وكذبته البيضاء ١٦٣
١٢. مزاد بيع الوزير ١٧٩
١٣. عرب ما بعد السقوط ١٩٥
١٤. ست الملك.. في البدء كان القتل ٢٠٧
١٥. الخليفة جائعًا ٢٢٧
١٦. يوم قتل السهروردي ٢٣٩
١٧. بعد أن يموت السيد..! ٢٥٣

١٨ . المماليك يصومون رمضان ٢٦٩
١٩ . حتى المغول يا مصر ٢٨٣
٢٠ . شجرة الدر، تصحن الدر ٢٩٥
٢١ . ابن السلطان الضال ٣١١
٢٢ . لك الله يا عكا ٣٢٧
٢٣ . القاضي عاشق التتار ٣٣٧
٢٤ . السلطان.. عاشق الذهب ٣٥٥
٢٥ . سلطان.. لم يرَ الشمس! ٣٦٣
٢٦ . أيام الجوع ٣٧٥
٢٧ . حكاية «هوى» و«عسكري الفرنسيس» ٣٨٩
٢٨ . الجبرتي يصوم رمضان ٤٠٣
٢٩ . زفاف ابنة الباشا ٤١٩
٣٠. جنيه «إدريس» ٤٣١

توطئة



لا يعيد التاريخ نفسه، فالموتى لا ينهضون من القبور، والأشياء تفقد قدسيتها منذ اللمسة الأولى، والمؤرخ رجل أحمق، يختبئ خلف حركة الزمن؛ لذا يمتلك شجاعة خارقة في مواجهة الأباطرة الماضيين، ويرتعد خوفًا من والٍ صغير يعاصره.

تتوالى وقائع التاريخ عبر قرون الصمت الطويلة، محملة بالفضائح والمآسي والحروب والأقوام الذين تقاتلوا وتصارعوا قبل أن يبادوا، تتوالى مظاهر العظمة والجنون، النزوات والمجازفات والبطولات الزائفة، ويربض المؤرخ خلف الوقائع كطفلٍ شقي، يعيد قصة الخليقة على شاكلته، يبحث عن السياق وبعضٍ من المعنى وسط عشوائية العصور المضطربة ليدونها فوق صحائف الورق، كل أيام المؤرخين العظام كانت بالغة الاضطراب، كل واحد منهم سجل وقائعه واقفًا على حافة الخطر، لم يكن يملك إلا قلمه في مواجهة الطوفان، في تلك اللحظات عندما تفقد الحضارة قوتها الإبداعية ويخضع العقل فيها لقبضة الطغيان المسيطرة،

يشعر الناس بهوة تفصلهم عن الذين يحكمونهم فينتقلون من محاكاتهم إلى نقدهم ثم التمرد عليهم، تبدأ كتابة التاريخ في تلك اللحظة؛ لحظة الفراغ التي تسبق عصور الانهيار، وعلى المؤرخ أن يحفر في داخله جرح الماضي الدامي ويبكي على أيام لم تكن أقل سوءًا ويضمن صفحاته توقعات أكثر شرًّا.

من طبرستان يأتي «ابن جرير الطبري» ليغوص في مخطوطات «دار الحكمة» بحثًا عن قصة الخليقة، وعندما يجلس في سوق الوراقين في بغداد كان يشاهد القبة الخضراء التي تظلل مجلس الخليفة، كانت الخلافة العباسية في بداية قرنها الرابع، ولكنها مفتتة كإناء زجاجي دب فيه السرطان، تشظت إلى عشرات من الدول الصغيرة، وصعد إلى عروشها ولاة يدعون أنهم أمراء المؤمنين وأنهم أكثر شرعية من الخليفة الذي يسكن بغداد. كانت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد بني الإخشيد، وإفريقية في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وليس للخليفة العباسي إلا بغداد، وملكٌ يقاس بعدة فراسخ لا بعدد الولايات، وسلطة لا تتعدى ضرب اسمه على العملة والدعاء له من فوق المنابر، واكتشف الطبري أنه يكتب عن نهايات؛ نهاية التاريخ، ونهاية العالم، وكان الحنابلة يحاصرونه ويقذفون بيته بالأحجار وهم يصرخون: اخرج لنا يا رافضي. كان قد اختلف مع فقيه الحنابلة ـ المذهب الذي كان سائدًا في بغداد ـ فحول حياته إلى جحيم، حرض عليه العامة، وربط بين اسمه واسم يشبهه لأحد زعماء الشيعة، واستعدى عليه الخليفة وصاحب الشرطة حتى اضطر الطبري أن يعتكف في بيته، يكتب أربعين صفحة كل يوم، ليؤلف كتابًا في الاعتذار عن أشياء لم يقلها، ويشيد بأناس لم يتعرض لهم.

وشاهد «ابن الأثير الجزري»، من خلال منصبه كمبعوث لصاحب الموصل، فلول المغول وهي تتجمع في سهول آسيا الباردة، وعايش بعض المعارك وسقوط المدن، قبل أن يكون الشاهد على المصيبة العظمى عندما انقض المغول على قلب بغداد، وبدلًا من أن يتدفق الدم الهمجي إلى عروق الحضارة الهرمة حاملًا قوة جديدة، أصابها بنوع من التسمم الدموي، وكتب في ابن الأثير في آخر صفحاته مرثية لأروع عواصم الإسلام في كل العصور.

واختبأ «ابن تغري بردي» داخل قصور القاهرة، يراقب بني جلدته من المماليك، يرصد رحلة صعودهم المثيرة للاستغراب، من سوق النخاسين إلى دست العرش، ثم سقوطهم المأساوي في جب القلعة أو «العرقانة»؛ ذلك السجن المخيف، يعيش دسائس القصور التي تحولت إلى فعل يومي، وعندما تفتحت عيناه على هذا العالم، كان أبوه ـ أحد كبار قادة المماليك ـ طرفًا في مؤامرة سياسية أطاحت بحياته، واكتشف ابن تغري أن بني جلدته لا يأكلون أرزاق العامة من المصريين فقط ولكن يأكلون بعضهم البعض، وأن أطماعهم أشد وطأة من الطاعون الذي يدق عليهم أبواب القصور، وأن الخطر الأكبر يأتي عندما ينحسر النيل ويكشف عن عظام الفلاحين الذين ماتوا بلا ثمن.

واستيقظ «ابن إياس» مذعورًا على دوي مدافع بني عثمان، ودخل جنود الترك المدينة ليعلقوا المشانق على أقدم بواباتها؛ باب زويلة، ويشنقوا عليها آخر سلاطين المماليك «طومان باي»، ثم يُعملوا النهب والسلب في الأهالي كأنهم كفرة مارقون وليسوا مسلمين يشاركونهم نفس الدين، وامتدت السرقات حتى شملت قطع الفسيفساء التي تكسو جدران المساجد والقصور والأسبلة. حرمت القاهرة من كل متنفس للجمال، وَرَحَّلَ العثمانيون كل العمال المهرة إلى إسطنبول فانقطعت من مصر سبع عشرة صنعة ولم يعد منهم صانع واحد.

وكان الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي» يسعى خائفًا في شوارع القاهرة؛ إذا هرب من الفرنسيين لاقاه الغز، وإن اختبأ من الإنكشارية، كشف الأرناؤوط عن مكانه، والباشا الكبير محمد علي في القلعة يلعب مع مؤرخه العاصي لعبة القط والفأر، يريد أن يطوعه حتى يقر ويعترف بأن تاجر الدخان السابق هو أعظم مَنْ حكم مصر، ولكن الجبرتي لم يقر بذلك قط، وانتهت حياته قبل أن ينهي تاريخه، وسقط القلم من بين أصابعه وهو يتلوى من السم الذي دسه له الباشا الكبير.

يبدأ التاريخ العربي مثل حلم أسطوري رائق، كذكريات الخلق الأولى، ولكنه سرعان ما يتحول إلى كابوس عندما تستشري فيه بذرة الفساد، ويبدو أن الانتماء للعربية، ليس انتماء لعرق ولا لجنس ولا للغة، ولكن إلى قدر قاس لا فرار منه، فالجنس العربي بالغ القدم كأنه على وشك أن يباد، ولكنه باقٍ وراسخ دون تشكل كحقيقة كونية، فهل الوقائع التي مضت هي نفس الوقائع، وما حدث هو الذي يروى، أم إن هناك اتفاقًا عامًّا عبر كل الأجيال بين صغار الكتبة وصغار الخلفاء على تزوير كل الوقائع..؟

عندما بدأ «الطبري» يتأهب لكتابة تاريخه، قال لتلامذته قبل أن ينفضوا من حوله: أتنشطون لكتابة تاريخ العالم من آدم حتى وقتنا هذا؟ تساءل التلامذة: كم يكون قدره؟ قال الطبري: ثلاثون ألف ورقة، قالوا معترضين: إن هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه.. قال: إنا لله، ماتت الهمم، ولم يكن أمامه إلا أن يملي عليهم تاريخ العالم مختصرًا غاية في الاختصار:

«الحمد لله، الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، والقادر على كل شيء بغير انتقال، والخالق خلقه من غير شكل ولا مثال، الفرد الواحد من غير عدد، والباقي بعد كل أحد..».

وكان «الجبرتي» يرى أن الغرض من التاريخ هو: «الوقوف على الأحوال

الماضية من حيث هي، وكيف كانت، وفائدة العبر بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز العاقل من مثل أحوال الهالكين من الأمم المذعورة ويستجلب خيار أفعالهم، ويتجنب سوء أقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي..».

لكنه لم ينتفع بهذه النصائح، وأصبح طرفًا في صراع مع حاكم مستبد، دفع الثمن أولًا من حياة ابنه «خليل» عندما اغتيل في شوارع القاهرة، ثم أخذ هو نفسه يتحلل تحت وطأة السم الزعاف، كان الجبرتي يموت والعالم الصاخب الذي سجل شذرات منه يتغير من حوله، الأشياء الجليلة والأشياء الحقيرة تنفصم آخر حلقاتها، المماليك بخيولهم المزركشة قبل أن تحصدهم مدافع الفرنسيس في إمبابة، وشيوخ الأزهر الذي يتقدمون الجموع ثم ينتكسون على أعقابهم عند أول مكسب أو تهديد، وعميان الأروقة الذين يقومون بالإضراب لأن أحدًا لا يرى جوعهم ويغلقون باب الأزهر لأيام طويلة ويمنعون الآذان والصلاة، وتجار الغورية وهم يعانون من جشع السلطان الغوري ومحاولته للغش، وخفراء الليل على باب زويلة وهم يتعثرون في جثث المغتالين، والصناجقة وخادم النعال بالمشهد الحسيني، وفيالق الأرناؤوط والإنكشارية القاسمية والإنكشارية الفقارية الذين لا يكفون عن التقاتل فيما بينهم، وجنود الفرنسيس بملابسهم الزرقاء وشارتهم المثلثة يحملون نذر ثورة جديدة لعالم تعفن من فرط قدمه، وأسعار الغلال واللحم والسمن واللبن والتمرحنة، واللبن والفحم وأيام الجوع وكلها ترتبط بحركة النيل غير المتوقعة، وظهور التحاريق وقت انحسار النيل، ثم قدوم الطاعون متمهلًا ولكن دون رحمة، ولكن التيار جرف الجبرتي فأصبح عنصرًا مأساويًّا وسط المآسي التي تحدث عنها.

كان الخليفة العادل «عمر بن الخطاب» هو الذي وضع المعلم الأول

للتقويم الهجري، فحين امتدت الدولة وأصبح لها ولاة على كل مصر من الأمصار، وسارت الرسل تحمل إليهم أوامر الخليفة، كتب إليه والي البصرة أبو موسى الأشعري يقول: «وإنه تأتينا كتب من أمير المؤمنين لا ندري على أيها نعمل. فقد قرأنا صكًّا محله شعبان، فما ندري، أهو شعبان الماضي أم القابل..». وجمع بن الخطاب وجوه الصحابة وقال لهم: «إن الأموال قد كثرت، والأمصار تعددت والطرق استطالت، وما قسمناه غير مؤقت، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك؟». وتقدم «الهرمزان»، وهو أحد ولاة الفرس، وكان حاكمًا على الأهواز ولكنه هزم وأخذ أسيرًا وأعلن إسلامه على يد الخليفة، قال:إن للعجم حسابًا يسمونه «ماه روز» يؤقتون به على من غلب من الأكاسرة وملك البلاد.

ومن «ماه روز» اشتقت كلمة «مؤرخ» ومنها تاريخ، وكان التاريخ الأعجمي يبدأ مع كل كسرى جديد يعتلي العرش، ولكن ابن الخطاب قرر أن يكون هناك تقويمٌ واحدٌ يبدأ من الهجرة، أي منذ سبعة عشر عامًا مضت على بداية التقويم، ولكن التاريخ العربي كان أكثر قدمًا بطبيعة الحال، فالعالم حين خلقه الله، خلق بالعربية ـ كما يرى الطبري ـ وسوف ينتهي ـ حين ينهيه الله ـ بالعربية، وبرغم أن «يعرب» فيما زعم المؤرخون هو أول من تحدث بالعربية فإن لغة آدم في الجنة كانت العربية، بل وله أشعار عربية في رثاء ولديه.

أول ما خلق الله من شيء كان القلم، فقال له: اكتب، قال القلم: وما أكتب يا رب..؟ قال له: اكتب كل ما هو مقدر، فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن حتى أبد الدهر، ثم خلق الله سحابًا رقيقًا كالغمام، لف حول الكون الخالي فأصبح الكون عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق الله عرشه على الماء، وأخرج من الماء دخانًا فسما عليه سماء، وقسمها إلى سماوات سبع، ثم يبس الماء فجعله أرضًا واحدة، ثم

فتقها فجعلها سبع أرضين، وكانت الأرض مخلوقة على ظهر النون، وهو الحوت السابح في بحر الأبدية، وحين أراد الله أن يدحو الأرض ويضع فيها أرزاقها، تحرك النون فاضطربت الأرض وتزلزلت فأرسى عليها الجبال فقرت، فالجبال تفخر على الأرض، ثم خلق الظلمة والنور وميز بينهما، فجعل الظلمة ليلًا أسود مظلمًا، وجعل النور نهارًا مضيئًا مبصرًا، وخلق من نور عرشه شمسين، وفي بادئ الأمر لم يكن يعرف الليل من النهار، فأرسل الله جبريل فمر بجناحيه ثلاث مرات على وجه القمر وهو يومئذ شمس، فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور، وبقيت خطوط سوداء على وجه القمر من أثر المحو، ودار الفلك دوران العجلة، فلو اقتربت الشمس لأحرقت كل شيء على الأرض حتى الصخور والحجارة، ولو بدا القمر لافتتن أهل الأرض وعبدوه من دون الله، وبدأت حركة الزمن في الصيرورة، كل نهار يتلوه ليل إلى يوم القيامة فهو يوم عقيم، نهار لا يتلوه ليل.

هكذا خلق الكون كما تصور الطبري، ولم تتوقف عجلة الكون عن الدوران حتى جاء العربي الأول، كان موطنه في تلك الأرض المحروقة والفيافي الشاسعة التي يحوطها البحر من جهات ثلاث وتصليها الشمس، منذ أن انتزعت هذه القطعة من إفريقيا، وشق البحر الأحمر أخدوده وسط الجبال، وكفت الهجرات المتبادلة، وتقطعت الأقوام، لم تستقر القبائل إلا بعد مخاض استغرق قرونًا طويلة، وأبيدت أقوام عربية كاملة، مثل هود ولقمان وثمود وجديس وعبيل وطسم، وجاءت أقوام أخرى من الجنوب اليمني، ومن الشمال السومري، وامتزجت معًا في حياة قاسية وسط طبيعة مقفرة، وسط «الحرار» وهي أرض بركانية لا تكاد تهدأ، أحجارها صلدة كالرماح وباطنها قلق ومليء بالنذر، حتى إن الناس في جنوب اليمن سجدوا لها وعبدوا حممها التي لا تكف عن التصاعد، وسط «الدهناء» برمالها الحمراء وتلالها المتتابعة كرؤوس الجن، وأعشابها البرية التي تزدهر

لتموت سريعًا، وصحراء «النفود» الواسعة، ورملها الأبيض الذي تذروه ريح لا تهدأ ويتماوج فوقه سراب لا يروي، وتمتد هذه الصحراء حول جزيرة العرب أشبه ما يكون بحدوة الفرس، وعندما يأتي الشتاء تكتسي ببساط ساحر الخضرة سرعان ما يتبدد مع أول عاصفة رملية، وتكنسها رياح السموم، وفي وسط الصحراء توجد «الدارات»؛ تلك الفجوات الضيقة بين الجبال، التي تمتلئ أحيانًا بالرمال الخادعة وتلتهم كل من يضل طريقه، وتزدهر أحيانًا بشقائق النعمان لعل عاشقًا يهدي منها زهرة لمعشوقته الصغيرة، وفي الوسط تمتد سلاسل جبال «السرات» العمود الفقري للجزيرة حتى حواف الشام، وسط هذه الأمواج من الرمال، والأودية التي تهددها السيول.. كان هذا هو سكن العربي الأول.

ينتمي العرب إلى جدين، أولهما قحطان و ثانيهما عدنان، وربما كان هذا تقسيمًا رمزيًّا أكثر منه فعليًّا، فذلك الترادف بين الاسمين يظهر تلك الثنائية المألوفة التي نجدها عند الشعوب البدائية، فعدنان هو الوجه الآخر لقحطان، ويطلق المؤرخون العرب على نسل هذين الجدين تسميات غاية في الركاكة، «العرب العاربة» التي تنتمي في جذورها إلى قحطان، و«العرب المستعربة» التي تنتمي إلى عدنان.

قحطان هو الجد الأول للعرب الذين هاجروا من اليمن، وحكموا هذه الصحراوات الشاسعة لمدة مائتي عام، وأنجب ابنه «يعرب» الذي تنسب إليه العربية والعرب، من أبنائه أيضًا «سبأ» صاحب السد المشهور، و«حضرموت» و«يغوث» و«هذرم» و«يأمن»، وأسماء أخرى تفرقت بعرض الصحراء فأعطتها أقوامها ومسمياتها وحولت الخلاء إلى أماكن معلومة، وملأت الأودية بالقرى، كان هؤلاء الأبناء هم البذرة التي تفرعت وأعطت الرجال الصلدين الذين تحملوا هذا النمط الوعر من الحياة، حيث لا تقر عين بنوم، ولا تنطفئ نار، ولا أحد يأمن لغدر الصحراء.

ثم جاء إبراهيم عليه السلام من الشمال وبنى البيت الحرام، وترك بجانبهما زوجته هاجر وابنه إسماعيل، وكانت هذه بداية استقرار بني عدنان بجوار بئر الماء التي تفجرت تحت قدمي ستنا «هاجر»، وحدث التزاوج بين الشمال والجنوب، وجاء من العدنانيين الشعراء والمفكرون والأنبياء، منهم خير ولد عدنان محمد عليه الصلاة والسلام، كانوا الوجه الروحي لوجه قحطان المادي، وهما معًا يكونان جسدًا واحدًا لقوم واحدة مهما اختلفوا أو تنازعوا أو تفاخروا أو تباهوا بالأنساب، كان شرف المحتد هو ثروتهم المعنوية بعد أن ضنت عليهم الطبيعة بالثروة المادية، فلا يكفي أن يحفظ الإنسان نسبه حتى آخر جد، بل يعرف أيضًا نسب حصانه، وفصائل ناقته، والأيدي التي تداولت سيفه، فالأرض الرملية لا تبقي بداخلها على أي جذور ومن السهل اقتلاعها، فلم يكن هناك بد من غرس جذور في الذاكرة، تبقى بعد أن تذرو الريح كل شيء.

ولم يتم التزاوج الفعلي بين المادة القحطانية المضيعة، والفكر العدناني الذي لم يستطع تجميع شذراته إلا مع ظهور آخر الأنبياء ليقودهما معًا، واستلزم الأمر كثيرًا من الجهد لإعادة صياغة العقلية العربية، فالإنسان الصحراوي الذي لا يمتلك سوى حريته وسط هذا الفضاء، يصبح عصيًّا على التطويع، والحرية المطلقة هي قرينة شخصيته، وهو ينتزع ما يريده من خلال غزوات لا تهدأ، فكيف يمكن أن يخضع لسلطة دينية تدعوه وتحول هدفه من المغنم الشخصي إلى السعي للجهاد من أجل فكرة مجردة هي نشر الدين الجديد؟ كيف يمكن أن يطوع ذكاءه الفطري الذي يعتمد على حسن البديهة والتلاعب بالألفاظ، إلى تفكير خلاق يجعله يواجه الحضارات القديمة بأساليب مبتكرة؟ كانت هذه هي معجزة الدين الجديد التي حولت العربي الذي لسانه أمهر من عقله، إلى عربي عقله أمهر من لسانه.

وهكذا تخلق الكون، وبدأت وقائع الزمن العربي، زاهية ومتوهجة ومليئة بالانتصارات، فكيف تجمد هذا الزمن، وكيف تولد من أزمنة المجد كل هذا القدر من الانهيار..؟

كنت في زيارة قصيرة لليمن عندما دعاني صديق يمني لزيارة مدينته الجبلية، قال يغريني: «ستشاهد واحدة من أغرب مدن «حمير» القديمة»، وكان اليمن بالنسبة إليَّ، خاصة في الزيارة الأولى، تجربة غريبة، فلا يوجد شبيه لليمن إلا اليمن، وهي أقدم بيتٍ سكنه الإنسان العربي، ولكن الطريق إلى تلك المدينة الجبلية كان شاقًا وعرًا، كنا نصعد فوق منحدرٍ تكاد زاويته أن تكون قائمة على الوادي السحيق، وأي عطل أو تراجع صغير يصيب السيارة التي نركبها يمكن أن يتسبب في سقوطها مهشمة. كنت خائفًا، وحاول صديقي أن يطمئنني، فسائقو اليمن من أبرع السائقين في العالم، وهم أحفاد حداة القوافل في الزمن القديم، ولكن الطريق لم يكن يكف عن الامتداد صعودًا كأنه يريد أن يصل إلى قلب السماء، أي رغبة في السمو تلك التي دفعت بني حمير لارتقاء هذه القمم الوعرة؟

كانت المدينة بالفعل شاهدًا حجريًّا غريبًا، لا أدري كيف لانت الصخور وتشكلت وأخذت هذا الطابع الإنساني. كان سفح الجبل قد مهد وأصبح ناعمًا مكسوًّا بالحجر الأحمر، والدرب الضيق الذي يؤدي إلى المدينة يعوق تقدم السيارة، هبطنا منه وبدأنا نسير على أقدامنا. كأن المدينة تريدنا دون أي آلات معاصرة. مررنا من تحت بوابة حجرية ضخمة، عليها نقوش حميرية غامضة، احتوتنا المدينة بعبقها الخاص، عدنا قرونًا إلى الزمن الماضي، كأن هذا الصعود الشاق إلى قمة الجبل هو محاولة للتخلص من جاذبية الزمن المعاصر، والعودة إلى خصوصية الزمن القديم عندما كانت السيادة للبشر والحجر دون وسيط.

تبدأ المدينة من دائرة صغيرة هي ساحة السوق، تلتف حولها حوانيت معتمة برغم الشمس، يجلس أمامها التجار يبيعون المنسوجات والخناجر والتمر الجاف والقات الطازج، وتلتف البيوت في عدة دوائر حول هذه الساحة، كل دائرة تؤدي للأخرى، وتزداد ارتفاعًا مع مدارج الجبل، تدفع داخلك إحساسًا بالألفة والتماسك، فالبيوت كلها ترى بعضها البعض، والروح القبلية هنا قد استعانت بالأحجار لتصبح أكثر صلادة.

ولم يتوقف تطويع الأحجار عند حد البناء، كان هناك هوس غريب بالنقش، وضع النقاش بصماته فوق كل حجر، وحول كل باب، وفي إطار كل نافذة، المدينة كلها أيقونة حجرية كبيرة أخذت من عمرهم السنوات الطويلة لكي يتركوا عليها أثرًا لا يزول، تصرخ وسط هذا الصمت الجبلي الموحش، تعلن عن الوجود البشري بها منذ أقدم العصور. كنا نكتشف مع كل زقاق ندخله مفاجأة جديدة، طاقة في جدار، نافذة، بابًا خشبيًّا، درجًا، كل منها مصنوع بعناية فائقة، كأننا في متحف غريب رصعت قطعه وتشابكت والتحمت مع الناس الذين يعيشون حياتهم اليومية التي يغلب عليها الفقر.

كانوا يسيرون في صمت وسط هذا الجلال الحجري، على رؤوسهم العمائم الصغيرة، وفي خواصرهم خناجر مقوسة؛ خناجر عتيقة توارثوها عن عشرات الأجداد، عزيزة على قلوبهم، خاصة بعد أن تحولت ألوان مقابضها من اللون الأسود إلى الكهرماني الأصفر، وبهذا ارتفعت قيمتها المادية إلى مئات آلاف من الريالات، وسمت قيمته المعنوية إلى مستوى «الرقية» التي تقي حاملها من لدغ العقارب والثعابين وأهوال الجبال، وربما من تقلبات الزمان.

أحاط بنا سكان المدينة بوجوههم الصغيرة، وعيونهم المستديرة التي

تشع بالذكاء، يبالغون في حفاوتهم، كان بينهم ولا شك جد من أجدادي، وعندما أصروا على إطعامي، أدركت أن ذلك من باب الشفقة من الجد على الحفيد المتعب، وكان الطعام بسيطًا ـ لبن رائب وعسل ـ نفس الطعام الذي اعتاد «ذي يزن» البطل اليمني الشعبي على تناوله، وجاءت امرأة عجوز لتصنع الخبز. كان الفرن أيضًا محفورًا في الصخر، دائرة من الحجر مفرغة من الداخل حيث يوضع الحطب، ثم يفرد العجين على السطح المستوي ويقلب ليوضع أمامك مباشرة. لم آكل خبزًا في حياتي بهذه الطزاجة، ولم ينسوا أن يشيروا إلى آثار القنابل على البيوت العالية حيث تركت الحرب الأهلية بصماتها، ثم ارتفع الآذان يدعو لصلاة الجمعة.

سرنا جميعًا إلى المسجد، وكان من الطبيعي أن يكون المسجد تحفة فنية أخرى، وأن تصل النقوش إلى قمتها في الجمال والغزارة، ولكن الذي أصابني بالذهول حقا هو مشهد الأطفال الجالسين وهم يقرؤون في المصاحف؛ مصاحف كبيرة الحجم، مكتوبة بخط اليد على ورق قديم، مزينة بماء الذهب ومعطرة بالزعفران الذي لم تخفت رائحته بعد. كل واحد منها مخطوط نادر، يحلم أي متحف باقتنائه، يقرؤون في نفس المصاحف التي توارثوها عن أجدادهم، كما يحملون الخناجر نفسها ويسكنون البيوت ذاتها. كان الزمن العربي هنا قد تجمد في صورة نادرة، فوجود مثل هذه الصورة التاريخية الحية أمر لا يكاد يصدق، ولكنه هنا حقيقة يمكنك لمسها، مجمدة وصلدة كالحجر، وبرغم ذلك فالزمن العربي مجمد أيضًا في العديد من الحواضر العربية، وإن لم يكن مرئيًا بنفس هذه الدرجة من الوضوح، وما زال الملايين منا يتنفسون غبار القرون الماضية.

بحسابات «ابن جرير الطبري» فإن الزمن العربي قد انتهى، ونحن نعيش

الآن خارجه، فعمر الكون كله منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة ليس أكثر من ستة آلاف عام، مرت منها حين بدأ الطبري يكتب كتابه العظيم «تاريخ الأمم والملوك» حوالي خمسة آلاف ومائتين من الأعوام، أي أن كل ما كان باقيًا هو حوالي ٨٠٠ عام، تشبه لحظة مغيب الشمس في يوم بشري طويل.

وإذا كانت حسابات الطبري خاطئة في معناها العددي، فإنها صحيحة على المستوى الرمزي، فقد كان شاهدًا على لحظة مغيب الزمن العربي؛ آخر الفتوح، وآخر العروش وآخر انتفاضات الحياة. أما ما بقي بعد ذلك فهي غيبوبة عربية كاملة؛ غيبوبة تتشابه فيها الأيام والليالي والرؤى والكوابيس المتتابعة.

وعلى حد تصور الطبري، فقد كان خلق الزمان في اليوم الأخير من أيام الخليقة. خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق في أول ساعة من هذه الساعات الثلاث الآجال، من يحيا ومن يموت، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة، والزمن هو ساعات الليل والنهار، وأن الساعات هي قطع الشمس والقمر لدرجات الفلك، وعمر الكون هو عمر أيام الخلق، وكل يوم هو ألف سنة مما تعدون؛ فيكون المجموع ستة آلاف سنة هي كل عمر الكون كما ذكرنا.

بدأ الزمن العربي إذن ببعض من الأسطورة، وأمواج من الرمل والأنهار المطمورة والهجرات المتعاقبة، ولأن الصحراء كانت قاسية فلم تؤخذ

الشمس كمقياس أساسي للزمن، كانت صريحة ومعادية أكثر مما ينبغي، القمر هو الذي أسرهم ببعده الرقيق ونوره الصافي، كان فيه بعضٌ من ضعفهم عندما يظهر كهلال ضائع في السموات، وفيه صورة من حلمهم بالكمال عندما يتم دورته، وبدأ العرب يقسمون شهورهم تبعًا لظهور الأهلة، ولكن حوادثهم الضخمة وأيامهم المعروفة لم ترتبط بالقمر كما ارتبطت بظهور الماء؛ ذلك العنصر الهام وسط الصحراء العطشى، فسد مأرب هو علامة العمران القديم الذي كان يمتد لمسيرة ثلاثة أشهر، وانهيار السد هو بداية الهجرة والشتات والبحث عن مستقر جديد، وتفجر ماء زمزم هو الاستقرار الجديد حول الكعبة وبداية الملحمة العربية في مواجهة الصحراء، وماء «كلاب» هو الذي أشعل أكثر من حرب بين القبائل، وناقة «البسوس» أشعلت الحرب أربعين عامًا حين شربت من ماء غير مائها، ورسول الله سعى للنصر حين وضع جيشه أمام بئر بدر. الماء، الماء، هو المعْلم الحقيقي للزمن العربي وسط الصحراء، وهو الذي يخرج هذا اليوم من عداد الأيام العادية ليصبح يومًا من أيام العرب. الماء القريب، والهلال البعيد، هذان هما محورا الزمن العربي.

وبقدر ما كان الزمن العربي ممتدًّا وشاسعًا فلم يكن قط كتلة صماء، كان أشبه بالنهر الحي، ماء وطحالب وخصبًا ودمًا وشهداء وقتلى وتاريخًا وحضارة، منبعه واحد، وهو ما زال حائرًا يبحث عن ذلك المصب الواحد، فهل يمكن أن نقسم ذلك الكائن الخرافي الذي تختلط فيه الأسطورة بالحلم..؟

في البدء كان الفرسان، زمنهم هو أقدم الأزمنة العربية، فالناس المتشابهون كالعشب لا يسافرون في مجرى الزمن المتدفق، إنهم أشبه بلحظة سكون عابرة تذروها العواصف أو تطمرها الرمال. أما الفرسان ـ

لحاهم الله ـ فإن غاياتهم لا تقف عند حدود اللحظة الآنية، فهم يريدون أن يحولوا هذه الصحراء الوعرة إلى مكان صالح للحياة، فيه القليل من الزاد، والكثير من النبل، وبرغم أنهم كانوا فرادى كحد السيف، فكل واحد منهم كانت تسكنه قبيلتهم، يبذل كالغيث، ويغير كالمستميت ويستضيف فيبذل حتى آخر حدود العطاء، وتكون مأساته حين يطلب ما لا يتوقع، كانوا كلهم ـ بشكل أو بآخر ـ يسعون إلى منازلة الزمان، والانتصار على الموت.

حين سئل «لقمان بن عاد» عما يطلبه، لم يجد مطلبًا سوى الخلود. كان قد رأى جبال اليمن راسخة فطلب رسوخًا كرسوخها، ولكن الإجابة جاءت مخيبة لآماله: «أما الخلود فلا سبيل إليه ولكن طول البقاء». خسر لقمان النزال، وتحول العمر الطويل إلى شيخوخة ثقيلة، والفارس الشيخ كالسيف المثلوم، الأمر نفسه الذي أحس به «لبيد» وهو يرثي نفسه حيًّا كلما امتد عمره، فالفرسان لا يقنعون حتى بالمهادنة المستكينة، وما يبغونه ليس أقل من الانتصار أو الهزيمة المشرفة، حين سئل «المهلهل بن ربيعة» عن فدية أخيه «كليب»، لم يطلب أقل من عودته حيًّا، وهبوا له النوق والأموال والأنفس، ولكنه هتف: أرجعوا لي كليبًا، واشتعلت الحرب أربعين سنة كاملة لأن الموتى لا يعودون.

تحققت هذه الرغبة العارمة في مواجهة الزمن والانتصار عليه جزئيًّا مع مجيء الإسلام، فقد مد هذا الدين بما فيه من نبل من زمن الفرسان، وأضافت الشهادة في سبيل الله إلى هذه المواجهة عنصرًا جديدًا، كأنها حياة إضافية، لقد توافق النبل والتدين وأصبحت الحياة كلها معركة واحدة من أجل الجهاد ونشر دين الله، وتحقق للفرسان حلمهم المستحيل في الانتصار على الموت حين وهب الخلود للشهداء؛ ذلك الخلود الذي حرم منه لقمان بن عاد، وأصبحت الجنة هي دار الخلود التي ينشدونها، وعندما

مد الفرسان رقعة الفتوحات الإسلامية إلى أقصى بقاع العالم القديم، كان هذا إيذانًا ببداية زمن عربي جديد.. هو زمن الملوك.

بدأ هذا الزمن غريبًا وسط صليل سيوف الإخوة الأعداء في الفتنة الكبرى، عندما رفع علي بن أبى طالب سيفه يدعو معاوية للمبارزة حسمًا للخلاف بينهما وحقنًا لدماء المسلمين، وكان علي ـ رضي الله عنه ـ هو آخر وأعظم طراز للفرسان القدامى، وكان معاوية ـ برغم أنه لا يصغره في السن كثيرًا ـ هو البداية لعصر جديد. كان يدرك أن زمن الفرسان قد ولى وأن عليه ألا يأبه بتقاليده، عليه فقط أن يحسن الالتفاف حولها، رفض مبدأ المبارزة بدماثة وواصل الحرب بدهاء وحنكة، ولم يغادر عرشه بدمشق حتى كسب الجولة.

من لحظة الرفض هذه بدأ زمن الملوك، كان زاهيًا بقدر ما كان داميًا، فالجالسون على العرش والمطالبون بهذا العرش كانوا أكثر من أن تتسع لهم رقعة الأرض. وبرغم أن الدولة الأموية لم تكف عن الاتساع، فإن الخارجين عليها لم يكفوا عن التزايد ولم يقف صراع الملوك حتى بعد أن سقطت الدولة الأموية وبزغت من تحت أنقاضها الدولة العباسية، وبرر الملوك في دهاليز القصور ما لم يجرؤوا على تبريره تحت شمس الصحراء الصريحة، ولم يكن من الممكن أن يثور الأخ ضد أخيه أو يستولي على زوجته وثروته أو يغدر بأخلص خلصائه، إلا في مثل هذا الزمن.

ولم يقف هذا الإحساس عند حد الملوك الذين اعتلوا العرش بالفعل، ولكن أحس كل عربي فجأة أنه ملك بلا تاج في مملكة مترامية الأطراف، يحمل رسالة القوة والمعرفة ويعبر بها الأرض من حدود الهند حتى جبال البرانس، واستمر ذلك الإحساس حتى بعد أن قسمت الأرض بفعل مصالح

الملوك المتضاربة، كان الإسلام هو الهوية التي تعبر كل الحدود، تمامًا كهوية الملوك.

كل منهم ملك بطريقته الخاصة، بل وجد من يعرض عليه العرش والتاج بالطريقة الخاصة نفسها، فعندما خرج ابن بطوطة في طريقه للحج من بلده «طنجة» بالمغرب، وعبر العالم الإسلامي المعروف في زمنه، لم يتوقف بعد موسم الحج، ولكن دفعه نهمه للمعرفة إلى مواصلة الرحيل، حتى وجد نفسه في إحدى جزر إندونيسيا ـ وسواء كانت الرواية صحيحة أم لا ـ فقد أحاطه سكان هذه الجزيرة بالتبجيل. كانوا قد دخلوا الإسلام حديثًا، واعتنقوه بنوع من العفوية والهوس الفطري، وحين أدركوا أن ابن بطوطة ليس مسلمًا عاديًّا، وليس عربيًّا فقيهًا فقط، ولكنه أيضًا زار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، ارتفع تبجيلهم له إلى مرتبة القداسة، ولم يكن هنا أفضل من العرض الذي عرضوه عليه، أن يقتلوه ويدفنوه، ثم يبنوا فوق ضريحه مزارًا يحج إليه كل أهل الجزر تبركًا به وتيمنًا، وكانت دهشتهم كبيرة عندما رفض ابن بطوطة عرضهم المغري، فهو بشر سيموت على أي حال، ولكن إذا قتلوه فسيصبح رمزًا لا يموت أبدًا، واضطر ابن بطوطة للهرب منهم تحت جنح الظلام، فقد كان يؤمن في قرارة نفسه، أن متشردًا حيًّا أفضل بكثير من ملك ميت.

لم يكن زمن الملوك قصيرًا، ولكنه كان زمن الكمال الذي يشوبه النقصان.

لقد أكل الملوك الأرض، وقسموها وتصارعوا على الفتات، وأدخلوا السوس الذي نخر عظام الزمان العربي الخالص، وفتحوا الباب لزمن جديد هو زمن «الجلبان».

تسلل هؤلاء كمرض غريب، جند مرتزقة من الترك والديلم، ومماليك جلبهم النخاسون من بلاد ما وراء النهرين، وعبيد ثائرون سئموا من حمل سبخ الأرض، وجوارٍ وغانيات، كلهم أخذوا نصيبهم الذي لا يستحقونه من تركة الملوك الضائعة، وبعد أن كان في الأرض خليفة واحد أصبح هناك عشرات الخلفاء، ومئات المطالبين بالخلافة وآلاف الطامعين فيها، ولم يجلب الجلبان سوى الخذلان.

وبرغم أن كل موجة من موجات «الجلبان» كان تمنح الدولة العربية عشرات من السنين الإضافية من عمرها، فإنها أحدثت اختلالًا في الزمن العربي، أجهضت تطوره، واغتالت راياته، وأصابته بالمرض والانحلال، خاصة أمراض الفتن والصراعات التي يخرج الجميع منها مغلوبًا ومنهزمًا. وسرعان ما انتشر مرض الجلبان على وجه الدول كالطفح الجلدي، وتحول الخليفة الذي كان يقف صائحًا في السحابة العابرة: أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك، إلى أسير داخل قصره ووسط مدينته لا يملك من الخلافة إلا اسمها ويتلقى من سلطان الجلبان راتبًا شهريًّا إتاوة الخضوع والموافقة.

هجمت على بغداد أمواج الترك والديلم والسلاجقة والبوهيين؛ فتملكوا وتصارعوا وأذلوا الرقاب حتى أسلموا بغداد طائعة للمغول، وأعتقت مصر رقاب المماليك فلم يعتقوا لها رقبة، وملكوا مصر والشام وباعوها بلا ثمن للعثمانيين، واقتحم الصقالبة والبربر الأندلس وفتتوا حلمه الزاهي حتى استرده الفرنجة.

ولم يكتفِ سلطان الجلبان بالحكم، لم يتملك الجنود والقلاع والسجون فقط، ولكنه هبط إلى الأسواق والوكالات، واستغل سلطته

في غش المنافسين والتدليس عليهم وأكل مال التجار، وأصبح السلطان يجلس في السوق لمحاسبة تجار القوافل بالدانق كما كان يفعل السلطان الغوري، وبعد أن انتهت المعارك الضخمة ضد الصليبيين والمغول، لم يعد أحد منهم يجاهد إلا ضد الناس الذين يحكم عليهم قبضته بالفعل.

عندما كان «الأشرف قايتباي» سلطانًا على مصر، أصبحت مدينة غرناطة، آخر مدن الأندلس، محاصرة وعلى وشك السقوط في أيدي الفرنجة، وأرسل ملكها «أبو عبد الله الصغير» يستنجد بالسلطان حتى يرسل له جيشًا ينقذه وينقذ شرف الإسلام، ولكن تصرف السلطان المملوكي كان غريبًا، فقد اتجه إلى الناحية الأخرى من العالم، إلى بر الشام، وهجم على التجار النصارى فصادر أموالهم، وهاجم الكنائس والأديرة وأخرج منها القساوسة والرهبان، وأمرهم أن يذهبوا جميعًا لملك الفرنجة يساومونه على فك الحصار عن غرناطة مقابل الإفراج عن هذه الأموال. تصرف جلباني بمعنى الكلمة؛ لأن التجار القساوسة الذين سافروا لم يفكروا حتى في هذا العرض الغريب وسقطت غرناطة لأن المدن لا تقايض.

كان من الطبيعي، إذن، أن يأتي زمن «الخصيان»؛ زمننا الممتد، أن تنطفئ المنارات، ويمتلئ الجسد العربي بالثقوب، ويدخل سليم العثماني القاهرة، وبعده نابليون، وبعدهما كل الأصناف من قادة الصليب الذين كنا نعتقد أننا دحرناهم على شواطئ عكا، بل إن عكا نفسها تضيع ومعها بقية المدن، وأن يخيم ليل طويل فوق الأروقة والخانات والتكايا، وأن تتشابه أيام هذا الزمن الخانق، ويصبح الأمس واليوم والغد لحظة طويلة مرهقة ومملة، ويبدو واضحًا أن الطبري قد أصاب في حساباته إلى حد كبير، فالزمن العربي «محلك سر»، والفعل العربي هو رد فعل متواضع لكل ما يمور من حوله من أحداث إن لم يكن عجزًا مقيمًا.

إنه زمن مليء باليأس حقًّا ولكنه لا يخلو من الأمل. كان هناك رجال حالمون، وكانت هناك انتفاضات ذبيحة، و هناك رغبة تواقة للتغيير، وثورات كامنة تحت الرماد، وما زلنا في انتظار زمن عربي جديد، ومخاض جديد، وولادة جديدة.



تعلق «لقمان بن عاد» بأستار الكعبة وتمنى:

ـ اللهم يارب البحار الخضر.. والأرض ذات النبت بعد القطر.. امنحني عمرًا فوق كل عمر.

كانت أمنيته صعبة المنال ولكن ابتهالاته بالغة الحرارة. كان قد جاء من اليمن عابرًا الصحراء، ورأى الجبال باقية والإنسان راحلًا، فتمنى بقاء كبقاء الجبال، وظل يردد هذه الابتهالات وهو يبكي.

نام مؤرقًا واستيقظ مفزوعًا، أصوات غريبة تملأ الفضاء من حوله، تنبعث من خلال السحب ورؤوس الجبال:

ـ يا لقمان بن عاد، أما الخلود فلا سبيل إليه، ولكن لك طول البقاء. اختر عمرك، إما بقاء سبع بقرات عفر في جبل وعر، وإما بقاء سبع نوايات تمر مستودعات في صخر لا يمسهن ندى ولا قطر، وإما بقاء سبعة نسور كلما هلك نسر أعقبه نسر.

ولبث لقمان حائرًا، بقر ونوى ونسور، فأين للبقر الحياة والمرعى وسط الجبال الوعرة؟ وكيف ينبت النوى برغم صلادة الصخر؟ لم تبقَ إذن إلا النسور، حرة طليقة تملك الفضاء، هتف في حرارة:



ـ قد اخترت النسور، اخترت أعماري.

خاطبته الأصوات مرة أخرى، أحس بها تسري في عروقه قبل أن يسمعها بأذنيه:

ـ يا لقمان بن عاد، المغرور ببقاء النسور، ها هو عمرك الأول قد بدأ فاصعد الجبل.

أسرع ملهوفًا يتسلق الصخور الصلدة، منذ الآن لن يكف عن التسلق، ارتبط عمره بالقمم السامقة حيث تعيش النسور، كلما أضناه عمر مضى، تاقت روحه إلى سنوات أخرى لم تعش بعد.

كان عش النسور في موقعه الشاهق فيه بيضتان، لم يفقسا إلا في لحظة وصوله، كأنهما كانا في انتظاره، أطل منهما فرخان صغيران؛ الأكبر رأسًا منهما هو الذكر وهو الأقوى والأطول عمرًا، مد يده وأمسكه في قبضته، كأنه يمسك قدره، هتف به:

ـ أنت النسر المصون، الباقي بعد الحصون، الحامي من غدر الدهر الخؤون.

وعقد في رجله رباطًا ليعرفه به، ثم بدأ رحلته عائدًا إلى اليمن.

كان لقمان قويًا، فيه بعضٌ من صلادة الجبال ووعورة الصخور، وعندما بدأ الزمان يتراجع أمامه تحول إلى كائن أسطوري، كان واحدًا من القلائل الذين نجوا من قوم «عاد»، ولكن السماء لم تعطِ أحدًا كما أعطته، وسوف تدين له اليمن بالطاعة من أجل ذلك.

لم يكن النسر يفارقه، يطير دائما حول رأسه، و يرتاح على كتفه، ولا يأكل إلا من يديه، وكانت قبيلته من «حمير» واقفة في استقباله، فالأخبار تنتقل في الصحراء مع هبوب العواصف، أعطوه الولاء الذي يستحقه والسيادة التي يطمح إليها، ونما النسر، واستطال ريشه وقويت أجنحته،

وأصبح يغيب في السموات البعيدة، ولكنه كان يدرك أنه مرتبط بهذا الرجل، يعود ليأكل من يديه، أو لينام على قمة بيته.

وفي يوم موعود تجمعت القبائل اليمنية بين يدي لقمان، كانوا قد قرروا أن يعترفوا به ملكًا عليهم جميعًا، وعرضوا عليه تاج «تبع» ملك ملوك اليمن، توقف الرجال مبهورين وهم يرونه يمد يده بقطع اللحم النيئ، والنسر يهبط من السماء ليبتلعها ثم يعاود التحليق من جديد، ولكنه في المرة الأخيرة ابتلع قطعتين بدلًا من قطعة واحدة. احتقن رأسه وجحظت عيناه، وفي نوبة من الفزع طار في الفضاء ودار عدة دورات سريعة وهو يخفق بجناحيه في عنف. صرخ لقمان يأمره بالنزول، ولكن النسر صرخ في صوت متحشرج ثم هوى مرة واحدة، وأسرع لقمان إليه متأخرًا، اختلج جسد النسر لثوانٍ ثم سكن وتراخت أجنحته.

انسحبت وفود القبائل، وحل صمت الجبال مطبقًا، وهبت ريح عنيفة فأطاحت بالتاج الذي لم يتوج به، وغاصت أصابع لقمان في الرمال تحفر قبرًا لأول النسور، ولأول السنوات الضائعة.

وفي نفس الليلة، أحس بالأصوات تسري في عروقه:

ـ يا لقمان بن عاد، المغرور ببقاء النسور، دونك البدل، فوق رأس الجبل.

رحلة الصعود الثانية، بقلب أصبح مثقلًا بالمخاوف، من المحزن أن تأكل المصادفات غير المتوقعة العمر بلا ثمن، كان العش في انتظاره، والفرخ قد قفز خارج بيضته، يبدو ضائعًا مثله، أمسكه وعقد في رجليه الرباط وانتظر حتى الصباح دون نوم وأخذ يتمتم كأنه يتلو تعويذة:

ـ أنت العوض المبرأ من تلف المرض.

واستيقظت اليمن في الصباح على لقمان وهو يحمل نسره الجديد.

وعندما بدأ النسر ينمو أحس لقمان أن هذا تجسيدٌ لقوته، لم يعد يغامر به أو يسمح له بالطيران بعيدًا، أخذ يقص ريشه باستمرار، وبرغم نمو النسر وكبر حجمه، فلم تكن مقدرته على الطيران تتجاوز الشجرة الصغيرة التي كان لقمان يجلس تحتها، وظل النسر يرقب الفضاء الواسع في عجز، ويتأمل لقمان في خضوع.

كان وجه لقمان خاليًا تقريبًا من التجاعيد، تركها كلها ترتسم على أجساد النسور، وعندما صاح به قومه: هيا بنا إلى الغزو يا لقمان، قادهم بتهور، غير آبه بطعنات السيوف ولا وخز الرماح، أصبح رفاق شبابه شيوخًا رحل منهم من رحل، وأصاب العجز من بقي، واحتل مكانهم جيل جديد ليست لهم خبرته ولا جسارته فأضاف هذا مزيدًا من الرهبة عليه.

وفي إحدى المرات التي كان جالسًا يمارس حكمه تحت الشجرة، كان النسر في أعلى وقد بلغت به حالة العجز عن الطيران حد الكآبة، لم يدرِ لقمان كيف فات عليه ميعاد إطعامه، وحين مد يده إليه، أقبل النسر ملهوفًا، لم يفطن للغصن الضعيف الذي يقف عليه، انكسر في لحظة، وسقط النسر على الأرض في صوت مكتوم، وحين هرع لقمان إليه، وجده قد فارق الحياة فصرخ في ألم.

- يا للمصادفات التعيسة.

لم يدرِ أن معظم أنواع الموت هي مصادفات تعيسة.

صعودًا في الليل، حيث تتوالد الأعمار في رحم الظلمة، العمر الواحد يعني أملًا واحدًا، ولكن هذه الأعمار المتعددة هي أيضًا خيبات أمل متعددة، صعودًا لاهثًا إلى أعلى القمم، الفرخ الصغير في انتظاره، بأي مصادفة ستموت هذه المرة؟

ولكن لقمان حين أمسكه وعقد الرباط في رجله أحس برعشة، فلم

يدرِ أهي برودة الجبال، أم دبيب السنوات الجديدة تسري في عروقه. الفرخ دافئ، ناعم الزغب، لن يطير ولن يبتعد، ولن يتعرض للمخاطرة أو للمصادفات التعيسة، سيصنع له بيتًا آمنًا لا يمنع عنه الهواء ولا الضوء.

في صباح اليوم التالي أخذ لقمان يشذب غصون الشجر، يشد الغصن إلى الغصن حتى صنع منه قفصًا محكمًا، أحاط بالفرخ المذعور كقبضة اليد، خرج إلى الناس وهو يحمل رمز عمره الجديد، وبدأ يغير هذا القفص كل عام كلما نما الطائر صنع له قفصًا أكبر.

أخيرًا أحس بالأمان، ماتت امرأته العجوز فتزوج أخرى أكثر شبابًا، كانت لا تتطلع نحوه إلا بمزيد من الانبهار، بعكس النسر الذي كان يرقبه بكراهية مكبوتة، لا يملك إلا أن يلطم القفص بأجنحته طوال الليل حتى يدميها، ثم يبقى بعدها عاجزًا عن الحركة لأيام، ولكن لقمان كان ينتصر في كل المعارك التي يخوضها، ويؤكد لحمير ولقبائل العرب أن الموت أعجز عن أن يمد أظافره نحوه. مات آخر الأصدقاء وآخر الخلان، وكان الأصدقاء الجدد أقل عمرًا وأقل خبرة، وكان هذا يعطيه إحساسًا غريبًا بالتفرد أحيانًا، وبالوحدة في أحايين أخرى، ولكن الذي ملأه زهوًا هو انتشار صيته في كل قبائل العرب، و قصائد الشعراء لا تكف عن الاستشهاد بانتصاره على الزمن.

وعندما حان موعد موسم عكاظ حمل القفص على ظهر ناقته، سار إلى مكة، وكان وصوله حدثًا كبيرًا. خلت الأسواق فجأة من البائعين والشارين واللصوص، تجمعت الوفود من حوله، ووقف هو يحكي لرؤساء القبائل وفطاحل الشعراء تجربته المتجددة مع الزمن، لم يحس بحلقة الناس وهي تضيق من حوله، كل واحد يريد أن يرى النسر عن قرب، أو يلمس ريشه، والنسر ينظر إليهم في غضب وكراهية، وظلت الحلقة تضيق حتى أحس لقمان فجأة بالهواء يمتنع، والأصوات تعلو في هدير متصل والأيدي تمتد كالسهام، صرخ:

ـ ابتعدوا، أنتم تخنقوننا، تمنعون عنا الهواء.

ولكن دائرتهم الضخمة لم تتزحزح، حجبت الضوء أيضًا، صرخ الطائر، حرك أجنحته فأمسكوها، نزعت كل يد منها ريشة للتذكار. دار لقمان كالمجنون يدفعهم بعيدًا، تكسرت غصون القفص، ولكن النسر ظل عاجزًا، يبحث عبثًا عن نسمة من الهواء، يبحث عن مخبأ بعيدًا عن الأصابع التي تندس في لحمه.

ثم هدأت الضجة، مثلما تهدأ فجأة بعد كل كارثة، ولم يعد يدوي في عكاظ غير صوت ريح الصحراء، صاح لقمان بن عاد في حسرة:

ـ قتلتم نسري وأضعتم عمري.

كان يتهمهم وهو يعرف في قرارة نفسه، أنه هو الذي سعى به إليهم.

بدأ حياته مع النسر الرابع بطريقة عادية، كان يدرك أن الحزن المتكرر هو شيخوخة مبكرة، عرف حكمة الأيام، وباح له الدهر بسره، وسعت كل القبائل إليه من أجل المعرفة، ولكن كان ما زال عليه أن يتعلم الكثير من يهود بني «كركر».

كانت قبيلة غريبة تسكن في شمال اليمن، يسري في عروقها مزيج من الغضب والفتنة والشقاق، حاربوا كل ما حولهم من قبائل، ثم حاربوا أنفسهم وبغوا وخانوا ونقضوا العهود، كأن هناك حشرات الشقاق الغريبة تسعى في خيامهم، تمنع عنهم الراحة والإحساس بالأمان، كتلة كابوسية سوداء رابضة فوق الرمل الأصفر متأهبة دومًا لحرب ضارية، أو فتنة قادمة.

ولأنه لم يكن من الممكن السكوت عليهم طويلًا فقد تألبت القبائل ضدهم، كان الحل الوحيد هو أن يبيدوهم ويتخلصوا منهم. أحس «بنو كركر» بالفزع، حاولوا بطرقهم الملتوية الإيقاع بين القبائل ولكنهم فشلوا، أرسلوا نساءهم الفاتنات لإغواء شيوخ القبائل، ولكن هذا الحل أيضًا لم

يجد شيئًا، ذهبوا إلى حكيمهم «يهودا» الذي كان عائدًا لتوه من سوق عكاظ، قال لهم:

ـ استجيروا بلقمان بن عاد، فإن أجاركم، أجارتكم قبائل حمير كلها.. وليس هناك من يقدر على حمير.

كان هذا هو أملهم الوحيد، أن يعلنوا توبتهم بين يديه، وأن يبدوا الندم على كل ما فعلوه، وهكذا هدموا خيامهم، وشدوا رحالهم، وساقوا قطعانهم، وساروا إليه في طوفان صارخ: أجرنا يا لقمان.

كان يطعم نسره الرابع وهم يشكون إليه هوان أمرهم والأخطار التي تحيق بهم، كانت وجوههم متشابهة، تشوبها صفرة من الفزع، ولكنه خلال هذه الوجوه الكئيبة رأى عينين تتطلعان إليه، تومض في داخله. كانت امرأة وكانت فاتنة الجمال، وبقدر الزمن الذي عاشه فلم يرَ مثل هذا السحر الذي يشع من وجهها، لم يكن يعلم أنه يوجد على جبال اليمن نجوم بهذا التألق، وكان شيوخ حمير يحذرونه دائمًا من بني كركر:

ـ لا تجرهم فهم أهل فتنة وشقاق.

لم يستمع إليهم وأجارهم، حدد المكان الذي سينزلون به، والأرض التي سيستخدمونها للرعي، وبينما هو يخط حدودهم بطرف رمحه وجد المرأة أمامه فهمس لها: أتتزوجينني؟ قالت: هذا ما جئت إليك من أجله.

كان اسمها «سوداء» أخذها وصعد بها إلى منزله في أعلى الجبل، أقرب ما تكون إلى نسره وإلى النجوم التي تتألق في عينيها، لم يكن صغيرًا في العمر ولكنه أحس بالغيرة من أن يراها أحد غيره، وكانت هي تتطلع إلى العمر الذي يتراكم على كاهله دون شيخوخة، ولم تملك إلا أن قالت في حسرة:

ـ سأتحول أنا إلى عجوز، وتبقى أنت كما أنت لتتزوج من امرأة أخرى.

كان يحبها حتى اعتقد أنه سيقاسمها أعمار النسور، قال:

ـ بل ستمتزج روحانا ويستطيل عُمْرَانا معًا.

ولكنهما كانا متباعدين، كل منهما ينتمي إلى عالم آخر وزمن مختلف، كانت تحلم بالسنوات القليلة المقبلة، لكنه كان يهذي بحكمة القرون الطويلة.

ولا بد أن جمال «سوداء» قد ازداد بعد الزواج، فقد رآها «الهمسيع» ابن سيد بني كركر، لم يفطن إلى وجودها بين نساء القبيلة إلا بعد أن اختارها لقمان، ولكنه عندما رآها ذات مرة وقد هبطت من بيتها العالي لتزور أهلها، صمم على أن ينالها. جمع شيوخ القبيلة ودهاتها وقال لهم بصراحة:

ـ أريد امرأة لقمان.

صاحوا في فزع: ماذا؟ إنه سيدنا، وحامينا، هو الذي أنقذنا من شر الإبادة.

قال في تصميم: إذا لم تساعدوني قتلته، وجعلت حمير هي التي تبيدكم من على وجه الأرض هذه المرة.

كانوا يعرفونه جيدًا، أكثرهم شرًّا وألأمهم نفسًا، ويعرفون أيضًا مدى اضطرام رغباته عندما يتوق إلى أشياء لا يستطيع امتلاكها، أزاح تهديد «الهمسيع» التراب عن كل الفتن التي حسبوا أنها ماتت فإذا بها تتلظى بداخلهم كالجمر، وبرغم أنهم انصرفوا من المجلس مترددين فإنهم حين عاودوا الاجتماع مرة أخرى كان كل واحد فيهم يحمل في داخله فكرة ما، اعترض بعضهم، ذكرهم بفضل لقمان عليهم، لكن معظمهم لم يبالِ، نزعوا ثوب الخمول واستيقظت داخل كل منهم أرواح قديمة قادرة على أن تدمر المعبد فوق رؤوس الجميع.

وعندما انتهوا من وضع ملامح المؤامرة تقافزوا في نشوة، أسرعوا إلى لقمان وهم يبكون:

ـ أنقذنا يا لقمان لقد حميتنا من شر الآخرين فاحمنا من شر أنفسنا.

نظر إليهم في دهشة، قالوا إنهم عندما كانوا يحاربون الآخرين، كانوا قوة واحدة ولكنهم الآن مهددون بالحرب فيما بينهم، وأكد شيخ كبير منهم:

ـ لقد جمعنا رماحنا وسيوفنا وجعلناها حزمة واحدة، احملها إلى بيتك واحفظها بعيدًا حتى نكون دائمًا عزلًا لا نقوى على القتال.

وكان هذا الاقتراح أدعى لزيادة اطمئنان لقمان، واطمئنان معارضيهم من حمير، من يصدق أن «بني كركر» في هذه المدة الوجيزة قد نبذوا القتال؟

كانت حزمة الرماح كبيرة ولم يكن هناك مكان آمن إلا بيته في أعلى الجبل، رفعوها جميعًا حتى أوصلوها إلى بابه، وكانت «سوداء» تتأمل هذا الحمل الثقيل في دهشة، وأدهشتها أكثر تلك الابتسامة الخبيثة التي رأتها على وجوه قومها وهم يؤكدون عليها أن تعتني جيدًا بهذه الكومة من الأسلحة.

وغاب لقمان عن بيته عدة ليالٍ، ثم عاد ذات مساء وهو يحمل نسره فوق يده، وعندما وقف على باب الكهف رآهما معًا على فراشه، كانت النار المتوهجة تنعكس على جسديهما العاريين، وحزمة السلاح مفكوكة، وكان «الهمسيع» يخور فوقها كثور وهي تحته تطلب المزيد. دون أن يدري كان لقمان يضغط بيده، شيء حي ينتفض بين أصابعه، قاوم قليلا قبل أن يسكن في يده. تجمدت المرأة في رعب، وقفز الهمسيع محاولًا أن يغطي جسده، لم يكن لهما مهرب. كان لقمان يسد بجسده فتحة الخروج، وصرخت

المرأة فرفعها وألقاها على الجدران الصخرية، وأمسك الرجل وأعاده إلى حيث جاء، إلى حزمة الأسلحة، ربطها بإحكام ثم رفعها وألقاها بأقصى قوته من أعلى مكان في الجبل، ولكنه كان قد فقد الكثير.

لم يعد الغضب كافيًا، ولا الانتقام شافيًا، وكان «بنو كركر» يرتعدون كعادتهم في لحظة الضعف، بكوا وتوسلوا وأقسموا كثيرًا: لم نكن نعلم، لقد خدعنا. كان لقمان يعرف أنهم يكذبون، ولكنه لم يكن يريد المزيد من سفك الدماء، طلب منهم أن يرحلوا، أن يحلوا خيامهم حتى لا يبقى خلفهم أي أثر يذكره بتلك التجربة المريرة.

وعندما نظر إلى صفحة الماء رأى علامات الشيخوخة واضحة على وجهه، كأنه جبل صلد قد تشققت صخوره، فكر معزيًا نفسه: إنني ما أزال على منتصف عمري الموعود، باقٍ من النسور ثلاثة، ولكنه كان يدرك أن كل نسر من النسور الأربعة الماضية أخذ شيئًا من هدوء نفسه واستقرار روحه.

دفن النسر وتركهم يدفنون المرأة، هجر البيت وعاد إلى قومه من أهل حمير، ظل ساهرًا للفجر حتى جاءته الأصوات:

- يا لقمان المغرور ببقاء النسور، لك في الجبل الأيسر بين منبت الشت والعرعر، فأخرجه واستبشر، فبطاعتك قد أمر، وإلى الموت يسير البشر.

صعد الجبل الأيسر، زادت الصعوبة وأصبح لهاثه ثقيلًا، الفرخ الصغير يطل عليه، لم تعد هناك براءة في الاكتشاف، أنت المسير الباقي بقاء الدهر، أمنيات، وكم خدعته الأمنيات وهبط إلى حمير وهو يحمل عمره الجديد على يديه.

للمرة الخامسة يبدأ من جديد، أقنع نفسه أنه ما زال قويًّا فقاد قومه إلى غزوات جديدة ضد قبائل ضعيفة، تزوج امرأة غير جميلة، وبنى بيتًا

في مكان عالٍ، ولم يدخل فيه رمحًا واحدًا، وسقطت على اليمن أمطار كثيرة، تحولت إلى سيول جرفت أمامها الكثير من الذكريات.غابت في القبور وجوه كثيرة وخرج من الأرحام خلق جديد وكلهم عاشوا في ظل أسطورته، والنسر الذي لا يكف عن الحومان فوق رؤوسهم كان يكبر دون أن يعكر صفوه حادث؛ ربما لأن لقمان هذه المرة لم يأخذ أي نوع من الحيطة، ولأول مرة يرى لقمان نسره وقد أصابه الهرم. تساقط ريشه وأصبح عاجزًا عن الطيران، وبدأ الزمان يمر ببطء قاتل، كان يصيح حتى يأتي لقمان إليه ويصعد به إلى إحدى القمم العالية، يجلسان معًا تحت السماء ساكنين، يريان العصافير والطيور الصغيرة وهي تحلق وتجوب السموات والنسر عاجز في مكانه.

وذات يوم تحرك النسر من تلقاء نفسه، اعتقد لقمان ساخرًا أنه سيحاول الطيران مرة أخرى، ولكن النسر سار إلى حافة الجبل. حاول لقمان أن يلحق به ولكن النسر كان أسرع منه، ألقى بنفسه من فوق الحافة العالية. صرخ لقمان، هبط مسرعًا ولكن الصخور الحادة كانت قد مزقت جسده.

لم يأتِ أحد لتعزيته، ولم يأبه أحد بمصابه، سواء كان النسر قد مات أو انتحر فالسنوات طويلة، والأجيال التي جاءت لم تعد تدهشها هذه الخوارق غير المبررة، ما جدوى أن يعيش فرد واحد كل هذه السنوات مهما كانت قيمة حياته؟ ولكن لقمان كان لا يزال يسعى، وعندما صعد ليجد نسره السادس كان ما زال قادرًا على الحركة، ولكن لم يكن يعرف إن كانت اليمن تدين له بالولاء أم لا، لم يعد أحد يسمع حكاياته القديمة، أو يأبه بدرر الحكم التي يقولها، وعندما صحبهم للغزو ظل واقفًا في المؤخرة، لم تعد يده تقوى على مسك سيف أو حمل رمح.

وعاش النسر السادس طويلًا، تساقط ريشه وتغضن بدنه، وانزوى في كهف بعيد، وظل لقمان يبحث عنه حتى وجده ميتًا وقد قارب على التعفن، وظلت الأصوات تلح عليه لكي يصعد إلى نسره السابع، ولكن سمعه قد أصبح ثقيلًا فلم يعرف أين يوجد الفرخ الجديد بالضبط حتى ألحت الأصوات عليه من جديد وصعد الجبل في مدة أطول بكثير مما كان يصعد في السابق، ووجد فرخًا كبير الرأس مستدير العينين فهتف به: أنت لبد الباقي المخلد إلى الأبد، وهبط به. وجوه غريبة لا تعرفه، ولا تأبه به، أصبحت القبائل غير القبائل، واليمن غير اليمن، حاول الزواج مرة أخرى، ولكن لم توافق عليه امرأة واحدة، كانوا جميعًا قد هجروا سكن الكهوف وبنوا البيوت والمدن، وأصبح هو وحيدًا مثل طلل قديم، لا أحد يشاركه طعامه، ولا أحاديثه ولا أحلامه، والنسر يطير فوق رأسه، يخبره دومًا أنه يملك عمرًا لم يعد في حاجة إليه، وعندما هبط إلى السوق ذات يوم رأى موكبًا ضخمًا في وسطه شاب على رأسه تاج من الذهب الخالص، تساءل: من هذا؟ فقال له أحدهم: هذا ملك اليمن، وصاح لقمان في استنكار: ولكن أنا ملك اليمن، فانفجر الموجودون جميعًا بالضحك، وضعوا على كتفيه عباءة قديمة، وعلى رأسه قشرة بطيخ، وأخذوا يشيرون إليه في سخرية: هذا هو ملك اليمن، وأسرع لقمان يغادر السوق ويصعد إلى الجبل، لعله يختفي أو ينسى.

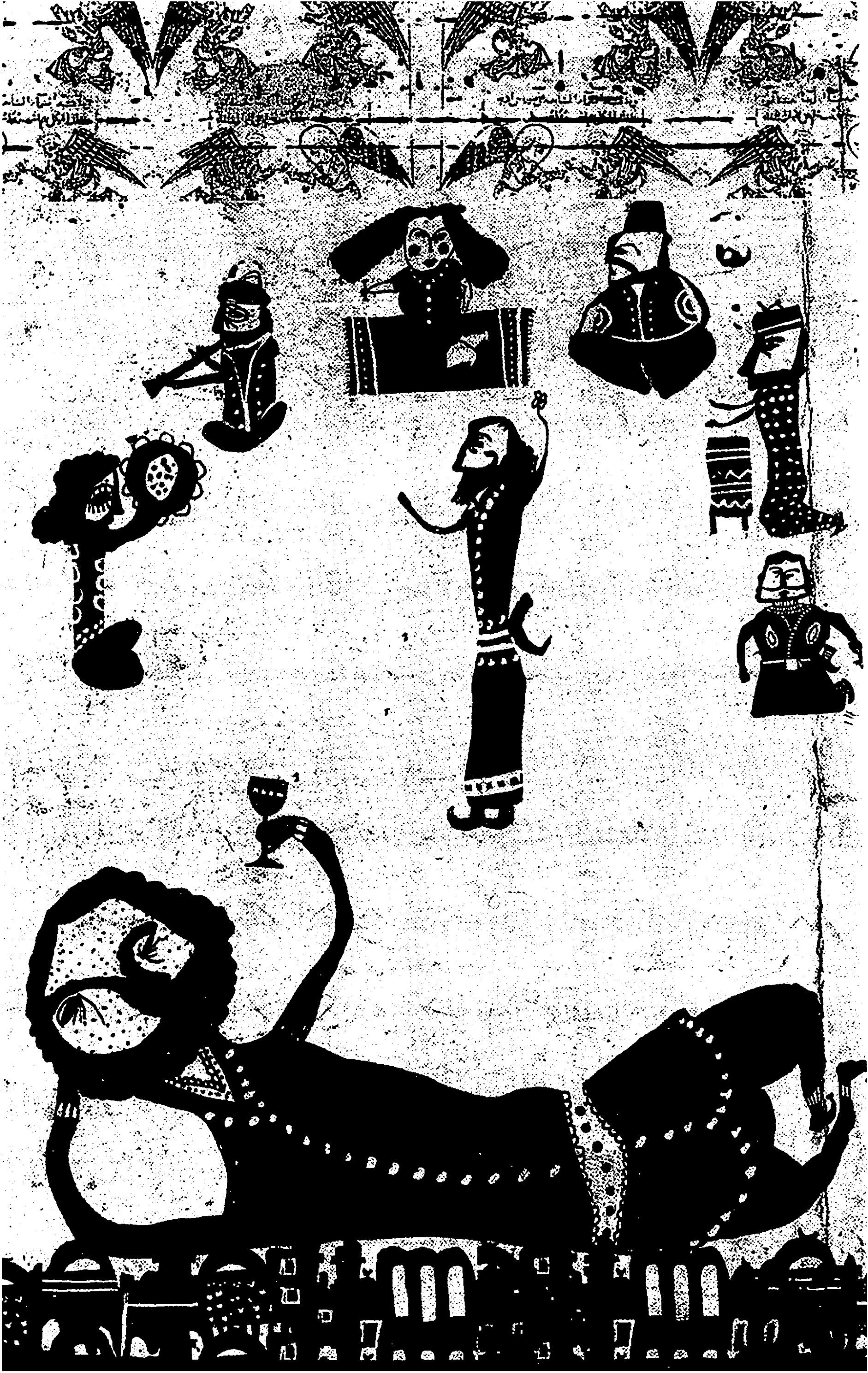
وظل جالسًا وحيدًا. جاء النسر وربض بجانبه، أخذا يطلان معًا على المدينة البعيدة والأقوام العديدين، انقطع حبل التواصل وأصبح الزمان غير الزمان، تحسس ريش النسر الذي يوشك على التساقط، كما أصبح عليلًا متعبًا مثله، كيف تحمل كل هذه السنوات والتجارب؟ كل تجعيدة هي حفرة من ألم. إلى متى يمتد هذا العمر بلا فائدة، إلى متى؟ كانت

أصابعه تلتف حول عنق النسر، والنسر مستكين، مستسلم وراضٍ. الشمس تغرب كأنها تختنق أيضًا، الوداع أيتها الشمس الغريبة، ضغط، الوداع أيتها البيوت الحجرية التي أنكرته، ضغط، تبدل الزمان، ولا يوجد من يأخذ أكثر من قدره، لم يصرخ النسر، وظل هو يواصل الضغط.



ذات مرة كانت هناك مدينة لم يبنها أحد، ولم تنسب لأحد، وعندما اندثرت لم يبقَ منها على الرمال من أثر. كانت هذه مدينتي، وكان اسمها «الحيرة»، وكانت شيئًا ما، بين النزوة والكابوس، بقعة من ضوء الشمس وعذوبة النهر وقطرة من دم شاعر، وحلم نورس ضائع، ولم أكن متأكدًا أهي مدينة، أم مجرد حلم عابر؟

على سورها أخذت العرافة يدي، وجرحت أصبعي، وقالت: انتظر، فلم أنتظر. كان الملك النعمان يبني قصره «الخورنق» وجاء مهندسه «سنمار» فقسم الأرض وحاصر الأنهار المتفرعة في المدينة كأصابع اليد، ثم رص الأحجار فوق بعضها البعض؛ أقام أولًا السجون والأقبية وغرف التعذيب، ثم سوى الأرض، وزرع النباتات الاستوائية الزاهية الألوان كحلم دافئ، ثم بني ثكنات الحرس ومخازن السيوف والدروع، وبنى الجناح الشتوي ووضع ندف الثلج على النوافذ، وبنى الجناح الصيفي وأجرى النهر على عتباته، ثم بنى قاعة العرش وأحاطها بالدهاليز والأبواب الواطئة لتدخل منه كل الوفود وهي منحنية، وكان على الملك النعمان أن يدخل قبل الجميع حتى لا ينحني أمام أحد، ثم ذهب « سنمار» إلى الملك وقال له في خبث طفولي: هناك سر خفي في هذا القصر يا مولاي. قال له الملك بود شديد:



وما هو هذا السر يا سنمار؟ سارا معًا إلى السور الشاهق، أشار «سنمار» إلى أحد الأحجار وهو يقول: هذا الحجر يا مولاي هو محور القصر إذا نزع من مكانه انهارت كل أحجار القصر. وأبدى النعمان دهشته من براعة مهندسه، ووعده أن يكتم السر ثم دفعه بحركة رشيقة ليهوي محطمًا من فوق السور ويبقى سر القصر محفوظًا، من هذه البداية الهزلية، بدأت رحلتي إلى الحيرة.

حكت العرافة أصابعي الدامية في الرمل وقالت: انتظر، فلم أنتظر، وأقبل الشعراء في نفس الميعاد ووقفوا بباب الملك. ستة وعشرون ملكًا توالوا على هذه المدينة، ولم يعرف عدد الشعراء الذين رحلوا إليها وكيف انبثقت أمامهم وسط الصحراء فرأوا فيها السراب والملاذ والحلم، فوحدوا ملوكها في ملك واحد هو الملك النعمان؛ به تبدأ وإليه تنتهي.

كل واحد رآها كما لم يرها الآخر، وعندما عادوا إلى قبائلهم، أعني هؤلاء الذين استطاعوا أن يعودوا، وصفوها بطريقة مختلفة، شكلوا من أحلامهم ألوان بيوتها، ومسرى الأنهر في شوارعها، وهمس العشق في مغانيها وقالوا: يوم في الحيرة خير من ترياق النطاسين. ونظرًا إلى طيب هوائها ونقائها لم يمت فيها من الملوك الستة والعشرين إلا ملك واحد، والباقون ماتوا في رحلات الصيد والغزو، ولكن الشعراء كانوا طيور الحيرة المهاجرة، حلموا بها دون أمل، وماتوا فيها بلا ثمن، ومنذ أن نادتهم وهم يسعون إليها دون أن يسأل أحدهم نفسه: من الذي بنى ذلك الفخ البالغ الجمال؟!

أهو ـ أرخيا ـ الساحر الذي طرده قومه فلجأ إلى هذا المكان وبنى المدينة على حافة النهر، ووضع طلسما على بواباتها بحيث إن من دخلها لا ينساها؟ فالنهر فيها أعذب من كل الأنهار، والنساء أجمل النساء، والنائم فيها لا تقترب من الكوابيس أحلامه، هل هذا هو سر سحرها الآسر، أم إن الذي بناها هو الملك «بختنصر» ملك آشور عندما هاجم القبائل

العربية التي تسكن في جنوب العراق ونكل بهم، وكان الأسرى أكبر من أن ينقلهم إلى مدينته فوضعهم في هذا المكان وأقام حولهم حصنًا على رأسه الحراس، ومرت الأيام فاختلط الأسرى بالمأسورين، وتحول السجن إلى موطن دائم، ولكن بقي في أعماق كل واحد منهم إحساسه بالأسر، أم إن المدينة كانت ثمرة التيه في الصحراء عندما خرج «أرديشير» أحد ملوك الفرس قاصدًا بلاد اليمن، وكان عالمًا بالطرق والمسالك وظل يسير حتى وصل إلى هذه البقعة فاختلط عليه كل شيء؛ ضاعت الطرق وغارت النجوم وتشابهت الجبال، فتحيرت روحه، ولم يعرف إلى أين يمضي ولا أي طرق يسلك، فبقي في مكانه، وبنى بيتًا وحول أتباعه الذين استقروا معه وحولوا البيت إلى مدينة؟ أيًّا كان الأمر، وسواء كانت المدينة سحرًا أو سجنًا أو تيهًا في الصحراء، وسواء اشترك في بنائها السحرة أو الأسرى أو الملوك، فقد كانت مدينة غريبة بناها كل الذين زاروها، ووضع فيها كل واحد شيئًا من ذات نفسه، فجاءت كشذرات من أرواح الجميع.

ثم جاء الملك النعمان، سوف نختصر فيه كل الملوك لأنه الوجه الآخر للمدينة، جاء والحيرة بلا ملك، وفيها ـ عدي بن زيد ـ كاتب كسرى ومستشاره، ولو شاء لأصبح ملك الحيرة، ولحمله الناس على الأعناق، ولكنه كان زاهدًا في الملك محبًّا لنزوات الحياة البسيطة، ووقع اختياره على النعمان ليصير ملكًا، وعندما سار أولاد المنذر ابن ماء السماء إلى المدائن ليختار منهم كسرى الملك، قال لهم عدي: إذا دخلتم على كسرى فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها وإذا دعا لكم بالطعام فتباطئوا في الأكل وصغروا اللقم، فإذا قال لكم: أتكفونني العرب؟ فقولوا: نعم.. ولكن بعضنا لا يقدر على بعض، ليهابكم ويعلم أن للعرب منعة وبأسًا، ولكنه انتحى بالنعمان جانبًا وقال له قولًا مختلفًا.

دخل الإخوة جميعًا في أبهى ملابسهم على كسرى إلا النعمان بوجهه

الدميم الأبرش وشعره المتوهج، دخل بثياب السفر يعلوها الغبار متقلدًا سيفه، وعندما دعاهم كسرى إلى الطعام، أكلوا ببطء وصغروا اللقم. أما النعمان فعظم في اللقم وأسرع المضغ والبلع، كان قد تحوط قبلها وجاع طوال اليوم، فلما غسلوا أيديهم استدعاهم كسرى رجلًا، رجلًا وهو يسأله: أتكفيني العرب؟ فيرد عليه: نعم، إلا إخوتي، حتى انتهى إلى آخرهم النعمان فسأله: أتكفينى العرب؟ قال في ثقة: نعم. قال: كيف لي بإخوتك؟ قال في ثقة وقوة: إن عجزت عنهم فإني عن غيرهم أعجز، وبدا واضحًا أنه لا مجال للمقارنة، وتمت المكيدة كما أرادها عدي، كان كسرى يحب العربي كما يتصوره، قويًّا وبدائيًّا وخشنًا ولا صديق له، وهكذا لبس النعمان تاجًا مرصعًا باللؤلؤ وعاد إلى الحيرة ملكًا، وظل عدي بن زيد بجانبه، ناصحًا ومشيرًا.

ولكن الجميع اختصروا أيام النعمان في يومين: يوم للبؤس، ويوم للنعيم.

كان له نديمان «خالد بن المضلل» و«عمرو بن مسعود»، كانا لا يغادران مجلسه، يمزجان خمرته بالماء، وفي الصيد يمسكان الغزالة ليرشقها بسهمه، وينامان أمام باب غرفة نومه حتى يستيقظ، يبرران قسوته وطمعه أمام كل وفود القبائل، ويبرران عجزه أيضًا؛ عجزه في فراش زوجته «المتجردة». نديمان مثاليان لا يستطيع أي ملك أن يستغني عنهما، ولكن في ذات ليلة كان مزاج النعمان غريبًا، شرب الخمر صرفًا، وسمع طرفًا من شائعة تقول إن شاعرًا خليعًا من الصحراء يشارك زوجته فراشها، ولكنه حين اقتحم مخدعها لم يجد له أي أثر. واصل الشرب وهو يلعن كل قبائل العرب والفرس والروم، ورافقه النديمان كأسًا بكأس، ولعنا معه كل نساء الأرض، ثم بدأ النعمان يقول الشعر، وكان الشراب قد أثقل رأسي النديمين، سأل النديم الأول «ابن المضل» عن رأيه في شعره فقال في صوت حاسم:

ـ لم أسمع شعرًا أردأ من هذا قط.

وفتح الملك فمه مندهشًا والتفت إلى النديم الثاني «ابن مسعود» الذي قال:

ـ للملك العرش، وللشاعر الكلمة، فما شأنك بالشعر يا مولاي؟

وصرخ الملك: خيانة.. مؤامرة، طار الشراب المعتق من رأسه، استدعى الحرس وأمرهم أن يدفنوا نديميه وهما على قيد الحياة، ثم غرق في نوم عميق لم يفق منه إلا في الصباح وقد نسي كل ما حدث بالأمس. لم يجد النديميْن نائميْن على بابه كالعادة فأمر الحرس أن يستدعوهما، ولم يكن ذلك ممكنًا. كان عليه هو أن يسير إلى مكانهما، وجد جسديهما مدفونين في الأرض، لا يظهر منهما إلا الرأسان، عيونهما جاحظة وأفواههما فاغرة والذباب يكسو ملامحهما كقناع من السواد، تأملهما مندهشًا.. هو الذي فعل ذلك، أم إن هناك مؤامرة أخرى؟ وللوهلة الأولى أحس النعمان بالندم وبكى بدموع حقيقية، وأمر فبنوا على كل قبر نصبًا عاليًا، وأقسم أن يمر بينهما كل وفود العرب الداخلين إلى الحيرة، وجعل في العام يومين؛ يوم للنعيم.. من دخل الحيرة فيه قدم له مائة من النوق السود، ويوم للبؤس.. من دخل فيه ذبحه ولطخ بدمه النصبين.

دخل كل الشعراء إلى المدينة، ولم يبقَ إلا عبيد بن الأبرص جالسًا بجانب السور ملفوفًا في حرام من الصوف وبجانبه أخته ماوية، سأله الجميع: ألن تدخل الحيرة يا عبيد؟

همهم من بين أسنانه: لم يحن وقتي، لم يحن وقتي.

كانت ماوية نادرة الجمال، عينان كحلاوان واسعتان، وشعرها منسدل على الكتفين، يمتد ليصل إلى كعبيها. كان عبيد راعيًا فقيرًا لا يقول الشعر ولا يلعب بالسيف، كل ما يملكه عصا يهز بها على غنمه، وذات مرة عندما

كان يقودها للري، منعه سيد باهلة القوي من الاقتراب من أي بئر، ورفض أن يدعه يقوم بالرعي إلا بعد أن ينال أخته الجميلة، وكان عبيد أضعف من أن يقاوم، وأعز نفسًا من أن يقبل، ترك المرعى والغنم وهرب مع أخته في الظلام، ولكن كلما استجار بقبيلة ظهر لهم سيد يريد أن يسلبه أخته، لم يكن هناك أي سند للضعفاء في الصحراء، لم يكن أمامه إلا أن يدعو يائسًا كل الآلهة لتهبه القدرة على المقاومة. وذات ليلة نام في ظل شجرة، وفي لحظة كالحلم أو الوهم جاءت أطياف من جن عبقر ووضعت لقحة الشعر في فمه، ملأت داخله بوهج القوافي، وعندما نهض عبيد كان هو أشعر العرب، دق عصاه في الرمل وأدار ظهره عائدًا إلى قومه، وقف على التل الذي كان يرعى عليه الغنم ولكن ليرفع عقيرته بالشعر، أخذ يتفاخر بقومه الذين لم يتلقَّ منهم إلا كل سوء، وبفضل قصائده تحولت بنو أسد من قبيلة نكرة إلى قبيلة شريفة النسب والمحتد، وحمل الركبان شعره إلى كل مكان حتى وصل إلى الحيرة، إلى أذن الملك النعمان.

بدأت لعبة الشعراء، وفتح القصر أبوابه، ودخل عبيد تتبعه أخته. كان القصر مزدحمًا بكل أصناف المخلوقات، صهلت الخيول النافرة والحيوانات الجائعة، وجلس الملك على عرشه واصطف أمامه الوزراء وشيوخ القوافل وتجار البهار، وضيوف الشرف من الفرس وأسرى الروم، وعدة رهبان لا يتبعون أي ملة، وصاحبة أكبر ماخور في الحيرة، وكبير الكهان، وبعض نساء الأشراف جئن مع عبيدهن الخصوصيين وممثلون عن قطاع الطرق، ومنجمون من بابل، ويهود يتاجرون في السيوف المهربة، وبعض الرحل الذين كانوا يسعون للحج فتاهوا ونسوا، وبعض الرماة المهرة يقفون متحفزين فوق الأسوار، وكانت الشمس مثل ليمونة جافة حادة ومتجعدة، وأحس الشعراء باليتم الحقيقي، ونفخ في الأبواق تعلن عن بدء اللعبة، وصاح الملك النعمان: بدأت اللعبة، فركضت الخيول

الجامحة، وزأرت الوحوش، وتفرق الشعراء كورق الشجر، وجاءت «المتجردة» زوجة الملك، عارية ولكن جسدها مغطى بقطع الحلي الذهبية المطعمة بالأحجار الكريمة، تحدق في كل ما يجري بعيون واسعة، كأن اللعبة بأكملها تدور من أجل إثارتها.

تقدم عنترة بن شداد وهو مقيد بحبال مجدولة من ليف النخل، وكان الحراس يهوون على ظهره بالعصي، دفعوه حتى سقط تحت قدمي الملك، صرخ فيه غاضبًا:

- أيها العبد الآبق.. كيف تجاسرت على سرقة النوق الحمر من مراعينا؟

قال عنترة متألمًا:، يا مولاي، طاب صباحك، وأهلي فداؤك، كنت أريدها مهرا لمحبوبتي «عبلة».. طلب أبوها الذي هو عمي في الوقت نفسه مائة من النوق الحمر، وأصر على ذلك.

وضحك الملك متشفيًا: أيها العاشق الأحمق، أي امرأة في العالم لا تساوي ناقة واحدة.

وانهالت السياط على عنترة، كان شجاعًا ولكنه كان ساذجًا، ولم يفهم أصول اللعبة ولم يتصور أن أبا محبوبته لم يرد النوق بقدر ما أراد أن يلقي به للتهلكة، ولأن اليوم كان يوم النعيم فقد اكتفى الملك النعمان بذلك الضرب الموجع الذي تلقاه عنترة، ووهب له النوق الحمر التي يريدها، وطلب منه أن يعود نكاية في عمه «مالك» ويطلب منه أن يبر بوعده، وعندما عاد إلى بني عبس اجتمع حوله قومه وأخبروه باكين أن إحدى القبائل قد أغارت عليهم وأن زعيمهم قد اختطف عبلة، وسافر عنترة خلفها ليستردها ولكنه وجد أنها قد ذهبت معهم بمحض إرادتها. وبكى عنترة من شدة القهر وذبح النوق الحمر حتى غمرت دماؤها الصحراء، ولم يهبط على لحومها النادرة الطعم سوى الغربان، تركوا له مائة هيكل عظمى هي كل أطلال حبه.

وعندما نهض عبيد بن الأبرص وأخته «ماوية» ودخلا المدينة، كان هذا يوم بؤس النعمان.

كانوا في انتظاره، الملك والقضاة والجلاد، وحين أشرف عليهم قال النعمان في أسى:

ـ هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد.

قال عبيد: أتتك بحائن رجلاه.. فصارت مثلًا.

قال النعمان، وما ترى؟

قال: أرى الحوايا عليها المنايا.. فصارت مثلًا.

قال النعمان: أنشدني فقد كان شعرك يعجبني.

قال عبيد: حال الجريض دون القريض.. فصارت مثلًا.

وصاح الجلاد متبرمًا، ولكن النعمان واصل حواره القاسي: ما أشد جزعك من الموت.

قال عبيد: لا يرحل رحلك من ليس معك.. فصارت مثلًا.

قال النعمان:قد أمللتني فأرحني، أنشدني قبل أن أذبحك، فلا بد من موتك، لو جاء أبي ودخل الحيرة في يومي هذا لذبحته، فاختر طريقة فصد دمك، إن شئت الأكحل وإن شئت الأبجل وإن شئت الوريد.

قال عبيد: ثلاث خصال كسحابات عاد ومعادها شر معاد ولا خير فيها لمرتاد، إن كنت لا محال قاتلي فاسقني من الشراب حتى إذا ماتت مفاصلي وذهلت دواهلي فشأنك وما تريد.

وأمر له النعمان بحاجته من الشراب حتى أخذ منه، وطابت نفسه، ودعا به ففصد دمه، ولطخ به النصبين، وضم «ماوية» إلى حريمه ومضى يوم البؤس كما يمضي كل عام.

لم تكن الحيرة مدينتي، ولا النعمان ملكي، ولكني سلكت دروبها حائرًا لا أعرف متى تبدأ النزوة ولا أين ينتهي الكابوس. قالت العرافة: الحيرة امرأة حرون، عشقها صعب وفراقها أصعب، ظللت أجوس في أزقتها، هنا حانة وهنا قبر، هنا قصة عشق وهنا حادثة اغتيال، وما بين هؤلاء تمتد زهور شقائق النعمان، اكتشفت أنها ليست مدينة، أنها حالة من الهوس والعشق والجنون والنشوة، صحت بأشعاري ورقصت في الساحات وعانقت الجواري ونفضت قلبي من رمل الصحراء، لم يبقَ لي إلا أمنية واحدة، أريد أن أرى امرأة فريدة من نوعها؛ المتجردة زوجة الملك النعمان. قلت للعرافة متوسلًا: أريد يومًا واحدًا بقربها، قالت: سوف تدفع موتك ثمنًا لمتعتك، وفكرت في نفسي: وأي متعة تلك؟ وقبل أن أخطو خطوة واحدة رأيت خدم الملك وهم يحملون جثة الشاعر المنخل اليشكري إلى حافة النهر، لقد اكتشف الملك الأمر، وغفر للمتجردة ولكنه لم يغفر للمنخل.

عندما خرج المنخل من الصحراء قاصدًا مجلس الملك النعمان تقابل مع شاعر فحل آخر هو النابغة الذبياني يسعى لنفس الغاية. كانا شابين لهما طلعة مميزة، وموهبة متدفقة ولكنهما مفلسان، وعندما رآهما الملك النعمان أدرك أنه قد عثر على نديمين جديدين غير اللذين قتلهما في لحظة حماقته. كف عن محاولة قرض الشعر واكتفى بالاستماع إليهما، ثم طلب من زوجته المتجردة الانضمام إلى مجلسهم، ووافقت هي على الجلوس معهما كنوع من الأسى ونسيان ما مر بها. كان اسمها الحقيقي هند بنت عامر، وكانت امرأة غريبة، يحمل جسدها سرًّا خاصًّا لا يعرفه سواها، كانت قد آيست تماما من زوجها الملك النعمان وملت من رؤية وجهه الدميم الأبرش وشعره ذي الجدائل الحمراء، عندما دخلت إلى حياتها صديقة قادمة من اليمن تدعى «رقاش»، احتلت فراغ حياتها، وعندما كان الملك يخرج للصيد كانت تحتل الجانب الشاغر من فراشه، وبدأت

الملكة تشعر بنبضات تسري في جسدها حين تلامس جسد صديقتها، وسرعان ما بدأت إحداهن تكتشف مكامن المتعة في جسد الأخرى، وأصبحت هند بنت عامر أول امرأة في العرب تعشق من نفس جنسها، ولكن «رقاش» ماتت فجأة، في لحظة نشوة زادت عن حدها، تركت في داخل هند جوعًا لا يشبع ورغبة لا تطفأ، دخل جسدها في بيات قاسٍ وبدأت مياه الحياة تجف بداخلها، ولكن حين دخلت المجلس ورأت هذين الشاعرين ازدادت دمامة زوجها في نظرها، استمعت إليهما أولًا بلا اهتمام، ثم أخذت تتأملهما، وتستيقظ في داخلها مشاعر مختلفة ورغبات جديدة. اكتشفت أنها تريدهما معًا، تريد أن يختلطا ويمتزجا ويصيرا رجلًا واحدًا لا يغادر فراشها أبدًا، ولكن عندما قرأ كل واحد منهما نظرات الرغبة في عينيها بدأ الشقاق يدب بينهما، أصبح كل واحد منهما يضيق بالآخر ويتمنى اختفاءه، لم يكن يهمها من يصل إليها أولًا، ولكن هذا الصراع أبقاهما معًا على مسافة منها. وفي ذات يوم كان النابغة يتجول في بستان القصر عندما رآها أمامه، متجردة تماما من ملابسها، ينساب عليها ماء صافٍ من نبع متدفق، تتداخل فيه أشعة الشمس، كأنها تغتسل بالضوء، سراب تحقق وحلم تجسد. توقف النابغة مبهورًا أمام ذلك الضياء الذي يشع من جسدها، وتمنت لو يواصل الاقتراب، ولكنه ظل جامدًا في مكانه. من هذه اللحظة غادرت اسمها القديم وظل لقب المتجردة لصيقًا بها، خرجت من الماء واقتربت منه، تراجع، وأسرع يعدو عبر البستان وهو يهذي بأشعار غير مفهومة، وأحست المتجردة بالبرد والإحباط، وفي المساء انعقد المجلس كالعادة ودارت كؤوس الشراب، كان النابغة متوترًا، والمتجردة صامتة وشاردة، والمنخل يرقبهما والغيرة تأكله، وظل الملك يعب كؤوس الشراب، توقف ليهتف فجأة:

ـ لنرَ يا نابغة إن كنت جديرًا باسمك.. ارتجل شعرك وصف لنا هندًا.

وتلجلج النابغة قليلًا، وبدأ يستعيد نفسه ويبحث في داخله عن الكلمات المناسبة، تعثرت أبياته ولم توافقه القوافي، ولكنه حين رأى عيني المتجردة وهي ترمقه وقد عاد التألق إليهما، ارتعش قلبه وانطلق فجأة في الكلام، وصف تلك اللحظة النادرة التي رأى فيها ذلك الجسد المشبع بالضياء، كيف تغيرت ألوان العشب والزهر والماء ليصبح لونًا واحدا هو لون جسدها، كيف تحدد بصره وضاقت رؤيته، فلم يعد يرى إلا هذا الجسد، ثم توقف النابغة فجأة، أحس أنه قد صرح أكثر مما ينبغي، كشف عما يعتمل في داخله، وفضح مشاعره، استدار وغادر مجلس الملك دون استئذان، ونهضت المتجردة أيضًا عائدة إلى جناحها، ونظر الملك إلى المنخل مندهشًا فقال له في تأكيد:

- لقد وصف جسدها وصف من عاين.. لا من تخيل.

وافقه الملك وهو نصف سكران، وأمر كل حرس الحيرة بمطاردة النابغة وقتله فور القبض عليه، ولكن النابغة كان قد هرب إلى متاهة الصحراء، وغضب الملك وحشد كل قواه للقبض عليه، وانتهز المنخل الفرصة وغاص في فراش المتجردة وفي جسدها، ولم يكن الأمر يشكل فرقًا بالنسبة إليها، كانت تريد جسدًا بجانبها في الفراش مهما كانت صفته أو نوعه.

ومل النعمان سريعًا من مطاردة النابغة، عاد إلى قصره دون توقع ودخل من فوره إلى جناح زوجته، كانت كعادتها في الآونة الأخيرة متجردة تمامًا، والمنخل مثلها، وكانت ساقاهما مقيدتيْن معًا بقيد واحد، ونظر إليهما الملك وأمر الحرس أن يقطعوا ساق المنخل ويتركوها داخل القيد معلقة في ساقها. تلطخت المتجردة بالدم فلم يسمحوا لها بالاغتسال، ظلت تسير وهي تجرجر الساق المقطوعة حتى دب فيها

العفن، وظلت تصرخ بعد أن خرجت منها الديدان وبدأت بالزحف على جسدها. انهارت تماما وتحولت إلى نصف ميتة، وعندما سمح النعمان بفك القيد من حول ساقها أخيرًا، هرعت إلى أحد الأديرة وترهبت فيه ولم تعد لمواجهة العالم مرة أخرى.

لاقيت الملك النعمان وهو يبكي على قبر آخر، وكانت دموعه حقيقية أيضًا، قلت:

ـ أبيت اللعن، طاب صباحك وأهلي فداؤك، قبر من هذا؟

قال النعمان في أسى: هذا قبر صديقي وصفو روحي عدي بن زيد، الرجل الذي نصحني وصدقني وأجلسني على عرش الحيرة، لقد أخطأت فقتلته.

قلت بمرارة: ما أكثر أخطاءك يا مولاي.

قال: ماذا أفعل وهذا دأب الملوك، نقتل أولًا بدافع السلامة، ثم نفكر بعد ذلك من باب التأسي والندم؟

جلس مهدودًا بجانب القبر، وأدركت فجأة أن هذه اللحظة كانت البداية لنهاية النعمان، وأنه قد حفر لنفسه قبرًا بأظافره.

منذ أن صعد النعمان على عرشه بمساعدة عدي بن زيد، وهو يتوقع الملك القادم الذي سيأتي بدلا منه، يتخيله ويراه في كوابيسه، وكان موقنًا أن «عدي» هو الوحيد القادر على تهيئة هذا الملك، الوحيد الذي تستمع الأكاسرة لرأيه، ولا يمكن لملك من المناذرة أن يرفع رأسه دون رضا كسرى. لم يكن عدي في حاجة لمن يحرض عليه، كان بسيطًا وتلقائيًا وكثير المآخذ، وعندما سعى الوشاة بينهما كانت نفس النعمان مهيأة لتقبل الوقيعة. لم يكن من الصعب اصطياد عدي ووضعه في السجن، وعندما

جاء رسول كسرى لينقذه كان متأخرًا؛ لأن النعمان كان قد خنقه داخل السجن، وتظاهر أمام الرسول بالحزن والبراءة وأسبغ عليه الهدايا ليصور الأمر كأنه حادث عابر.

ثم بدأت طقوس ندم نعمان، بنى له قبرًا فخمًا لتزوره وفود القبائل، وأقام أيامًا للحداد ذرف فيها الكثير الدموع، وظل يبحث عن طريقة للخلاص من ذنبه، ملأ الحيرة بأشباح القتلى لعل شبح عدي يختفي بينها، وذات مرة خرج في إحدى رحلات الصيد فرأى عديًّا، لم يكن شبحًا، ولا جثة مخنوقة، كان شابًّا صغيرًا بدأت لحيته في البزوغ، وقف النعمان أمامه مشدوهًا، قال الشاب: أنا ابنه.. زيد بن عدي بن زيد، كأن في تكرار الاسم تأكيدًا على وجوده؛ ما أغرب الأيام، وما أعجب المواريث القاتلة. دمعت عينا الملك، انكسرت دورة الندم، سيكون الولد كما كان أبوه، بلا أخطاء قاتلة هذه المرة.

وفي أول مهمة له سافر زيد إلى كسرى حاملًا توصية من النعمان، كأنما كان يبعث بالسيف المثلوم للشحذ، ويهيئ الأمر للنهاية التي تنتظره، لم يكن زيد يكبر فقط بل كان يزداد اقترابًا من كسرى وهو لا يزال يحمل ثأر أبيه المغدور به في صدره كالصدى، كطائر عطش وجريح.

وكانت لملوك الفرس صفة من النساء، مكتوبة عندهم، يبعثون في طلب من يكون على هذه الصفة ليضموها إلى حريمهم وجواريهم من النساء، ولكن الأكاسرة لم يكونوا يبحثون عنها في بلاد العرب، ولا يظنونها عندهم، ولكن زيدًا انتهز الفرصة وهمس في أذن كسرى:

ـ لقد قرأت الصفة وإني أعرف جيدًا نساء آل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة يحملون هذه الصفات.

وانتبه كسرى لكلماته، تحمس لفكرة النساء العربيات وضمهم لحريمه، طعم جديد وأجساد لم يجربها من قبل، ولكن زيدًا عاد يحذره:

ـ ولكن النعمان قد يرفض متأنفًا من أن تصير نساؤه جواري في قصركم، سيزعم أنه لا توجد لديه نساء يحملن هذه الصفة.

قال كسرى من بين أسنانه: أنا الذي وليته الملك.. وأنا الذي سأجعل دمه مباحًا لو عصاني.

وسار زيد برفقته رسول كسرى إلى الحيرة، ووقف يتلو على النعمان صفة المرأة المطلوبة لكسرى:

ـ معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء، قمراء، وطفاء، كحلاء، دعجاء، حوراء، عيناء، أسيلة الخدين، شهية المقبل، جذلة الشعر، عظيمة الهامة، بعيدة مهوى القرط، عريضة الصدر، كاعب الثدي، حسنة المعصم، لطيفة الكف، ضامرة البطن، خميصة الخصر، لفاء الفخذين، مشبعة الخلخال، قطوف المشي، مكسال الضحى، سموعًا للسيد، عزيزة الأنف، لم تغذ في بؤس...

ولم يدعه النعمان يكمل، كانت هذه أوصاف امرأة خيالية، والحيرة مليئة بكل شيء إلا مخلوقات الخيال، قال لزيد مستغربًا:

ـ أليس في «فارس» ما يوافق طلب الملك حتى يرسل ليطلبه مني.

وكان زيد يقوم بالترجمة بينه وبين الرسول، تظاهر بتفهم موقف النعمان، ولكنه ترجم الأمر بصورة عكسية للرسول، وحمله رسالة تحريضية حملها الرسول معه لكسرى:

ـ كنت قد أخبرتك يا مولاي بضنهم بنسائهم عن غيرهم، فهم يختارون

الجوع والعري عن الشبع والرياش، ويفضلون العيش وسط ريح السموم عن طيب أرضك، بل ويسمونها السجن.

لم يتصور كسرى أن النعمان يمكن أن يجرؤ على رفض طلبه، وعندما عاد بقية الرسل فاشلين دون أن يعثروا على امرأة واحدة بهذه الصفة، تضاعف ذنب النعمان لديه، وصاح مهددًا.

ـ لقد أرادها لنفسه، وسيصير أمره إلى خراب.

وحملت الريح المسافرة التهديد الغاضب إلى النعمان، واهتزت الحيرة تحت قدميه، لم يفهم سبب غضب كسرى عليه، ولكنه كان موقنًا أنه قبل أن يعرف سيكون كسرى قد ظفر به، وحين جاء رسول فارس يطلب منه التوجه إلى المدائن على الفور أدرك الجميع بالخطر المحدق به، وأن رحلته لكسرى ستكون بلا عودة، سريعًا.. انفضت الحاشية من حوله، هرب الوزراء ولبث الشعراء قليلًا ثم فروا، وجمع النعمان أمواله وسلاحه وانتظر حتى ساد الظلام ثم فر هو أيضًا من الحيرة.

لم يعد هناك سور يحميه، هرب من نفس الطريق الذي هرب منه جميع من غضب عليهم، تحولت الصحراء إلى متاهة من العداوات، ذهب إلى جبل طيء، كان متزوجًا منهم، توسل إليهم أن يحموه، ولكنهم ردوا عليه:

ـ لولا صهرنا لك لقتلناك، لا حاجة لنا في معاداة كسرى.

ظل هاربًا، استغاث بالقبائل التي طالما سعت إليه وفودها وهي تقدم له الطاعة وتطلب منه الرضا.. أبيت اللعن.. طاب صباحك وأهلي فداؤك، ولكن بني عبس رفضته، وأسدًا طردته، وذبيان سرقت دروعه، وغطفان أكرمته لليلة واحدة، وأخيرًا ذهب إلى بني شيبان حيث يوجد هانئ بن مسعود الصديق الأخير الذي بقي في الصحراء، أجاره هانئ، ولكنه قال له:

ـ أنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي، ولكن ذلك لن ينفعك لأنه مهلكي ومهلكك، وعندي رأي آخر ولست أقوله لأقصيك عني.. ولكنه الصواب.

وارتعش النعمان ولم يستطع الرد، فواصل هانئ القول:

ـ كل شيء يمكن أن يكونه الرجل، إلا أن يكون بعد الملك سوقة، والموت نازل بكل أحد، ولئن تمتْ كريمًا خير من أن تتجرع الذل أو تصبح لاجئًا بعد أن كنت ملكًا، ولن يحفظ هذا عليك حياتك. الرأي عندي أن تمضي إلى كسرى، احمل إليه المال والهدايا، ألقِ بنفسك بين يديه، فإما صفح عنك وعدت ملكًا عزيزًا، وإما أصابك الموت، خير من أن يتلاعب بك صعاليك العرب وتتخطفك ذئابها فتأكل مالك وتعيش فقيرًا مبتورًا، أو تقتل مقهورًا.

وهل كان هناك حل آخر؟ ضاقت الدنيا ولم يعد له نجاة إلا في المدائن، حمل الكثير من الهدايا والقليل من الأمل وسافر إلى قلب الظلمات، ولكن فور أن دخل أسوار المدائن أحاط به الأكاسرة ومنعوا رجوعه، وحين رأى التعبير المرتسم على زيد بن عدي، أدرك أنه لم يكن يسعى إلا خلف أمل كاذب، بدا كأن عُديًّا قد نهض من قبره ليطالب بالقصاص، وسمع صوت زيد يقول له في سخرية، كأنه صوت أبيه:

ـ انجُ يا نعمان إن استطعت النجاة.

قال النعمان بمرارة وقد تكشفت أمامه الحجب:

ـ أوَفعلتها يا زيد، أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط.

لم يأبه زيد بالتهديد، ازدادت درجة سخرية:

ـ امضِ لشأنك يا نعمان، ربطت لك أخية لا يقطعها حتى المهر الراشد.

مرعبة هي المدائن عندما تأتي إليها مطاردًا، ومخيف هو كسرى عندما

يكون غاضبًا، لا يسمح بالتبرير ولا بالتوسل، وقساة هم الأكاسرة وهم يدفعونه إلى أقبية السجن، ولكن لماذا يؤجل كسرى قتله ما دام قد بيت النية على ذلك؟ كان السجن في مكان موحش خارج المدائن، فوهة بركان مظلمة، أدخلوه فقط من الباب ثم فروا هاربين، سار وحده في سرداب طويل رطب، سمع أصواتًا غريبة كقرض الفئران، وصوت أنين متواصل، وضحكًا واهنًا كأنه بكاء، ما كل هذا؟

- أيها القادم التعس مرحبًا بك بيننا، في البداية ستتعذب قليلًا، ثم تتعود، ثم تذوي، ثم تموت.

التفت في ذعر، لم يعرف من أي اتجاه كان الصوت قادمًا، صاح:

- أنا الملك النعمان، من أنتم؟!

قال الصوت نفسه: نحن المرضى المحتضرون، والطاعون لا يفرق بين الملك والعبد.

كانت «الحيرة» تعاني أيضًا من طاعونها الخاص، لا أحد يدري بالضبط ماذا دهى هذه المدينة الحلم، كيف تحولت إلى كابوس، هل أبطل الساحر «أرخيا» طلسمه؟ وهل اكتشف أحد الحجري المحوري في قصر «الخورنق» وانتزعه من مكانه حتى ينهار كل شيء؟ كانت الصحراء تواصل الزحف إليها، والجرذان تخرج فارة من جحورها، والنهر ينأى بعيدًا، يشق له مجرى آخر بعيدًا عن لعنتها، والرمل يطمر ذكريات العشق والهوس والجنون وقبور الشعراء ومغاني الجواري، يترك الحلم فريسة لصحراء لا ترحم، يسود الرمل، كما كان وكما سيكون إلى الأبد، فالوداع.. الوداع أيتها «الحيرة» الغريبة، لعلي ألقاك ذات مرة، وأعشقك من جديد.



قال لها سيدها «النطافي»: غني يا عنان..

ولكنها كانت تحس برغبة حارة في البكاء، وكان ضيوف سيدها سكارى أكثر من اللازم، يصيحون ولا يسمعون، رفضت أن تغني، ونظر «النطافي» إلى ضيوفه محرجًا ثم أمسك السوط وهوى به على ظهرها، ولحظتها أحست أن هذا الألم الممض لا يكفيه البكاء، وفي آخر الليل جاء كعادته إلى غرفتها معتذرًا، كان يحمل في يده قارورة من عطر، فلم تعرف، أهي للتطيب، أم بلسم لجراح ظهرها. داعبها وحاول جرها للفراش ولكنها أعرضت عنه، قال لها: لا تبالغي.. كل الجواري يجلدن، وكل العبيد يصُلون.

تعودت عنان على الرق، ولم تتعود على «النطافي»، أدمنت الغناء والشعر وأحلام اليقظة، وظل السوط مؤلمًا برغم تكرار مرات الجلد، ما جدوى أن تلتئم الجراح القديمة، ما دامت هناك جراح جديدة قادمة؟ اشتراها «النطافي» بثمن بخس، كانت درة مخفية وسط الأجساد المعروضة للبيع، وعندما رفع الستر عن وجهها، واستمع إلى صوتها، اكتشف أنها لا تقدر بثمن، وهكذا بدأت رحلتها في بغداد، قطرة من عطر وضربة من سوط.



ذات صباح دخلت «عنان» سوق بغداد، وفي الحال سرت فيه حالة من النشوة، خفض البائعون أثمان البضائع، وكف المشترون عن المساومة، وجلس «النخاس» بجانب جارية وحيدة لم يشترها أحد وبكى، وفرد تجار «فارس» الأبسطة والسجاد فتألقت تحت الشمس مثل حقول من الحنطة والزهور الملونة، وانفضت المزادات، واشترت عنان عصفورًا صغيرًا فأخذ يغرد على الفور وهو الذي كف عن التغريد منذ أن وضع في القفص، وقال لها البائع: لم أرَ في بغداد يومًا مثل هذا. كانت الشمس رائقة وأحست عنان أن ظهرها قد تخلص فجأة من آثار السياط، كانت هناك فواكه غريبة نضجت في غير موسمها، وقال لها غلام صغير يبيع البرتقال: ما أجملك. ضحكت عنان وهي تقول: ولكنك لم ترَ وجهي، قال الغلام: إنهما عيناك.. تتألقان فوق النقاب كأنهما شمسان صغيرتان، وفتح ثمرة برتقال فتألقت فصوصها الذهبية، وانتفض العصير في داخلها من النشوة، وأشار بائع عجوز إلى كرسي قديم ضخم وقال لها: هذا عرش كسرى يباع الآن بثمن بخس، ماذا لو أخذتيه وجعلتيه مقعدًا لزينتك؟ قالت عنان: لا أحب العروش، وجاءها صوت من الخلف وهي تقول: ولكنك يومًا ما ستجلسين على عرش حقيقي.

التفتت عنان فوجدت امرأة عجوزًا، في فمها سنٌ واحدة، تلبس ثوبًا مصنوعًا من بقايا الأقمشة. مدت يدها المعروقة وتناولت كف «عنان» فانساقت إليها، كان وجهها مليئًا بتجاعيد غريبة، كم سنة تمر حتى تحفر كل هذه التجاعيد؟ قالت: هذه كف بكر لم يقرأها عراف من قبل، ثم هزت رأسها في تأكيد كأنها وجدت ما كانت تبحث عنه، ألم أقل لك: العرش في انتظارك فاحذري أن تضيعيه؟ احذري الوقوع في الحب. ضحكت عنان في مرارة وهي تقول: الحب! أوَتسخرين مني؟ أنا مجرد جارية، جسد بلا

روح.. قالت العجوز: أنت فقط تحملين جسد جارية، ولكنَّ في داخله روحًا حرة، وتركت العجوز كفها ومضت، دون أن توضح شيئًا، ودون أن تتقاضى ثمنًا.

توقفت أمام دكان النخاس، رأت المنصة التي بيعت عليها من قبل، كان النخاس ما زال يبكي، وحين رآها فرك عينيه بسرعة وهو يقول: أنت الآن سيدة حقة، لا ينقصك إلا صك صغير من الورق لتصيري حرة. كان يكذب، كان ينقصها الكثير، سألته عنان: أنت الذي أوصيت «النطافي» بضربي. هز كتفه واسترد بعضًا من صفاقة النخاسين، وقال: يا سيدتي كل الجواري يضربن. فكرت عنان في نفسها، هذه العرافة لا تدري مدى الهوان الذي وصلت إليه، أخرجت دينارًا ذهبيًا من كيسها وألقته على المنصة، أسرع النخاس ليلتقطه ولكنها هتفت به: ليس لك، إنه لهذه الجارية المسكينة. قال النخاس وهو يجز عليه بأسنانه ليتأكد من صحته: سيفسد الذهب أخلاقها، وتهرب مع أول عبد تقابله، ووضع الدينار في جيبه بسرعة وهو يبتسم ابتسامة سعيدة.

وفجأة ارتج السوق، واندفع الحرس إلى كل مكان، أصبحوا أكثر من كل الناس الموجودين في السوق، ودقت طبول مجهولة فتراص الحرس في صفين متقابلين وهمس أحد البائعين: إنه موكب الخليفة هارون الرشيد، قالت عنان: أخيرًا، كانت تحلم بأن تراه، أن يأتي إلى بيت «النطافي» ليستمع إليها، أو تذهب هي لتغني له، والأهم من ذلك أن تتوقف عن الغناء وتمزق ثوبها وتريه آثار السوط على ظهرها، ولكنه الآن وسط السوق والحرس، لا تملك أن تغني ولا أن تمزق ثوبها.

ظهر الرشيد فوق جواده، فخمًا رائعًا كما يليق بخليفة، على يساره

وزيره جعفر البرمكي يبرم شاربه في توتر، وعلى يمينه مسرور السياف، وخلفهما الأعيان وبقية القواد، هزت عنان القفص فعاد العصفور يغرد فرفعت القفص عاليًا وهي تهتف:

ـ أعزك الله يا مولاي..هذا العصفور يغرد من أجلك.. طيور بغداد كلها تغرد من أجل مجدك.

توقف الخليفة مندهشًا والتفت إليها.. قال: من أنت؟

رفعت عنان النقاب عن وجهها: أنا عنان جارية «النطافي».

كان البرمكي متوترًا وهو يبرم شاربه حتى كاد أن يخلعه، وقال الخليفة مبهورًا بجمال وجهها:

ـ لم أكن أعرف أن «النطافي» يمتلك تلك الدرة.

قالت عنان: إنه يمتلك جسدي ويجلده كلما عَنَّ له ذلك يا مولاي.

واربد وجه الخليفة: هذا الوغد، يجرؤ على جلد مثل هذا الجسد.. تباركت خلقة الله؟

وتكاثر الناس حولهما، أدرك الخليفة أن الأمر يمكن أن يتحول إلى حكاية تتحدث بغداد عنها وتؤولها، لوى عِنَانَ جواده وسار وخلفه موكبه، استندت عنان إلى حائط قريب وهي تلهث، وأسرع بائع عجوز يحضر لها ماء، من أين أتتك كل هذه الجرأة يا عنان؟ سألت نفسها، أحضر البائع الماء، ولَمَّ الحراس حرابهم وانصرفوا، وكان العصفور الصغير ما زال يغرد ففتحت باب القفص وأطلقته في الفضاء وهي تهتف:

ـ الآن.. تستحق الحرية أيها العصفور الصغير.. فمن يمنح الحرية لعنان الصغيرة؟

هشم «النطافي» قفص العصفور الخالي، وكان بيته مليئًا بالضيوف فلم يرفع السوط، وبرغم ذلك عندما نظرت في المرآة وجدت وجهها ما زال سعيدًا، كان حلم الخلاص ما زال متوهجًا بداخلها، لم تضع النقاب على وجهها، خرجت إليهم وغنت دون أن يطلب أحد منها ذلك، كانوا كثيرين، متشابهي الأوجه، تفوح منهم الرائحة نفسها. أبو نواس يجلس بجانب «النطافي» يحدق فيها بنظراته الشرهة التي لا تقنع ولا ترعوي، لن تبالي به ولو صب في أذنها كل أشعاره البذيئة، بعيدًا عنها يجلس شاب آخر رقيق لا يميزه إلا عينين متألقتين، كانت سعيدة، ولم تفسدها جلبة الضيوف السكارى سعادتها، وغنت من أشعارها:

«بكيت عليها أن قلبي يحبها

وأن فؤادي كالجناحين ذو رعش..»

أحست بالشاب وهو ينظر في عينيها مباشرة، وهو يغير وضعه في كل فترة ليزداد اقترابًا منها، يبتسم في رقة، ولا ينزل عينيه أبدًا، كيف لم يفطن إليه «النطافي»؟ هتف أبو نواس: نازليني يا عنان، وقبل أن تجيبه كان قد انخرط في تلاوة قصيدة فاحشة.

وكانت عنان مستعدة للرد عليه دون كلمة فحش واحدة فألزمته حده. تراجع أبو نواس أمامها للمرة الأولى، وهتف بقية الضيوف بالشاب المتألق العينين: هلم يا ابن حفصة.. نازل عنان. التفتت نحوه كأنها تراه من جديد، أهو أنت؟ كانت تسمع عنه، وعن شاعريته، ولكنها لم تحسب أنه غض الشباب لهذا الحد. ابتسم لها، وهز رأسه رافضًا، يكفي أنه رآها واستمع إليها، لم يكن يريد أن يظفر بكل شيء في ليلة واحدة.

نهضت جارية حبشية وأخذت ترقص، ومزق أكبر تاجر «بهار» في

بغداد ثيابه طربًا، ونهض أبو نواس منصرفًا فأحست بعبئه ينزاح من فوق صدرها، تبعه الآخرون وهم يترنحون، ولكن مروان بن حفصة بقي في المجلس، قالت لنفسها: يا له من يوم غريب؛ أقابل هارون الرشيد في الصباح، وأقابل هاتين العينين المتألقتين في المساء!

دخل رجل غريب وهمس في أذن «النطافي» الذي نظر نحوها، أحست أن الهمس يدور حولها، نهض واصطحب الغريب إلى الخارج، ثم عاد وهو يحمل السوط في يده وصرخ فيها:

ـ أنت يا جارية، تجرئين على شكايتي لأمير المؤمنين؟!

ورفع السوط فانزوى بقية المدعوين كالجرذان، كانوا يعرفون أنه في ثورة غضبه يصبح حيوانًا شرسًا، ظل مروان يراقب في ماذا يحدث دهشة، ولكن حين هوى «النطافي» بالضربة الأولى على ظهر عنان نهض مفزوعًا، حمل «النطافي» برغم جرمه الضخم وطوح به في الهواء حتى اصطدم بالحائط.

بدأت عنان تبكي، وسقط «النطافي» مغشيًا عليه، وهرع بقية الضيوف إلى الخارج.

لم تكن تبكي لأن لسعة السوط كانت قوية؛ ولكن لأنها أهينت أمامه، في هذه الليلة لم تكن تريد أن تهان، قال مروان وهو يتطلع إليها:

«بكت عنان فجرى دمعها

كالدر إذ يسبق من خيطه..»

مسحت عنان دموعها ونهضا معًا، خرجا من بيت «النطافي» إلى بغداد النائمة، لم يفكرا في النظر إلى جسده الملقى على الأرض، كان من

الصعب أن يموت، فالكوابيس لا تموت بهذه السهولة، ما هي إلا إغماءة تبعده عنهما قليلًا، كانت جولتهما حلمًا قصيرًا، النهر ساكن، متأهب للحظة حب لم تولد بعد، وضوء النجوم كان شحيحًا ولكنه كان كافيًا لعاشقين يتلمسان خطوات العشق الأولى، وحتى «المراكبي» العجوز الذي كان نائمًا في قاربه لم يطلب منهما أجرًا، أفسح مكانًا وأعطاهما بقية من التمر الجاف الذي يقتات عليه، ثم أخذ يجدف بهدوء.

سكن الألم قليلًا، وظلت عنان تحس بالحرقة فأخذت تبكي، ورف طائر فوق النهر ـ يبدو أنه قد ضل الطريق إلى عشه ـ ثم لاح قصر ضخم متألق بالأنوار؛ قصر هارون الرشيد، كانت تحلم بالخلاص على يديه، ولكن عليها الآن أن تقنع بنصيبها من صدر ابن حفصة.

استمر المراكبي العجوز في التجديف حتى غفا، وخفت النجوم من تألقها، وجاء الفجر سريعًا هكذا، قالت عنان في خوف:

ـ الفجر يكشفنا، سوف يقلب «النطافي» شرطة بغداد كلها بحثًا عني.

أمسك يدها وهبطا إلى الشاطئ، وأعطى مروان كل ما في جيبه من دنانير للمراكبي العجوز، ولكن الرجل أعادها إليه، من يشتري ليلة بهذا الصفاء؟ وسارا إلى قصر «النطافي». كان مستيقظًا، جمع أمامه كل الفتات التي تركها الضيوف وأخذ يأكل بشراهة وحنق، وحين رآهما تأملهما قليلًا ثم هتف بسخرية:

ـ أين كنتما؟ هل وقعتما في الحب؟

قال مروان: أريد أن أشتريها.

قال «النطافي»: عليك أن تدفع أولًا ثمن اللكمات التي كلتها لي، والأضرار التي حدثت لقصري.

قال مروان: أريد أن أشتريها.

قال «النطافي»: أتعرف الرجل الغريب الذي جاء في منتصف ليلة أمس؟ إنه رسول الخليفة. أتعرف ماذا كان يريد؟ كان يريد شراءها، ولقد طلبت مائة ألف دينار ثمنًا لها وليس أقل من ذلك، سوف أواصل جلدها حتى يرتفع ثمنها.

وصمت قليلًا ليلتهم ما أمامه، ثم هتف في ابن حفصة: هل تملك مائة ألف دينار؟ هل تملك القدرة على تحدي الخليفة؟

وعند الظهر حضر مسرور بنفسه إلى بيت «النطافي»، وخلفه يسير عبد صغير يحمل صندوقًا كبيرًا، قال:

ـ ها هي مائة الألف دينار بعثها إليك أمير المؤمنين، أين الجارية؟

ولكن «النطافي» رد في برود: دعني أحصِ النقود أولًا.

كان مشهد مسرور وحده يثير الرعب، ولكن «النطافي» تأمله في برود، جلس على الأرض وكوم النقود وبدأ يحصيها في بطء وتمعن، وبعد ساعتين كان مسرور قد أوشك أن يجن، وبدأ يستعد ليخرج السيف ويهوي به على عنق «النطافي» الذي كان منكبًّا على عد النقود، ولكنه فوجئ به وهو يقول: المبلغ ناقص.

وصرخ مسرور: ماذا يا حشرة، ناقص..؟!

ولم يظهر الرعب الذي كان في قلب «النطافي» على وجهه، فواصل القول في برود:

ـ إن أمير المؤمنين يريد أن يعطيني الدينار بسبعة دراهم وهذا غير عادل؛ فالدينار في السوق لا يقل عن ثمانية دراهم.

وأمسك أحد الدنانير وجز عليه بأسنانه، وواصل القول:

ـ وهذا ذهب خفيف.. أي أن الدينار لا يجب أن يقل عن تسعة دراهم بأي حال.

وانتصب مسرور مغتاظًا، وأمسكه من عنقه ودفع به، وللمرة الثانية يرتطم جسد «النطافي» بالحائط ويسقط مغشيًّا عليه، وتناثرت نقود الخليفة تحت الأقدام، وجاءت عنان مسرعة على صوت الصياح الغاضب، قال مسرور:

ـ هيا معي إلى القصر.

سارت خلفه دون أن تلقي نظرة على «النطافي»، كانت هذه المرة واثقة أيضًا بأنه ما زال على قيد الحياة، وظل مسرور ينتفض من الغيظ طوال الطريق، وقف أمام الخليفة وهو يقص عليه قصة المساومة «الخسيسة» مع «النطافي».

وقال الخليفة: لقد رفض البيع إذن.. فكيف أحضرت الجارية؟

وفوجئت عنان، وأخذ مسرور يلعن «النطافي»، ولكن هارون الرشيد قال:

ـ سيجلس في السوق ويهيل التراب على رأسه، ويقول للعامة والخاصة إنني سلبته جاريته، وربما يذهب ليشكوني إلى قاضي بغداد، ولا أريد أن يقال في مجلس القاضي إني سلبت من واحد من رعيتي شيئًا يملكه.

قال مسرور في دهشة: مولاي، نحن لسنا خائفين منه.

ـ لسنا خائفين، ولكنا لسنا ظالمين.

قالت عنان: وما يمنعك يا مولاي من أن تعطيه ما يطلب.

قال الخليفة:لن يفرط فيك مهما أعطيته من ثمن، عودي حتى نجد سبيلا إليه.

... أعود، حدثت نفسها في مرارة.. هذا هو فعل هارون الرشيد، فماذا يمكن أن تفعله يا ابن حفصة؟

كان ابن حفصة محمومًا، أينما سار.. تلاحقه طيور غريبة، وتطل عليه شمس بغداد القاسية، تواجهه بعجزه، لم يكف عن الركض واللهاث، مدح الأمير والوزير والوالي والقاضي والمحتسب، وعاد بفتات من دراهم الفضة، باع دار أمه القديمة، والهدايا وبعض الثياب والخلع وسيفا يعلوه الصدأ، وعمامة أبيه، وتوسل حتى وصل مجلس الخليفة هارون الرشيد ومدحه بقصيدة حارة، وطلب منه الخليفة أن يتمنى، فتمنى مائة ألف دينار، فضحك الخليفة وأعطاه دينارًا في مقابل كل بيت من الشعر.

قامر فخسر، تأسى فلم ينسَ، وظلت عنان نجمة نائية، كان أصحابه صعاليك ومفلسين، والمرابون أوغادًا، وبغداد مدينة قاسية على العشاق، وعندما تسلل إلى حجرتها في المساء جلسا معًا كطفلين ضائعين، أخبرته ماذا حدث مع الخليفة، وكيف رفض «النطافي» المال على كثرته، كانت تحس باليأس وبضياع فرصة خلاصها، لم يفكرا في الخروج إلى النهر، كان شعورهما بالمرارة أكبر من نشوة الحب.

رحل ابن حفصة بعيدًا إلى خراسان وقص حكاية هواه على واليها ابن عبد الله، ضحك وأهداه خمس جوارٍ لعل أجسادهن تنسيه ذلك الهوى ولكنه رفض، رحل إلى الكوفة والبصرة، ورفع ولاتها إلى سماء الشعر، وبقي هو في حضيض الدراهم، وعندما عاد إلى بغداد تسلل إلى غرفتها،

فقالت له إن «النطافي» مريض وإنه لم يعد يضربها بالسوط كثيرًا، ولكنه ما زال متمسكًا بها في شغف الأطفال، ولم يستمع إليها. أدرك ابن حفصة أن هذه حيلة أخرى من حيل «النطافي» للاستئثار بها، وأنها في حاجة للمزيد من المال، قرر فجأة:

- سأسرق خزائن هارون الرشيد.. سأحضر للنطافي أموالًا لا يمكنه مقاومتها.

أصيبت بالفزع، توسلت إليه أن يعدل عن فكرته، ولكنه كان تعبًا من كثرة اليأس، برمًا من الإلحاح في السؤال، وبدت الفكرة براقة، فالعشاق عليهم أحيانًا أن يسلكوا طريق اللصوص، وأن يختلسوا المال كما يختلسون المتعة، ترك غرفتها، كانت تبكي وكان هو يرتعد ولم يتصور أحد منهما أن ليلة من الحب يمكن أن تقودهما إلى هذا الجنون.

ولم ينم أحد في هذه الليلة، وأطلت على بغداد نجوم ضائعة، وفي اللحظة التي غافل فيها ابن حفصة الحرس وتسلل إلى داخل القصر.. أرسل «النطافي» يستدعي عنان لتجلس بجانبه، كانت هناك شمعة وحيدة بجانب فراشه، وكان وجهه شاحبًا تطلع إليها قليلًا، قال في صوت واهن.

- إنني أحتضر.

ما أطول طرقات القصر وما أشد وحشتها، أين توجد الخزائن..؟ كان ابن حفصة قد ذهب إليها ذات يوم في وضح النهار ليأخذ إحدى أعطياته، ولكن هل يمكن الاهتداء إليها في الظلام؟ أين يختبئ الحراس، وأين يكمن الموت؟

طلب «النطافي» رشفة من الماء، ثم همس وهو يبكي:

ـ هل آلمتك كثيرًا؟ اكشفي عن ظهرك حتى أرى فعلي.

شعرت بالمهانة من سؤاله، وبالاحتقار له، هتفت في حدة: كلا.

قال في توسل: إنني أحتضر، و هذا مطلبي الأخير، لست أكثر من شيخ يحتضر.

استدارت وكشفت عن ظهرها، أحست بأصابعه وهي تتلمس آثار القروح، وفجأة سمعته ينخرط في بكاء حار، لقد عذبني ضربك كما عذبك، التفتت إليه في دهشة لم تتوقع أن تراه بهذا الضعف، مدت أصابعها في تردد، ثم لمست جبهته.

وقف ابن حفصة مذهولًا أمام باب الخزائن، هنا كل خراج الأرض، نتاج الغيم السابح في السموات، لم يكن يحتاج لكل ما فيها من أموال، فقط ما يكفي طمع «النطافي» واستنقاذ روح عنان المأسورة.

أخرج سكينًا كان يحمله معه وأخذ يشق في الباب الخشبي ليصل إلى طرف المزلاج، أيهما أسهل: السرقة، أم قرض الشعر؟ لم يصمد المزلاج طويلًا، ولعل صاحب بيت المال لم يكن يتصور أن يجرؤ أي لص على اقتحام قصر هارون الرشيد.

انفتح الباب، يا رب السموات، ما كل هذه الأموال المكدسة؟ حتى وسط الظلام يبدو ضوء الذهب وهاجًا، كيف يحصي أمواله؟ كيف يعرف ماذا يريد وأمامه أكثر مما حلم به؟ كان يسمع من حوله عشرات الأصوات، ثم اكتشف أنها كلها أصواته، صوت قلبه، وتنفسه وتدفق الدم في عروقه، أخذ يجمع كل ما يجده أمامه، يضع في جيوبه، وفي عبه وفي عمامته، في كل مكان، سوف ينالها، سوف يفرغ الذهب كله أمام «النطافي» ويحررها

منه، ولكنه عليه الآن ألا يتوقف لحظة واحدة، وفجأة سمع صوتًا آخر غير صوته يهتف به في خشونة:

ـ قف مكانك ولا تتحرك.

التفت فوجد عشرة من الحراس، حرابهم موجهة إلى صدره، ورئيس الحرس يتساءل مندهشًا:

ـ أي لص أنت؟ كيف تجرأت على خزائن أمير المؤمنين؟

ووقف صامتًا تعيسًا، وقد أدرك فجأة أن الشعراء لا يصلحون للعشق، ولا للصوصية.

وكان في «النطافي» بقية من القدرة على الكلام، فقال لها بصوت متهدج:

ـ لو تعلمين كم كنت أحبك، وأغار عليك، كنت أعلم أنهم يحسدونني فأردت أن أقبحك في نظرهم.

طلبت منه ألا يتكلم، ولكنه واصل الكلام:

ـ إذا أقبل الصباح وأنا ما أزال حيًّا، فسأصحبك إلى قاضي بغداد وأعتقك.

ولكن الصباح لم يأتِ عليه إلا وهو جثة هامدة تنتظر الدفن والمغفرة، وانتشر خبر موته في بغداد كلها، ولكن خبر اللص المجهول حبيس السجن المظلم ظل متكتمًا عليه، وعندما ثوى في القبر اكتشفت «عنان» مفاجأة مذهلة، فالرجل الذي رفض مائة ألف دينار من الخليفة مات مديونًا.. بيته مرهون، وأمواله نهبها المرابون ومزيفو الصكوك، كلهم جاءوا وأحاطوا بالبيت كالغربان، وانتظرت عنان أن يأتي ابن حفصة فلم يأتِ، ولكن بدلًا

منه جاء الحرس ومتكفل الرهون وقاضي بغداد، حصر أعداد الجواري وَقَيَّمَ الرياش ثم قال:

ـ هذه كبد رطبة، وعلى الزجل دين فليبع كل ما يملك في سوق بغداد حتى يوفي بدينه.

أهان الله من أهانني.. قادوها إلى السوق، صفوها على منصة النخاس العالية، أهان الله من أهانني.. كانت الجارية السوداء لم تبع بعد ولا زال الدينار الذهبي في جيب النخاس، وعندما صرخ عاليًا: من يزيد؟ بكت عنان، وحسبوا أنها تبكي «النطافي»، ولكنها لم تكن تبكي سوى نفسها، أهان الله من أهانني.. لم يعد أحد يرثي لها، صرخ النخاس: من يزيد؟ قال رجل:خمسون ألف درهم.. أباع بالدراهم وكنت أقدر بالدنانير؟ فوجئت بمسرور يقف أمامها: مائة ألف درهم.. لم يرضَ «النطافي» بسبعة أضعاف هذا المبلغ، هتف رجل خراساني ربما لم يكن يعرف مسرورًا: أزيد خمسة وعشرين ألف درهم.. ولكزه مسرور وهو يقول: أتزيد على أمير المؤمنين، مائتين وخمسين ألف درهم؟

لم يكن فيها شيء يعاب، اللهم إلا بضعة آثار من السياط في ظهرها، سوف تزول إذا نامت على حرير لأربعين ليلة، وإذا دلكها خصي تركي، وبرغم غضب الرشيد لأن لصًّا حقيرًا قد تجرأ على خزائنه فقد ابتسم حين رآها، وقال لها: جئت أخيرًا إلى المكان اللائق بك، كان العرش رائعًا تحته فانحنت وهي تقول: وإلى السيد الذي أتمنى أن أكون لائقة به.

فهل يليق العرش بالنبوءة؟ صحبتها الجواري لجناحها، يمكنها الآن أن تطل على النهر، لكنه بلا نجوم سابحة وقلب خالٍ من الحب، التفتت

إلى الناحية الأخرى، كانت حديقة القصر الممتدة أمامها وفيرة الخضرة، رأت جمعًا من الحرس يقودون شخصًا ما، خيل إليها أنها تعرفه، وعلى مبعدة كان مسرور يشحذ سيفه في استمتاع، كانوا يذهبون بالشخص المقيد إلى أقصى أطراف الحديقة، سألت إحدى الجواري:

ـ من هذا..؟

قالت الجارية وهي تقترب من النافذة وتشاركها في النظر:

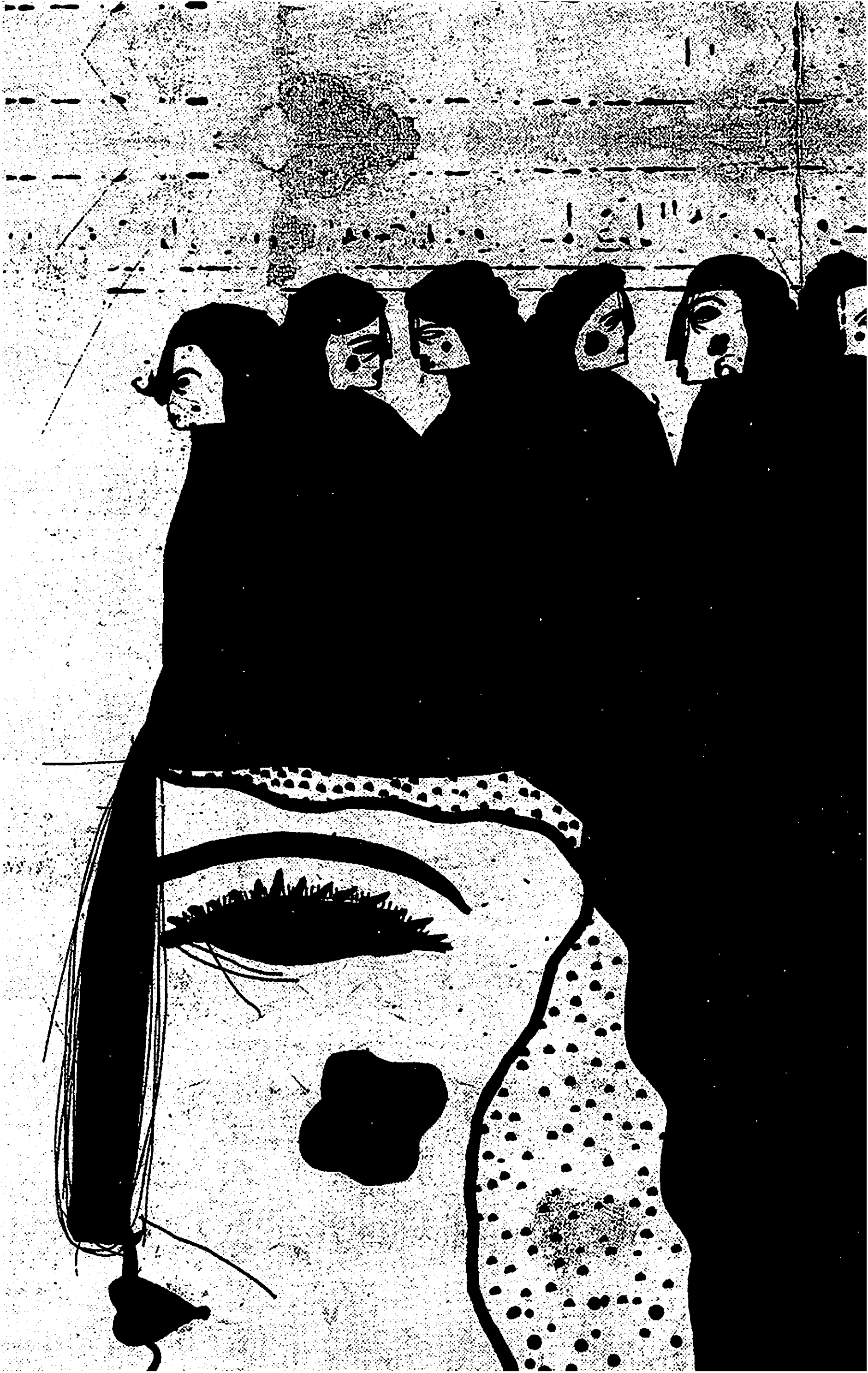
ـ إنه اللص الذي تجرأ على سرقة خزائن أمير المؤمنين، سيقطعون يده.



خيمتي بعيدة، معزولة وسط البراري،تحت رحمة الصحراء، والرمل أمامي مطلق اليدين في المصائر، والريح تهب محملة بنتف من الروائح والأحاديث والذكريات، وأنا وحيد على جبل وحيد، في حاجة لامرأة، من أنا بالضبط: لص جياد، عاشق خاب سعيه، منبوذ من قبيلته، أم خليط من كل هؤلاء؟ ما الذي جاء بي لهذه الصحراء العربية الغامضة؟ ليس من النادر أن أسير إلى مضاربهم، كل مرة أسير إلى قبيلة مختلفة، لا أحس فرقًا فأنا أسير في الساحات الخالية، والطرقات غير المأهولة، وأقف طويلًا أمام أي خيمة حتى أكتشف أنها ليست خيمتها، فأعود وحيدًا إلى خيمتي الوحيدة.

أريد امرأة صحراوية، تعشق وتغني وتنثر الحصى على الرمل نجومًا ملونة، تخرج معي للغزو، وتشاركني سرقة الجياد والإبل، تحمل في داخلها صهد الصحراء، ورطوبة الواحات، وعذوبة الآبار القديمة، تصغي إليَّ ولا تكف عن دفعي للحديث ورواية الأشعار واختلاق الخرافات، لا ترضى بهدية ليست مسروقة، ولا بنجمة غير مضاءة، ولا بقبلة دون رغبة جياشة.

مضت أيام طويلة دون أن أجدها، فقط كنت ألمح طيفها الرقيق يتشكل



من الصخر والرمال، ولكن ريحًا عنيفة هبت، اقتلعت خيمي، وأطاحت بأشعاري، وانتفضت الصحراء كامرأة حبلى بالألم، وجدت نفسي أنحدر رغمًا إلى وادٍ لم أره من قبل، هبطت بين أشجار جافة وأعشاب وحشية وسراب ممتد كأعمدة من الملح، أدركت أنها في انتظاري، ثوبها صحراوي خشن، عليه نقوش حميرية، وتحمل قعبًا من اللبن الفائر، كأن الوادي الغريب قد تمثل في داخلي كائنًا حيًّا، صرخت: أين أنا؟ أجابني الصدى: أنت في وادي عبقر، فوضعت جسدي على حافة الوادي وانتظرت، قال لي صوت من خلف الصخر: أنا سأقودك إليها.

تلفت مفزوعًا، رأيت امرأة فارعة الطول ترتدي ثوبًا يمنيًّا، لم أميز ملامحها، قالت:

ـ ألا تعرفني؟ أنا زرقاء اليمامة.

اقتربت، رأيت وجهها، وهالتين من الفراغ المعتم مكان عينيها، أمسكت بذراعي، كأن أصابعها مخالب باردة انغرست في لحمي، قالت في قسوة: لا تكن أعمى فتحسبني عمياء، كان في صوتها رنة النذير والنبوءة، تبعتها في فجاج الوادي، سمعت وجيب الصخور وهمس الينابيع الغائضة والغابات المطمورة، كانت ترى أبعد مما يراه الجميع وتحذر قومها حين يريد أحد الغدر بهم. وخشي الأعداء من عينيها الثاقبتين فغطوا جنودهم بأغصان الشجر، وعندما اقتربوا قالت زرقاء اليمامة محذرة: يا قومي إن الأشجار تتحرك وإن العصافير ترتعد فرقًا، فضحكوا منها وعاودوا الشراب، وحين أطبق عليهم الأعداء، فقأوا عينيها وتركوها تخوض وحدها في ظلمة الصحراء.

قالت: فلنبدأ رحلتك مع «طرفة الخير»، قد تقودك إلى النجاة أو الموت.

رددت الاسم في ذاكرتي، فلم أجد له صدى، ولكن زرقاء اليمامة أكدت:

ـ لن ينقذك من متاهة هذا الوادي، إلا «طرفة الخير».. سنبدأ الرحيل إلى أرض سبأ.

كانت سبأ بلادًا ممتدة، يسير الراكب المجد بين عمائرها أكثر من مسيرة شهرين، ويقتبس أهلها النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر، ولكنهم مزقوا شر ممزق.

بدأت الكارثة بالنذير، جاء إلى «طرفة الخير» في حلم أشبه بالكابوس، سحب ثقيلة لا تحمل مطرًا، وحين أرعدت هَمَا الرماد على أرض سبأ وغطى كل شيء. نهضت مفزوعة، هرعت إلى زوجها عمرو ابن فريقياد، كان مختليًا في الحديقة باثنتين من جواريه، ووقف أمامها نصف عارٍ، نصف خجل، كأنما كان يتوقع أن تلومه، ولكنها قالت:

ـ ما رأيت كاليوم، حلمًا أزال عني النوم، رأيت غيمًا أرعد وأبرق، وزمجر وأصعق، فما وقع على شيء إلا أحرق.

وأكمل الملك ارتداء ثيابه في هدوء، أشار إلى الجاريتين بالانصراف ثم جلس يستمع إلى حلمها، ولم يستطع أن يمنع ابتسامة السخرية من التسلل إلى شفتيه وهو يرى جسدها المرتجف، فسبأ أرض خضراء ممتدة إلى أقصى البصر، والسد في أعلى الجبل يخزن قطرات المطر، ويقاوم سنوات الجفاف، ما هذه الأحلام سوى بعض أعراض الاضطرابات الجنسية، طلب منها أن تنسى الحلم، ووعدها بأن يزور فراشها.

وفي اليوم التالي اشتد الحر حتى احمرت السماء، وأخذ الشجر ينكفئ بغير ريح، وهذه المرة تسربت النذر إليها وهي يقظى، هرعت إلى خلوة الملك وزفر في ملل بالغ وهي تهتف به:

ـ والنور والظلماء، والأرض والسماء، إن الشجر لهالك، وليعودن الماء كما كان في الزمن السالك.

ولم يرتدِ عمرو ثيابه، ولم يأمر الجاريتين بالانصراف، ولم يعد «طرفة الخير» بأي وعد، كانت وحيدة تحت السماء الحمراء، وسط الشجر المنكفئ، حاولت أن تصعد الجبل فأعيتها المحاولة، سارت في الشوارع الغافلة التي لا تحس دبيب الموت، في الخانات حسبوها إحدى البغايا، وفي المعابد حسبوها صابئة،وهتف الأطفال خلفها: يا طرفة الشر، وقال كبار القوم لعَمْرٍ: جُنَّتْ زوجتك.

وكان عمرو برغم مغامرات الحديقة اليومية لا زال يحبها، سألها عما تريد، قالت:

ـ اصعد إلى السد، فإن رأيت جرذًا يكثر بيديه الحفر في السد ويقلب برجليه في جوف الصخر، فاعلم أن هذا أوان الغمر، وأنه قد وقع الأمر.

ابتسم عمرو في إشفاق ووافق على اصطحابها، وكان الطريق عاليًا وعرًا، وبسبب ذلك لم يحاول أحد الصعود منذ عشرات السنين، ولا أحد يدري ما هي تلك الأيدي العملاقة التي شقت الطريق، وقدت الصخر وأقامت السد وصنعت تحته الحياة.

ونظر عمرو لاهثًا إليها، رأى وجهها هادئًا، محملق النظرات، وكان السد شامخًا منيعًا، متراص الأحجار مثل وجه عجوز متغضن، وأوشك عمرو أن يهتف فيها: أرأيت أيتها المجنونة؟ ولكنها قالت:

ـ لا تنظر إلى أعلى حيث لا أثر للسحب.. انظر إلى أسفل حيث نذر الخطر.

ونظر عمرو أسفل السد فرأى الفئران، المئات منها، الآلاف، تنشب أظافرها في الطين وفي الصخر، تفتته في دأب مروع، بعنف الطواعين والأوبئة، لعنة لا تهدأ، وبدا السد الذي كان شامخًا مرتعدًا أمام هذه

الجحافل، وتمتمت طريفة: إنه سيل الدم الذي يبقي ولا يذر، وصرخ فيها زوجها:

ـ أمسكي لسانك أيتها الكاهنة الحمقاء.

ثم أضاف في توسل:

ـ إنها نهاية مأرب يا طريفة، ولو نشر الخبر لتدافع الناس للهرب، فلننجُ نحن بأموالنا ولنبعْ ضياعنا ثم نرحل إلى مكان آخر.

قالت طريفة في ذهول: ولكنك الملك.

قال: لا ملك أمام الطوفان.

وهبط عمرو متظاهرًا بالهدوء، وحبس طريفة في أقصى قصره وأشاع أن جنونها قد تم، وافتعل مشاجرة مع ابنه ومع أقرب أصدقائه، ومع كل من يحيط به، وأقسم ألا يعيش في هذا البلد الذي أهين فيه وأخذ يبيع ضياعه وأمواله، واغتنم الجميع فرصة غضبه ونسوا طريفة الخير وتحذيراتها، وعندما جاء الطوفان كالقيامة، نسيها الجميع للمرة الثانية، وظل الماء يرتفع في غرفتها محملًا بالرمل والحصى والجرذان الميتة وبقايا البيوت والذكريات حتى كفت عن الكلام، أغرق السيل العرم كل شيء، وهامت قبائل اليمن على وجهها تبحث عن مستقر جديد، وبالتأكيد كان أجدادي من بين هذه الجموع الهائمة.

لم أكن أكره طريفة، ولكني لم أكن أريد لقاءها، ولكن عندما يكون دليلك امرأة عمياء كزرقاء اليمامة عليك أن تتوقع اللامتوقع، صحت فيها:

ـ لا أريد كاهنة، لا أريد امرأة تخترق حجب الغيب الذي أخشى مواجهته.

قالت زرقاء اليمامة: وماذا تريد إذن..؟

قلت: امرأة ضعيفة، تعشق وتخاف من الغيب، وتتفاءل باللحظة الحاضرة.

هتفت في حدة: أيها الأبله، لا توجد امرأة ضعيفة حتى ولو كانت عاشقة.

.. وتركتني أتخبط وحيدًا.

من أين تبدأ قصص العشق في الصحراء؟ كيف تنمو زهوره الرقيقة وسط حياة قاسية وشمس لاسعة، تعري الرمال وتكشف المستور؟ لا بد من فج بين الصخور، يسع رجلًا وامرأة، بعيدًا عن الشراك والكمائن، في الليل عندما يهبط بردًا وسكينة، لا بد أن هناك امرأة تنتظر رجلًا، مثلما كانت «ليلى الأخيلية» ترتقب عودة «توبة»، ولكن القبائل كانت قد ضجت من غزواته فأقامت له كمينًا لم يفلت منه، ولم يعد إليها إلا جثة ناقصة الأطراف، قالت فيها كل أشعار الرثاء، تحول حزنها إلى غضب هائل على قومها الذين تقاعسوا عن الثأر، لم ينقذهم منها إلا الموت حين دفعتها ناقتها فماتت على قبر توبة.

ولكن «عبلة بنت مالك» أخذتني بين ذراعيها، سحرتني بجمالها في هذا الوادي القفر، قالت: يبدأ العشق بي، من اللحظة التي أحبني فيها «عنترة» وأعلن حبه بصرامة السيف وبلاغة الكلمات، قلت: ولكنك لم تشئي أن تتزوجي به يا عبلة، قالت في استنكار بالغ: أتزوج عبدًا؟! يكفي أن حبي له منحه الخلود، لو أنه عشق زنجية مثله فهل كان يتذكره أحد؟ وكانت صادقة وقاسية.. وامتلأ الوادي بأصوات النساء، هل يوجد كل هذا الكم من العاشقات؟

جاءت «عزة»، برغم أنها أنكرت أكثر من مرة أنها عاشقة، كانت خجلى لأن عاشقها هو الشاعر «كثير»، رجل لا يتجاوز طوله الأشبار الثلاثة في

عالم حافل بالفرسان الضخام الحجم المرتفعي القامة، لم يقدم لها من بهاء العالم إلا قلبه وأشعاره، وظل يسير خلفها بقامته القصيرة كأنه ظل لها، تعشق غزله فيها، وتكره ما تراه منه، أمير للشعر ولكن في إهاب ضفدع، ليس فيه من عضو بارز تفاخر به صويحباتها.

ولكن جاءت «لبنى» شامخة، كان «قيس بن ذريح» يعشقها كأنها الضوء لعينيه، وعندما تزوجها حسب أنه امتلك أعذب آبار الصحراء، ولكنها فشلت في أن تنجب له ولدًا، وألح عليه أبوه وأمه أن يطلقها ولكنه رفض، فأضربت أمه عن الطعام، ووقف أبوه في العراء تحت الشمس والطل والعصف والمطر عامًا كاملًا، وظل قيس يتوسل إليه أن يرحم شيخوخته ولا يملك إلا أن يظلله برداائه، لعل حدة الشمس تخف عنه قليلًا، ولكنه كان يفشل دومًا في إثناء أبيه، وعندما يعود إلى لبنى يبكيان معًا، وتهتف لبنى به: «لا تستمع إليهما فتضيع وتضيعني».. ولكنه لم يستطع المقاومة، أخيرًا طلقها من أجل إرضاء والديه ولكنه عجز عن الارتباط بأخرى، وعجز عن مواصلة حياته بدونها، أخذ يهيم على وجهه، وعندما اكتشف والداه أنه على وشك أن يضيع منهما ذهبا إلى لبنى، توسلا إليها أن تعود إلى قيس، ولكنها كانت قد تعلمت درس الإقصاء جيدًا ورفضت العودة.

وعندما سرت إلى طرف الوادي وجدت «ماوية» وهي جالسة تبكي، قلت لها مندهشًا: أتبكين وأنت زوجة سيد العرب وأكرمهم؟ نظرت إليَّ وهي تحاول أن تمسح الدمع من على وجهها الجميل، كانت أجمل صبايا العرب، ورفضت الكثير من الخطاب حتى سار إليها ثلاثة شعراء مرة واحدة: زيد الخيل، وأوس بن حارثة، وحاتم الطائي، كلهم جاءوا يخطبونها دفعة واحدة.. ورحبت ماوية بهم، وفرقتهم في خيام منفصلة، وزادت في إكرامهم، وبعثت إليهم بالهدايا، ثم تنكرت في زي سائلة وذهبت إلى خيامهم، وأعطاها زيد الخيل شيئًا قليلًا، وأعطاها أوس

نصف ما معه، أما حاتم الطائي فأعطاها كل ما عنده، وحين طلبت منهم قول الشعر والمفاخرة، تحدثوا جميعًا عن أشياء خيالية ومبالغ فيها، ولكنها كانت في حاجة لأن تصدق حاتمًا؛ لذلك قالت لهم في نهاية الزيارة:

ـ أما أنت يا زيد فقد وترت العرب وبقاؤك مع الحرة قليل، أما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر والدخول عليهن شديد، وأما أنت يا حاتم فمرضي الأخلاق محمود الشيم، كريم النفس، وقد زوجتك نفسي.

وتزوجت ماوية من أكرم العرب كما تصورت، وسار بها إلى ديار بني طيء، ولكن كرمه الحاتمي تحول إلى سفه حقيقي، اكتشفت ماوية أن زوجها يمكن أن يمنح أي شيء، بلا حساب ولا تردد، يكفي أن يمر أي صعلوك ويطرق بابه حتى يهديه آخر كيس طحين، ويذبح آخر شاة، ويتنازل له عن آخر جذوة نار، أضاع إبل جده، وتجارة أبيه وإرث أخواته، وتخيلت ماوية أنه ستأتي اللحظة التي سيمنحها فيها لأي صعلوك..وهمس مالك ابن عمه في أذنها:

ـ ما تصنعين بحاتم؟ إنه يتلف كل ما يملكه، وعندما يموت سيتركك ويترك أولادك عبئًا على قومك، لا تملكون إلا ذل السؤال وأنا خير لك منه، أكثر مالًا وأقل سفهًا، طلقيه وأتزوجك.

كانت مترددة، لا تريد أن تترك زوجها، ولكن حاتمًا لم يرحمها أو يعطها فرصة للمقاومة، ظل يتصرف بنفس الحماقات، وفي أحد أيام الجوع ظل الأولاد يرتجفون وماوية تشاغلهم بالحديث حتى ناموا وهو جالس أمامهم لا يفعل شيئًا، وفي آخر الليل جاء جوعى غرباء، وفوجئت به ينهض ويشرع سيفه ويذبح فرسه الوحيدة ويقدم لحمها للجميع، ولم تطق ماوية، أدركت أنها إزاء رجل مجنون قد فقد عقله، وهكذا قررت الاستجابة لإغراءات مالك وأن تطلق حاتمًا كما تزوجته.

وحولت ماوية باب خيمتها، كان للشرق فحولته للغرب، وجاء حاتم ورأى الباب المتحول فأدرك أن زوجته قد خلعته، عزت عليه نفسه فأدار ظهره لها وهبط إلى وادٍ قريب، وجاء الصعاليك وتجمعوا أمام باب الخباء حتى بلغ عددهم أكثر من خمسين، وضاقت ماوية بهم ذرعًا، فأرسلت جاريتها إلى مالك تقول له:

- إن أضيافنا قد نزلوا منا فأرسل إلينا ما نضيفهم به.

ولكن مالكًا صرخ في وجه الجارية:

- لقد أصبحت حمقاء كزوجها، إن هذا الذي طلبت منها أن تطلق حاتمًا من أجله.

وعادت الجارية خائبة، وقالت ماوية في يأس: اذهبي إلى حاتم.

ولبى حاتم النداء، ذبح ناقته وجاء يسعى إلى أضيافه، وصرخت ماوية في وجهه:

- أيها الوغد، هذا الذي طلقتك فيه، تركت ولدك وسعيت وراء أضيافك، اللعنة عليك وعلى اليوم الذي أخذتك فيه.

وتركته ومضت عبر الصحراء، لقد دفعت ثمن اختيارها، ورفضت كل الرجال، كانوا هم نقطة ضعفها الوحيدة، وجلست في وادي عبقر، لم تكن عاشقة حقيقية، ولكنها لم تستسلم لحظة واحدة لمصيرها.

لم أكن أدري إلى أين أذهب وتلك النسوة يحطن بي، تدفعنني بعد أن فقدت سيفي وأشعاري وأشجاري التي أستظل بها، في هذه الصحراء الواسعة، حملت المرأة الحياة دائمًا، وحملت الموت أيضًا، كانت فيها رقة الصبا وشواظ الهجير ووخز الصبار، أجادت الولادة والدفن وممارسة الحب وقول المراثي، ذهبت إلى أعماق وادي عبقر فرأيت الزباء على عرشها، ورأيت زرقاء اليمامة جارية من جواريها فأبهجني ذلك.

كانت «الزباء» ما زالت تعد العدة للانتقام من جذيمة ملك الفرات الذي قتل أباها، كانت بنتًا هزيلة، بلا زوج، وجذيمة فارس محاط دوما بالفرسان، ولم تكن هي تملك إلا ضعفها، ولكنها أرسلت إليه تقول:

ـ أنا الزباء ملكة البتراء، ولكن ملك النساء قبح في السماع وضعف في السلطان، فأقبل إليَّ، تزوجني وتولَ أمري، وستجدني زوجة مطيعة ومحبة.

وأيقظت الرسالة كل أحلام الطمع في نفس «جذيمة»، سيوسع ملكه ويطأ ابنة عدوه القديم، سأل الذين يحيطون به فاتفق رأيهم على السير إليها، كانت أضعف من أن يخشوا ثأرها،ولكن نديمه « قصيرًا» هتف به معترضًا:

ـ رأي فاتر، وغدر حاضر، لا تمكنها من نفسك فأنت قد وترتها وقتلت أباها.

ولكن الجميع هزؤوا منه، ماذا تفعل امرأة كالزباء حيال ملك عظيم كجذيمة؟ حتى عمرو بن عدي ابن أخته وولي عهده قال له:

ـ لو أن قوم الزباء رأوك مقبلًا عليهم، لصاروا معك وانفضوا عنهم.

وهمهم قصير في نفسه: لايطاع لقصير أمر.. فصارت مثلًا.

وسار جذيمة إلى أرض الزباء، واستقبله الرسل بالهدايا والوعود المغرية، وانتفخت أوداج الملك وهو يقول:

ـ كيف ترى يا قصير..؟

قال قصير: خطب يسير في أمر كبير، وسيلقاك الجيش فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة، وإن أخذت جنبيك وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك.

وسار جذيمة مزهوًّا، يسمع الهتافات ويرد على التحايا، وسرعان ما نسى نصيحة قصير. لقيته الخيول والكتائب، وأحاطت به من جنبيه ومن خلفه، ورأى «قصير» نذر الغدر فلوى عنان جواده وهرب، قبض الجنود على جذيمة وقادوه إلى الزباء، طرحوه تحت قدميها، وحين رفع رأسه مدهوشًا متسائلًا عن مصير عرض الزواج، وردت الزباء في سخرية:

- أشوار عرس ترى..؟

قال في أسف: أمر غدر أرى.

دماء الملوك شفاء من الثأر.. دعت الزباء بالسيف والنطع وبطست من ذهب، وقدمت لجذيمة الخمر ليسكر سكرة الموت، وأمرت بقطع عروق باطن الذراعين، وتركتهما يقطران في الطست الذهبي، وكان العرافون قد قالوا لها: لو أن قطرة قطر من دمه وقعت خارج الطست الذهبي فسينهض من يطالب بثأره، فلما ضعفت يدا الملك سقطتا، وبدأ دمه يقطر خارج الطست وهتفت الزباء: لا تضيعوا دم الملك، قال جذيمة وهو يحتضر: دعوا دمًا ضيعه أهله.. وبعد أن لفظ جذيمة آخر أنفاسه، سارت الزباء إلى كاهنتها، حكت لها عن الدم الذي سال خارج الطست، ونثرت الكاهنة أحجارها على الرمل وقالت لها:

- سيكون هلاكك على يد ابن أخته عمرو بن عدي.. ولكن حتفك سيكون بيدك.

واستعدت الزباء ليوم الثأر الآتي، كانت تريد أن توقف النبوءة وتمنع الغيب، أقامت الأسوار والحصون وحفرت الأنفاق، وحولت مملكتها إلى قلعة منيعة، ولم تسمح لنفسها بأي متعة عابرة، وبعثت واحدًا ممن يجيدون الرسم وأمرته أن يرسم لها «عمرو بن عدي» في جميع الأوضاع، جالسًا، وراكبًا، ومتسلحًا. وذهب الرسام وعاد معه كل ما طلبته من صور

وضعتها في غرفتها وأخذت تتأملها، هذا هو عدوها الذي سيقبل عليها محملًا برغبة الثأر، نحيف كشاعر، قوي كنبات صحراوي، وجلست تتأمله، ومع مرور الليالي سرت بينهما علاقة غريبة، وشيئًا فشيئًا اكتشفت أنها تجلس في انتظاره.

وكان عمرو مذهولًا تحت وطأة الصدمة، وقصير يقف أمامه، كيف يحصل على ثأره من الزباء وهي أمنع من عقاب الجو؟ ولكن حيل قصير لم تنفد بعد، قال لعمرو:

ـ اجدع أنفي واضرب ظهري، ودعني أحاول الوصول إليها.

وخرج قصير متظاهرًا بالهرب من عند «عمرو»، مجدوع الأنف مضروب الظهر، وسار إلى أرض الزباء وترك الحرس يقبضون عليه ويقودونه إلى عرشها، نظرت إلى حالته الرثة، وبكى قصير أمامها:

ـ يتهمني عمرو أني غررت بخاله، وغدرت به حتى قتل ثم فررت هاربًا، وها أنا الآن هارب إليك منه فافعلي بي ما تريدين.

شاهد آخر من عند عدوها عمرو بن عدي، هل يمكن أن يخبرها بنقاط ضعفه؟ أكرمت قصيرا، وتركته يتكلم، حكى لها عنه، كأنها كانت تعرفه منذ مولده، كأنها كانت تنتظره، تمنت الزباء لو لم يكن بينهما ثأر ودم مباح، واستطاع قصير أن يكتسب صداقتها، وأخذ يلح عليها في أن تسمح له بالعودة إلى العراق، هناك خبأ كل أمواله بما فيها من ذهب وياقوت وعطور وثياب، لو أنها تركته يمضي لأحضر قافلة لم ترَ مثلها من قبل. ورفضت الزباء، ولكنه بالغ في الحديث عن الجواهر النادرة والعطور المعتقة، ولم يكن يطلب في مقابل كل هذا إلا الإذن بالخروج، ومجرد ناقة، وبرغم حذرها فقد سمحت له بالخروج، وظلت تترصد وقت عودته.

وحين عاد اكتشف حرس الأبواب والأسوار أنه يقود قافلة خيالية، ولم تحلم الزباء أن تشاهد كل هذا المقدار من الذهب واللآلئ، ولا أن تلبس مثل هذه الثياب الحريرية، ولا أن تشم مثل هذه العطور، أحست أنها امرأة حقيقية، ولبستها ووقفت أمام صورته، ولكن نظرته القاسية لم تلن.

ومرة أخرى طلب منها قصير الإذن بالسفر لإحضار قافلة أخرى، وهذه المرة لم تعترض، ولم يغب كثيرًا، عاد بقافلة أكبر من الأولى وأكثر طولًا وأحمالًا، ونزلت هي إلى باب القصر تتأملها، كانت أقدام الإبل تسوخ في الرمال من ثقل ما تحمل وهتفت الزباء:

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلًا يحملن، أم حديدا؟

وقال قصير في نفسه: بل الرجال قبضًا قعودًا.

وللحظة أدركت الزباء ما حدث بالضبط؛ الجمال أمامها، والسيوف تشق الغرارات، وقفز الرجل الأول من فوق الجمل الأول، إنه هو؛ عمرو بن عدي، أشد قسوة مما رأته في الصور المرسومة، لو أنه يتمهل قليلًا، لو يمارس معها الحب للحظات، لو يعدها أي وعد، لكن الأحمق لم يكن يفكر إلا في الموت، وفتحت خاتمها، ومصت ما فيه من سم «بيدي لا بيد عَمْرٍ».. تمامًا كما تنبأت العرافة، وحين غرس سيفه في صدرها لم تحس، كانت تبتسم: أخيرًا جئت يا من انتظرتك طويلًا.

انتهت رحلتي وعدت لنقطة البداية، صعدت من الجنوب للشمال، من الخروج للعشق للموت، ورأيت الصحراء أشد حياة بالنساء برغم الشعر والوأد والاغتصاب والاختطاف وكل صنوف الهوان، هن روح الصحراء الحقيقية وحقيقتها المؤكدة، ولو أن قبيلة ما لم تفنها الحروب ولم تضيعها ريح السموم؛ فذلك لأن امرأة عاشقة منحتها الحياة.



عندما تولى «يزيد بن عبد الملك» الخلافة، كان شابًّا متقشفًا خجولًا، على وجهه مسحة من الحزن، وتساءل المحيطون به من بني أمية: هل يقدر هذا الشاب النحيل على مواجهة غاويات الحكم؟

الغواية الأولى

في اليوم الأول دخل إلى قاعة الحكم و توقف مندهشًا، تأمل العرش الذهبي اللون الذي يتصدر القاعة، كان براقًا ومغريًا كامرأة مستكينة، تترقب إقباله إليها في دعة، ولكنه قال:

ـ أنا لست كسرى ولا قيصر، أحضروا لي مقعد ابن عمي عمر بن عبد العزيز.

قال أخوه هشام بن عبد الملك: ولكنك لن تؤثر في قلوب العامة والأعراب إلا بهذا العرش.

ولكن الخليفة هز رأسه نافيًا وأصر على رفضه، تبادل رجال الحكم من بني أمية نظرات قلقة، ها هو خليفة متقشف آخر يقبض على زمام الحكم ويوشك أن يقبض على رقابهم، كأن لم يكن كافيًا ما فعله الخليفة الأسبق



حين حاسبهم حسابًا عسيرًا وجرأ العامة عليهم وصادر أملاكهم بحجة أنه مال المسلمين، وجعلهم يسيرون على الحق كأنه سيف جارح. كانوا يحسبون أن هذا الخليفة الجديد سيتيح لأهله - من بني أمية على الأقل - أن ينعموا بالغنائم التي تنهال عليهم من فتوحات البلاد التي لا تتوقف.

لم تكن بداية مشجعة، خاصة بعد ما حدث في المسجد الكبير، حيث كان الشيخ «ابن مكحول» يلقي أحد دروس العلم، وفوجئ الجميع بيزيد وهو يقبل عليهم، فردًا وحيدًا في ملابسه العادية دون شيء من أبهة الإمارة، ولكن الجميع كانوا يعرفون أنه أخو الخليفة الحالي سليمان ابن عبد الملك، وأنه الخليفة القادم. أسرعوا يوسعون له مكانًا في صدر المجلس، ولكن «ابن مكحول» أشار للجميع أن يبقى كل في مكانه، وأشار للأمير أن يجلس حيث هو في نهاية الصف، وربع يزيد ساقيه وجلس دون أن ينطق بكلمة، واستمع للدرس حتى نهايته ثم تناول نعليه وانصرف.

كانوا يعرفون ذلك ولكنهم كانوا موقنين أنه سوف يتغير، فللحكم طباع أخرى، وكان لا بد من توالي الغاويات.

الغواية الثانية

جاء والي المدينة «عبد الرحمن بن الضحاك» يجر خلفه جمعًا من العصاة والخارجين عن السلطان، كان قد سجنهم وعذبهم، وجعلهم يقرون بكل ما فعلوه وما لم يفعلوه، وها هو يسوقهم كنوع من الهدية للخليفة بمناسبة عهده الجديد، ولكن يزيد تأمل وجوههم، استطاع أن يتعرف على عدد منهم برغم التعذيب والإنهاك والتشويه كانوا من أشراف مكة والمدينة، قال: من هؤلاء؟

قال ابن الضحاك متفاخرًا: إنهم الأعداء من العلويين والمتمردين المطالبين بالخلافة، وقد نصرنا الله عليهم.

كان بنو أمية قد قتلوا الكثيرين منهم، ولكن كلما قتل إمامًا ولد من بطن الغيب إمام خفي، وكلما قمعوا فتنة اشتعلت أخرى، وحتى عندما حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي المنشقين داخل الكعبة ورماها بالمنجنيق، لم تنه هذه الفعلة على بشاعتها الصراع الضاري حول الخلافة، أشار الخليفة للعصاة وهو يقول:

ـ فكوا قيدهم وأجلسوهم أمامنا لنراهم ويرونا، ونكلمهم ويكلمونا.

قال ابن الضحاك مستنكرًا: ولكن هذا سيجرئ أعداءنا علينا.

أمره الخليفة بالانصراف من مجلسه فورًا، وسرعان ما عزله. كان حلم يزيد أن يعم السلام هذه البقعة من الأرض التي لم تهدأ منذ أن اغتيل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، أصدر أوامره إلى الولاة أن يكفوا عن مطاردة العلويين الأحياء، وأن يتوقفوا عن نبش قبور الموتى، أدرك الجميع أن الخليفة لن يتغير، سيظل ذلك الرمح الصلب الذي لا ينحني، يصحو مع الفجر، يخرج من القصر ويذهب للمسجد ليصلي بالناس، ثم يغشى الأسواق ليراقب حركة البيع والشراء، ثم يتفقد السجون، ويرسل الرسائل لولاة الأمصار، ثم يفتح بابه للمظاليم وطلاب الحوائج، يفعل هذا كل يوم في دأب لا يهدأ، وكان لا بد من البحث عن نقطة ضعف له، تنفذ منها كل الأهواء والرغبات لعله يلين.

الغواية الثالثة

كان الخليفة جالسًا مع زوجته «سعدة» الأثيرة إلى نفسه، كانت هي

أيضًا تخشى من تزمته وعدم انفتاحه على الآخرين، كانت تحمل في داخلها كل مخاوف أهلها من بني أمية، قالت له:

ـ يا أمير المؤمنين ـ يا زوجي وابن عمي ـ هل بقي لك شيء من الدنيا تتمناه؟

تأملها في شرود، في تلك اللحظة لم يكن يريد شيئًا، ولكنه قبل أن يجلس على هذا العرش الصعب، كانت له أمنيات ورغبات، أراد أن يمتلك «حبابة»، ذلك الصوت الذي جعله يهيم في الصحراء، كان ذاهبًا للحج، و استضافه أحد تجار مكة الموسرين، وفي بيته سمع صوتها الذي ما زال يرن في أذنه حتى هذه اللحظة، قويًا ورائقًا ورنانًا، لا يصاحبه إلا إيقاع من وتر مهتز، وعندما كشفت له عن وجهها وجد أنه لا يقل جمالًا عن صوتها. كائن رهيف، عيناها واسعتان، متألقتان وحزينتان، وشعر أسود منسدل، ورقبة رفيعة، حين تشدو تبدو العروق الزرقاء الشاحبة من خلف جلدها الرقيق، أوتارًا من السماء، عرف أن اسمها «حبابة»، ولكن الجميع كانوا يطلقون عليها لقب العالية؛ لأنها كانت الأعلى قيمة بين كل المغنيات والمحظيات، وأصر مالكها على أن لا يبيعها إلا بأربعة آلاف دينار كاملة، ولم يشفع له أن طالب الشراء هو شقيق الخليفة.

ومن فرط الشغف دفع يزيد كل ما معه من مال، واستدان من بعض أصدقائه، وأرسل مكتوبًا عاجلًا لأخيه الخليفة سليمان بن عبد الملك يطلب منه مددًا من المال، ولكن الخليفة فزع عندما عرف المبلغ المهول الذي دفع في جارية واحدة، فأرسل إليه مهددًا:

ـ أيها الأرعن، تخلص منها فورًا وإلا قمت بالحجر عليك ونحيتك عن ولاية العهد.

لم تكن للخليفة العين التي يرى بها حبابة، ولا الأذن التي تستمع لشدوها، كان فقط يملك قوة الأمر والحسم. وهكذا بروح منكسرة طرح يزيد «حبابة» للبيع مرة أخرى، وعرف الجميع أنه مرغم على بيعها، ساوموه عليها وبخسوا سعرها، بيعت بنصف ثمنها، لم ينسَ نظرة اللوم والعتاب التي ألقتها عليه «حبابة» وهي تسير إلى مصر خلف مالكها الجديد، كانت حلمًا جميلًا لم يستطع الحفاظ عليه، تركت حياته خالية دون شدو أو جمال، وظلت هذه الخسارة تحز في نفسه حتى بعد أن امتلك نصف العالم، رفع رأسه وتأمل زوجته بنظرة شاردة، وقال بصوت حالم: «حبابة».

صممت الزوجة، كان الأمر أكثر من مجرد الغيرة، من رغبة زوجة تريد أن تستأثر بزوجها، كان الأمر يخص كل بني أمية ومصالحها المهددة، وكانت «حبابة» هي مفتاح اللغز الذي يبحث له الجميع عن حل، انطلقت الرسل سريعًا إلى مصر، تبحث عن التاجر الذي اشتراها، خصصت سيدة الخلافة المال اللازم لشرائها، وتفرغ الوالي الأموي في مصر لاستخلاصها، وتمت الصفقة في أسرع وقت، حملوها على الخيل السريعة إلى الشام، لم يكن هناك وقت لأن تحمل داخل هودج مريح على ظهر جمل، كان يجب أن تصل إلى دمشق قبل أن يندم الخليفة عن كشفه لنقطة ضعفه.

وقفت «حبابة» مجهدة ومرعوبة ومغطاة بالرمل أمام زوجة الخليفة، تأملتها «سعدة»، كانت أصغر وأجمل، ولكنها رهيفة بحيث لا تثير العداء، أمرت جواريها بأن يحمموها ويعطروها وأن يلبسوها أفخر الثياب، وانتظر الجميع، وفي المساء، عندما جلست سعدة إلى الخليفة وصفقت بيدها، فانزاح الستر وبدت «حبابة» من خلفه، كانت منهكة ولكن بهية ومندهشة، لؤلؤة أخرجت لتوها من البحر، وتأملها يزيد وهو غير قادر

على الكلام، وتركتهما «سعدة» ولكنها لم تبتعد كثيرًا، وقفت تتنصت خارج الباب وقد بدأت الغيرة تدب في قلبها، لم تكن قد رأت على وجه زوجها مثل هذه الأمارات من اللهفة والفرح من قبل، لا لها ولا لغيرها، لم تسمع شيئًا، لا أصوات حديث، ولا أنغام غناء، ولا تأوهات حب، ماذا يحدث بالضبط؟

لم تطق سعدة صبرًا، دفعها فضولها لدخول الغرفة مرة أخرى برغم أنها كانت تجازف بإغضاب الخليفة، كان في مكانه، وحبابة في مكانها، وهناك ستر منسدل بينهما، كل منهما يشعر بوجود الآخر، ولكنهما منفصلان، وقفت سعدة مذهولة وهي تقول:

ـ ما بالك يا مولاي؟ هذه «حبابة» التي ابتغيتها طويلًا.

نظر إليها يزيد بعيون غائمة وهو يقول:

ـ بلى، ولكني أخاف الله.

الغواية الرابعة

في الصباح فوجئ الخليفة، بمشايخ دمشق وعلمائها يطلبون الدخول إليه، هناك أمر جلل لا يحتمل الانتظار، كانوا أربعين شيخًا، أشكالهم مهيبة، ولحاهم بيضاء ومسترسلة، يلبسون العباءات الواسعة، ويضعون على رؤوسهم العمائم الضخمة وفي أيديهم مسابح ومصاحف، تقدم إمام المسجد الكبير وهو يقول:

ـ جئنا يا مولاي من أجل خيرك وخير الناس، فأنت تأخذ نفسك بالشدة، وتبالغ في التقشف، وتحرم نفسك من كل متع الدنيا وملذاتها.

قال الخليفة مندهشًا: وإنما أخاف الله، وأبغي رضاه.

كان جسده قد غدا نحيفًا، وما زال على دأبه، يستيقظ مبكرًا، فيصلي بالناس، ويطوف بالأسواق والسجون، وأحس بنو أمية بالخطر الحقيقي عندما أخذ يفرج عما فيها من سجناء، خاصة أعداء الدولة من العلويين. كان من المهم أن ينام الخليفة متأخرًا؛ حتى لا يستيقظ مبكرًا إلى هذا الحد ويحدث كل هذا القدر من المتاعب.

وبادر الشيخ الإمام ففرد رقعة كبيرة من الجلد مكتوبًا عليها آيات كثيرة وأحاديث أكثر وهو يقول:

ـ ها قد جمعنا كل ما قيل في أحكام السلطان من فتاوى وأحاديث، وكلها تجمع على شيء واحد ومؤكد، ليس على الخلفاء والسلاطين حساب ولا عقاب في الآخرة.

هتف الخليفة: أتقول الحق؟

تقدم أكثر من شيخ وهم يقسمون على ذلك، أمسكوا بلحاهم البيضاء مؤكدين، وهزوا عمائمهم الضخمة في ثقة، وفتحوا كتبهم وهم يتصايحون، وعاد الشيخ يقول:

ـ كلنا متفقون في هذا الرأي، فالسلطان القوام لا يحاسب، والخليفة القادر لا يعاقب، وما يتحمله في الدنيا من أعباء الحكم يكفيه ويجعله بريئًا وطاهرًا أمام رب العالمين، إنه ظل الله في الأرض.. فكيف يحاكم ظله؟

ونهض الخليفة صارخًا: يا صاحب الشرطة.

ودب الرعب في قلب كل المشايخ، أدركوا أنها النهاية، ظلوا يترقبون مقدم صاحب الشرطة بقلوب واجفة، ولكن عندما دخل بادره الخليفة قائلًا:

ـ من الآن فصاعدا ستصلي أنت بالناس.

وأحنى صاحب الشرطة رأسه وهو يخفي ابتسامته، وتنفس شيوخ دمشق الصعداء.

أخيرا انطلق صوت «حبابة» بالغناء:

كفا حزنًا بالهائم الصب أن يرى

منازل من يهوى معطلة قفرا

حانت لحظتها أخيرًا، تفرغ لها الخليفة، استيقظت الرغبات القديمة، لم يعد هناك ما يكبحها، سمعت الزوجة في الليل صوت ضحكاتهما وتأوهاتهما، أخذ القصر كله يتجسس عليهما ويحرص على سماع أصواتهما، كانوا جميعا يريدون الاطمئنان أن الخليفة لن يفلت بعد الآن من فخ الغواية.

أصبح يزيد بن عبد الملك منتشيًا على الدوام، سكران معظم الوقت، وبعد أن كانوا يخشون خروجه إلى الناس حتى لا يكشف كل شيء، أصبحوا لا يريدون خروجه حتى لا يرى الناس حالته، وأحست «حبابة» أيضًا أنها مراقبة من الجميع، وأن زوجة الخليفة قد بدأت بالتحرش بها، واتفقت هي ويزيد أن عليهما أن يغادرا هذا المكان.

وجاءت اللحظة التي انتظرها بنو أمية، حين جمعهم وقال لهم:

ـ لقد قررت أن أعتزلكم.. سأذهب أنا وحبابة وحدنا إلى قصر الغوطة.

خرج الخليفة من مركز الحكم إلى أطراف عاصمته، كانت المسافة قليلة، ولكنه خرج من مركز العالم دون أن يدري، ترك عرشه خاليًا يتنازع عليه الجميع. كانت «الغوطة» باردة الهواء كثيفة الأشجار، نضرة الفواكه، ولكنها لم تكن العالم الحقيقي. فرش القصر بالبسط والنعم، وملأه بالجواري وعازفي الموسيقى ومقطري الخمر، ولم يقبل أن يدخل عليه قاضٍ أو رسول، تفرغ لحبابة بكل طاقته وكامل وقته.

ولكن المتعة حلم عابر كما يقولون، كانا جالسين معًا وبينهما طبق من أعناب الغوطة، كانت تقذف له حبة فيلتقطها بفمه، ويقذف لها أخرى فتلتقطها بفمها، ويقبلان بعضهما ثم يعاودان الكرة، فوجئ بها تشرق وتسعل بشدة، ضحك منها ومن عنقها النحيل، وحسب أنها سوف تلفظ حبة العنب أو تبتلعها، ولكنها لم تستطع، تغير وجهها وازرق فجأة، وأصبحت عاجزة عن التنفس. توقفت الحبة اللعينة في مجرى القصبة الهوائية، صرخ الخليفة ينادي من ينقذها، كانت دمشق بعيدة، والأطباء أبعد، وانتفض جسدها المختنق وهي تجاهد عبثًا أن تظفر ببعض من الهواء، ثم همد كل شيء.

صرخ يزيد يطلب منها أن تستيقظ وأن تغني وأن تمارس الحب معه، وعندما جاءوا سريعًا من دمشق، حاولوا أن يبعدوه عن جثتها، أن يأخذوها منه ليدفنوها ولكنه صرخ فيهم وظل يحتضنها ويقبلها.

مر اليوم الأول وهو يحاول أن يبعث فيها الحياة، كان يعتقد أن حبه لها قادر على ذلك، ظل يحتضنها ويقبلها لعله ينقل إليها بعضًا من روحه، ولكن مع توالي الأيام بدأ السيد الموت يفرض رائحته الثقيلة وحضوره الدائم، ضاع العطر وتبدد الجمال وذوت الروح ولم تبقَ إلا رائحة العفن، لم يكن أحد قادرًا على الاحتمال، انتزعوا بقايا جسدها منه وهو يبكي، وبعد أن تم دفنها ظل مقيمًا على قبرها رافضًا أن يذهب إلى أي مكان آخر، كان يدرك أن النهاية قادمة، وعندما تحين اللحظة لم يكن يريد أن يكون بعيدًا عنها. فقد جسده إرادة الحياة، أخذته الغواية إلى أبعد مداها، واختصرت دولته الواسعة ـ التي كانت تمتد من حدود الصين إلى هضاب الأندلس ـ إلى تلك البقعة الصغيرة من الأرض، وكان آخر الملوك الذين ماتوا عشقًا.



هذه ليلتُنا الأخيرة معًا

كان حراسه من البربر قد تركوا مواقعهم، وساروا خلف جارية تتثنى حتى اختفوا معها في أحراش حديقة القصر، وكان حراسها من «الصقالبة» قد شربوا خمرًا معتقة من كروم «بلنسية» وناموا في أماكنهم وهم يصدرون أصوات شخير عالية، وكان البناؤون قد أحضروا معداتهم، وسلال الملاط والأحجار والصبغات ووضعوها في مكان خفي داخل القصر وكمنوا في انتظار الإشارة المتفق عليها.

لم يكن هناك قمر، وبدت سماء قرطبة مظلمة بأكثر من العادة، وغادرت السيدة الجليلة «صبح» غرفتها حافية القدمين، سارت كطيف شاحب على الرخام البارد في الممرات الطويلة، كان الصمت سائدًا إلا من حفيف ثوبها ووجيب قلبها، كانت غرفة «ابن عامر» في نهاية أحد الممرات الغامضة التي كانت تثير في داخلها الرهبة والشهوة. عندما وقفت بالقرب من باب غرفته كان جسدها يرتجف من التوجس والخوف والترقب، كانا يعرفان أنها ليلة الوداع الأخيرة، ولا بد أن يلتقيا، ولم تكن في حاجة لتطرق الباب فهو في انتظارها، حتى دون موعد مضروب بينهما.

كان ابن عامر جالسًا متكئًا على فراشه، لم يتحرك وهو يراها تقترب، لم يأخذ جسدها المرتجف في أحضانه، هل ماتت رغبته، أم إنه خائف



من الاقتراب منها؟ رأت عينيه النافذتين المتألقتين وهما تحطان عليها، التقطت أنفاسها وهي تقول له:

ـ ها أنا ذا أسعى إلى غرفتك.

قال في صوت هادئ: لطالما سعيت إليك يا مولاتي، وسوف أظل أسعى.

كان يكذب، تغير الفتي النحيف الذي وقف أمامها وهو يرتجف، غير قادر على النظر إلى وجهها الوضاح فانحنى على الأرض وقبل أطراف ثوبها، كانت هذه هي إيماءة الضعف الوحيدة التي قام بها، انتصب بعد ذلك واقفًا كعود غاب لا تثنيه الريح، كان لا يزال مجرد كاتب صغير على باب القصر، جاء من قرية صغيرة اسمها «تركش»، وافتتح دكانًا صغيرًا بالقرب من درج القصر لا يتسع إلا لمنضدة ومحبرة وعدة أقلام من البوص، لا يميزه إلا أسلوبه المنمق وخطه الجميل، وبدأ طلاب الحاجات يلجأون إليه من أجل كتابة الرقع والعرائض التي يريدون رفعها للخليفة أو للوزير أو حتى لها. كاتب مغمور يقف أمام سيدة القصر الأولى، منذ أن ألزم المرض الخليفة «الحكم بن هشام» الفراش، وقد امتلكت هي ناصية الأمور، في ذات يوم عندما تكاثرت الرقع قالت لحراسها من الصقالبة:

ـ آتوني بذلك الرجل الذي يكتب بهذه الأنامل الجميلة.

كانت حركة الحروف العربية التي لا تكف عن الاستدارة والتداخل تمثل لها لغزًا محيرًا، وهي لا تزال تقرأ العربية بصعوبة برغم طلاقة لسانها، وقفت جذورها الإسبانية عائقا أمام تعلمها هذه اللغة الصعبة، كان قد تم أسرها في إحدى الغزوات، اقتادوها كغنيمة حرب إلى مجلس الخليفة الذي بهر بجمالها الصامت، بجلدها الأبيض الشاحب كضوء القمر، وجدائل شعرها الذهبي، وعينيها الزراقتين القلقتين، ضمها إلى حريمه

المزدحم بنساء من مختلف الجنسيات، عرب وحبش وغجر وترك، ولكنها برزت من بينهن لتصبح السيدة الوحيدة، سيطرت على فراشه، ثم على عقله، وعندما مرض الخليفة سيطرت على عرشه، بدأت تخاطب الوزراء والقادة دون حجاب، وأخذت تعاقب من يجرؤ على التقليل من شأنها دون رحمة، ولكن هذا الشاب العربي بسمرته الداكنة يقف أمامها دون أن يتخاذل أو يخفض رأسه، ولكن عينيه تومضان كأنما يسكنه ضوء برق لا ينطفئ، لم تحس بالضعف تجاهه، ولكنها لم ترده أن يبتعد عنها، قالت آمرة:

ـ أغلق حانوتك، فإن لنا حاجة إليك في داخل القصر.

فكيف تبدل الزمن منذ هذه اللحظة الفريدة؟

قالت: هذه الليلة هي موعدنا الدائم منذ سنوات، انتظرتك أن تأتي، ولم تفعل، هل منعك الملل، أم أمسكك بالخوف؟

كانت تحدق فيه، تمالك نفسه حتى يقدر على مواجهتها، قال:

ـ حاشا أن أمل منك، ولكن عيون الخليفة تلاحقني، ورجال «المصحفي» يراقبون خطواتي.

كان يكذب، وكان كلاهما يعرف أنه يكذب، منذ أن دخل القصر وقد تعلم أن عليه أن يجيد لعبة الكذب، الجميع يتصارعون حول فراش الخليفة المريض، ولكنه اختار أن يتوجه مباشرة إلى فراشها، كان جسدها يستجيب بمعزل عن شخصيتها، ولكن كان عليها أن تحميه من سيوف الحراس القيمين على الخليفة، ومن مكائد «المصحفي» حاجب الخليفة ووزيره الأول، وقد فاجأتهم جميعًا حين لم تبق ابن عامر في الظل، ولكنها أخذته للخليفة وقدمته له بشكل عادي وطبيعي:

ـ هاهو ذا شاب من نجباء العرب يمكن أن يساهم في تسيير أمور دولتنا.

لا بد أن الخليفة قد أحس بتلك الرعدة الخفية في صوتها وهي تحدثه عن هذا الشاب الأسمر، ولكنه لم يكن قادرًا على رفض طلبها، كل ما فعله أنه حاول أن يبعده عنها، كلفه أن يتولى أمور الزكاة والمواريث في إشبيلية، قذف به بعيدًا، لم تجرؤ «صبح» على مخالفة أمر زوجها، ولكن العلاقات التي بدأت، لم يكن لها أن تنقطع، ظل ابن عامر يرسل لها الكتب والهدايا، ويدبج القصائد بخطه الجميل، وكلما تدهورت صحة الخليفة زاد شوقها وحاجتها إليه، كان ابنها المؤيد ما زال في الثانية عشرة من عمره، و الطامعون في عرش أبيه أكثر من عدد الأعمدة في مسجد قرطبة، وأمانها الوحيد أن يكون ابن عامر بجانبها.

جلست على حافة الفراش، لم تجرؤ على أن تمد يدها وتلمس صدره، ولا أن تحس بخشونة لحيته، قالت:

ـ لا أعتقد أن العيون تلاحقنا حتى ونحن وحدنا في هذه الغرفة

أحس أن عليه أن يقوم ببعض الخطوات، اقترب منها أخيرًا، وضع يده على خدها، كانت باردة، مغطاة بالعرق، لم يحاول أن يقبلها، حدقت في عينيه، وهي تقول:

ـ صدق حدسي، أنت خائف، ليس مني، ولا من الخليفة، أنت خائف من ابن غالب.

أنزل يده مرعوبًا، كانت قد باغتته، لم يكن يتصور أن الخبر الذي جاهد طويلًا في إخفائه يمكن أن يخرج من شفتيها بهذه السهولة، حاول أن يتمالك هدوءه وهو يقول:

ـ عرفت بالأمر إذن؟

ـ وهل كنت تعتقد أن يحدث شيء في الأندلس دون أن أعلم به، كان يجب أن تخبرني حتى أكون أول من يبارك لك.

ـ لا تسخري مني يا ذات المقام العالي، إنه ليس الزواج الذي تعتقدين، أنا لم أرَ هذه الفتاة، ولم أرغب فيها، إنها مجرد صفقة أحمي بها ظهري بنفوذ أبيها.

بدأ الغضب يرتفع في داخلها، كان مصرًّا على مواصلة خداعها، هتفت غاضبة:

ـ أنا الذي طالما حميتك وساعدتك.

وارتفع صوته هو أيضًا: وأنا الذي جعلت ابنك خليفة وأجلسته على العرش.

وابتعدا، توقف كلاهما في مواجهة الآخر وهما يلهثان، لم يعد هناك مكان للمسة من العشق القديم، تذكرا معا لحظات الخوف وعدم اليقين التي عصفت بالجميع، عندما مات الخليفة فجأة، وأصبح العرش خاليًا، كشف الحراس الصقالبة فجأة عن وجههم الحقيقي، شرعوا سيوفهم وبدؤوا يفرضون شروطهم، لم يقتنع أحد منهم أن من الممكن أن يكون الخليفة القادم مجرد ولد في الثانية عشرة من عمره، ذهبوا إلى عمه «المغيرة» وعرضوا عليه العرش فقبله على الفور، وبدا «المصحفي»، الوزير القوي، عاجزًا ومترددًا وخائفًا، وانكمشت صبح في غرفتها ومعها ابنها الصغير، فقدت سلطتها وهيبتها، كانت تريد فقط أن تبحث عن منفذ يقودها إلى خارج القصر بعيدًا عن سيوف الصقالبة. وفي هذه اللحظة برز «ابن عامر»، تحرك دون خوف أو تردد، جمع ما يقدر من رجال وهاجم منزل المغيرة وهو يستعد للانتقال إلى القصر وقتله على الفور، سلب الصقالبة الورقة التي كانوا يلعبون بها، وأصبح العرش خاليًا مرة أخرى، وقبل أن يفيق الصقالبة من دهشتهم كان ابن عامر قد أخرج «المصحفي» من حيرته وتردده وضم رجاله إليه وبدأ حربًا مع الصقالبة

من أجل إخراجهم من مكامنهم، حركة جريئة لا يقدر عليها إلا هو، كان هو الوحيد الذي حافظ على صفاء عقله ومضاء عزيمته في تلك اللحظات المعتمة حتى وضع الصبي الصغير هشامًا المؤيد على عرشه. لحظتها كانت عينا صبح مليئتيْن بدموع الفرح والعرفان، ليلتها أعطته روحها وجسدها بلا تحفظ، ولكن في هذه الليلة يقف الجسدان متباعديْن، كل منها متحفز في مواجهة الآخر.

هدأ ابن عامر قليلًا، كان لديه ما يكفي من الأعداء، ولا حاجة لعدو جديد:

ـ لا علاقة لك بهذا الزواج، إنه مجرد فراش بارد، ولن تستطيعي حمايتي الآن بعد أن عزم «المصحفي» على استئصالي، يجب أن أحتاط له قبل أن يقضي عليَّ.

قالت من بين أسنانها:

ـ استعنت بالمصحفي لتقضي على الصقالبة، والآن تستعين بابن غالب لتقضي على «المصحفي»، وفي غد ستجد من تستعين به لتقضي عليَّ وابني الخليفة.

التفت إليها مذعورًا، لم يتوقع أن يكشف كل منهما أوراقه أمام الآخر بهذه القسوة، هتف بها:

ـ لن أفعل.

كان يكذب، وكان كلاهما يعرف أنه يكذب، للمرة الأولى في تلك الليلة احتضنها، وكان كلاهما يرتجف، أرادت أن تبتعد ولم تستطع، كان أفضل ما في العناق أنه لم يرَ الدموع التي تهبط على وجنتيها، وأنها لم ترَ النظرة الباردة التي تطل من عينيه، أكان هذا هو العناق الأخير؟ قالت بصوت متحشرج:

ـ دعنا ننسَ الأحزان قليلًا، روحي متعبة وحلقي جاف.

أشار إلى منضدة في أحد الأركان، كانت مليئة بالقناني: ماذا تريدين أن تشربي؟

قالت بنعومة وهي تنسل من أحضانه: دعني أعد الشراب لنا.

سارت إلى المنضدة، كان عليها قوارير خمور مختلفة الألوان، بجانبها قطع الحلوى والفستق والجبن والزيتون، عندما كانا يقضيان طوال الليل معًا، دون مرارة، كانا يأكلان ويتضاحكان ويتلامسان، الليلة سيبتلعان بصعوبة فقط هاتيْن الكأسيْن، نظرت إليه من طرف عينيها، كان قد عاد للجلوس على الفراش ساهمًا بوجه جامد، لم تتردد كثيرًا، فتحت الخاتم الذي في إصبعها، في أسفل قطعة الماس النقي كان يوجد تجويف مليء بمسحوق أبيض، أعده عطار عجوز في ساحة البيازين في غرناطة وحمله لها رسول مخصوص، صبته كله في كأسه ورجت الكأس حتى يذوب، ثم حملت الكأسين وعادت إليه، حدق فيها وحدقت فيه، قال لها:

ـ أتمنى أحيانًا لو أنني لم آتِ من قريتي البعيدة، لو لم آتِ إلى قرطبة وأجد لزامًا عليَّ أن أقتل أولًا قبل أن يتم قتلي.

ورفع الكأس إلى فمه، ارتجف قلبها، ولكنها لم تحاول أن تمنعه، تناول منها رشفة صغيرة، فلم يبدُ عليه أنه تأثر أو أحس بتغير طعم الخمر، قالت له:

ـ إذا كان ما تقوله حقًا، فهل أخذت حذرك؟

ـ أجل، عرفت أنه لا توجد في القصر كلمة تقال دون أن تكون خلفها دسيسة، ولا طعام يقدم إلا في داخله سم ناقع، لذلك أصممت أذني عن كل كلام يقال اتقاء لأي وقيعة.

ارتجفت قالت في خفوت: وماذا فعلت لاتقاء خطر السم؟

قال: السم إذا كثر يقتل، وإذا قل فهو ترياق؛ لذا كنت آخذ كل يوم كمية صغيرة منه حتى تقي جسمي من أي غدر.

حدق بعينيه النافذتين، لم يبالِ حتى بالنظر إلى خاتمها الذي لم يكن مغلقا، ولم يعلق على شحوبها، واصل شرب كأسه في هدوء، ودون تأثر، كان يقرأ كل ما في أعماقها، ويعرف نواياها منذ أن أقبلت عليه، سقطت الكأس من يدها، تحطمت محدثة دويًا دون أن يهتز، قالت:

ـ حان الوقت لانصرافي.

قال دون أن يتحرك من مكانه: أجل، تأخر الوقت بنا، ولم يعد هناك وقت.

سارت وهي ترتجف، لم تنظر إلى الوراء حتى لا تلتقي عيونهما فتنهار، وما إن انصرفت حتى نهض ابن عامر مسرعًا، سار إلى ركن الغرفة حيث يوجد وعاء من النحاس، وضع إصبعه في فمه حتى وصلت لحلقومه، أحس بمعدته وهي تتقلص، ثم بدأ يفرغ كل ما في أمعائه، تصاعد الألم من أعماقه قاتلًا، ولا بد أنها وضعت كمية كبيرة من السم كفيلة بصرع فيل، ظل يتقلص ويتلوى،حتى أفرغ كل ما في جوفه من الخمر التي شربها من يديها، وكميات الزبد الدسم التي أكلها قبل أن تأتي إليه، ظل يترنح محاولًا أن يصل إلى الفراش، ولكنه سقط على الأرض عاجزًا، دخل ابن الرماح مسرعًا، كان هو حارسه وأمين سره، نظر إليه في إشفاق وهو يقول له:

ـ هل أنت بخير يا سيدي.

قال ابن عامر: ما زلت على قيد الحياة، لو لم أمت الليلة، فسوف أعيش طويلًا.

قال الخادم: هل أستدعي طبيبًا؟ لا.. هل أحملك للفراش؟

قال ابن عامر: اتركني كما أنا، ضع عليَّ فقط كل الأغطية، وأعطِ الأمر للبنائين ليقوموا بعملهم.

وهكذا ظل ابن عامر يرتجف تحت الأغطية، ولكن ما إن دخلت السيدة الجليلة صبح غرفتها، وأطفأت شموعها ووضعت جسدها المرتجف هي أيضًا تحت الأغطية، حتى سمعت ضجة غريبة في الخارج، صوت أقدام تروح وتغدو أمام غرفتها، كلمات هامسة، وحفيف أشياء تنقل. لم تحاول أن تنهض لترى ما يحدث، كانت واهنة القوى، ولم تكن تريد لأحد أن يراها في هذه الحالة، كان الفراش باردًا، وأدركت أن الدفء لن يعود إليه مرة أخرى، لن تجرؤ على أن ترفع أستارها المنسدلة لرجل غيره، تسللت إلى أنفها رائحة الملاط وتفتت الجير الحي، كانت تفكر في الترياق الذي احتاط به لنفسه، هل كان يخادعها، أم كان يتوقع غدرها؟ وإذا جاء الصباح، فهل ستتلقى عزاءه، أم تنتظر عقابه؟ كانت الرائحة تتزايد، والضجة تخف تدريجيًّا، والظلام يصبح دامسًا، والغرفة تخلو من أي نفس من الهواء، أحست فجأة أنها توشك على الاختناق. نهضت من الفراش، تحسست طريقها في الظلام حتى عثرت على مكان الشموع وأوقدتها، حملت الشمعدان وسارت إلى باب الغرفة، وعندما فتحته، لم تجد القصر ولا طرقاته الممتدة، وجدت أمامها حائطًا صلبًا من الأحجار الضخمة المتراصة. ارتدت في فزع، سارت للنافذة وفتحتها، لم تكن هناك حديقة ولا سماء ولا ضوء للنجوم، جدار آخر أكثر صلابة، يحجب كل شيء، أزاحت الأستار ودقت الجدران، لم يكن هناك منفذ آخر.

في الصباح سارت الجواري ليأخذنها إلى حمامها المعطر فلم يجدن غرفتها، وجاء الخليفة ليلقي عليها تحية الصباح فواجهته الجدران الصماء، مطلية ومنقوشة ومحفورًا عليها أبيات من الشعر، كأنها موجودة دوما منذ أن أنشئ القصر، وجاء الوزير «المصحفي» ليتلقى منها التعليمات فوجد

الخليفة جالسًا بجانب الحائط وهو يبكي في حرقة، أخذه من يده وسارا في حيرة، في قاعة العرش، كف الخليفة عن البكاء وقال:

ـ أين ذهبت أمي؟

قال «المصحفي»: لا أعرف كيف اختفت السيدة الجليلة، ولا أين ذهبت غرفتها، ولكني أشعر أن ابن عامر خلف ذلك كله.

امتلأت القاعة بالجند؛ جند غريبة لم يتعرف عليها أحد منهما، كانوا جند ابن غالب جاءوا من مدينة سالم، سيوفهم مشرعة، وأوامرهم محددة، لم يقتربوا من الخليفة الصغير الجالس على العرش، ولكنهم توجهوا بسيوفهم إلى صدر «المصحفي»، قبل أن يتفوه بكلمة أو ينطق باعتراض،سقط مضرجًا بالدم عند أقدام الخليفة الذي ظل جامدًا على عرشه، منتظرًا هجومهم الثاني، ولكن الجنود لم يفعلوا، وقفوا في أركان القاعة في صمت قد شفي غليلهم، ثم فتح الباب ودخل ابن عامر، مصفر الوجه وشاحبًا، ولكنه كان واقفًا متماسكًا، أوشك الخليفة أن يصرخ أو أن يسأل، ولكن ابن عامر أشار له وهو يقول:

ـ إذا أردت أن تبقي على عرشك وحياتك، فلا تكثر من الأسئلة، والتزم الصمت.

سيبقى الخليفة على عرشه صامتًا ومجمدًا حتى يعزل، وسيخضع ابن عامر الأندلس كلها لإمرته، سيخوض في بلاد الفرنجة كالإعصار، سيغادرهم صرعى البقاع ويتركهم أذل من وتد بقاع، سيفتح ليون وبطريوس ولشبونة وكل ما بقي من شمال الأندلس، ستنبسط له الأرض التي لم تكن ذلولًا، فتنتظم له الممالك وتتضح به المسالك ويتوافد على عرشه ملوك الشمال محملين بالهدايا، طالبين عهود الأمان، سوف تغدو أيامه أحمد

الأيام وسهام بأسه أشد سهام، وسوف يتذكر دائمًا تلك الليلة الغريبة، وتتقلص معدته كثيرًا ولكنه سوف يواصل تعاطي الترياق، فلا أحد يدري من أين تأتي الضربة القادمة، من صديق طامع، أم من جارية غيرى، أم من ابن طامح، سيكون آخر الملوك العظام، وبعد موته ستتفتت الأندلس ويقتسمها ملوك الطوائف كرغيف خبز، ثم يضيع كل شيء وكأنه كان حلمًا في منام.. وسبحان من له الدوام.



كانوا ثلاثة قادمين من بلدة الحميمة بالشام، متجهين جنوبًا إلى مكة للالتحاق بموسم الحج؛ ثلاثة من أشراف العرب، يبدو ذلك واضحًا في هيئتهم وتصرفاتهم، كان الخدم يسعون خلفهم وهم يسوقون الإبل التي تحمل متاعهم، والصحراء تمتد بلا حد، الرمل تحت الشمس الغاربة رمادي شاحب، تقدم أولهم، أبو جعفر، كان في بداية الأربعين من العمر، عريض الصدر، كث اللحية، كانت عيناه نافذتين كحدقتي صقر، أشار إلى قرية صغيرة، كل بيوتها بلون الطباشير الباهت، نفس لون الجبل الذي يحتضنها، تحدث إلى أقرب الرجلين إليه:

ـ سنقضي ليلتنا في هذا المكان يا عماه.

قال الآخر الذي لم يكن يكبره في السن إلا بسنوات قليلة: الرأي لك يا ابن أخي.

وتقدم الثالث بجواده وهو يقول: سأنتظر على هذا التل حتى تغرب الشمس فأصلي وألحق بكما.

قال جعفر: من عجب أن تحافظ على وضوئك كل هذا الوقت يا ابن عبد الله.



لم يتبين الثالث نبرة السخرية في صوته، واكتفى بتمتمة الحمد الله، وتركه الرجلان وانحدرا من على قمة التل، وبقي هو مشرئبًا يرقب قرص الشمس بحمرته الذائبة، قال جعفر لعمه:

ـ محمد بن عبد الله هذا سيشف جسده من كثرة التعبد وسيتحول إلى روح هائمة في هذه الصحراء.

قال عبد الله بن علي:

ـ يا أبا جعفر يا ابن أخي، هؤلاء الطالبيون لا يطلبون شيئًا في دنيانا، ولو كان زمن الشهادة قائمًا لقدموا رقابهم راضين إلى بني أمية.

وفكر جعفر في نفسه، ولكن زمن بني أمية قد انقضى، والناس الآن يلبسون السواد، ويرفعون أعلامًا عليها خرق سوداء. جاء بنو العباس بوعد غامض من الرسول وسيوف مجلوة لا يخطئها أحد، صعدوا إلى دست الحكم تؤازرهم قوة الموالي والعجم، دانت لهم دنيا واسعة، تمتد من حدود الهند أقصى بلاد المغرب، لم تستعصِ عليهم إلا بقعة وراء البحر هي الأندلس، امتلك العباسيون الأرض بعد أن كانوا مطاردين فيها، لا يجدون جحرًا يختبئون فيه من سيوف بني أمية.

كان هذا زمن الفتنة، أئمة مخلوعين وخلفاء هاربين وقادة، كلهم تركوا الفتوح وانهمكوا في إحصاء الغنائم، ودولة بني أمية التي اتسعت أطرافها أخذ قلبها ينبض في وهن، كل ثائر فتح في جنبها جرحًا، وكل حاكم أبدى تخاذلًا، وعندما انطلقت سيوف أبي مسلم من خراسان تحمل دعوة بني العباس وبيارقهم السوداء لاحت نذر النهاية، شاخت دولة بني أمية وانقضت أيامها.

نصبوا خيامهم في ساحة القرية وأوقدوا نارًا، وبدأ الخدم في إعداد الطعام، ولكن أحدًا لم يقترب منه حتى ينتهي محمد بن عبد الله من صلواته ويهبط من فوق التل، أكلوا وتسامروا وأخذت نسائم الليل تهب عليهم

باردة، ولكن انقطع حديثهم عندما أقبلت عليهم امرأة من غجر الشام، مكشوفة الوجه، مهوشة الشعر، ثيابها صاخبة الألوان، تقدمت حتى وقفت أمامهم، وانعكس وهج النار على وجهها المليء بالغضون، سلط عليها جعفر عينيه النافذتين ولكن لم يبدُ عليها أنها تأثرت أو خافت، قالت:

- يا لكم من ثلاثة قلما يجتمعون في مكان واحد، ولا جامع بعد الآن.

غاصت أحاديثهم، لم يقطع الصمت إلا صوت الحطب الذي يطقطق والشرر ينطلق منه، تطلعوا إلى وجهها الجامد في قلق، وكان أبو جعفر هو أول من تمالك نفسه وقال لها: من أنت؟

قالت في صوت خافت ولكنه واضح ومؤكد:

- امرأة بصارة، تقرأ الغيب وتعرف المخبوء في بطن القدر.

ضحك محمد بن عبد الله في عصبية: أشياء لا يعلمها إلا الله.

قالت المرأة بصوت فيه صدى الصحراء:

- ولكن سماته في خلقه لا تخطئ، ها أنا أراكم أمامي، خليفة، وخارجًا عليه، وعاصيًا له.

قال أبو جعفر: امرأة مجنونة، نحن فقط ثلاثة من الأصدقاء خرجنا معًا للحج.

نهضت المرأة وهي تقول: لست مجنونة، وإنما الزمن هو الذي أصابه الجنون.

واختفت في الظلام كأن لم توجد، لم تطلب أجرًا ولا صدقة، وظلت النيران ترتعد تحت برد الليل، كانوا يرتجفون، ولكنهم تجاهلوا ما سمعوه من كلمات، ناموا متجاورين تحت ضوء النجوم البعيدة.

تعاقبت الأيام، كانت في انتظارهم أحداث جسام أنستهم كلمات المرأة المجنونة، وبرغم انقضاء موسم الحج إلا أن جعفرًا فضل البقاء في مكة حيث قبيلته من قريش وبيوت أهله من بني العباس، كان يأنس لهذه البقعة التي أصبحت صغيرة وسط دولة بهذا الاتساع، ولكن رسولًا عاجلًا جاء من الشمال، كان يحمل حزنًا على وجهه ورسالة في يده، كانت الرسالة من عيسى بن موسى العم الثاني، الساعد الأيمن لأخيه الخليفة أبي العباس السفاح، كان يخبره بموت أول خلفاء بني العباس، وأنه قبل أن يموت قد اختار أخاه «أبو جعفر المنصور» ليكون الخليفة الثاني على المسلمين، كانوا جميعًا ينتظرون قدومه ليستوي على عرشه، هكذا تداخلت الأحزان مع الأفراح، وكلمات التعازي مع قسم المبايعة، ولكن جعفرًا لم يكن يهتم بمن يقفون أمامه، كان يبحث عن شخصين لم يكونا حاضرين، صاح:

ـ اطلبوا بيعتي من أقرب الناس إليَّ: عمي عبد الله بن علي، وصديقي محمد بن عبد الله.

ولكنهما كانا قد اختفيا عن الأنظار.

بعيدًا.. في مدينة حران بالشام، كان عبد الله بن علي غاضبًا يصرخ فيمن حوله:

ـ جعفر هذا لا يستحقها، أنا أحق بالخلافة منه، أنا أكبر بني العباس، وعدني أبي بها عندما بدأنا الدعوة، ولكن السفاح أخذها مني، وها هو يهديها لأخيه الأصغر.

وافقه كل من حوله وهم يرددون: والله لن نسكت أبدًا، سنسبق أبا جعفر للعراق ونقطع عليه خط الرجعة.

ولكنهم كانوا متأخرين، كان العم الآخر عيسى بن موسى قد قطع نصف الطريق إلى الأنبار، وقابل الخليفة الجديدة، وأخذ منه وعدًا

أن يكون هو ولي عهده. كل شيء كان ملتبسًا، والفرق بين الموالاة والعصيان لا يكاد يرى، وعندما استوى أبو جعفر المنصور على عرشه أحس بريح الخطر القادمة من الشام، كان يدرك أن حرب البيت الواحد تكون هي الأشد ضراوة؛ لذلك أحضر الرسل وأمرهم أن يسيروا إلى عمه حاملين رسائل المسالمة، والتذكير بقرابة الدم وصداقة الروح. وعده ببذل كل ما يقدر عليه من أجل التراضي، ولكن ترضية العم الوحيدة كانت العرش، فشلت كل المراسلات، لم يبقَ هناك بديل عن المواجهة والقتال، قال أبو جعفر:

ـ عمي من لحمي، لا يجب أن يتقاتل بنو العباس فيما بينهم، فليذهب إليه قائدنا على الري «أبو مسلم الخراساني».

ولكن القائد الفارسي، القاسي القلب، رجل المهمات الصعبة، كان مترددًا هذه المرة، كان قد ذبح ما يكفي من العرب الذين والوا بني أمية، ولكنه كان مدعوًّا هذه المرة لذبح بني العباس، عم الخليفة، وهو ذنب مهما بدا مبررًا فلن يغتفر، ولكن أبا جعفر لم يدع له فرصة للتراجع:

ـ اذهب وآتني برأسه هذا العم العاصي.

كانت السلطة كالعهد بها، سيفًا أعمى، يقطع الوشائج ويبتر الأواصر. سار «أبو مسلم» إلى حران، وهناك رأى جيوش عبد الله ابن علي محتشدة ومتحفزة، كان لا بد من استخدام الحيلة، أمر عيونه فداروا حولهم حتى عرف أين توجد مصادر مياههم، ذبحوا بعض الخيول المريضة، وانتظروا حتى دب فيها العفن ثم ألقوها في المياه، كان يدرك أن العطش في وهج الصحراء أشد وطأة من السيوف الباترة، وعندما هاجم جنود ابن علي كان في انتظارهم، كان متأكدًا من أنهم لن يصمدوا طويلًا، سوف ينهكهم العطش قبل الكر والفر، وكان له ما أراد؛ انهزم عبد الله بن علي وتشتت

جيشه، وهام في الأرض يبحث عن مخبأ، ولكن كل الذين لجأ إليهم وشوا به وسلموه لجنود الخليفة، عندها ارتمى على قدم أبي جعفر متوسلًا:

ـ ارحم عمك، لحمك ودمك.

كان أوان الرحمة قد فات، ولم يخيب الخليفة ظنون «أبو مسلم» فكافأه هو أيضًا بالقتل بعد فترة وجيزة من مقتل عمه.

وبقي العدو الآخر، الصديق المختفي، محمد بن عبد الله، كان قد تحول إلى حلم ينتظره الجميع، كان من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب؛ لذلك أطلق عليه الناس لقب «النفس الزكية»، أصبح الأمل الباقي للعلويين في استعادة الخلافة، الإمام الذي سيعيد للزمان المختل ميزانه المفقود، كان هذا أخطر أعداء بني العباس؛ لأنه محاط بهالة من القدسية، طلب الخليفة أبو جعفر من كل عماله وولاته وقادته أن يبحثوا عنه، أعلن أنه يعفو عنه، وأنه يريده فقط أن يحضر أمامه ليلقي البيعة ويعلن الولاء، ولكن النفس الزكية كان متأكدًا أن أبا جعفر لن يعفو، ولو كان العفو من شيمته لفعل ذلك مع عمه. ظل مختبئًا والصحراء لا تبوح بسره ولا تشي بمكانه، وقال الخليفة في حنق:

ـ لو أنني عرفت مكانه لأرسلت له من يدس له السم.

ورد عيسي بن موسى بحنكة: فلنَحتَلْ له يا مولاي، إن لم يكن يريد الظهور فلنرغمه عليه.

بدأت حملة شعواء، هاجم جنود الخليفة بيوت العلويين، قبضوا على الأب العجوز للإمام المختفي، ثم قبضوا على أمه وأخواته وأولاد عمه، وضعهم الخليفة داخل السجون وأقام عليهم عشرات العيون والحرس، كان أبو جعفر يعرف أن النفس الزكية لن تتحمل هذا الأمر، وأن إحساسه الكبير بالعدل سيتحول إلى إحساس قاتل بالذنب.

كان الخليفة مصيبًا في حدسه، لم يتحمل النفس الزكية ما حدث لأهله، جمع أنصاره على عجل وقرر أن يخوض معركة لم يكن الوقت مناسبًا له، ولا هو نفسه كان محاربًا، كان ناسكًا أرغمته الظروف على أن يلجأ للسيف، خاض معركته بلا تراجع، وواجه جيوش دولة العباس في أوج صعودها، فمن الذي يقدر على هزيمتها؟

دارت الدائرة وانهزم النفس الزكية، وحملوا رأسه إلى أبي جعفر العباس، فقلب رأسه بقضيب كان في يده، وتذكر ذات ليلة بعيدة، عندما ظهرت المرأة العجوز لثلاثتهم في جوف الصحراء وقال:

ـ لقد تحققت النبوءة..



زفاف أخت الرشيد

ليلة لا تنسى من ليالي بغداد؛ المدينة التي لا تُنسى. تنعكس أضواء قصر الرشيد على مياه نهر دجلة الرخوة، فتملؤه بحيوية متألقة، وفي داخل القصر تدور طقوس عرس لا تعرف عنه المدينة النائمة شيئًا، وحتى الذين كانوا داخل القصر لم يعرفوا الكثير، يراقبون طقوسه غير مصدقين، نساء لا تكف عن التهامس، ورجال بني العباس مصدومون، علامات الدهشة على وجوههم أكثر من الفرح، والهمس أعلى من الأغاريد، يخرج «جعفر البرمكي» من حمامه، يقف عاريًا وسط الجواري وهن يدرن حوله بالمباخر، يعبقن خلاياه برائحة البخور الذكية، كان أجمل عريس يمكن أن تراه امرأة، وكن جميعا قد ذقن طعمه بطريقة أو بأخرى، كان أشبه بنحلة قارصة توزع رحيقها على الأجساد دون أن تبالي بالتعرف على الوجوه، ولكنه الليلة سيستقر راضيًا أو مرغمًا عند جسد واحد، يسبح وسط سحابة البخور راضيًا ومنتشيًا، أخيرًا لن يكون تابعًا أو بالأحرى خادمًا عند بني العباس، كان قد بلغ أقصى مكانة يمكن أن يحلم بها مسئول أصوله فارسية، وزيرًا مفوضًا للخليفة، يمكنه أن يصدر أي قرارات دون حاجة لتوقيع الخليفة، بعد الآن لن تكون هذه حدوده، عندما يعلو جسد سيدة



بني العباس، وسيعلو فوق رؤوسهم جميعًا، جسدها سيكون الدرب الذي يسير عليه للعرش المحرم.

وفي الجانب الآخر من القصر كانت «علية بنت المهدي» تخرج أيضًا من حمامها، «العباسة» كما يحلو للجميع أن ينادوها، يختصرون الدولة كلها في اسمها، تقف عارية وسط جواريها، يضمخن جسدها بكل أنواع العطور، ويمسدن خصلات شعرها بالمسك. تبدو رائعة الجمال، لا يعيب وجهها إلا جبين واسع، كانت تعتقد كل من ينظر إليها تعلق عيناه بها، وكان يضايقها أن يختصر كل من يراها شكلها في هذه الجبهة الواسعة؛ لذلك وضعت فوقها قلادة من اللؤلؤ، لم تكن تخلعها حتى تميزت بها، لم تخلعها حتى وهي تقف الآن بين وصيفاتها، لم تكن تحلم بهذه الليلة بقدر ما حلمت بهذا الزوج، منذ أن اكتشف أخوها هارون الرشيد جمال صوتها، وشغفها بالغناء والعزف، وقد جعلها أنيسته، رفيقة دائمة في مجلسه، وهناك رأت جعفر البرمكي عن قرب، طالما سمعت نساء القصر وهن يتحدثن عن سحره وفتوته، ولكن حين جلست في مواجهته أحست أن كلماتهن لا ترقى لأوصافه. كان دائما خافض الرأس، لا ينظر إليها بطريقة مباشرة حفظًا لمجلس الخليفة، ولكنها كانت فرصة لتتأمله هي، أن تغني أيضًا لرأسه المنخفض الذي يهتز طربًا كلما علا صوتها. كانت أخبار فحولته تأتيها أيضًا، كيف أنه في كل أسبوع يفتض جارية عذراء، صدمتها هذه المعلومات أولًا.. ثم أصبحت أمرًا مثيرًا، قابلًا للتحدي، أن تكون هي المرأة التي تجعله يستغني عن كل النساء، أن يسد جسدها عليه كل منافذ المتعة، استغلت كل سحرها لتجعل أخاها يتقبل هذه الفكرة الغريبة، أن تتزوج أخت الخليفة القرشية الهاشمية الأصل، العالية النسب من مخدوم فارسي، قالت متحججة إنه لن يمكنها السهر ولا الغناء وفي مجلسهما رجل غريب، وأصرت قائلة إن حلقها يجف في وجوده، ولن يستطيع أحد

أن يتصور أنها تغني لتطرب هذا الفارسي، ولكن بعد الزواج لن تكون إلا زوجة تطرب زوجها، وها هي تصل إلى غرضها أخيرًا، للرجل المستحيل، لن يمنعها أحد بعد الليلة من اقتناصه بعد أن سعت إليه طويلا.

الخليفة هارون الرشيد بنفسه كان يقف أيضًا عاريًا، يقوم غلام رومي بتجفيف جلده بمسحة من المسك، ويمسك غلام آخر بثيابه، وتعبق الغرفة بروائح المر والبخور، كان يعرف أن هناك الكثيرين من يعارضون هذا الزفاف، اعتراضات مكتومة، ولكنه في قرارة نفسه كان يعرف أنه قام بالصواب، استجاب لرغبات أخته الأثيرة، وعقد حلفًا مع البرامكة، العائلة التي خدمته طويلًا هو وأباه المهدي من قبله، كان يعرف أنهم أقوياء، ولكن قوتهم في صالحه، موظفة من أجله، زواج مثل هذا سيضمن ولاءهم، لن ينقلبوا عليه، سيوسعون حدود دولته، ويدافعون عنها دون مساس به، زواج متكافئ بين النسب الشريف ومصادر القوة، أي معادلة أفضل من ذلك؟ حمل الغلام العباءة واستعد لوضعها على كتفه، ولكن باب المغطس فتح فجأة، شيء لا يمكن حدوثه، حتى «زبيدة» سيدة القصر لا تقدر على ذلك. أسرع «الرشيد» بضم العباءة حتى يخفي لحمه العاري، ورفع رأسه ليصرخ ولكنه وجد أمامه «الفاختة» صغرى إخوته، ابنة أبيه المدللة، التي تعودت أن تفعل دائما ما تريد، تقف بطولها السامق وشعرها المتهدل، غير مبالية بملامح الغضب التي تبدو على وجهه، يصيح فيها:

ـ أي شيطان دفعك لاقتحام حمامي وجسمي ما زال عاريًا؟

لا يبدو أنها تأبه لغضبه، ولا لجسده الذي يهتز، تجلس في هدوء وهي تقول:

ـ جسمك ليس غريبًا عليَّ، وسواء كنت عاريًا أو كاسيًا فأنت أخي، لكنني لم آتِ إلى هنا إلا لأمر هام.

يسدل الغلمان ستارًا بينه وبينها، يكمل ارتداء ثيابه مضطربًا، هذه المدللة قد أفسدت جزءًا من هيبته، والمؤسف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيالها، عليه فقط أن يحتوي الموقف، أشار للغلمان أن يخرجوا جميعًا، يزيح الستار يقف أمامها وقد وضع يده على خاصرته:

ـ ليس لديَّ الكثير من الوقت؟

تقول في سرعة: ولا أنا.. ما أقوله بسيط وموجز، هذا الزفاف لا يجب أن يتم.

يقول في استهزاء: الكثيرون يقولون كما قلت، ولكن هذه إرادتي ولا أحد يقف ضدها.

تنهض واقفة، تقول في تحدٍّ لا يليق بقدها النحيف:

ـ جسدي يقف دونها، هذا الرجل مس جسدي من قبل، ولا يجب أن يمس جسد أختي بعد ذلك.

يتراجع مذهولًا حتى يجلس على أحد المقاعد، فتاة صغيرة كلماتها كبيرة، تتحدث ببساطة وفحش، ينظر إليها ببلاهة، ويتساءل مترددًا:

ـ هل تقولين الحق: هل أغواك؟

تنظر إليه دون أن تطرف عيناها:

ـ لم يفعل، أنا التي أغويته، رأيته وأردته وقررت أن أناله، كنت أعرف أن أمه تهديه في كل أسبوع جارية عذراء ليفتضها، وزاد هذا الأمر من إثارتي، ولكني كنت أدرك أنه لو عرف حقيقتي فسيرفضني، لا أحد يجرؤ على أن يضع إصبعه على أخت الخليفة؛ لذلك تنكرت في زي واحدة من هاته الجواري ودخلت إلى فراشه.

لا يطيق الجلوس، ينهض واقفًا، يمد يده ليمسك رقبتها، تبتعد قليلًا وتنظر إليه بعينين واسعتين، براءة طفلة تمارس واحدة من ألعابها، يقول:

ـ وهل تعرف عليك؟

تقول: عرفته على نفسي بعد أن وطأني، كان مذهولًا وخائفًا ومرعوبًا، ولكنني ظللت على إصراري حتى فعلها معي للمرة الثانية.

يهتف من بين أسنانه: أنت عاهرة صغيرة.

تقول في إصرار طفولي:

ـ ولكنني أختك، وسأكون عاهرة حقيقية لو أنني صمت وتركت هذا الزفاف يتم، أن يفعل مع أختي ما فعله معي، فلا يمكن أن ننام معًا على الفراش نفسه.

لا يستطيع أن يتحملها أكثر من هذا، يصيح فيها: اغربي عن وجهي، لا أريد أن أراك بعد الآن.

تنهض وتنصرف ببطء، لم تكن خائفة منه، في لمحة عين هدمت كل شيء، هذه الكلمات.. حقيقية أم غيرة؟ هل يتصارعان على رجل واحد؟ ولكن هل يصل الحد بالفاختة حتى توسم نفسها بالعار وتعرضها للقتل؟ افتضاضه العذارى كانت حكاية شائعة، تثير إعجاب الخليفة نفسه بهذه الفحولة، ولكنها أوصلت أخته إلى فراشه، مصيبة أن يكون هذا أيضًا قد حصل مع العباسة، وأن يكون هذا سبب إصرارها على الزواج، لا يستطيع أن يبقى وحيدًا أكثر من هذا، يسير في ممرات القصر، وسط حشد من بني العباس، وقادة الجند، وأعيان بغداد، وولاة الأمصار، ما الذي جمعهم هكذا؟ من أوصل الخبر للأمصار البعيدة؟ هل فعلها البرامكة مستغلين

انتشار أتباعهم؟ تلاحقه أصوات التهاني والدعاء بالنصر، ترتفع الأغاريد من أجنحة الحريم، وتنثر عليه أوراق الورد من مكان ما.

القاعة الكبرى في القصر مزدحمة أيضًا، في صدرها يجلس «جعفر البرمكي» العريس المنتظر، حوله إخوته وأعوانه، الرجال الذين يمسكون مفاصل الدولة، يقفون وينحنون أمامه، بمنْ فيهم جعفر البرمكي الذي ضاجع أختًا ويستعد لوطء الثانية، على وجهه ابتسامة صفراء، إن كان مخلصا حقًّا، فلماذا لم يبادر بالاعتراف؟ لماذا لم يقل له إن أخته قد خدعته، واللذة قد أعمته؟ يجلس الرشيد جامد الوجه، محاطًا بأقارب البرامكة وأعوانهم، وفي الخارج يحيطون جنودهم بقصره، كيف وصل الأمر إلى هذا الحد؟ يتأمل وجوه بني العباس الكاظمة غيظها، يعرفون جميعًا بطريقة غامضة أنه في ورطة، ومراسم الزفاف هذه هي أبلغ دليل على ضعفه وقلة حيلته، عليه الآن أن ينهض ويفض المجلس حتى ينصرف الجميع، ولكن مفتي بغداد يقف أمامه، ينحني طالبًا الإذن ببدء المراسم، لا يجيبه، ولكن المفتي اللعين يعتبر أن صمته إجابة، تدور العجلة رغما عن أنفه، يواجه المفتي الجمع المحتشد ويطلب من الجميع قراءة الفاتحة، يرفعون أكفهم ويأخذون في الهمهمة، يدير الرشيد وجهه، يشاهد عيونهم المغمضة وأكفهم المرفوعة وهو يتمتمون بالآيات، جعفر وحده هو المفتوح العينين، يحرك شفتيه وعينيه عليه، يحاول قراءة ما في داخله كعادته، لن تنجح هذه المرة يا ابن البرمكي! يخاطب المفتي الجمع، يقول كلامًا كثيرًا عن سنة رسول الله، وأهمية الزواج في إعمار الأرض، ثم يعلن شروط العقد وصحة إتمامه، تبدأ دورة أخرى من التهاني والتبريكات، ألا يمل هؤلاء القوم؟ كان عاجزًا عن ضبط حركتهم، أي سخرية أن يحكم ثلث العالم، ويكون عاجزًا عن التحكم في حركة الناس في هذه القاعة الصغيرة؟ يظل جالسًا متمسكًا بمقعده، يصبح جعفر هو المحور الذي يدورون حوله، كأنه لم يمتلك جسد العباسة فقط، ولكن جسد الدولة كلها.

تظهر الجواري، يمسكن بالدفوف، يقفن عند باب القاعة في صفين متقابلين، ينقرن الدفوف في إيقاعات متصلة، ينتظرن أن ينهض جعفر ويسير بينهن إلى غرفتها. يتطلع جعفر إليه، يتطلعون جميعًا إليه، ينتظرون إشارة الموافقة، يظل يحدق فيهن بنظرة غائمة، غير مصدق أن كل هذا قد حدث، ينهض واقفًا فينهضون جميعًا، يشير لجعفر أن يقف بجانبه، يسير متقدمًا خطوة ويتبعه جعفر مندهشًا، تتوقف الجواري للحظة عن نقر الدفوف، ثم يخضعن لإشارة الخليفة ويبدأن النقر من جديد، يكاد الرشيد أن يختنق من عطرهم، كل شيء مبالغ فيه، يتجهون جميعًا نحو الجناح الذي تنتظره فيه العروس، والخليفة يحث الخطى بحماس كأنه العريس. يتبعه جعفر مندهشًا، وتزداد الدهشة عندما يتجاوز الممر المؤدي إلى جناح العباسة، يبتعدون عن كل المدعوين، يقودهم الرشيد إلى مكان ناءٍ من القصر، لا تحيط به إلا الأبهاء الخالية، يشير الرشيد للجواري أن يتوقفن ويبتعدن، إشارة قاطعة تثير فزعهن، لا يبقى إلا هما، يصلان إلى سور القصر الأخير، يلتفت إليه أخيرًا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، وجه جعفر أيضًا كان ممتقعًا، وحلقه جافًّا، يشير الرشيد إلى باب صغير في نهاية الجدار، يقول في صوت هادئ ولكنه حازم:

ـ ستخرج من هذا الباب الصغير، ستمارس عملك في الصباح في تدبير أمور الدولة، لن تتحدث لأحد بكلمة واحدة عما دار الآن، وسنحدد ليلة أخرى حتى تدخل إلى عروسك.

يدب الخوف في نفس جعفر، ربما تذكر الفاختة في هذه اللحظة، ربما تساءل إن كانت قد باحت بسرها الدفين؛ السر الذي سيشينها قبل أي أحد آخر، يواجهه الرشيد حازمًا، ولكنه لا يصل لدرجة العداء، يقول جعفر مترددًا وحائرًا: ولكن العروس تجلس الآن في انتظاري.

لكن الرشيد لا يتخلى عن حزمه:

ـ ليلة أخرى لن تقتلها، أما أنت فلديك كل جواري الدنيا.

مات الكلام، يظل جعفر واقفًا لبرهة، ثم لا يملك إلا أن يحني رأسه ويتجه للباب الصغير. يتنهد الرشيد حين يراه يختفي من أمامه، انزاح الكابوس.. مؤقتًا.

في اليوم التالي يبدو الأمر وكأن شيئًا لم يكن، همسات عابرة وإحباط مقيم، وقادة جند لا يكفون عن التوافد، لا تغادر العباسة جناحها ولكن الرشيد يقوم بزيارتها أكثر من مرة، يشاهد شحوب وجهها، ووجبات الطعام التي تمتنع عنها، يحاول الحديث معها فتستمع إليه ساهمة، لا يبدو أنها قد وعت أو تفهمت، «الفاختة» أيضًا لا تغادر غرفتها، يمنعها الحراس الأشداء من الخروج، تسبهم وتهددهم، دون أن يأبهوا بها، يجيء جعفر إلى القصر، يستقبله الخليفة بوجه جامد؛ لا باش ولا عدائي، يستمع إليه في صمت، ويتسلم منه كل الرقاع، ويوافق على كل ما اتخذ من تدابير، دون أن يتطرق أحد منهما إلى ليلة الزفاف المؤجلة.

ليس هذا هو الاجتماع الذي ينتظره الرشيد، الاجتماع المنتظر حدث بعد عدة أيام، وبعد منتصف الليل أيضًا، يتسلل إلى القصر عشرة رجال، لم يرهم أحد غير بضعة أفراد من الحرس هم الذين قادوهم لمجلس الرشيد، يرتدون أسمالًا كالشحاذين، دبغت الشمس جلودهم وتفوح منهم رائحة الطرقات، يمسكون في أيديهم رقعًا مطوية ينتظرون أمره بالكلام، يقدم الأول رقعته وهو يقول: نحن عيونك يا مولاي، وقد نفذنا أوامرك وسعينا خلف كل البرامكة فلم نترك لهم مخرجًا، خاصة جعفر البرمكي، يشير لبقية رفاقه من العيون، يضعون الرقع كلها تحت قدميه، لا ينتظرون حتى يقرأها، يندفعون جميعًا في الحديث بألسنتهم المتعددة، كأنهم لسان

واحد ممتد، يقول أول العيون: إنهم ذئاب في ثياب الحملان، تسللوا إلى أوصال دولة بني العباس ولا يبغون إلا امتلاكها، يدعي أبوهم الأكبر يحيى البرمكي أنه هو الذي رباك، وأنك أخو ابنه «الفضل» في الرضاعة لذلك لا تستطيع أن ترفض له طلبًا، وسيربون ابنك الأمين على نفس طريقتهم، تلتقط عين ثانية منه طرف الكلام: لقد قبض جعفر البرمكي على عدوك يحيى بن عبد الله الذي أراد أن يستقل ببلاد الديلم، وبرغم أوامرك له بقتله فإنه لم يفعل، لقد وجد أن الحفاظ على وعده له بالإبقاء على حياته أهم من عصيانه لأمرك؛ لذا أعطاه أموالًا وجوادًا وساعده على الهرب.

قبل أن يفيق الرشيد من ذهوله تتدخل العين الثالثة: ربما تعرفون يا مولاي أنه كوَّن في خراسان جيشًا تابعًا له، عدده ٥٠ ألف جندي تابعون له ولا يأتمرون إلا بأمره، ولكن الذي لم يصل إلى علم مولاي أنه استقدم إلى بغداد عشرين ألفًا منهم ونشرهم في كل مكان، يتأوه الرشيد، لم يتصور أن الأمر قد بلغ هذا الحد من الخطورة، فهو ليس مهددًا بفقد إخوته فقط، ولكن فقدان عرشه كله، تكمل العين الرابعة الكلام: لقد تمكنت من دخول بعض قصورهم، لا توجد مدينة إلا وفيها قصر يخصهم، الجدران مكسوة بالذهب، والدرج مكسو بالفضة، وقد بنى جعفر لنفسه بيتًا كلفه ٢٠ ألف ألف درهم، إنهم يعيشون في ترف لا مثيل له، وقد أبقوا لأنفسهم معظم الغنائم ولم يعطوا للدولة إلا القليل، وتسارع العين الخامسة بالتدخل: في كل يوم يقف على بابهم العشرات من طالبي الحاجة، فقد أوهموا الجميع أنهم أصحاب الحل والعقد في الدولة، وقد أعطى جعفر للشعراء الذين توافدوا على مدحه آلاف الدراهم في يوم واحد، لا تتوقف الألسنة، ولا الحقائق المرعبة، لا يتصور أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، هناك دولة أخرى أقامها جعفر وإخوته داخل دولته، هي الأقوى، وهي التي تستعد لالتهامه، لا يطيق مواصلة الاستماع، ما يقال فوق طاقته، يصرفهم

جميعًا، لا يستطع أن ينام الليل، ويقبل الصباح عليه وشعوره بالخطر قد أصبح قاتلًا، لا يبالي بنظرات الكراهية في عيني أختيه، ولا بالغضب المكتوم في نفوس القادة من بني العباس، وأخيرًا.. أخيرًا يقف أمامه جعفر البرمكي ليقول له:

ـ غدًا ستكون ليلة دخلتك إلى العباسة، إنها في شوق لانتظارك.

تبدو على وجه جعفر سعادة مشوبة بالقلق، ولكنها فرصة لا تفوت.

ليلة هادئة في القصر، قمر متوهج على نهر دجلة، وجعفر البرمكي يخطو داخلًا القصر، يرى صف الجواري الواقفات في انتظاره فيأمر أتباعه بالبقاء في الخارج، يسير وسطهن، وسط عبق عطورهن كأن الحفلة الماضية لم تنقطع، أفضل ما فيها أن الرشيد غير موجود، وأن الجواري يقدنه مباشرة إلى جناحها، وأوراق الورد لا تكف عن التساقط عليه، ينفتح باب العباسة أمامه أخيرًا وهي جالسة في انتظاره، شاحبة قليلًا ولكنها تبتسم وعصبة اللؤلؤ تتألق على جبينها. تتراجع الجواري ويغلقن الباب، أخيرًا تجمعهما غرفة واحدة، يقبل يديها: اشتقت إليك، تتلقى قبلاته في استمتاع: الشوق متبادل، كلاهما جائع للآخر، ولكن الأمور يجب أن تمضي بروية كما يجب أن تكون، تقول له: أحضرت لك خمرًا من كرم شيراز، تعرف أنه شرابه المفضل، تحضر له قارورة وحيدة وكأسًا وحيدة، يقول: هل شاركتني الشراب؟ تمسك بالعود بين أناملها: سأكون مغنيتك وأنت نديمي، اغني لك وأنت تنتشي، الآن تستطيع أن تنظر إليَّ بملء عينيك. تنساب أناملها على الأوتار مثلما تتشرب خلايا جسده خمر شيراز، نشوة مفعمة بالبهجة، تتشكل الحروف في فمها وتكتسب سحر الإيقاع، تتداخل الأنغام مع عبق العطور، يراها وهي عارية تتضوع بين ذراعيه، هذه هي المرأة التي ستغنيه عن بقية النساء، صوتها والخمر سواء، وممارسة

الحب معها سيصل به إلى جنان السماء، يسمع ويشرب ولا يتوقف الغناء، حتى بعد أن تصمت وتترك العود من يدها وتحدق في وجهه، يستمر الغناء، تبدأ الشموع في الانطفاء واحدة وراء الأخرى، يتبدد العطر و يستمر الغناء حتى يسود الظلام؛ ظلام كثيف، طبقاته بلا نهاية، يجوس فيه بحثًا عن دفء جسدها فلا يجده، عن لمسة من المتعة فلا يجدها، لا يجد سوى ألم قاسٍ ممض يخترق أطرافه، كيف انقلب الحلم إلى كابوس، وأي كابوس هذا الذي لا ينتهي؟ ماذا كان في خمر شيراز، وماذا في غنائك أيتها العباسة، مطارق لا تكف عن الدق، وألم يوشك أن يزهق روحي؟ ومن أين تأتي هذه الحرارة اللاسعة؟ يفتح عينيه لعله يرى العالم، إن كان ثمة عالم، إن كان هناك منفذ من الظلمة. يرفع أجفانه بصعوبة، يرى السماء في لمحة خاطفة، ينحني رأسه متثاقلًا فيلمح النهر في الأسفل. انقشعت الظلمة وبقي الكابوس وتواصل الألم، لا يستطيع أن يضم ذراعيه، أو يحرك ساقيه، يفتح عينيه للمرة الثانية، يدرك بشكل غائم أين هو.. ولماذا يتألم، يصرخ متفجعًا، ولكن فمه المليء بالدم يكتم صرخته، يتقلص جسده منفعلًا، فيزداد ألمه ويدرك أنه لا خلاص، كان مصلوبًا، معلقًا عند جسر بغداد، وعشرات المارة مثل نقاط سوداء غائمة يتطلعون نحوه، لم يكن كابوسًا، كان حقيقة مرة، غدروا به جميعًا، الجواري التي استقبلنه، والعباسة التي غنت، والرشيد الذي أحكم الشرك، هل يوجد من ينقذه؛ إخوته وأبوه، جيشه الذي أعده لهذه اللحظة، الأعوان والشعراء والذين كانوا يلوذون به؟ أين ذهبوا جميعًا؟ كيف تركوه للصليب، لهذه الدرجة من الضعف والهوان؟ جمع في صدره كل ما قدر عليه من الهواء القادم من النهر، ثم بصق كل ما في فمه من دم جاف، أخذ يصرخ ويعوي في صوت عالٍ، لعل هناك من يجرؤ على إنقاذه!



ما زال بنو هلال يركضون فوق التضاريس العربية، يعبرون من سنوات القحط إلى سنوات الحرب دون أن يصلوا إلى السكينة، يبحثون عن أرض لا تجدب، وآبار لا تنضب، ومراعٍ دائمة الخضرة، باختصار يبحثون عن حلم مستحيل وسط البيداء العربية.

ما الذي منح الحياة لهذه التغريبة طيلة هذه السنين؟

كيف تحولت واحدة من ملاحم الحرب والقتال إلى زاد يسكن في وجدان الناس المسالمين، سواء أكانوا رعاة في الجبال، أم فلاحين على ضفاف الأنهار تمنحهم السلوى والأمل؟

تداخلت أشعار الحرب مع أغاني الحصاد، واختلط وقع سنابك الخيل مع ضربات الفؤوس، وبقي أبو زيد الهلالي، ودياب بن غانم، والجازية، والسلطان حسن، والقاضي بدير، ومرعي، وسعدى، والزناتي خليفة، على قيد الحياة على الرغم من انتهاء أعمارهم الافتراضية، بل إن غربتهم نفسها ظلت مستمرة.



سمعت بتغريبة بني هلال لأول مرة من أفواه بعض من ورثتها الحقيقيين. كنت أعمل طبيبًا صغيرًا في إحدى قرى صعيد مصر؛ قرية معزولة على بحر يوسف، لا يصلها بالمدينة إلا طريق وعر منقطع، ولا تنير ليلها إلا مشاعل مرتجفة، وكان الليل معلم القرى، وباعث الرعب في أوصالها، يطبق عليها فيحولها إلى كتلة مظلمة، يخفت فيها صوت البشر، وتعلو أصوات الذئاب. كنت أضيق بصمت الوحدة الصحية، فأسعى في دروب القرية الضيقة، يتقدمني الممرض وهو يحمل مصباح الغاز إلى حيث يجتمع الرجال فوق إحدى المصاطب أو داخل قاعة من القاعات، في هذه الليلة كان هناك شاعر نصف أعمى، نصف أصم، يعزف على ربابة لها وتر واحد، يحاول بواسطته أن يستحضر ملحمة بني هلال بكل ما فيها من صخب ورقة وعنف ووحشية وعذوبة، ولم تكن مهمة المغني صعبة، فكل ما يفعله هو أنه يحدث ثقبًا صغيرًا في وعي الفلاحين المحدقين به، ومن هذا الثقب ينسال كل ما هو مخزون في أعماقهم. كانت «التغريبة» متأججة بالحياة في داخلهم، واكتسبت على مر الأيام والسنين نوعًا من الحياة الذاتية، وأصبح لها كيانها المحسوس، كانوا جميعًا ـ وهم الذين لا يجيدون القراءة ولا الكتابة ـ يحفظون الأشعار وتفاصيل الوقائع وأسماء الفرسان ومعالم البلدان، كأنما بنو هلال قد أودعوهم سرهم الخاص في لحظة ما، كانوا بمختلف طبقاتهم قد نهضوا في ظلال الليل يؤدون أدوارهم بدقة؛ الأجراء هم وقود الحرب، والمزارعون هم الفرسان، والأعيان هم الحكام والأمراء، وظل وتر الربابة الوحيد مثل الصوت الصارخ في البرية يرثي حلم العدل والبحث عن أرض، والرغبة في الأمان.

كان من الطبيعي أن تمتد رحلة بني هلال عبر الترع والجسور، ويصبح الفلاحون هم ورثتها، فقد كان حلمهم هو الأرض الخصبة، وعلى الرغم من أن أبطال التغريبة كانوا من الفرسان فإنهم يتشاركون مع الفلاحين

في نفس الحلم، ويهربون مثلهم من نفس المخاوف؛ مخاوف الجوع والإملاق، وليس أكثر من الفلاح من عرف قسوتها، لا بسبب الجفاف ونضوب الأنهار، وتقلب الطبيعة فقط، لكن بسبب سلب الولاة والجباة، وحصول الفلاح على الأرض هو أشد أحلامه عسرًا، فالأرض لا تستقبله إلا أجيرًا أو منهوبًا، ونادرًا ما تستقبله مالكًا. كان فارس الملك يركب الجواد ويركض به إلى حافة الأفق، ويمتلك كل الأرض التي يقطعها الجواد في المسافة من مشرق الشمس حتى مغربها، وجاء بنو هلال ليحققوا هذه الأمنية المستحيلة، ساروا من مشرق الأرض العربية حتى مغربها، وقاتلوا كل فرسان الملك السابقين، في كل مكان مروا به كان حاكم المكان يصر على منعهم من الراحة، ويطالبهم بعشر ما معهم من مال وجمال وخيل ونساء، تمامًا كما يفعل الجباة مع الفلاحين حين يصرون على تحصيل الضريبة في الزمن الضنك، ويسلبونهم محاصيلهم وحيواناتهم الضرورية، كان الفلاح ـ في الواقع ـ يحاول التحايل على هذا العسف؛ يخبئ المحصول، ويهرب الحيوانات، ويتظاهر بالضعف والذلة، لكنه ـ في زمن الحلم ـ مع بني هلال يواجه هذا الابتزاز بالقوة، يرفض منطق الحاكم الظالم، ويشرع سيفه، ويبدأ حربه، ويقتل الحاكم الظالم، ويولي بدلًا منه الذي يعده بأن يكون عادلًا، ولا يخرج الأمر عن مجرد الوعد.

وعلى طول المسيرة تتكرر المدن الخيالية، ويتكرر الحكام، ويبدو ظاهريًّا أن هذا تكرار في المكان، لكنه في حقيقة الأمر امتداد الزمان، يحكي قصة كل الحكام الذين صعدوا ووعدوا وأخلفوا واستولوا على أعشار أرزاق الناس. إنه كابوس النهب وافتقاد العدل، وحتى سيوف بني هلال ليست لها القدرة على رتق الأحلام؛ وبذا فإن حياتهم فوق هذه الأرض هي تغريبة طويلة، ما دام هناك حكام، سواء كانوا غرباء عنهم أو منهم، فإنهم يتصرفون وفق منطق كل الحكام.

ربما مست السيرة نفوس الفلاحين لهذا السبب، لكن المثير للدهشة أنها مست أيضًا كل أوتار النفس العربية، كل الذين يمارسون الزرع والقلع والصيد والرعي؛ ربما لأنها تحمل شيئًا مشتركًا في حياة كل هؤلاء، أو أنها اعتمدت على واقعة حقيقية تمثل شيئًا مهمًّا في وجدان الناس العربية.

تبدأ الرحلة من بلاد نجد التي أصابها الجفاف، وهدفها تونس الخضراء؛ لإنقاذ أولاد السلطان الأسرى بها، لكن بني هلال بدلًا من أن يسلكوا طريقًا مختصرًا عبر مصر - عكس طريق الحج المعروف - إذا بهم يواصلون الرحيل شمالًا إلى العراق، ثم إلى دمشق، قبل أن ينحدروا إلى فلسطين وبيت المقدس، وقبل أن يدخلوا مصر، وهم بذلك يسيرون على نفس خطوات الفتح العربي الإسلامي، كأنما يعيدون تمثيل نفس الحادثة التي غيرت وجه المنطقة، يقومون بفتح آخر، يحمل السيوف العادلة، ويعيد سيطرة القبائل العربية الأكثر نقاءً وجوعًا على القبائل الشمالية المتخمة، الأقل نقاءً، وهم يعيدون أيضًا تمثيل نفس الأعداء السابقين؛ العجم والروم، يعيدونهم إلى المنطقة مرة أخرى ليحاربوهم وينتصروا عليهم، رحلة خرافية، وسط مدن خيالية، ضد الملوك لم يوجدوا لكنها تضرب جذورها في جغرافيا الواقع، وتعيد تركيب جزئيات التاريخ، ألا يكفي هذا مبررًا حتى تجد النفس العربية شيئًا من ذاتها في رحلة بني هلال..؟

إنها ليست ملحمة البطل الفرد، لكنها تحمل ملامح أبطال كل السير الشعبية الأخرى، أو بالأحرى ملامح جماع الأمة العربية، فأبو زيد يحمل سواد عنترة، وخفة علي الزيبق، ودياب يحمل بطش بيبرس، وفروسية حمزة البهلوان، والجازية فيها جمال وشهوة كل نساء السير العربية، أخذت الهلالية كل الصفات التي حددها الخيال الشعبي لأبطاله، وأضافت

إليها لمسة آسرة من الواقعية الإنسانية، أبطال يتحاربون ويموتون على أرض الواقع، لا سحر، لا خرافة، لا أفعال خارقة للعادة، استبدلت كل هذا بالعقيدة الشعبية التي يؤمن بها الجميع، وهي «المقدر والمكتوب» المصير الذي لا يفلت منه حي.

هل تكفي هذه الأسباب لتبقى للسيرة حيويتها، أم أن هناك أسبابًا أخرى تكمن في بنية السيرة نفسها؟

بدأت تغريبة بني هلال داخل أرضهم بعد أن غير الجدب كل المعالم القديمة، وطالت مدة المجاعة، حتى اضطروا للتفكير بصورة مختلفة، أرادوا أن يكسروا الدورة الصحراوية القاسية التي تتبادل فيها مواسم الجوع والشبع، وأن يرحلوا حيث لا مواسم، عليهم أن يتحركوا مثل قبضة اليد الواحدة، على الرغم من كل الخلافات المحتدمة في داخلهم، اختاروا فارسهم أبا زيد ليقوم بمهمة الدليل الذي يكتشف لهم مكان الأرض المناسبة، لكنَّ أبا زيد الذي كان يعاني من عقده الخاصة ـ سببها على الأرجح لونه الأسود والشك في صحة نسبه ـ كان يعتقد أن القبيلة تريد التخلص منه، ويرفض الرحيل قبل أن يأخذ أولاد السلطان حسن الثلاثة معه.

استغرقت رحلة الاستكشاف خمسين يومًا، وعاد أبو زيد وحيدًا لا يحمل معه إلا وصفًا للأرض الحلم، تونس الخضراء، لكن أين أولاد السلطان الثلاثة: يحيى ومرعي ويونس؟ لقد وقعوا في أسر حاكم تونس «الزناتي خليفة»، أسرهم جميعًا، وأوشك أن يقتلهم لولا تدخلت ابنته «سعدى» التي وقعت في غرام «مرعي» واحد من الإخوة الثلاثة، ولم تكتفِ بذلك، ولكنها أقنعت والدها أن يطلق العبد «أبو زيد»، ليذهب إلى نجد ويأتي بفدية

الأمراء. خدعت سعدى أباها للمرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، كانت قد قرأت الرمل وعرفت أن قدرها هو الوقوع في غرام مرعي، وقدر أبيها هو الموت على يد بني هلال الذين سيقبلون على تونس كالجراد، ومن الغريب أنها ساهمت بشدة في تنفيذ تصاريف هذا القدر، وكشفت عن نقاط ضعف أبيها حتى قتله دياب فيما بعد، ومن سخريات السيرة أن نهاية هذه العاشقة الحمقاء كانت على يد دياب أيضًا.

تصبح تونس، إذن، هي هدف بني هلال، تجمع قواها وتستنفر بطونها، يقودهم الأمير حسن بن سرحان، وأبو زيد الهلالي، ودياب بن غانم، والقاضي بدير بن فايد، بل وأرسلوا أيضًا يستدعون «الجازية» أخت السلطان حسن البارعة الجمال التي لها ثلث المشورة، فتركت زوجها أمير مكة وأولادها ولحقت بهم.

تبدأ سنوات من الحروب المتواصلة التي يخوضها بنو هلال، في كل مكان يهبطون إليه هناك حاكم ظالم يقف في وجههم، لا يريد أن يمنحهم إذن العبور، ولا فرصة الراحة، يفرض عليهم معركة يحاولون عبثًا أن يتجنبوها، ويدفع بنو هلال ثمن كل خطوة من خطوات رحلتهم بالدم؛ يأتي ملوك العجم والروم، ويستيقظ ملوك الجاهلية القديمة من الماضي، يحملون كل رموز المظالم، ثم يكتسحهم طوفان بني هلال. حاكم واحد تبعهم هو ورجاله، الخفاجي بن عامر، أحد حكام مصر، الذي وقع في غرام الجازية التي لا سبيل لقلبها إلا بالموت، وسوف تصبح «الجازية» باستمرار مثل هيلانة طروادة، الجميع يتمنونها ولا يحصلون من ورائها إلا على الدمار.

تقول أحداث التاريخ، حسب رواية المؤرخ العظيم ابن خلدون، إن الرحلة قد توقفت في مصر لبرهة من الزمن، فقد رفض الخليفة المستنصر

بالله الفاطمي أن يسمح لهم بعبور النيل من ضفته الشرقية إلى الغربية، وهكذا ظلت الجحافل الصحراوية عاجزة عن عبور هذا الحاجز المائي، وحدثت لهم الكثير من الحوادث في مصر، ومن الواضح أن جزءًا كبيرًا منهم قد استقر في مصر وفضَّل عدم مواصلة الرحلة، ولكن المجاعة العظمى التي شهدها عصر المستنصر ضربت الجميع، وتراخت قبضة الدولة الفاطمية فأعلن ولاة المغرب العصيان عليها، ولم يجد الخليفة الفاطمي وسيلة للانتقام من هؤلاء الولاة العصاة إلا بإطلاق هذه الجحافل من الجوعى عليهم، وهكذا سمح لبني هلال أخيرًا بعبور النيل، وهكذا أعطاهم تصريحًا مفتوحًا بتخريب بلاد البربر من أبناء قبيلة زناته، ومع خروجهم من مصر تتوقف أحداث التاريخ، وتتواصل الأسطورة.

تبدأ مشاكل بني هلال الحقيقية تحت أسوار تونس المنيعة، فالزناتي خليفة مولود من تزاوج بين إنسية وجان، مستعصٍ على الموت، قدره أن يموت فقط على يد دياب بن غانم، لكن الصراع الداخلي بين بطون بني هلال قد أصبح ظاهرًا، غرتهم الممالك التي دانت والغنائم التي حصدوها، وبرز اعتداد دياب بنفسه، وطمعه في عرش السلطان، وخاف منه السلطان حسن، وغار منه رفيقه أبو زيد، ودبرت الجازية خطة لإبعاده، وأصدر السلطان أمرًا لدياب أن يذهب بعيدًا عن مكان المعركة بحجة رعاية الأنعام أو «البوش»، وأدرك دياب أنهم يريدون أن يبعدوه عن معركة تونس، يريدون الانتصار بدونه، لكنه فضل أن يطيع هذا الأمر الغريب ويبتعد حتى يشعروا جميعًا بمدى افتقارهم إليه.

ولا بد أن الأقدار التي حبت بني هلال طويلًا قد قررت أن تعاقبهم أخيرًا؛ أصيب أبو زيد بلدغة ثعبان ورقد عاجزًا، وبدأ الزناتي يهاجمهم بضراوة وقد آمن الموت، قطع تسعين رأسًا من فرسانهم وعلقها على الأسوار، وأخذ بنو هلال يترنحون تحت ضربات الهزيمة الوشيكة، حتى

بعد أن تسللت سعدى وأعطت الترياق لأبي زيد لم يفد رجوعه إلى القتال في تحويل دفة المعركة، كان مقدرًا ألا يموت الزناتي إلا على يدي دياب، ودياب بعيد، وأبو زيد والسلطان لا يستطيعان التراجع والإقرار بالهزيمة، وبدأ أفراد القبيلة يرسلون لدياب أن يعود وهو يرفض، لم يقبل أقل من التسليم والاعتراف بالعجز من الذين أبعدوه، وتحت وطأة الهزائم سافر غانم والد دياب يحمل إليه رسالتين مزيفتين على لساني السلطان وأبي زيد، وقبل العودة أخيرًا.

حين رأى الزناتي ديابًا يركض تحت أسوار مدينته أدرك أن نهايته قد حانت، لم يستمع لصيحاته وهو يتحداه ويطلب منازلته، أغلق أبواب المدينة واحتفظ بالمفاتيح وجلس يرتجف، قفز دياب فوق الخندق الذي يحيط بالمدينة بجواده، وأنذر الجميع أنه سوف يقفز فوق أسوار المدينة، وذهبت سعدى بدوافعها الغريزية الغامضة تحث أباها على الخروج، وتواصل خداعه بحلم مزيف ونبوءة كاذبة عن انتصاره، وكانت مهانة الزناتي قد بلغت مداها، ولم يبقَ أمامه إلا أن ينهض ويخرج، وينقذ شرفه كفارس وكملك بالموت، خاض معركته الأخيرة البائسة وهو يعرف نتيجتها سلفًا، وسقطت تونس، حلم الهلالية الأخضر.

هل استكان بنو هلال بعد أن وصلوا إلى أرضهم الموعودة؟

حانت لحظة تصفية الحسابات المؤجلة، واستيقظت التناقضات والصراعات الغافية، وضع دياب يده على تونس بلا حساب، وجلس على عرش الزناتي، وضم سعدى إلى حريمه على الرغم من أنفها وأنف مرعي وأنف السلطان حسن، وعندما أصر السلطان حسن على استردادها رفض وقام بقتلها، فاحتال السلطان حتى أدخله السجن ليذل فيه روح

الفارس المقاتل، لكن ديابًا استطاع أن يفلت ويذبح السلطان دون رحمة، ونهض أبو زيد لينال ثأر السلطان، لكن لحظة من التردد القاتل أزهقت روحه، فلم يكن أبو زيد فارسًا خالصًا، كان يحمل في داخل إحساس الناس البسطاء الذين يذهبون دائمًا وقودًا للحرب، كان يدرك أن بني هلال قد حاربت أكثر مما ينبغي، بيد أن حرب الأهل هي أمر أنواع الحروب؛ لذا قرر أن يعفو وأن يتصالح وأن يمد يده إلى دياب، لكن ديابًا الذي بدأ رحلة الدم لم يكن يستطيع التراجع. كان موقنًا أن أبا زيد هو العقبة الباقية أمامه حتى يصبح حاكمًا مطلقًا؛ لذا انتهز رحلة للصيد وقتل أبا زيد غدرًا، أصبح دياب هو الفارس، الملك الأوحد الذي أخذ كل الأراضي التي ركضت خيول بني هلال في سهولها، كل ثمن الدم وميراث الجوع وأحلام العدل ولحظات السكينة والراحة، واضطرت الجازية أن تأخذ أولاد أخيها الأيتام وأن ترحل بعيدًا، وأن تسهر عليهم حتى يكبروا ويشبوا ويصبحوا قادرين على أخذ الثأر من دياب، بدأت دورة الحكام، واحدًا يأتي ويصعد ويتحول إلى طاغية، حتى يأتي من يخلص الناس من شره، ولا تتوقف الدورة، فلا الظلم ينتهي ولا العدل يأتي.

مرة أخرى تعيد السيرة تمثيل الحوادث التاريخية الكبرى؛ مرة في رحلة المكان وأخرى امتدادها عبر الزمان، فهي تحكي قصة الدولة العربية الكبرى في صعودها وازدهارها، ثم في تحللها وانهيارها. تتبدل الوقائع، وتتغير الأسماء، ويبقى الجوهر نفسه، فالراوي لا يقف عند الانتصار النهائي لبنى هلال ليقول: «عاشوا في سرور وانشراح حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات»؛ لأنه يدرك بمعرفته التاريخية لوقائع الأيام أن النصر حلم قصير الأجل، وأن الفرقة مثل السوس الذي ينخر في عظام الأمة. لقد بدأت بذرة السيرة الهلالية في التكون في القرن الرابع الهجري، وسط واقع عربي مؤلم.

خليفة عباسي في بغداد، وفاطمي في مصر، وألف خارجي وشيعي، وألف سبب للفرقة والتناحر.

ولم يكن الراوي الذي يمتلك حس الشعب قادرًا على خداع نفسه، ولم يغمض عينيه عن النبرة المأساوية التي تربض في ثنايا المقدر والمكتوب.

ولعل في شكل بنية السيرة سببًا آخر من أسباب بقائها فهي لا تبتعد عن الواقع، بل تعيد بناءه بكل ما فيه من بهاء الحلم وفجيعة السقوط، تحمل النبوءة والنذير بأن وحدة الأمة العربية هي خلاصها، وفرقتها هي السبب في انهيارها الأكيد.

شخصيات السيرة هي أيضًا ثمرة تنوع الملامح العربية، ومع كل رواية يبرز أحد الأبطال، كأنما تحمل كل شخصية ملمحًا نفسيًّا وعرقيًّا لكل جماعة عربية، في مصر يبرز أبو زيد وهو يأخذ طابع ابن البلد الشجاع المرح البسيط، وفي ليبيا تسود رواية دياب بكل ما فيه من فروسية وصرامة ومطامح، وفي تونس تثير الجازية شهوة الأنثى وقوة المرأة التي تخوض القتال بكل أسلحة الفتنة والإغواء، كل جماعة تعيد تشكيل الشخصية وفق حاجتها النفسية، وتقنن سلوك البطل وفق ما تريده.

يقف «أبو زيد الهلالي سلامة» الفارس المثالي، أشهر شخصيات الملحمة، الذي لم يكن يستحق المصير الذي آل إليه، ولعل موته هو الذي يعطي الملحمة التي طالما تغنت بالانتصارات نبرة من التشاؤم؛ أبوه هو رزق وأمه خضرة الشريفة، ولا أحد يدري لماذا جاء المولود ذو الحسب والنسب أسود اللون. لم يكن أحد يعلم حينذاك ما نعرفه الآن عن الطفرة الوراثية، لكن الشائعات أحاطت بسلوك الأم، وهو الأمر الذي ترفضه المخيلة الشعبية، وتصر على تسميتها «خضرة الشريفة»، ويورد الراوي مبررًا آخر بأنها رأت أحد الغربان وهو يصارع جمعًا من الطيور

وينتصر عليها جميعًا، فتمنت أن يكون ابنها مثل هذا الغراب الأسود. أيًّا كان السبب فقد قضى أبو زيد طفولة تعيسة في أرض ليست أرضه وبين أهل ليسوا أهله، وهو الأمر الذي يحدث دائمًا لأبطال الأساطير، لكن هذا اللون وهذه النشأة هما اللذان أعطيا لأبي زيد مكانته الخاصة، فهو يمثل الحلقة الوسطى بين العبيد والسادة، يحقق ذلك التمازج المستحيل بين الدماء الزرقاء النبيلة ودماء العامة التي لا لون لها، و يتصرف دائمًا على هذا الأساس، يترك السيف ويهبط من فوق الجواد، ليدخل شوارع المدن المعادية متنكرًا على هيئة شاعر جوال أو مهرج أو عبد مجلوب أو حتى جارية، يستثمر كل جذور الفكاهة والحيل لدى العامة أو ما يطلق عليه اسم «الملاعيب»؛ لذلك فهو حميم الصلة بالوجدان الشعبي، يعلو بهم بلونهم الداكن، وذكائهم المحدود، إلى آفاق يستطيعون فيها مغالبة السادة، وأبو زيد لم يخرج للقتال إلا لأنه كان جائعًا، ولم ينسَ ذلك قط، فلم يصب بالتخمة، ولم يطمع في غنيمة غيره، وعندما عرضت الجازية نفسها للزواج به لم يأبه بذلك، بالرغم من أن هذا الزواج يمنحه شرف مصاهرة الملوك، لكنه يرفض متمسكًا بزوجته القديمة. إنه فارس مثالي، حاول أن يبقى على نفس مثاليته حتى بعد أن ولى الزمن وتغيرت الظروف، وبعد أن حكم جياع «نجد» مشرق الأرض ومغربها، وبعد أن أشرع دياب أظافره الملوثة بالدم حاول أبو زيد أن يتصرف التصرف الشعبي المألوف، وهو أن الصلح خير، فإذا بهذا الخير يكلفه حياته، وحتى قتل«أبي زيد» جاء بطريقة «الملاعيب»، لقد فهم دياب شخصيته وتلاعب به، وعندما كانا يشتركان في رحلة الصيد صرخ فيه: خذها من دياب، والتفت أبو زيد مفزوعًا، فوجد ديابًا يمد له يده وفيها سنبلة القمح، أي عذوبة في تلك الإشارة لجائع سابق، وأي وعيد تخفى تحتها بالنسبة إلى فارس غادر؟ لقد ظل دياب يكررها ثلاث مرات، وأبو زيد يلتفت ضاحكًا، ثم هوى دياب

عليه بالدبوس في المرة الرابعة محطمًا رأسه الذي طالما دَوَّخ الأعداء، ومات فارس «الملاعيب» بملعوب لا يتفق مع مواهبه.

أما «دياب بن غانم» فقد كان متسقًا مع نفسه حتى النهاية، وهو يتحول من فارس إلى حاكم، ومن حاكم إلى طاغية، تزوج أبوه عشر نساء جميلات دون أن ينجب منهن، ثم اضطر في النهاية لأن يتزوج أشد النساء دمامة في القبيلة، حتى إنه لم يجرؤ على النظر في وجهها وهو يدخل بها، ولم يبقِ على عشرتها إلا إكرامًا لذلك الولد الوحيد الذي يحمل اسمه، وقد أعطى هذا لدياب إحساسًا بالتفرد منذ طفولته، وولد داخله طاقة من العناد والرغبة القاسية في الحصول على ما يريد، وعدم نسيان الإساءة، وكان يدرك أنه صمام الأمان لبني هلال، ويتعمد أن يدخل ميدان القتال متأخرًا، عندما يحسون بحاجتهم الماسة إليه، ومنذ خطوات التغريبة الأولى وهو يسعى للعرش، زوج أخته السلطان حسنًا، وسعى ليتزوج بالجازية، لكنها رفضته، فلم ينسَ لها ذلك، وقتلها دون أي تردد في مبارزة غير متكافئة، وبعد أن قتل الزناتي أدرك أنه يريد كل شيء، العرش وسعدى وتونس ومشرق الأرض ومغربها، وفي سبيل هذه الغاية قتل كل من حاول مقاومته. كان حاكمًا واقعيًّا، لا يعترف بأي مثاليات ولا ذكريات قديمة، ولا حرمة لرفاق السلاح وكانت مشكلته الحقيقية هي الزمن، لقد وصل إلى العرش بعد أن كبر في السن، ولم يعد يستطيع الاعتماد على قوة شكيمته كفارس؛ ولذا لجأ إلى زرع الخوف والرعب في نفوس الرعية حتى يشل قدرتها، كان يحمل في داخله دمامة أمه، فرأى أن إصلاح هذا الكون الدميم لا يتأتى إلا بإسالة المزيد من الدماء، وكان موته استمرارًا لدورة الدم التي بدأها.

تبقى «الجازية»، ويا لها من امرأة، جميلة المنظر لطيفة المحضر، بديعة

الجمال، عديمة المثال في الحسن والكمال، والقدر والاعتدال، وفصاحة المقال، لا يوجد مثلها بين الخلق، لا في الغرب ولا في الشرق، تملك ثلث المشورة بين قومها، تمثلت كل هذه الصفات في امرأة واحدة، كانت تمتلك القدرة - في زمن الجواري - على تغيير مسار حياتها، تركت زوجها حاكم مكة لتلحق بقومها في تغريبتهم الطويلة، ولم تفصح عن عواطفها الدفينة إلا بعد أخذت التغريبة أقصى مداها، وعندما رحلت زوجة أبي زيد غاضبة بعد أن تشاجرت الجازية معها حول من يعبر مخاضة الماء أولًا، انتهزت الجازية الفرصة أخيرًا وعرضت نفسها للزواج بأبي زيد، ولا بد أنها انتظرت طويلًا، وربما لم تقم بالرحيل مع قومها والانفصال عن زوجها إلا من أجل هذه الفرصة، كان هو عشقها الخفي الذي لم يجعلها تجرؤ على البوح به، حتى راوي السيرة نفسه لم يبح به، كان من الصعب عليها وهي أخت السلطان، وزوجة الأمير، أن تتزوج فارسًا أسود اللون، مشكوكًا في نسبه، وهي وسط قومها في أرض نجد، وسط التقاليد القبلية الصارمة، لكن التقاليد ضاعت في بلاد الغربة، وولدت في سنوات الحرب تقاليد جديدة، يسود فيها الأقوى، ووجدت فيها الجازية فرصة للتعبير عن عواطفها الجياشة، لكن المنطق الأخلاقي كان أقوى منها، فرفضها أبو زيد، وظل هذا سببًا من أسباب تعاستها، كل الرجال الذين رغبوا فيها رفضتهم، والرجل الوحيد الذي رغبت فيه رفضها، ويبرز دور الجازية قويًّا بعد أن يموت الفرسان على يد دياب، فهي التي ترعى الأيتام، وتهرب بهم بعيدًا، ولا تعود بهم إلا بعد أن يشتد عودهم، وتهزم دياب حتى بعد أن ماتت.

تبقى الشخصية اللغز؛ شخصية «سعدى» بنت الزناتي خليفة.

يقول دياب وهو يطعنها: «إن من تخون أباها تخون أي شيء». وكان

محقًّا، وعلى الرغم من هذا تصفها السيرة بأنها «من أجمل البنات، لطيفة الذات، قد اتصفت بالأنس والمحاسن، وشاع ذكرها في كل الأماكن، تحير الأدباء، وتنادم الملوك والأمراء، ذات أدب وفضل، ومعرفة بضرب الرمل..»، كل هذه الصفات الجميلة كانت تغلف ذاتًا مخادعة، تصل بها إلى حد الخيانة؛ عشقت مرعي قبل أن تراه، وعرفت نهاية أبيها قبل أن يخرج بنو هلال من أرضهم، وأطاعت غريزتها ضد واجبها البنوي، فخادعت أباها، وجلبت الموت لقومها، والسقوط لمدينتها، ساعدت على نفاذ سهم المقدر، ولم تجنِ من عشقها وخداعها سوى العار والموت.

كيف رسمت السيرة حدود هذه الشخصية البالغة الرقة والجمال في الظاهر، البالغة القسوة في الداخل؟

هل أحلت غريزة المرأة العاشقة، مكان المرأة الطفلة؟ وهل يصلح هذا مبررًا في سيرة يحكمها مثل هذا المنطق الأخلاقي الصارم؟ هل استبدلت عاطفة البنوة، أم إن هذه نظرة الراوي المتخلفة إلى المرأة التي يسكنها الشيطان والتي هي محور الشر في العالم؟ أم لعلنا نقفز إلى أدوات التحليل النفسي فنقول: إن قتل الأب هنا هو ثورة على السيطرة الأبوية المطلقة، وقتل الحاكم المطلق، بكل ما يحمله من رموز الكبت والقمع والانسحاق، لعله تعبير عن عقد الطفولة المركبة التي تكونت داخل هذا المخلوق الرقيق المسمى «سعدى»؟

السيرة لا تقدم جوابًا محددًا، وتترك الأبعاد مفتوحة؛ حتى تضفي كل جماعة صفاتها النفسية على هذه الشخصية اللغز.

«بعد الإسلام انتشرت قبيلة بني هلال مثل سحابة الجراد..».

هكذا يصفهم ابن خلدون، لكن بني هلال لم يكونوا جرادًا يحمل الشر المطلق، أو الجوع النهم، لقد كان يحدوهم شوق طاغٍ للعدل المفتقد، وأرادوا أن يقيموا توازنًا بين الجوع والتخمة، لعلهم يصلون إلى حافة الشبع الإنساني فوق الأرض العربية.

وما زلنا حتى الآن في حاجة لمن يقيم لنا هذا التوازن الحرج، فمن أين يخرج بنو هلال هذه المرة؟



عندما حانت ساعة الرحيل قال له تابعه وناصحه «أبو إسحاق»: إن كان لا بد من ذهابك إلى الخليفة فافعل شيئًا واحدًا ولا تفعل غيره، إذا دخلت عليه فاقتله.

همس «أبو مسلم» في ذهول: أأقتل الخليفة؟!

قال: والله إن لم تفعل فلن تخرج من عنده على قدميك.

كأن «أبا إسحاق» كان يقرأ ذات نفسه، يرى روحه المتعبة القلقة وهي تتوجس خوفًا، وتوشك أن تقوده للانتحار، كان «أبو مسلم» قد خاض عشرات المعارك وقتل آلاف الناس، وكان يؤمن أنه لا يوجد عقاب سوى السيف، ولا يوجد سجن غير القبر، فهل يجرؤ على رفع سيفه في وجه الخليفة أبي جعفر المنصور؟

كيف استدار الزمن، وتحول أخلص القواد إلى فأر مذعور يساق إلى المصيدة؟ منذ أن حضر رسول الخليفة إليه وهو عاجز عن النوم، وعن اتخاذ القرار، قبل ذلك كان يعتقد أنه قادر على مغالبة الدنيا كلها، في البداية تحدث إليه الرسول بكلمات لينة عذبة، ولكن أبا مسلم الذي رأى ما يكفي من الدماء لم تخدعه بلاغة الكلمات.



هتف بالرسول: ارجع إلى مولاك الخليفة فلست أريد لقاءه.

وقال الرسول «حميد» في هدوء: أوقد عزمت على مخالفته..؟ أنصحك ألا تفعل.

كانت هناك رسالة أخرى أبقاها الرسول حتى اللحظة الأخيرة، حتى لحظة اليأس من الموافقة الطائعة لأبي مسلم، قال:

ـ فإن الخليفة يبلغك أنه بريء من محمد ودين الإسلام إن أبيت أن تأتي إليه أو عصيته، ولن يألو في طلبك وقتالك بنفسه، ولو خضت البحر لخاضه، ولو اقتحمت النار لاقتحمها حتى يفتك بك، أو يموت دون ذلك.

ووجم «أبو مسلم»، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتلقى فيها تهديدًا بهذه الحدة، وهمس:

ـ هو بنفسه، قال هذه الكلمات؟

وأومأ «حميد» في صمت وانصرف تاركًا أبا مسلم مشدوهًا، يفكر طوال الليل في قسوة هذه الكلمات، ويقارنها بعذوبة كلمات الرسالة الأولى، ويحاول أن يجد لنفسه بينهما مخرجًا، تذكر المرات التي تقابل فيها مع الخليفة أبي جعفر المنصور، كما تتقاطع النصال على النصال، في كل مرة يتولد جرح جديد ولكنه لا يصيب مقتلًا، هل حان وقت الإجهاز الأخير؟

في صباح اليوم التالي أرسل «أبو مسلم» أعز أصدقائه «أبي إسحاق» رسولًا للخليفة لعله يستشف منه ماذا يدبر له في هذا القصر العباسي البعيد، وعاد الصديق مبهورًا من حفاوة الاستقبال، ومن تعظيم آل العباس له وثنائهم على «أبي مسلم» وإصرار الخليفة بنفسه على استقباله، ومرة أخرى تداخلت

كلمات التهديد مع كلمات الترحيب وتكونت من حروفها خيوط عنكبوتية بالغة الإحكام، وقال «أبو مسلم» في حيرة حقيقية:

ـ أوَتصدقني القول يا أبا إسحاق؟

وأحنى الصديق رأسه وهو يقول: وهل أبيع قطعة من نفسي يا «أبا مسلم»؟

واحتضنا بعضهما وبكيا معًا؛ بكى «أبو مسلم» ندمًا لأنه ذات لحظة قد انتابه الشك في أعز أصدقائه؛ وبكى أبو إسحاق لأنه كان يتساءل في أعماقه إن كانت ولاية خراسان التي وعده بها الخليفة تستحق أن يبيع صديق عمره.

بدأ «أبو مسلم» الرحيل عن خراسان في قافلة طويلة محملة بالهدايا لعل الخليفة يرضى عنه، محفوفة بالفرسان لعله يرتدع منه، وهو يسير في المقدمة صامت الوجه، يردد في داخله بيتًا من الشعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ... ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وكان الطريق إلى مدينة «الري» طويلًا، أحاط به فرسانه فأحس ببعض الأمان، وأراد أن يطمئن نفسه أكثر، فأخذ يتذكر انتصاراته السابقة، كان يمر بكل القرى التي غزاها، والمدن التي اقتنصها من أيدي ولاة بني أمية، كان شابًا صغيرًا عندما قابل الإمام العباسي، إبراهيم بن محمد وكانت الدعوة سرية أشبه بحلم غامض للخلاص، ومن المقابلة الأولى اكتشف الإمام الشخصية الطاغية لهذا الفتى، جعله يختاره ليحتل مركزًا مهمًا في الدعوة وهتف ببقية الوفود التي جاءت تبايعه:

ـ «أبو مسلم» منا نحن آل العباس، أطيعوه، تطيعونا.

بدأت رحلته الفريدة تحت الراية السوداء، يظهر ويختبئ، ويستغل

ثغرات بني أمية وخلافاتهم، وجشع الولاة، وتوق الناس للتغيير، وأصبحت بلاد فارس عجينة طيعة في يديه يشكلها كما يشاء، لا يراجعه فيها أحد، وعندما قتل الخليفة الأموي مروان بن محمد انقضت دولة بني أمية، وهبطت راياتها، ارتفعت رايات العباسيين السوداء، وظل «أبو مسلم» هو فارس الدولة وحاميها برغم توالي الخلفاء، ثم ظهر الخليفة أبو جعفر المنصور، وتغير كل شيء.

توقفت القافلة للراحة، وجاء أحد العرافين إلى خيمة أبى مسلم، قالوا له إن هذا العراف ماهر في التنبؤ بالمستقبل، فسأله في سخرية مريرة:

ـ هل يمكن أن تخبرني أين سأموت؟

نظر العراف إليه بعينين نافذتين وقال في تأكيد: تموت في بلاد الروم.

وضحك «أبو مسلم» في انشراح، كان من المقرر أن يتقابل مع الخليفة في المدائن، وهمس يحدث نفسه:

ـ ما أبعد المدائن عن أرض الروم..

وأعطاه عطاء جزيلًا برغم أنه لم يصدقه كثيرًا.

تقابلا للمرة الأولى في خراسان، بعد أن سقطت دولة بني أمية، وأعلن أبو العباس نفسه خليفة للمسلمين وأبا جعفر وليًّا للعهد، كان أبو جعفر طوال هذا الصراع الدامي ضد الأمويين معتكفًا في قرية «الحميمة» يدرس الفقه والتفسير، ولكنه خرج فجأة من هذه العزلة لكي يتصدر الدولة ويصبح أميرًا للمؤمنين، لم يرَ «أبو مسلم» بطريقة جيدة، لم يدرك أن هذه الدولة قد نهضت على حد سيفه، هو الذي أخذ البيعة لأخيه ثم له من بعده، وبرغم ذلك فلم يكن أبو جعفر يثق به، صدق الأقوال التي تناهت إليه حول أبي مسلم، أكدوا له أنه قد غير من ولائه بعد أن مات الخليفة الأول، أصبح يميل للعلويين.

وعندما وصلت الوشاية إلى أبي مسلم لم يهدأ، ظل يبحث عمن قام بهذه الوشاية حتى تبين أنه واحد من أصدقائه المقربين، وأراد «أبو مسلم» أن يبين لهذا الفقيه الخارج من عمق الصحراء كيف يتصرف القائد الحازم عندما لا يأبه بعواطفه الشخصية، فأسرع باستدعاء هذا الصديق، لم يسأله ولم يترك له فرصة للتوضيح ولا للاعتذار، ولكن قتله على الفور أمام الفقيه المذهول، الذي هتف به لحظتها:

ـ حدثوني كثيرًا عن شدتك، لكنني لم أتصورها لهذه الدرجة.

وقال «أبو مسلم» في سخرية خفية: لو بحثنا عن فتوى لكل مقتلة لما قامت الدولة.

كان مقدرًا لهما أن يلتقيا للمرة الثانية في موسم الحج، كتب «أبو مسلم» يستأذن الخليفة العباس في أن يخرج للحج، وكان يريد أن يكون هو قائد قافلة الحجيج، يريد أن يكتسب نوعًا من الشرعية الدينية غير شرعية السيف، ولكن أبا جعفر كتب هو أيضًا للخليفة طالبًا الخروج للحج، وكان طبيعيًّا أن يصبح هو أميرًا للحج، ربما كان ذلك بفعل المصادفة، وربما كان تدبيرًا عباسيًّا محكمًا؛ حتى لا يُعطى «أبو مسلم» أكثر مما أخذ، ولكنه شعر بالغيظ الشديد، وهتف وهو يلقى كتاب الخليفة:

ـ أما وجد أبو جعفر عامًا يحج فيه غير هذا؟

وكان الخليفة قد سمح له أن يخرج في رفقة خمسمائة من أتباعه، فخرج في عشرة آلاف، أراد أن يؤكد من طرف خفي أن للقوة نفس سطوة الإمارة، وسار في الصحراء كأنه يفتحها من جديد، أغمد سيفه وبسط يده، فحفر الآبار، وكسا الأعراب، وأقام الموائد، وأجزل العطايا، ووصل الشعراء، وترك أبا جعفر على الجانب الآخر قابعًا في الظل، يتأمل

ما يدور، ولا يغيب عن ذهنه مغزى ما يحدث، لم يكن في هذه اللحظة رجلًا قويًا يأتمر الرجال بأمره ولم يكن سخيًا، ولم يكن يحب الشعراء أو يميل لغناء الجواري، وكان يعتقد أن الآبار الموجودة في الصحراء كافية، ولكن الشيء الذي تأكد له بعد هذه الرحلة أنه لا أخوه على عرشه في بغداد، ولا هو على إمارة الحج يملكان شيئًا يوازي قدرة هذا الرجل الذي يدعى «أبا مسلم الخراساني».

وعندما انتهى موسم الحج واصل «أبو مسلم» لا مبالاته به، كان يصر دائمًا على أن يتقدم أبا جعفر على الطريق، وأن يتركه دائمًا خلفه، يشرب من ماء الآبار بعد أن تعكرت، وتأكل دوابه بقايا العشب، ويتأمل عبيده آثار الولائم، ولكن في منتصف الطريق جاءت الأنباء من بغداد بأن الخليفة قد مات.

وأصبح ذلك الفقيه المتأخر هو الخليفة، وبدأت وفود الناس تبايعه، ولكن أبا مسلم لم يرجع حتى يلقاه، ولم يتوقف حتى يلحق به، أرسل إليه فقط رسالة باهتة يعزيه فيها بموت أخيه الخليفة، ولا يهنئه بالخلافة، وللمرة الأولى ثار الفقيه الذي أصبح خليفة، أرسل له رسالة غليظة يأمره فيها أن ينتظر في «الأنبار» ولا يتزحزح خطوة واحدة حتى يأتي إليه، ورفع «أبو مسلم» حاجبيه في سخرية، ووصل الخليفة بالفعل، وقابل أبا مسلم وأخذ منه البيعة وهو يشعر أنه محاصر بجنود لا يكنون له أي ولاء.

وزاد الأمر سوءًا أن جروح القرابة القديمة بدأت في النزف مرة أخرى، فقد استيقظ أولاد العم من العلويين، وبدأ زعيمهم عبد الله ابن علي، الذي يطلقون عليه النفس الزكية، يطالب بالخلافة لنفسه، وكان من العسير على أي خليفة أن يبدأ عصره بمحاربة عمه، ومرة أخرى كانت الحاجة ملحة لأبي مسلم وجنوده من خراسان، ولكنه قال له في استخفاف:

- عبد الله بن علي أمره هين وجنوده قليلون، ولكن أمر الخوارج على أطراف خراسان أهم وأخطر.

كان كل منهما يفهم الآخر جيدًا؛ لذا فقد أصر الخليفة على إبعاده، ولم يجد «أبو مسلم» بُدًّا من الابتعاد.

وهناك كان على موعد آخر، كان مقدرًا له أن يرى شخصًا غير حياته المليئة بالقسوة والدم، وبدلًا من مشاعر الحنق والانتقام امتلأ قلبه بالشوق والحزن والحنين، كان مقدرًا له أن يطل في عيني أمينة بنت علي.

على أبواب «الري» كان أشراف بني العباس في انتظاره، ثيابهم الرسمية، والرايات السوداء ترفرف فوق الأسوار، تركوا بغداد والبصرة والكوفة، وهرعوا ليكونوا في انتظاره، حتى الخليفة أيضًا سار إليه حتى منتصف المسافة وجلس ينتظره في «المدائن»، هل كان الأمر يستحق كل هذا؟

لم ينسَ الخليفة شيئًا، فمن بين أشراف بني العباس كان عيسى ابن موسى خال الخليفة وصديق أبي مسلم حاضرًا، وسأله «أبو مسلم» في قلق:

- يا عيسى، أترى الخليفة يغدر بي؟

قال عيسى في استنكار: ما هذا، أو قد غدر بأحد من قبل؟! إنه فقيه.. تربى على أصول الشريعة والدين، وليس على أساليب الغدر والدسائس، لا تخشَ شيئًا، وسوف أكون معك في مجلسه.

واطمأن «أبو مسلم» بعض الشيء، وتناول الطعام لأول مرة منذ أن غادر خراسان، وأوى إلى فراشه لعله يستطيع النوم، ولكن سيفه ظل في خاصرته، وغفا قليلًا، ولكنه استيقظ مفزوعًا وأحد الحراس يخبره، أن هناك امرأة تطلب رؤيته.

أهو فخ آخر..؟! ظل جالسًا حتى دخلت، ورفعت النقاب عن وجهها، لا بد أنه كان يحلم، كانت أمينة بنت علي تقف أمامه، يا الله!! كيف تداخلت الأزمنة، وتفتحت شقائق النعمان من الجروح القديمة، وتحول السيف إلى زهرة، ولحظة الخوف إلى ارتعاشة من العشق، ظل مبهورًا بدخولها المفاجئ حتى قالت:

ـ لم يبقَ لك إلا بضعة فراسخ على الموت.

وأحنى «أبو مسلم» رأسه في مرارة وهو يقول: لماذا تقولين ذلك؟ أنت أيضًا تتمنين موتي؟

قالت بصوت بارد: لا أتمنى موتك وحدك، وددت لو كانت لحظة موتكما معًا، أنت والخليفة.

ـ حسبت أنك آتية لتحذيري.

ـ وماذا لو كان هذا تحذيرًا؟ هل ستجرؤ على مباغتته وقتله أولًا؟ لن تفعل.. أنت لست سوى سيف، والسيوف عمياء.

ـ لست أعمى، لقد رأيتك جيدًا وأحببتك كثيرًا، وأرسلت إلى الخليفة أطلب الزواج بك.

ـ أتراه كان الحب، أم كان الطموح القاتل يا أبا مسلم؟ هل نسيت أنني عمة الخليفة حقًّا؟ ولكنني من العلويين، دبت العداوة بيننا.. وأنت أول من أوغلت سيفك في دمائنا.

عندما التقيا لم يكن الزمان صالحًا للحب، كانت الزهور ملوثة بدماء القتلى ورياح الصبا محملة بعفونة الجثث، وأشرق وجهها وسط غبار المعارك إشراقة حزينة، لم يكن يدري بعد كل هؤلاء القتلى الذين تحمل وزر قتلهم إن كان قادرًا على الحب أم لا، هتف وهو يتأوه:

ـ كنت مخطئًا يا أمينة، سيفًا أعمى كما تقولين.. ولكني الآن رجل تعيس، يعشق بلا أمل، ويرصده الموت، تعالي نتزوج ونرحل بعيدًا.

ـ أنت تتوهم، لا يوجد مكان آمن، لن نذهب معًا إلى أبعد من بضعة فراسخ.

كانت لا تزال تراه سيفًا أعمى، قادرًا على الانتقام، غير مستحق للحب، كانت تعاني من انشقاق روحها أمامه؛ لذلك نزعت يدها من يده ومضت، هكذا كانت لقاءاتهما دائمًا، تأتي دون توقع وتمضي وهو ما زال تواقًا إليها، وظل جالسًا بجانب النافذة والفجر بعيد.

كانت أمينة هي تردده الأول، خطوته نحو الضعف، كان يجب أن يتزوجها فور رغبته في ذلك، ولكنها كانت عمة الخليفة ومن آل البيت لذلك أرسل لأبي جعفر يستأذنه، وبدلًا من أن يرد عليه أرسل له من يحاسبه على الغنائم، أراد أن يفهمه للمرة الثانية وضعه الحقيقي، وصرخ «أبو مسلم» في الرسول غاضبًا:

ـ ماذا يظنني الخليفة، أمينًا على الدماء وخائنًا في الأموال؟

ثم رحلت أمينة بعيدًا، وعلم فيما بعد أن الخليفة هو الذي أمرها بالرحيل، وجمع «أبو مسلم» ذكرياته وعزم على التوجه إلى خراسان، ولكن الخليفة رفض عودته إلى قلعته الحصينة، أرسل إليه يغريه: «إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام، فإن أحببت لقاءك كنت بالقرب مني»، ولكن «أبا مسلم» لم يبتلع هذا الطعم العذب، كتب إلى الخليفة معتذرًا: «لم يبقَ لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدوًّا إلا وأمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك،

حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها بعيدة حيث نقارنها السلامة..». وابتلع الخليفة هذا العصيان المهذب، توجه «أبو مسلم» إلى خراسان واحتمى خلف حصونه القديمة وبدأت أيام القطيعة الطويلة.

وأخيرًا وصل «أبو مسلم الخراساني» إلى «المدائن» من بوابتها الشرقية، وكانت المدينة كلها في انتظاره؛ الأعلام على الأسوار، والزهور تفرش الطرقات، و أبو أيوب وزير الخليفة في انتظاره، أخذه بالأحضان وقال:

ـ الخليفة في شوق غامر لاستقبالك.

وقاده على الفور إلى حيث يقيم الخليفة، لم يكن يفضل العيش في قصور المدائن، كان الفقيه الرابض في داخله يجعله غير مرتاح إذا أقام في قصور الأكاسرة؛ لذا نصب خيمة ضخمة غريبة حمراء اللون متعددة الجوانب في وسط ساحة المدينة، وتوقف «أبو مسلم» مستغربًا وهو يهتف:

ـ يا لها من خيمة غريبة لم أرَ الخليفة يقيم في مثلها من قبل.

قال أبو أيوب: لقد صنعت خصيصًا للخليفة في بلاد الروم؛ لذلك فقد أطلق عليها «الرومية».

وخطا «أبو مسلم» خطوته الأولى فوق طنافس «الرومية»، ووقف قادته وفرسانه في الخارج، وأحاطوا بالخيمة بصورة لا يخطئ أحد دلالتها، وكان «أبو مسلم» يجتاز الأروقة، ويدوس فوق البسط الحمراء التي بدت كأنما أعدت خصيصًا لإخفاء آثار الدم.

وصلا إلى حيث يقيم الخليفة، حاول الحارس الواقف على الباب أن يأخذ سيفه منه ولكن أبا مسلم رفض، وأشار أبو أيوب للحارس فتراجع، ودخل «أبو مسلم»، كانت يده تحت العباءة ممسكة بمقبض

السيف، والخليفة واقف في مواجهته، لا واجمًا ولا مبتسمًا، كانت تفصل بينهما مسافات طويلة من الحقد والمرارة، ولم يكن أحد يدري كيف يمكن تخطيها، وفكر «أبو مسلم» إن خطا نحوه خطوة واحدة فسوف يقتله، ولكن الخليفة لم يخطُ، ابتسم، ضغط على عضلات وجهه حتى ابتسم، وقال:

ـ لعلك متعب من سفرك الطويل، اذهب فأرح نفسك، وادخل الحمام، وسوف أراك في الغد إن شاء الله.

انتهت المقابلة الأولى ببساطة آسرة، ووجد «أبو مسلم» نفسه يحني رأسه أمامه وهو يتنهد مرتاحًا، وعبر كل الأبسطة، وخرج من «الرومية» حيث كانت الشمس وأصحابه في انتظاره، أحسوا جميعًا فجأة أن الخليفة لن يقتل أبا مسلم؛ لأنه غير قادر على قتله.

وفي الصباح الباكر توجه الوزير أبو أيوب إلى خيمة الخليفة فوجده مستيقظًا، عينيه محاطتين بالسواد، وهتف به فور أن رآه:

ـ يا بن اللخناء، أنت منعتني من قتله بالأمس، والله ما غمض لي الليلة جفن.

وحاول أبو أيوب أن يبرر أسباب نصحه، كان يريد أن يكسر حلقة التوتر والتأهب حتى لا تحدث مأساة، ولكن الخليفة لم يكن يتصور أن «أبا مسلم» يمكن أن يخرج من خيمته سائرًا على قدميه، كيف ارتضى كل هذه السنوات أن يكون نصف خليفة بنصف بيعة؟ وصرخ في الوزير:

ـ ادعُ لي رئيس الحرس عثمان بن نهيك.

وحضر رئيس الحرس، كان رجلًا ضخمًا يليق بمنصبه، وسأله الخليفة:

ـ كيف بلاء أمير المؤمنين عندك؟

قال الحارس في حماس: إنما أنا عبدك، والله لو أمرتني أن أتكئ على هذا السيف حتى يخرج من بطني لفعلت.

قال أبو جعفر وهو يتأمل وجهه في إمعان: كيف أنت إذا أمرتك بقتل أبي مسلم؟

ووجم عثمان، تبخر حماسه وغرق في الصمت، وحين رأى ملامح الغضب قد تجمعت على وجه الخليفة قال في صوت ضعيف: أقتله يا مولاي.

وصاح الخليفة في غيظ: لو لم تقتله لقتلتك. هيا، اذهب وآتني بأربعة حراس أشداء.

وعندما خرج «أبو مسلم» من منزله في أول الصباح كان الأمر مختلفًا، نصف جنوده سكارى، والنصف الثاني قبض من الدنانير ما يكفي، والذين يسيرون خلفه، يفعلون ذلك فقط حفاظًا على الهيبة، وكانت عيون الخليفة ترصد كل خطواته، تبعوه حتى دخل منزل عيسى بن موسى، وظل جالسًا معه، وبعد فترة جاء أحد أتباع الخليفة يقول له:

ـ إذا أردت أمير المؤمنين خاليًا فعجل؛ لأن وفود فارس على وشك القدوم إليه.

وطلب «أبو مسلم» من ابن موسى أن يذهب معه لحضور المقابلة فاستمهله حتى ينهض ويتوضأ، ولكنه غاب طويلًا وظل التابع يلح، وكأن «أبا مسلم» كان مغيبًا، نهض وسار معه، وسار القادة خلفهما، وخطى «أبو مسلم» للمرة الثانية إلى داخل «الرومية»، ووقف القادة في الخارج وأخذ الخدم يحولون الفرش والوسائد بين الأروقة كأنهم يهيئون المكان لمجلس طويل، وخرج أبو أيوب ليقول للقادة في هدوء:

ـ إن الأمير أبا مسلم يريد أن يقضي فترة الظهيرة عند الخليفة، ويطلب منكم الانصراف.

وكان الخدم لا يزالون يواصلون نقل الوسائد وأصناف الطعام، وصدق القادة ما يرونه، وكان الخليفة قد أعد لهم مكانًا مريحًا وهدايا جديدة، وبدت الأمور صافية بالغة السكينة، كالسماء التي تغطي المدينة، وفي الداخل كان الخليفة يبتسم ويتحدث في بساطة عن أشياء عديدة متفرقة:

ـ سمعت عن سيفين أصبتهما من متاع عبد الله بن علي حين كنت تحاربه، أهذا السيف أحدهما؟

وأومأ «أبو مسلم» موافقًا، وفتح الخليفة كفيه يطلب، وتردد «أبو مسلم» وهتف الخليفة: أرنه.

ولم يكن هناك بد من أن يخلعه من خاصرته ويناوله إياه، وتأمل أبو جعفر صفحته الناصعة ثم وضعه تحت فراشه وهو يتمتم:

ـ هذا سيف عباسي، لا سيف مسلمي.

وتبعته عينا أبي مسلم في قلق، أحس أنه قد وثق بالخليفة أكثر مما ينبغي، وقبل أن يقوم بأي خطوة كان الخليفة قد بدأ معه حسابه العسير البارد:

ـ أخبرني عن كتابك إلى أخي أبي العباس تنهاه فيه عن أخذ الأرض الموات. هل أردت أن تعلمنا الدين؟

قال «أبو مسلم» وهو يحاول الإفلات من استفزاز الخليفة:

ـ ظننت أن أخذها لا يحل، فلما أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم.

ـ وكيف كان ظنك حين تقدمتني في طريق الحج؟

ـ كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس.

ـ فماذا حين أتاك الخبر بموت أخي أبي العباس، ومع ذلك مضيت فلا أنت أقمت حتى نلحق بك، ولا أنت رجعت إلينا؟

ـ منعني ما ذكرت من ازدحام الناس، فقلت نأتي الكوفة فليس عندي لأمير المؤمنين خلاف.

وصرخ الخليفة وقد زادت حجج أبي مسلم من غضبه:

ـ وعصيانك لي؟ وخروجك إلى خراسان؟ ومنعك رسلي من إحصاء الغنائم؟ وقتلك أبا مسلمة؟ وتحريضك على الغدر بابن هبيرة؟ وتغيير نسبك حتى تنتسب لآل العباس؟ ومحاولتك الزواج بعمتي أمينة؟ كل هذا، وغيره، هل عندك حجج أخرى..؟

وهتف «أبو مسلم»: لا يقال لي هذا بعْد بلائي في إقامة دولتكم.

ونهض الخليفة صائحًا: يا ابن الخبيثة لو بعثنا مكانك أمة سوداء لقامت بما قمت، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا، لو كان ذلك إليك لبقيت عاجزًا ما أصبت قتيلًا.

وصفق بيده فاقتحم الحرس المكان، وحاصروا أبا مسلم الذي أدرك أخيرًا أن اللحظة قد حانت، ورفع عثمان بن نهيك يده بالسيف، ولكنه ارتعد حين لمح بريق عيني أبي مسلم، وهبطت الضربة خفيفة فلم تصب إلا حمالة سيفه.. وهتف «أبو مسلم»: يا أمير المؤمنين، استبقني لعدوك.

فصرخ الخليفة: لا أبقاني الله إذن، أي عدو لي أعدى منك؟ اضربوه قطع الله أيديكم.

وهوى الحارس الأول على ذراعه، والثاني على ساقه، والثالث على خاصرته، والرابع على رقبته، تعالت دقات الدفوف من الخارج تغطي على صرخاته، وتشربت الأبسطة الحمراء كل ما سال عليها من الدماء وانتفض الجسد الذبيح الانتفاضة الأخيرة، ثم هدأ كل شيء، وهدأ الخليفة أيضًا، وكف عن الارتعاد، وجلس ساكنًا على العرش، ولف الحرس الجسد الدامي في الأبسطة، ودخل أبو أيوب وانحنى أمام الخليفة وهو يقول:

ـ اليوم يا مولاي، اكتملت خلافتك.

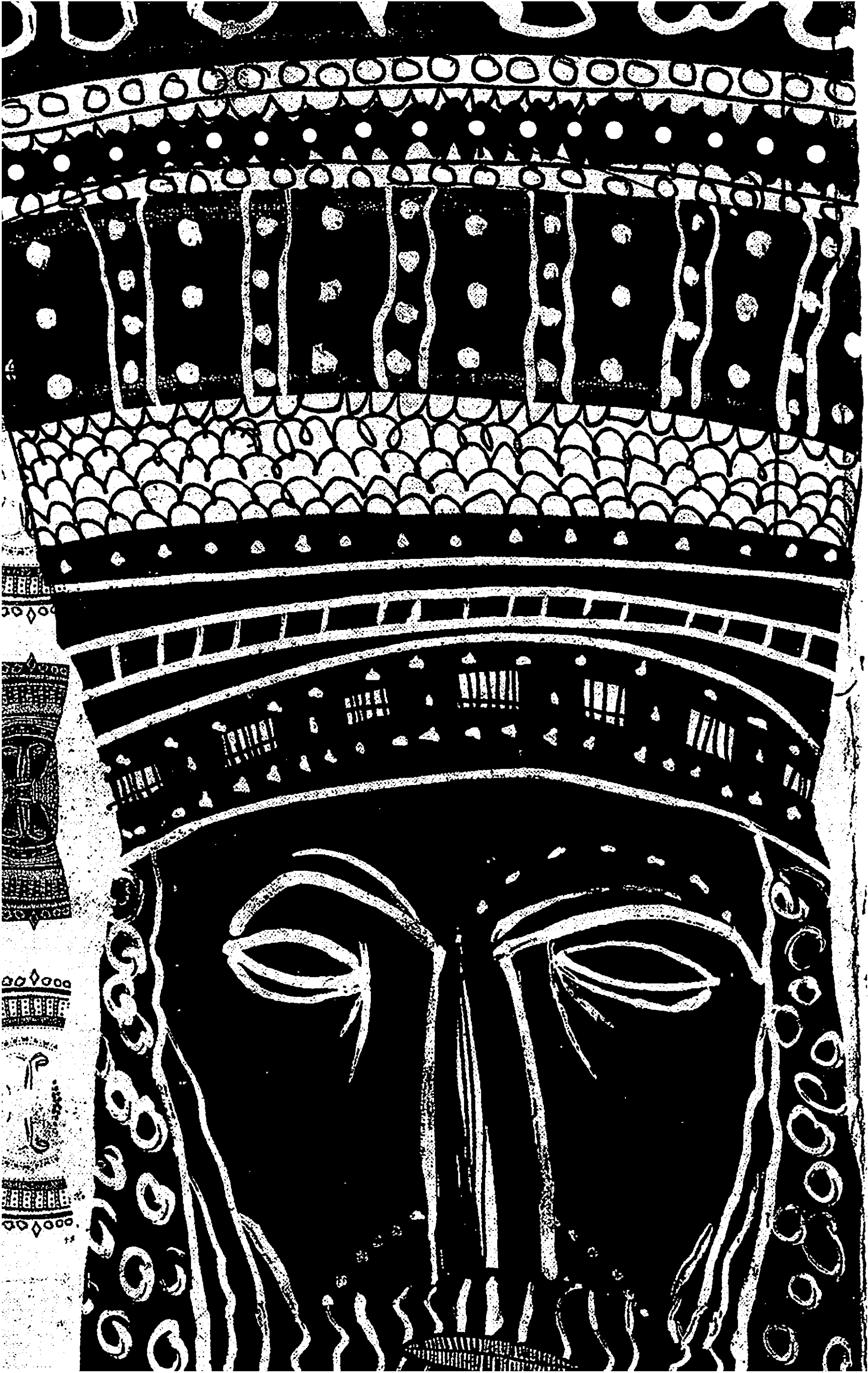


كان القاضي «ابن عباد» مستيقظًا، وإشبيلية نائمة، والنجوم غائرة، والبربر متحفزين، ارتفع أذان الفجر كصرخة استغاثة، وظل الحرس يسنون الخناجر، وسور المدينة الخارجي مليئًا بالثقوب، كل الأعداء الذين حاولوا اقتحامها صنعوا ثقوبهم الخاصة، وارتدوا عنها، وبقيت الثقوب، حانت اللحظة التي ينتظرها القاضي، نهض واقفًا، صرخ في أتباعه وجنوده وخدمه:

ـ أسرجوا الجياد وأعدوا ثياب الخلافة وخاتم الخليفة وعمامته.

اشتعلت الحركة في أرجاء القصر. ووقف القاضي شامخًا يشرف على الجميع، إذا حكمت فاحكم بالعدل، وإذا دبرت فلا تترك شيئًا للمصادفة. كان الفجر الأندلسي يذوب، يتحول إلى لون رمادي داكن، وبدأ صباح يوم الجمعة.

تحرك موكب القاضي عبر الشوارع الخالية، اتجه إلى المسجد الكبير حيث يحتشد في هذه الساعة كل علماء المدينة وفقهائها وأشرافها، كان معه والي الشرطة وخازن بيت المال وموثق العهود، تجمعوا في ساحة المسجد في انتظار انتهاء الصلاة، وتعالت «آمين» وتبعتها الأدعية



والابتهالات، وظهر أول مصلٍ على باب المسجد، وضع نعليه على العتبة ولكنه حين شاهد موكب القاضي ذهل عنهما وسار حافيًا حتى عبر الساحة ووقف في ركن منها يرقب وجه القاضي المتحجر.

ثم ظهرت جموع المصلين، ألقوا نعالهم وباغتتهم نفس الدهشة، ساد صمت مطبق وسار معظمهم حفاة إلى أطراف الساحة، وأصبح المسجد خاليًا والقاضي ينتظر، وأخيرًا، ظهر «خلف» صانع الحصر الذي يؤذن للصلوات ويتولى تنظيف المسجد، كان يستعد في هذه اللحظة لغلق الباب، نحيفًا في ثيابه الرثة، ويداه ضخمتين ومشققتين من جدل الحصر.

أشار القاضي فدقت الطبول، وعلت الصيحات وهتف الجند هتافًا غامضًا، التفت «خلف» في ذعر، شاهد القاضي وهو يترجل من فوق جواده فازداد ذعره، واندفع يجري ولكنه تعثر في النعال الكثيرة المنسية وسقط متدحرجًا من فوق درج المسجد عند أقدام القاضي، وهنا حدث الشيء الذي لم يتوقعه أحد، انحنى القاضي المهيب وقبل قدم صانع الحصر وهو يقول:

ـ مولاي أمير المؤمنين، حمدًا لله على سلامتك.

وسحب الحصري قدمه كالملدوغ وهمهم الناس في حيرة، وهتف الجنود في صوت جهوري:

ـ حفظ الله الخليفة.

تبدد رماد الفجر، وأوشك خلف الحصري أن يبكي، وانحنى متوسلًا للقاضي: مولاي القاضي.

قال القاضي في تأثر بالغ: بل أنت مولاي الخليفة «هشام المؤيد» حفظك الله ورعاك.

وشهق الناس من الدهشة، ورددوا الاسم كأنه تعويذة، وهتف صانع الحصر:

- من المؤكد أن هناك خطأ يا سيدي القاضي، أنا لست إلا خلف الحصري.. رجل بائس كما عهدتني دومًا، أنت تعرفني وتسمع صوتي في كل أذان.

قابل القاضي كلماته بضحكة قصيرة جافة:

- أعترف أنك أجدت التنكر يا مولاي الخليفة، ولكني طوال هذه المدة كنت أعرف أنك خليفتنا وأميرنا، لقد ألقت بك الأقدار إلى مدينتنا بعد طول تطواف، ولكنني أملك الدليل لإثبات أنك خليفتنا الشرعي، أنت في أمان الآن يا مولاي، بعيدًا عن قرطبة.

قال خلف في يأس: أتوسل إليك.. لقد أخطأت الشخص.. أنا أشد الناس بؤسًا في إشبيلية.

ولكن القاضي التفت لكل من في الساحة وصاح فيهم آمرًا: اسجدوا لخليفتكم، اسجدوا.

وسجد الجميع على الأرض، رفع بعض الناس رؤوسهم في حذر، قال القاضي بجدية:

- يا أهل إشبيلية، أراد الله أن يكون لنا خليفة من صلب بني أمية، لم تحفظ قرطبة خلافته فساقه الله إلينا، لا أدعوكم لبيعته الآن، بل لسماع شهود إثبات خلافته.

وتقدم رجل عجوز من بين الصفوف وهو يقول:

- لقد رأيت الخليفة هشام المؤيد أكثر من مرة، وما زلت أذكر ملامحه.

اقترب من «خلف» المذعور وحدق في وجهه بتمعن، ثم هتف في حيرة:

ـ يا الله، يا له من شبه غريب، الوجه نفسه والملامح ذاتها، ولكن أهو أنت الخليفة حقًّا؟

وضرب الناس أكفهم، ودقت الطبول تؤكد الأمر الواقع، كانت إشبيلية كلها تتساءل: هل يستيقظ الموتى؟ هل ينتقل سكان القبور من قرطبة إليها؟

تدفق أهل المدينة كلهم على القصر، جاء القاضي ومجلس الأعيان الذي يحكم إشبيلية معه، والقواد، وفقهاء المذاهب ورواة الأنساب وهواة المناصب الرسمية، وجاء عبيد وخدم وجوارٍ لم يرهم أحد في المدينة من قبل، ووقف الحرس شاكي السلاح، وخرج «خلف» في ثبات الخلافة الموشاة بالذهب، وعلى رأسه عمامة ضخمة في وسطها ياقوتة حمراء، وقف مترددًا، ورأى الجمع المحتشد، فأوشك أن يعود داخل القصر ولكن القاضي بادر بالتقدم منه، قاده حتى أجلسه على العرش، ونهض القاضي قائلًا:

ـ حتى نقطع الشك باليقين وتكون البيعة صادقة والطاعة واجبة فليتقدم الشهود وليعترض المعترضون والأمر لله.

نهضت مجموعة الخدم والعبيد، هتف واحد منهم:

ـ نحن خدم أمير المؤمنين في قصر قرطبة قبل أن يقتحمه سليمان المستعين.

واقتربوا من العرش وشهقوا في صوت واحد، سجدوا وقبلوا الأرض، فأبعد «خلف» قدميه مذعورًا، ونهضت الجواري وتقدمن مسرعات ثم ارتمين على الأرض وبكت واحدة منهن وهي تقول:

-إنه هو، مولانا ولا أحد غيره.

ونهضت سيدة كانت تجلس في جانب من المجلس، مغطاة بالسواد، وقفت في مواجهة العرش ثم رفعت خمارها الأسود وحدقت فيه قليلًا، ثم بكت بصوت خافت مفجوع وهي تغمغم:

- يا زوجي ومولاي، أين كنت طوال هذه المدة؟

وهبط وجوم غريب، واندفعت في بكاء حار، وبرغم توالي عشرات الشهود بعد ذلك فقد كانت شهادة الزوجة حاسمة، جاء شاعره الخاص، والقائد الذي تخلى عنه ليعلن ندمه، والجارية التي دست عليه لتطلب غفرانه، ونهض القاضي صائحًا:

- يا أهل إشبيلية بايعوا خليفتكم هشام المؤيد.

لم تكن بيعة، كانت حمى اجتاحت الجميع، وكتب الموثق حجة الخلافة فتقصف القلم ثلاث مرات من شدة انفعاله، والقاضي واقف في الركن يراقب دوران الناس وقد غدا العرش هو المحور، والقاضي لا يكف عن مداعبة حبات المسبحة، ورفع عينيه فوجد أمامه «أبا بكر الزبيدي» العالم والفقيه وأحد الأعيان الخمسة الذين يحكمون المدينة معه، سأله:

- هل بايعت يا أبا بكر؟

قال الزبيدي:

- كيف أبايع يا أبا القاسم وأنا الذي أنزلت هشام المؤيد إلى قبره؟

وانصرف الزبيدي، وتمت البيعة، وصمت الجميع ليتكلم الخليفة.

- ... وإني قد وليت القاضي أبا القاسم محمد بن عباد وزيرًا لي، وناهيًا بأمري.

ولكن فلنبدأ الأغنية منذ البداية، من حلم الفتح حتى زمن السقوط، منذ أن تجمعت السفن تحمل الجنود اليمانية وعبرت البحر من اليابسة الإفريقية إلى الغابة، قبل أن يحرقها قائدها ابن زياد حتى لا يتراجع أحد، وكالعادة كوفئ الفاتح بعد النصر بالإهمال والإبعاد عن الحياة، وحملت رأس الحاكم الأول إلى الخليفة الذي ولاه، ولمعت في الليل نجوم حزينة، وطاف الشعراء الجوالون ينفخون في أوداج ملوك الطوائف، وزاد وهن العرب في السهول، فجاء إليهم مدد من البربر، وازدهر العشق في زمن الفتنة؛ تبدد الحلم الأندلسي وتفتت المملكة إلى رايات متناحرة، وارتجت الأرض تحت سنابك الحرب الأهلية، وعثر المغنون أخيرًا على مطلع الأغنية: أيها الأندلس الذي يضيع، قرطبة، إشبيلية، غرناطة، بلنسية، طليطلة، إقليش، سرقسطة، بطليموس، مرسية، كيف يتأتى لمغنٍ مهما أوتي من قدرة أن يغني أغنية بهذا الحزن؟ هذه الأرض لم تكن وطنًا، ولكنها أنست المحتل وطنه. يحدث أحيانًا أن يمرض المحتل بعشق الأرض، وينتابه الوله بزرع الجذور، وتناسل الأجيال، وبناء القصور والمساجد وحفر ذكرياته على جذوع الأشجار، وتعليم العصافير لغته اليومية، وتتفاقم حالته حين يريد أن يجعل موطئ القدم وطنًا، ويعيش فوق الأرض دون أن يمتزج بها، ويمشي وسط أهلها دون أن يراهم، كأن الأغنية التي بدأت لا نهاية لها. عبر العرب البحر إلى الأندلس، واختصروا العالم فيه، وحملوا إليه كل خلافاتهم القبلية، فتحولت المدن إلى مضارب والغارات إلى حروب أهلية، وأخطر ما في الأمر أنهم حملوا معهم عدوهم، جاءوا بالبربر كشركاء في الغزو ثم أهملوهم عند اقتسام الغنائم، وبقي البربر يتحينون الفرصة.

وكان هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية وأضعفهم، لا يملك أي سلطة فعلية، كلها كانت في يد وزيره «شنجول» الذي أرغمه على أن يغير وراثة

العرش وأن يجعل من وزيره ولي عهده، لم يعجب هذا التعديل بقية الأمراء الأمويين، وخلع المؤيد وجاء بدلًا منه المهدي الذي أعلن أن المؤيد قد مات ودفن بمحضر من العلماء والفقهاء. وبعد عام ظهر هشام المؤيد، وعاد إلى عرشه لأيام قليلة، ثم خلعه سليمان المستعين، وأعلن أن هشامًا قد مات، ثم ظهر بعد ذلك، في أماكن متفرقة، بعيدة، يؤدي مهنًا وضيعة، ثم ضاع مصيره، وطويت رايات بني أمية وبدأ عصر الحكام المجهولين.

فهل عاد هشام المؤيد حقًّا؟

بعث القاضي بالرسل إلى كل الممالك المتناحرة يعلن ظهور هشام المؤيد، ويطلب منهم البيعة والدخول في طاعته، وكان الرفض يعني الحرب، والاعتراف يعني الاستسلام بلا ثمن، ولم يكن أحد يعرف القوة الحقيقية للقاضي ابن عباد؛ لذلك عادت الرسائل مليئة بالسخرية والاستهزاء. كانت كل مملكة تزعم أنها تحوي قبر هشام المؤيد، وكل حاكم يدعي أنه خليفته، لم يبايع سوى بعض المدن التافهة التي لم يأبه ابن عباد بالاستيلاء عليها، ولكن إشبيلية نفسها كانت عاجزة عن التصديق، ووقف الإمام الزبيدي في المسجد نفسه الذي كان يؤذن فيه خلف، وهتف في المصلين:

ـ هذه أكذوبة، وهذا خليفة زائف.

واقتحمت جنود القاضي المسجد وفرقوا المصلين، وقبضوا على المعترضين، وظل الزبيدي طليقًا. وفي المساء اجتمع الأعيان الخمسة الذين كانوا يحكمون المدينة، دون أن يدري أحد منهم ماذا يفعل. فقد ألغى القاضي ابن عباد بهذه الحيلة نظام حكمهم الجماعي، كانوا يحسون بالخديعة، والزبيدي يحرضهم على المقاومة والنزول إلى الشوارع

والأسواق، ومرة أخرى اقتحم جنود القاضي المكان ونُفي ثلاثة من الأعيان إلى خارج المدينة، وكان هذا انذارًا كافيًا للزبيدي.

ولم يكن هشام المؤيد أو خلف الحصري يدري ماذا يفعل بالضبط. في البداية بهرته فخامة القصر، ورقة الجواري، ودفء المحظيات الإسبانيات، ومظاهر الاحترام المبالغ فيها التي يبديها الحرس، وارتعد وهو يجلس على العرش أول الأمر ويستمع إلى الشكاوى الكثيرة، ويلقي أوامر لم تنفذ لفرط تفاهتها، وفي كل مساء يحضر القاضي كالقدر، يلقي عليه تعليمات جديدة ويجعله يوقع بختمه على كومة من أوامر الدولة، ثم يتركه ويمضي، ولكن أصعب موقف هو ذلك اللقاء اليومي مع السيدة «زيتونة» زوجة هشام المؤيد؛ المفروض أنها قد أصبحت زوجته الآن. لم يكن القاضي ليسمح بتسرب أي خطأ لخطته، للحظة كانت قد حسبت أن زوجها قد عاد، ثم تأكدت أنه مات، وكان خلف يقف أمامها صامتًا مذنبًا، والحرس في الخارج ينقلون عدد أنفاسهما للقاضي.

هبط الجنود على بيت الزبيدي في الظلام، وساقوه مكبلًا إلى القاضي، ووقف الرفيقان اللدودان في مواجهة بعضهما، كانت إشبيلية تريد أن تصدق أن الخليفة قد عاد، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، وعندما وقف الزبيدي مقيدًا أمام القاضي لم يكن أحد يدري أيهما المعتقل، وهتف القاضي:

ـ كيف أكون كاذبًا وسط الأفاكين الذين يحكمون كل هذه الممالك؟ نحن نعيش على حافة الخطر، غدًا أو بعد غد سيدق ابن حمود أسوار إشبيلية، خلفه جيش من البربر، من الأفضل أن يقودها حاكم واحد من بني أمية حتى ولو كان كاذبًا.

هتف الزبيدي معترضًا: الأكاذيب لن تهزم البربر.

قال القاضي في حزم: إشبيلية في حاجة إلى أكذوبة، لا أشعار ولا قوانين، لن يرد هجوم البربر إلا أكذوبة كبيرة، لو ظلت تحكم بستة أصوات مختلفة فلن تقدر على صد ضفدعة.

قال الزبيدي في حنق: لا تتحدث عن إشبيلية كأنك نبيها، أنت تملك ثلث الأراضي والعقارات وثلث التجارة والقوافل، والآن تسعى لامتلاك كل شيء.

قال القاضي: لا أحب ثلث إشبيلية فقط، إنها لي بأكملها؛ ولذا سأنقذها من البربر بأي وسيلة، سوف أضعك في السجن ولو انتصرت قد أعفو عنك، أو يخلصك ابن حمود.

وبالفعل حاصرت دمدمات البربر إشبيلية، كانت سيوفهم وخيولهم تتحفز لتقضي على أسطورة الخليفة الكاذبة، والممالك التي بايعت تراجعت عن بيعتها، وكان القاضي «ابن عباد» غاضبًا لدرجة الجنون، اقتحم غرفة الخليفة في وقت مبكر دون استئذان، ونهض الخليفة من فراشه فزعًا، وانسلت من جانبه جارية عارية وأخذت تعدو خارج الغرفة، وصاح فيه:

ـ عليك اللعنة أيها الحصري القذر انهض وارتدِ ثيابك.

وركله بعنف ضربة فوقع من على الفراش، حاول «خلف» أن يستر عريه دون أن يفهم سر ثورة القاضي الذي عاد يصرخ:

ـ اخرج للناس وحرضهم على قتال البربر أيها... وإلا ستضيع منا المدينة.

ارتدى خلف ثيابه في سرعة، دفع به القاضي للخارج دون مهابة. كان

الناس يقفون جميعًا في الساحة، نفوسهم حانقة ومرتجفة، ينتظرون أي نوع من اليقين، أن تحدث معجزة في زمن تحولت فيه المعجزات إلى فخاخ، وظهر «خلف» في الوقت المناسب، وقف وسطهم صامتًا، وأحدث ظهوره هزة، حدثت هزة في نفوسهم جميعًا، كان هادئًا هدوء الغافل عما يحيق بالمدينة من خطر، ولكنهم عدوا ذلك علامة من الشجاعة لا يقدر عليها إلا قلب ميت، لم يعد هناك غير الخليفة في وسط المدينة، والبربر خارج أسوارها، كانت للناس مطالب وللجنود رواتب، ووقف الخليفة مهيبًا برغم قامته النحيلة، وزعق: الله أكبر، فاختلط في زعقته كل من صوت المؤذن والخليفة، أشار إلى سور المدينة، فساروا جميعًا تحت ظل قوة آسرة مجهولة، وانفصل الخليفة عن قاضيه، وفتحت إشبيلية أبوابها تواجه البربر بعد أن كانت تموت رعبًا منهم.

ازدادت حدة القتال ولم ينقطع مدد الأهالي، أسقط في يد البربر، ولم يبقَ أمامهم إلا الفرار وقد تلقوا هزيمة قاسية، وعاد الخليفة خلف إلى المدينة، والناس من حوله بعد أن حاربوا وقتلوا، وترملوا، ونزفت دماؤهم، تحول إلى رمز حي لهذا الانتصار، وذهل القاضي، لم يتصور أن تنجح هذه الأكذوبة إلى هذه الدرجة. أوشك أن يهبط إلى قبو السجن ليشمت في الزبيدي، أو يصعد لمئذنة قرطبة ليعلن أن تدابيره قد نجحت، ولكنه لم يجد بدًا من الوقوف في صف المهنئين للخليفة على هذا الانتصار، ولاحظ شيئًا غريبًا، لم يبدُ على «خلف» أي أمارة للذعر الخفي الذي كان يلاحظه عندما يقترب منه، بل ظل يحدق في وجهه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.

وفي الأيام التالية نقلت إليه عيونه داخل القصر أن الخليفة لم يعد يقترب من جناح الجواري الجدد، وأن جلسته مع السيدة «زيتونة» قد

استطالت، كان يسألها عن هشام المؤيد: ماذا كان يفعل؟ وكيف يتصرف؟ وأصبحت أوامره أقل تفاهة وأكثر صرامة، وبدأت الممالك تبعث برسائل البيعة والولاء، وأحس «خلف» كأن «هشام المؤيد» يولد في داخله ويمزق عنه جلده القديم.

في إحدى الليالي كان «خلف» وحيدًا، سمع صوتًا كأن طائرًا غريبًا ضل طريقه إلى غرفته. كلا.. كانت طرقات خافتة من مكان ما، نداء خافتًا مبحوحًا، نهض من الفراش، فتح النافذة التي تطل على الحديقة، كان القمر مكتملًا، وعلى ضوئه رأى رجلًا آخر معلقًا في النافذة، حدق فيه بدهشة، إنه هو، «خلف» الحصري القديم، بائسًا كما لم يكن قط، يلهث، ويوشك على البكاء، وحدق كل منهما في الآخر، ثم قال الرجل في وهن:

ـ أنا هشام المؤيد.

أحس أنه يعدو وحيدًا في مسجد إشبيلية الكبير، وسط مجموعة من السراديب المتداخلة، يتعثر في الفئران التي لا تكف عن قرض الحصر، يحاول أن يتوضأ من البئر الجافة، يهرب من القاضي، يقول الرجل:

ـ أصبحت أنت الخليفة إذن، لا يهم كيف أقنعت القاضي؟ ولكن كيف أقنعت نفسك؟

تمسك الرجل بغصن الشجرة حتى لا يسقط، تكوم مثل كلب ضال وهو يقول:

ـ أعرف أنني في أيامي الأخيرة، لولا ذلك ما جازفت بالحضور حتى أراك، ولكنك أنت أيضًا في أيامك الأخيرة.

صاح «خلف» في ذعر: ماذا تعني؟

جرى عائدًا للغرفة، نظر تحت الفراش وخلف الستائر وداخل الخزائن، وفتح باب الغرفة فرأى الحارس نائمًا، عاد للرجل المعلق:

ـ القاضي «ابن عباد» يعرف جيدًا ماذا يريد، اليوم إشبيلية، وغدًا قرطبة، ثم لا تعود هناك حاجة إليك.

قال »خلف» مرتعدًا:

ـ أنت الآن تنصحني، لماذا تركت عرشك إذن؟

قال الرجل:

ـ الخوف هو الذي جعلني أترك عرشي، كنت خائفًا من الجنون، من المرض الذي يأكلنا جميعا نحن بني أمية، مرض الخوف والترصد، ولكن كيف أنصحك وأنا أعيش في داخلك وأرتكب نفس أخطائك، وأخاف من نفس مخاوفك؟ ماذا كنت تعمل لو كنت مكاني؟

ونهض «خلف» وحاول أن يحتضنه، لكنه اشتم رائحة عفونة، وأحس بلمسة باردة كأنه الموت، ورأى نفسه يصعد فوق المئذنة وقد حان وقت الفجر. كان الدرج بلا نهاية، ثم بدأ يصعد في الفراغ، وزحف هشام المؤيد بعيدًا عن النافذة كطائر شارد، وظل خلف يهذي فوق فراشه حتى الصباح.

واقتحم القاضي غرفته، ولدهشته الشديدة وجد خلفًا مستيقظًا بجانب النافذة وقال له في صوت جاف:

ـ ماذا تريد؟

قال القاضي: حان وقت دخول قرطبة في طاعتنا، سنقوم بغزوها.

تظاهر «خلف» بالدهشة قائلًا: ولكن قرطبة أعلنت الطاعة.

قال القاضي: لقد حاولوا أن يفوتوا علينا فرصة غزوهم، إنهم بالطبع لا يؤمنون بأنك خليفة.

قال «خلف»: لكني لست الخليفة فعلًا.

صاح القاضي وقد نفد صبره:

ـ كف عن هذا السخف، حين تعود إلى قصر قرطبة حيث أقام عشرات الخلفاء من بني أمية ستشعر أنك الخليفة فعلًا، لا يمكن أن تشعر بالأمان على عرشك وابن جهور يحكم قرطبة، سيقفز علينا البربر كل يوم.

أصبحت إشبيلية مشحونة بحلم الأندلس الواحد، توافدت عليها القبائل المتنافرة تعلن ولاءها وبيعتها، أرسل الأمراء يحالفونه سرًّا على جيرانهم، ثم خرج الجيش متجهًا إلى قرطبة، ولا أحد يعرف متى سيتوقف، وجاء القادة وأقسموا يمين الولاء، وبرغم أن القاضي كان جالسًا بالقرب منه فإنهم أقسموا للخليفة وحده. لم يتوقف الزحف، والقرى والمدن الصغيرة تتساقط كالعصافير، وحفظ «خلف» أسماء القادة، وأدرك كيف يصدر الأوامر في وقتها المناسب، وشعر القاضي بأن ثمة شيئًا غريبًا في اللعبة، وأنه لم يعد يمسك الخيوط في يده كما تعود.

طوال هذه المسيرة وخلف يتصرف بنوع من العفوية المخيفة، كانت دائما تفسد تدابير القاضي، كانت أسوار قرطبة عالية، تحتها ستتحدد كل المصائر، وكان «ابن جهور» قد وصلته أنباء الحشود مبكرًا فاستعد لها ولم يعترف بالخطاب الذي وصله وعليه خاتم أمير المؤمنين يدعوه فيه لتسليم المدينة والتنازل عن العرش القديم، كان يحكم المدينة منذ عشر سنوات خبر خلالها كل ألاعيب ملوك الطوائف، وتواصلت أيام الحصار، وبدأ الناس داخل قرطبة يتهيؤون نفسيًّا لدخول الخليفة، ولم يعد مجديًا أن يقنعهم أحد بمقاومة خليفتهم الشرعي.

وكان القاضي عاجزًا مشلول اليد وقد خرجت اللعبة من يده، وأصبحت الصلة مباشرة بين خلف والجيش، ولم يجد بدًّا من أن يرسل إلى رفيقه اللدود «ابن جهور» يعرض عليه خطة للخلاص من هذا الحصري الكاذب، ولكن ابن جهور تعامل مع عرضه بشك وحذر، لكن الرسائل تواصلت من خلف الأسوار واتفقا معًا على خطة لاغتيال هذا الخليفة الكاذب، يقوم القاضي بتنفيذها وابن جهور بتحمل مسئوليتها.

ولكن الحوادث كانت أسرع، ثار الناس داخل المدينة وحسموا المعركة لصالح الخليفة المنتظر، وفر ابن جهور تحت جنح الليل وفتحت الأبواب على مصراعيها وخرج الجميع لاستقبال خليفتهم الذي انتظروه طويلًا.

دخل هشام المؤيد قرطبة، ومنها سوف يحكم الأندلس كله، امتزج الوهم الجميل والخوف من التدهور، والرغبة في الخلاص، فضجت حناجر الناس بالهتاف، كان القصر خاليًا، والعرش متربًا، ولكن الأسطورة اكتمل بهاؤها.

أحس القاضي أنه قد تحرك طويلًا في مدى الأكذوبة حتى أرغمته الحقيقة المباغتة على أن يتوقف، يحاول أن يبدأ من جديد، مثلما بدأ من أصله الوضيع إلى أعلى مركز في قرطبة، تآمر مع ابن جهور ليجعله قاضيًا، وتآمر مع البربر ضد ابن جهور، واستعان بأهل إشبيلية لإزاحة البربر، وغدر بالعلماء، وشطب نسبه القديم وانتسب إلى النعمان بن المنذر، بعد كل هذا لن يهرب، ولن يسمح لنفسه أن يخسر، سيتوجه إلى قرطبة ويعري الخليفة الزائف، يستعين بقضاة قرطبة وأشرافها الذين كانوا يعرفون الخليفة السابق، وسيحضر كل شهود الزور، وينبش كل القبور ويكشف كل أطراف الكذبة ولو أنفق في ذلك ثروته كلها.

وكان القصر مزدحمًا بالناس والجنود، وشق طريقه بصعوبة إلى قاعة العرش، وهناك وقف مبهوتًا من المشهد، القضاة والعلماء وزعماء القبائل والقادة وبقايا الأمراء الأمويين، كل الذين عاصروا هشامًا المؤيد، وشاهدوا موته أكثر من مرة، التفوا حول هشام المؤيد الثاني، وكان أكثر بهاء وعظمة، أين ذهب ذلك الحصري المذعور؟ وقال القاضي من بين أسنانه:

ـ هذا جنون.

كأنه كابوس مروع، حاول أن ينزوي ويتراجع خارجًا من القصر، ولكن صوت الخليفة ارتفع فجأة:

ـ إلى أين يا قاضي إشبيلية.. يا وزيري وحاجبي؟ تقدم من العرش، قف وسط قضاة وعلماء قرطبة.

كان صوته قويًا، حتى إن القاضي أحس بالتضاؤل وواصل الخليفة القـول:

ـ لقد تآمرت على خليفتك وسعيت إلى خلعه، وقد حكمنا عليك بما جنت يداك، وليس هناك من جزاء للخائن إلا الموت.

وقاده الجند خارجين لساحة الاعدام، لم يبالِ أحد بسماع ما يقوله، وبقي الخليفة ثابتًا كالطود على عرشه.



لم تكن هناك ريح تهب في الأندلس إلا وتحمل خبر بيع «ابن عمار»، عبر السهول المنبسطة كالحلم، والحصون التي ضاعت بلا ثمن، والممالك التي تفتتت ثم هوت كالشهب المحترقة، والتلال التي تخفي مقابرها تحت زهور النرجس، والجبال الصامتة تحت رذاذ المطر، كانت الريح تحمل الخبر، فمن الذي يرغب في شرائك يا ابن عمار، ومن الذي يملك ثمنك؟

وصل الخبر إلى «ذي النون» حاكم طليطلة وهو في مجلس حكمه، حدق في الرسول مندهشًا وهو يستمع إلى كلماته، كان يحكي كيف وقع «ابن عمار» أسيرًا في يد أصحاب حصن «شقورة» وسوف يبيعونه لمن يدفع الثمن عاليًا، قال ذو النون على الفور:

ـ ما دام أسيرًا فهو لا يساوي خردلة، ثم صمت قليلًا قبل أن يتساءل: كم يطلبون؟

قال الرسول: سيعقدون مزادًا في الحصن، ومن يدفع أكثر فهو له.

ضحك ذو النون في سخرية: مزاد، يا لها من نهاية لا تليق بابن عمار.



أما «المعتمد بن عباد» صاحب إشبيلية فقد كان نائمًا، وكان اليهودي الذي حمل إليه الخبر مفوضًا بالدخول إليه في أي وقت ما دام يحمل خبرًا عن ابن عمار، وكان المعتمد أسير كابوسه اليومي، وعندما استيقظ ورأى اليهودي على رأس فراشه حسب أنه امتداد لهذا الكابوس صرخ فيه:

ـ أنت تلاحقني من النوم إلى اليقظة.

قال اليهودي بهدوء: أحمل خبرًا عن ابن عمار.

وقبل أن يفيق ابن عباد كان اليهودي يواصل كلماته، اضطجع ابن عباد وتأمله وهو يتحدث بنوع غريب من التشفي:

ـ لقد حاول أن يخدع أصحاب «شقورة» كما خدع من قبلهم أصحاب حصن «سرقسطة» ولكنهم أوقعوه في الفخ، فاقت حيلتهم حيلته.

وفوجئ ابن عباد بنفسه وهو يقول في أسى: هناك، إذن، من هو أذكى من ابن عمار!

ثم تذكر شيئًا، رفع عينيه وقال متسائلًا:

ـ كنت أنت أيضًا الذي أحضرت القصيدة التي يهجوني فيها ابن عمار ويهتك عرض زوجتي، أليس كذلك؟ لماذا كنت تكرهه إلى هذا الحد؟

انحنى اليهودي: إنني أكره كل أعدائك يا مولاي.

قال ابن عباد كمن يحدث نفسه: دائمًا ما كنت تكرهه، أما أنا، فقد أحببته ذات يوم، أحببته كثيرًا.

قال اليهودي: هل سنشتريه؟

قال المعتمد: اشترِ الحصن كله إذا لزم الأمر.

ووصل الخبر متأخرًا إلى قرية «شلب» ولم يخطر ببال أحد أن في

تلك القرية النائية غرب الأندلس من يهتم بمصير الوزير ابن عمار، ولكن المرأة العجوز التي تسكن بيتًا صغيرًا في أسفل التل لم تنسه لحظة واحدة، كانت جالسة تحوك ثوبًا له، وعندما سمعت الخبر انحدرت من عينيها دمعة وهي تتمتم:

ـ كنت أعرف أن سعيه القاسي سينتهي هكذا.

ذهبت إلى السوق، حملت كل الثياب التي قضت السنين في حياكتها، وآخر ما بقي من حليها، وسيف الأب الذي رحل وسرج حصانه، ومصباحًا عتيقًا وشالًا مزركشًا، وأحذية ودواة وأقلامًا مقصوفة وعمائم موشاة وعباءةً وسجادة للصلاة، وإبرًا للغزل، وظلت جالسة ثلاثة أيام متواصلة حتى باعت كل هذه الأشياء، ولم يبقَ إلا ثوب واحد،كانت واثقة من أنه سيحتاج إليه وسيرتديه، وسارت إلى حصن «شقورة».

بدأ المزاد ذات صباح بارد، وكان الحصن رابضًا فوق تل صخري، لا يصل إليه إلا درب وعر يصعد فيه المسافر وحيدًا، أما بوابة الحصن الرئيسة فلا يدخلها أحد إلا مصعدًا بالحبال، وقد تقرر عقد المزاد أسفل الحصن، فلم يكن أهل الحصن يريدون دخول أي غرباء بأي صفة، وكان الحضور كثيفًا؛ ثلاثة ملوك من ملوك الطوائف، ومبعوث من ملك الفرنج، وسمسار متجول، ويهودي صامت، وحارس سجن ينفق في سخاء، وقائد عسكري مرتزق، وثلاثة من البربر، ونخاس واحد، وبعض التجار الذين يريدون استبدال بضائعهم في مقابل أي سلعة، وامرأة عجوز حضرت متأخرة قبل بداية المزاد بقليل، وظلوا جميعًا واقفين في الجو البارد والريح تهب بعنف لتلف الحصن اليتيم بصوت أشبه بالنحيب.

في البداية هبط أصحاب الحصن في قفص خشبي، ثم اجتازوا الممر واحدًا تلو الآخر، ثم هبطوا إلى المجتمعين، كانوا ثلاثة إخوة من بني

سهيل، متشابهين تمامًا، رحبوا أولًا بالحكام ثم بالقادة ولم يعيروا التفاتًا للبقية بعد ذلك، ثم أشاروا للحراس أن يهبطوا «بالبضاعة».

وتدلى ابن عمار من أعلى الحصن وهو مربوط من قدميه، ورأسه إلى أسفل، وشهقت المرأة شهقة عالية، وتمتمت: «يا ولدي، يا كبدي»، ولم يلتفت إليها أحد، كانوا مشغولين به وهو يهبط مثل ظل طويل نحيف، وسمعوا بوضوح صوت ارتطام رأسه بالممر الصخري، ثم تلقفه الحراس وفكوا قيوده وقادوه إلى أسفل.

برغم الدم الذي كان يغطي وجهه كان هو «ابن عمار» دون شك، هزيلًا أشعث اللحية نتن الرائحة، عندما تركه الحراس لم يستطع الوقوف وحده فانهار على الأرض وانكشفت ساقاه فبدت فيهما آثار القيد واضحة، وتقدم واحد من إخوة بني سهيل وهو يقول:

ـ ها هو «ابن عمار» عدو الجميع وقد أوقعه الله بين أيدينا.

وكانت المرأة العجوز هي أول من افتتح المزاد، أسرعت وارتمت تحت أقدام ابن سهيل وهي تهتف:

ـ دعه لي يا ولدي، إليك كل ما تطلبه، مائتي درهم هي كل ما أملك، سآخذه معي إلى «شلب»، ولن يسمع أحد منكم عنه بعد الآن.

وفتح ابن عمار عينيه بصعوبة، وصوت المرأة يرن في أذنيه، يا الله، ما زالت على قيد الحياة، حاول أن ينهض، أن يتحرك، ولكنه كان متعبًا مقهورًا، وسمع ابن سهيل وهو يضحك، ثم بقية الضحكات وهي تتصاعد، قال ابن سهيل:

ـ لقد افتتحت هذه المرأة المزاد دون أن تدري، ها قد بدأنا، مائتا درهم.

وتقدم المأمون حاكم طليطلة فقال: عشرة أضعافها، بل مائة ضعف.

وقبل أن يفكر أحد فيما يزايد به على هذا المبلغ، تقدم حاكم سرقسطة وقال في صوت صارخ متوتر:

ـ ألف ضعف.

وتلاقت عيناه بعيني «ابن عمار» في نظرة خاطفة، وانتفض صاحب سرقسطة كأن ابن عمار يعاود حصاره من جديد، تمامًا عندما جاء بجيوش ابن عباد وفرض عليه حصارًا قاسيًا أرغمه على أن يشرب بوله، من يومها ورائحة النجاسة لا تفارق فمه.

وتقدم الحاكم الثالث وضاعف الثمن، ووجد النخاس أن الصفقة سوف تكون ناجحة فتدخل في المزاد، وظلت المبالغ تتصاعد والمرأة العجوز حائرة، كانت قد قالت منذ اللحظة الأولى آخر رقم لديها، كذلك تدخل الحارس وبدا عليه التوتر الشديد، وشارك قائد الإفرنج بتحفظ وبدا أنه يريده بلا ثمن، وصرح لهم الحارس المتوتر، إنه يحمل وصية رجل يحتضر أمنيته الأخيرة أن يخنق ابن عمار بيديه قبل أن يموت، وعاد اليهودي يزيد المبلغ، وانسحب النخاس بعد أن أخذ مقابلًا مناسبًا، وكشف البربر لأول مرة اللثام عن وجوههم وأخذوا يطالبون بثأر المرابطين، وتدخل واحد من إخوة بني سهيل فجأة في المزاد وأعلن أنهم أحق بقتله لأنهم آخر من عانوا من مؤامراته، وأحضر اليهودي صفًّا من البغال محملة بصناديق الدراهم الفضية، انتهزت المرأة العجوز الفرصة ولمست جبهة ولدها وحاولت أن تعطيه بعضًا من الماء، ولكن حارسه دفعها في خشونة، وثار ملوك الطوائف الثلاثة وقالوا إنهم سيعلنون الحرب على بني سهيل، وصرخ فيهم اليهودي:

ـ من منكم أحق بقتله من ابن عباد؟

فصمتوا جميعًا، ورفع ابن عمار رأسه ببطء، وتقدم اليهودي وفك

الأحزمة التي تربط الصناديق فانفتحت وهوى على الأرض سيل من الدنانير الذهبية، أشار إليها وصاح بصوت عالٍ:

ـ هذا هو الثمن، أكثر من قيمة حصن «شقورة» بكل ما فيه.

... كان المعتمد بن عباد واقفًا بحيث يرى الداخلين والخارجين من بوابات قرطبة، شاهد ظله وهم يقودونه من بعيد، كائنًا نحيفًا وسط الغبار، فاقدًا بهاءه القديم، وقفت خلفه زوجته الأثيرة «اعتماد الرميكية» لمست ذراعه برفق وهي تقول:

ـ أنت ترتعد يا مولاي.

هتف في ضيق: لم أتوقع أن أراه على هذه الصورة، وأن تكون نهايته بهذه المهانة.

اقتربوا أكثر وظهر ابن عمار جليًّا، مربوطًا من يديه وقدميه، معلقًا مثل صيد نتن، وقرطبة كلها تنظر إليه، تتابعه في الشوارع نفسها التي شهدت مجد انتصاراته، كل الذين تسابقوا للسير في ركابه أو إلقاء التحية بين يديه أو حتى لمس ذيل ثوبه، يصيحون الآن غاضبين، يقذفونه بالحصى والطين والقاذورات، لا ورود، عندما تحل اللعنة فلا ورود.

كم لطمة أخذها على وجهه، كم بصقة؟ كانوا أكثر غضبًا من ابن عباد نفسه كأنه خانهم هم، وهجاهم هم، انتابت المدينة كلها حالة من سعار غريب، ثلاث سنوات مرت منذ أن جاءها فاتحًا، منذ أن دانت له أسوارها ونودي على منابرها باسم سيده ابن عباد حاكمًا لقرطبة وإشبيلية وما سيتأتى من المدن المفتتة، وسمعته «الرميكية» وهو يقول من بين أسنانه:

ـ لماذا خنتني يا ابن عمار؟ لماذا خلعت طاعتي؟

حين افترقا للمرة الأخيرة، كان ابن عمار على رأس جيش ضخم؛ أضخم جيش جهزه ابن عباد طوال غزواته، كان في طريقه لفتح «مرسية»، وحين وقفا وجهًا لوجه رأى في عينيه نظرة غريبة ووجد نفسه يقول:

ـ هذا الجيش كبير يا ابن عمار، أكبر من طاقة «مرسية» وحصونها، وإني لمخدوع.

ابتسم ابن عمار في حزم: أنت لست مخدوعًا، أنت مضطر.

كان يجب أن يعرف لحظتها أنهما وصلا معًا إلى نهاية الطريق، كان من الطبيعي أن يخلع طاعته بعد فتح «مرسية»، تباعدت الطرق كثيرًا بينه وبين ابن عمار، أمير أفاك، وأفاك يطمح للإمارة، وكان توافق الأنجم غريبًا، والأندلس تحولت إلى نزوة ومغامرة، كل مدينة مملكة، وكل والٍ ملك، واحد وعشرون ملكًا هم ملوك الطوائف، كل واحد منهم يعتقد أنه غالب وهو مغلوب على أمره، ولا غالب إلا الله، وعندما توجه ابن عباد وهو ما زال وليًا للعهد ليفتح قرية «شلب» كان قدره أن يقابل ابن عمار ويرتبط مصيرهما معًا، تركا الجيش وضربا في الأرض معًا، وضلا الطريق حتى أوشكا على الموت جوعًا، وعبرا النهر فقبض عليهما الحراس وتظاهرا أنهما شاعران صعلوكان، أحبا جارية واحدة، وناما على فراش واحد في حانة منزوية، وتبادلا طريقهما على جواد أعرج، وتقاسما درهمًا مزيفًا وألفا قصيدة واحدة، وحين وصلا إلى أسوار إشبيلية كانا قد أصبحا شيئًا واحدًا، وصرخ فيه أبوه:

ـ أنت ولي عهدي وسترث عرشي، ما حاجتك لهذا الأفاك؟ ابتعد عنه.

فأبى وعصى، وتجولا ليلة كاملة في المدينة يكتشفان مواقع الأيام

المقبلة، وفي الصبح أصدر «عباد» أمرًا بنفي ابن عمار عن المدينة حتى لا يفسد ابنه.

وكانت أيام المنفى طويلة على الاثنين معًا، وزهد ابن عباد في العرش حتى أوشك أن يتركه لولا أن الموت عاجل الأب العجوز، وعاد ابن عمار وزيرًا، ونامت إشبيلية وهي تتحدث عن عشق ابن زيدون لولادة، واستيقظت لتتحدث عن مجد ابن عمار، وغارت أنجم وتألقت أنجم، وأحضر ابن عباد وسادة من حرير وقال له:

ـ نم بجانبي على الوسادة نفسها ليكون رأسك لصيقًا برأسي.

كانت المودة صافية، والزمن مليئًا بالبراءة، ولكن لعن الله الخوف، ونام ابن عباد ولم يستطع ابن عمار النوم، صاح فيه هاتف الأرق المجهول:

ـ لا تغتر أيها المسكين، سيقتلك ولو بعد حين.

نبوءة مريرة ولكنها كثيرًا ما تتردد، وحاول ابن عمار أن يطرد هذا الخاطر بلا جدوى، مات النوم على الوسادة الحريرية، وقرر ابن عمار الهرب، لو أنه نجح في هذا الأمر لما أصبحت النهاية بهذه المرارة. تجرد من ملابسه والتف في حصير فقير، وعزم التسلل من بوابات القصر، ولكن ابن عباد استيقظ ولم يجد وزيره فنادى الحرس وانتشروا في القصر يبحثون عنه، وأمسك ابن عباد شمعة وقادته المصادفة أو الغريزة إلى الحجرة التي كان يختبئ فيها ابن عمار ملفوفًا بالحصر، ووقف يتلفت حتى سمع أنفاسه فقال له:

ـ أعرف أنك مختبئ في هذا المكان، ولولا افتقادي لك ما قادتني قدماي إلى هنا.. ما الذي دفعك إلى ذلك؟

لم يجد ابن عمار بدًّا من الخروج إليه عاريًا وقال دون مواربة:

ـ حلمت أنك سوف تقتلني بيديك.

نظر ابن عباد إلى عريه وارتجافة بدنه فقال ضاحكًا:

ـ يا ابن عمار، هذه أضغاث أحلام.. (حدق فيه قليلًا قبل أن يقول في جدية): كيف لي أن أقتلك؟ أرأيت أحدًا يقتل نفسه؟

ها هي النفس قد انقسمت، فأي شق في هذه النفس المسكينة غدر بالأخرى، وأي شق يراقب من عَلٍ، وأي آخر يتلقى إهانات الغوغاء؟ يقف ابن زيدون أمامه، الرجل الذي تخلى عن شعره ليحتل المنصب الخالي، قال:

ـ جئنا بالخائن يا مولاي، هل تريد أن تراه؟

لم يتطلع ابن عباد نحوه حتى لا يلمح اختلاجات وجهه، قال:

ـ ليس الآن، احملوه على حاله إلى إشبيلية.

دورة أخرى للعذاب، عندما دخل المدينة نفسها منذ سنوات قلائل ليتقلد الوزارة، فرشت الأرض من بواباتها حتى القصر بالورود والرياحين، وخرجت أجمل الفتيات يلوحن له، وقالت له «اعتماد الرميكية» ضاحكة:

ـ مرحبًا أيها الوزير، ظل زوجي يحدثني عنك حتى ظننت أني تزوجتكما معًا.

فانظري الآن يا إشبيلية إلى إهانتي وموتي المتكرر، فمتى تنتهي دورة العذاب؟

كان السجن، مثل كل السجون، مظلمًا ورطبًا وعفنًا، ولكن كل واحد كان يرى الآخر بوضوح، لم يكن معهما أحد، وعندما نظر ابن عباد في عينيه، أدرك أنه طوال هذه الأيام الماضية لم يكن يزيد من عذاباته بقدر

ما كان يخشى لقاءه، اختار أن يهبط في هذا المكان، في هذه الساعة من الليل، بعد ليالٍ طويلة من الأرق، حتى إن الرميكية قالت له: اقتله ونم.

ولكنه لم يقتله ولم ينم، أخيرًا أراد أن يراه في السجن، في أشد حالات الإهانة، صاح في وجهه بالسؤال الذي آلمه طويلًا: لماذا خنتني؟ لماذا تمردت عليَّ؟ لقد وثقت بك وأعطيتك زمام نفسي.

ونهض ابن عمار واقفًا، حاول أن يكسب وقفته بعضًا من الاعتداد، أن ينفض عن جسده ما تلقاه من إهانات، أدرك أن ابن عباد لن يقتله، الليلة على الأقل، قال:

ـ أنا أيضًا أعطيتك الكثير؛ المملكة التي تحكمها، والمرأة التي تحبها.

أهوى ابن عباد على رأسه بالعصا التي يتوكأ عليها فشج رأسه. جرح جديد آخر لم يتأوه منه ولكنه سقط على الأرض، وتردد ابن عباد قليلًا ثم جلس بجانبه ومد يده يتحسس الجرح:

ـ هل كانت مؤلمة.

جرح فوق جرح، لا أدري أيهما أشد إيلامًا. عاد ابن عباد يقول وقد انكسرت نفسه:

ـ أكانت «مرسية» مغرية إلى هذا الحد؟

قال ابن عمار: لم تفرقنا «مرسية» يا مولاي، ولكننا افترقنا قبل ذلك، تحت أسوار قرطبة.

ما أبعدك يا قرطبة، كان الاستيلاء عليها هو حلم المعتمد، وحلم أبيه، ولكنهما مثل غيرهما من ملوك الطوائف وقفا عاجزين أمام أسوارها المنيعة، تخلصت المدينة من أمثال هؤلاء الملوك واختارت من بينهم أفضل القضاة والفقهاء ليحكموها، وعندما جاءها «ابن عمار» أدرك أن

هذه المدينة يجب أن تخترق من الداخل أولًا، وبدأت رحلة الوقيعة بين الذين يحكمون، والذين يملكون، ولكن الحكم الجماعي للمدينة لم يلبث طويلًا، فقد استولى على المدينة رجل واحد، أدرك ابن عمار أن لحظة حصول سيده عليها قد حانت، ذهب إلى « ذي النون» حاكم طليطلة وأغراه بغزو قرطبة، وذهب إلى حاكم قرطبة وأغراه بطلب المساعدة من ابن عباد، وفي وقت واحد جاء الجيش الذي يريد الغزو، والجيش الذي ينوي الإنقاذ، وتلاقيا أمام أسوار قرطبة المغلقة، وابتلع ذو النون الطعم أولًا حين جمع جيوشه وقرر الانسحاب والتراجع، فإذا بالجيش ينثني ويقتحم المدينة الآمنة على غرة، وابتلعت «ابن عباد» قرطبة.

لم يتصور ابن عباد أن ينال قرطبة بهذا الثمن الرخيص، وعندما قال لابن عمار: لقد انتصر جيشي، رد عليه مصححًا: بل انتصرت حيلتي ورجاحة عقلي.

كانت المدن تتهاوى بين أيديهما كأوراق الخريف، والمملكة تتسع، وابن عمار يرتفع قدره مع كل غزوة ناجحة، أصبح «ابن عباد» الرجل الأول في الأندلس، وظل ابن عمار الرجل الثاني، دائمًا الثاني.

قال ابن عباد في مرارة: كنت تريد أن تصبح ملكًا.

قال ابن عمار: ولم لا، لقد جربت عقلي، أهو من عقول الرعاع؟

عاشا معًا عصرًا غريبًا يحتاج إلى مهارة خاصة؛ مهارة تجعلهما يدفعان فدية من ذهب مزيف لينقذا ابن المعتمد من أسر الفرنجة، ظروف جعلته يلعب الشطرنج حول مملكة، ومهارة تجعلهما يوقعان المعاهدات بصدق ويتحليان بنفس العزيمة لنقضها، وكان ابن عمار يفكر دائمًا، ما دامت هذه الرقعة الصغيرة من الأرض ممتلئة بالملوك إلى هذا الحد فلماذا لا أكون ملكًا أنا الآخر، مثلهم؟

قال ابن عباد: لكنك أهنتني، مثلت بعرضي، كتبت القصائد تهجوني فيها أنا وزوجتي!

قال ابن عمار: كانت حربًا بيننا يا مولاي، وحتى عندما كنا معًا لم نخض حربًا شريفة واحدة.

ورفع ابن عباد العصا مرة أخرى وأهوى بها على رأسه:

ـ بل أنت الذي جررتني إلى هذا، حروبي وحكمي ومعاملاتي، كلها كانت شريفة قبل أن أراك.

تأوه ابن عمار وانسال خيط جديد من الدم من رأسه، وهذه المرة ظل ابن عباد غاضبًا وهو يقول:

ـ كف عن إثارتي، لن أقتلك الليلة مهما حاولت، عليك أن تعتذر وأن تبدي قليلًا من الندم.

قال ابن عمار: وهل كنت ستتراجع عن قتلي؟

قال: لا أعرف، لا أعرف.

وأسرع يغادر الزنزانة، وبينما يصعد الدرج فكر في أنه غير قادر بالفعل على قتله.

في صباح اليوم التالي أصدر ابن عباد أوامره، شحذ السياف نصل سيفه، وأخرجوا ابن عمار مقيد اليدين ومزقوا الثياب حول رقبته، ثم غير ابن عباد رأيه في اللحظة الأخيرة. لا يدري كيف تذكر فجأة تلك الليلة التي نام فيها وإياه على وسادة واحدة عندما كان الزمان صافيًا، صعد إلى غرفة الرميكية ونام في حجرها وكان يرتعد، تذكر رحلات الصيد، وكل القصائد التي ألفاها معًا، والمؤامرات والنزوات الصغيرة، قال في صوت مشحون بالأسى:

ـ ماذا أفعل..؟ إنني عاجز عن قتله، وعن العفو عنه.

قالت برنة غريبة في صوتها: ربما لأنه من الصعب أن تجد صديقًا.

تساءل في دهشة: تنصحينني بالعفو عنه، كنت تغارين منه دائمًا، وتتهمينه بأنه يأخذني منك.

قالت: لأنني لم أرك ترتجف من قبل يا مولاي.

كان ابن عباد عاجزًا عن التفكير، برغم أنه ذات لحظة اعتقد أنه قد ملك كل شيء. عندما تبعه ابن عمار، وعندما قال بيتًا من الشعر عجز الشعراء عن إتمامه حتى جاءت اعتماد الرميكية وأكملت البيت وسلبت لبه، وخيل إليه أنه قد ملك الحب والصداقة والعرش، غيَّر اسمه إلى «المعتمد» من أجلها، وغيَّر كل طموحاته الشخصية من أجل ابن عمار.

والآن ماذا يفعل؟ أعيان إشبيلية وعلى رأسهم الوزير الشاعر ابن زيدون يلحون في قتله، «ذو النون» أرسل له رسالة ساخرة يقول له فيها: إذا كنت عاجزًا عن قتله أبعث لك خادمًا من عندي يقتله، حتى الإفرنج يهددون. وعندما يخرج إلى الأسواق يسمع همهمات الناس كلها تحرضه: اقتله، اقتله.

ولكنه أحس أنه لم يعد يستطيع.

بدأ ابن عمار يرسل له قصيدة كل يوم، توقظه كل صباح على قصيدة جديدة، لا يدري كيف يحصل على الورق والأقلام داخل السجن ولا كيف تتأتى له هذه الكلمات المضيئة داخل الظلمة، لا يخاطب الملك، ولا الصديق، إنما يخاطب الشاعر الحائر الموجود في داخل ابن عباد، تحاصره القصائد، ويلح عليه الآخرون، و يسمع السياف أمر القتل ونقيضه في لحظة واحدة؛ قصيدة في الصباح، وكوابيس في الليل.

من الصعب أن يكون لك صديق صدوق في هذا الزمان الخائن. كانت الرميكية تلح عليه أن يراه مرة أخرى، ولم يستطع مقاومته فأخرجه من السجن، وجاء به إلى مجلسه مقيدًا، نفس المجلس الذي تعود أن يدخله وزيرًا ومستشارًا، الشيء المدهش أنه بكى أمامه، تحطمت البقية اللعينة من كبريائه، لم يكن لديه رد حاضر ولا إجابة ذكية، ونظر إلى وجه الرميكية فوجدها أيضًا وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ولم يتمالك أن قال له عدة كلمات؛ كلمات قصيرة ولكنها ودودة، لعلها كلمات الود الوحيدة التي سمعها ابن عمار منذ بداية محنته، وأمر برده إلى حبسه، وعندما التفت إلى الرميكية للمرة الثانية أدرك كلاهما أن ابن عمار قد أفلت بحياته.

في اليوم التالي تأخر ابن زيدون في المجيء إلى القصر، لم يأتِ إلا بعد أن أرسل إليه المعتمد وسأله عن سبب تأخيره فانحنى قائلًا:

ـ حسبت قد استغنيت عن خدماتي يا مولاي.

قال ابن عباد في دهشة: ماذا تعني..؟

قال ابن زيدون: تتحدث المدينة كلها عن أنك ستفرج عن ابن عمار وتعيد إليه كل مناصبه.

قال ابن عباد: من الذي قال هذا؟ من الذي أشاع الأمر؟

قال ابن زيدون: كتب بذلك ابن عمار لأحد أعوانه.

وأخرج رسالة من جيبه، نفس الخط، ونفس ورق القصائد، تروي تفاصيل ما حدث في المجلس ليلة أمس، ويأمر تابعه بأن يجهز قصره وجواده وملابس الوزارة، كان يروي له كيف سعت «الرميكية» في رجوعه لأنها ترد بذلك دينًا قديمًا، حين وضعها في طريق ابن عباد، وحين زودها ببيت الشعر الذي تكمل به بيته.

يا الله، خديعة أخيرة، ألا تنتهي خدعك أبدًا يا ابن عمار..؟ حتى الحب، الوهم الذي عاشه، نزواتها الصغيرة التي أسرت قلبه، كانت خططًا مدبرة، عندما اشتاقت للمشي حافية في الطين كالفلاحات، عجن لها المسك بماء الزعفران وتركها تسير فيه، وكان هذا اقتراحًا من ابن عمار، حين اشتاقت لتساقط الثلوج، زرع لها أشجار اللوز على الجبال المواجهة للمدينة وبدت الأزهار البيضاء وهي تتساقط أشبه بندف الثلج، اقتراح ثانٍ من ابن عمار، يا الله، أي شيء آخر لم يكن خدعة؟

كان يلهث وهو يهبط درج السجن الحجري وفي يده مطرقة ذهبية، وقف أمامه للمرة الأخيرة، ما أكثر أكاذيبك يا ابن عمار، حتى الشعر، لم تبقِ على شيء.. أهوى على رأسه، وحاول ابن عمار أن يبقى بعيدًا لينقذ رأسه، أهوى بالمطرقة من جديد، ضربة للخداع، وضربة للخيانة، وضربة لفقدان الثقة في كل شيء، وصرخ ابن عباد:

ـ اقذفوه خارجًا.

كان الجسم ساكنًا، والملامح مشوهة مكسوة بالدم، وكانت المرأة العجوز في انتظاره، تحمل الثوب الذي غزلته بيديها، ضمت جسده، ومسحت الدم الغزير، ولفته في الثوب، وعانت حتى حملته على حمارها الهزيل وسارت بعيدًا عن إشبيلية.



عرب ما بعد السقوط

نحن جميعًا عرب ما بعد السقوط، منذ أن تهاوت آخر معاقلنا في غرناطة وفي كل يوم تنفتح في جلودنا ثغرة جديدة، تسقط مدننا من الداخل قبل أن تنطلق المدافع، وقبل أن يفكر العدو في اقتحامها، كنا نأخذ الجزية فأصبحنا ندفعها، وكنا نشحذ السيوف فتركناها صدئة على الجدران، وكنا نملك ناصية الخيل فهبطنا نسوسها، استباح الجميع أسوارنا فأصبحنا نعيش في مدن آيلة للسقوط.

سمع «محمد بن الغافل» الأذان وهو يجتاز الأسوار، يسري في هدأة الليل مختلطًا بتأوهات الطيور، فيه شيء من الانكسار، الأسوار ترتعش، والمدافع متأهبة، وبرغم ذلك لم يرَ أحد الباب الصغير وهو يفتح وآخر ملوك غرناطة يخرج منه، كان ابن الغافل - عين عيون الملوك - هو الذي يعرف سر وجود هذا الباب وهو الذي يحمل حلقة مفاتيحه الصدئة.

كان الباب صغيرًا حتى إن الملك وحاشيته اضطرا للترجل ومرا أولًا ثم مرت الجياد خلفهم، وعلى مدى الأفق كانت جيوش «قشتالة» التي حاصرت المدينة طويلًا كتلة من الظلام الرمادي، كانوا معهم على نفس الأرض دون أسوار، توقف الملك «أبو محمد الصغير» وتوقفت خلفه أمه

وزوجته وهما تتبادلان نظرات الكراهية كأنما لم يكفهما ما حدث، التفت الملك إلى المدينة التي تخلى عنها وبدأ يبكي، كان نشيجه هو الصوت الوحيد الذي يخدش صمت الفجر المهيب، وقالت الأم في صوت حانق:

ـ ابكِ كالنساء، على ملك لم تصنه كالرجال.

وأحس ابن الغافل فجأة أنه يجب ألا يتبع هذا الملك، كانت المفاتيح في يده والمدينة خلف ظهره، ومهما فعلت بها المدافع الإيطالية فلن يتبع هذا الملك.. ملك مهزوم، قاد المدينة إلى الموت ولم يكف عن البكاء عليها، استدار ابن الغافل بجواده، لم يلتفت خلفه، ولم يعرف إن كانوا قد فطنوا إلى تراجعه أم لا.

لم يعترض الباب الضيق على عودته، واستقبلته غرناطة بنفس الصمت المرتجف، ترجل من على جواده ونزع خوذته وألقى سيفه، محا من على جسده كل شارات الملك السابق. وداعًا يا بني الأحمر، هذه أيام الإسبان، ملوك قشتالة بسيوفهم وصلبانهم، لن يفعل شيئًا، كل ما في الأمر أنه لن يغادر غرناطة أبدًا، ولن يوقن بشيء بعد اليوم.

الناس يخرجون من صلاة الفجر منكسي الرؤوس، والقناديل داخل المساجد تشع مثل شموس صغيرة مختبئة، فكر في أن يدخل ويؤدي هذه الصلاة الأخيرة يودع بها كل الأيام الماضية ولكنه لم يجرؤ على مواجهة القبلة والمحراب ونظرات الشيخ «الزبيري»، لم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى منزله ويجلس منزويًا في أحد الأركان حتى يتقرر مصيره في ضوء النهار.

وجاء الصباح يعري لحم المدينة الخائفة، فتحت غرناطة أبوابها ولم يكن أمامها إلا أن تفتحها، انهارت الأسوار التي صمدت على مدى ٢٢ شهرًا تحملت فيها الحصار والجوع ودوي المدافع. كانت المدافع الإيطالية الضخمة من طراز «لومباردو» قد جاءت عبر عشرات الطرق

والجسور والموانع الجبلية، قادها المرتزقة من فرنسا وألمانيا وإسبانيا، وقام بتمويل رحلتها كل يهود أوربا، كانت غرناطة تبدو كأنها لن تسقط أبدًا، تدفق إليها عشرات الآلاف من سكان الأندلس يحاولون إنقاذ آخر المدن من السقوط والتمسك بآخر أهداب الحلم، ولكن الحلم الأندلسي تحول إلى كابوس. عجزت مدافع المدينة التي جاءت من دمشق عن رد المهاجمين، كانت واسعة الفوهات، تتقيأ البارود أكثر مما تقذف به، كانت معركة غرناطة محسومة مهما طالت المدة، فقد تساقطت كل المدن الأخرى وكفت جيوش المغرب عن عبور «العدوة»، وأصاب الصمم آذان مماليك مصر، وبدت غرناطة بعيدة كأنها لم تكن.

أصدرت مفاصل أبواب غرناطة وهي تفتح صوتًا كالأنين، واندفع جنود قشتالة مثل الجراد، اقتحموا المدينة بدروعهم البراقة وأعلامهم الملونة ورائحتهم الثقيلة التي تشبه العطن، ثم اندفع القساوسة يرفعون الصلبان ويرددون الصلوات، ثم أقبلت الملكة إيزابيلا وبجوارها الملك فرناندو، كانت نحيفة وطويلة وشاحبة، عيناها لا تكفان عن الدوران في محجريهما، تحاولان تقدير قيمة الغنيمة التي حصلت عليها، والملك بجانبها ينوء تحت ثقل الدروع التي يرتديها، أسد حبيس لن يرتاح حتى يفلت منها ويهدم المدينة على رؤوس أهلها، التراتيل تعلو وشوارع المدينة خالية من سكانها، أغلقوا الأبواب وحاولوا ألا يروا وألا يسمعوا كأنهم ينفون عن أنفسهم وصمة السقوط، وصل الملك والملكة إلى قصر الحمراء، كان خاليًا، فيه بهاء حزين، ما زال يحمل شعار بني الأحمر الذين فروا هاربين: «ولا غالب إلا الله..». كان القصر مغلوبًا على أمره، وحمل القساوسة صليبًا كبيرًا من الفضة وصعدوا به إلى أعلى وثبتوه في مقدمة القصر حتى يراه أهل المدينة أجمعين، ويعلمون أن آخر الأحلام الأندلسية قد ماتت.

اقتحموا بيت ابن الغافل مع اقتحام المدينة، كان متأهبًا، خبأ كل شيء ولم يعد هناك ما يدل على هويته، التف الجنود حوله وحاصروه برماحهم، وجوه غاضبة ولحى حمراء تتوهج وسط العتمة، كانت أسنة الرماح على وشك أن تنغرس في لحمه، تقدم أحد القساوسة وحدق فيه باشمئزاز قائلًا:

ـ أنت مسلم نتن، أليس كذلك؟

قال ابن الغافل: أجل، ولكن جدي الأول كان مسيحيًّا طيبًا، ولا بد أن جدي الثاني كان كذلك، ولا أعرف شيئًا عن جدي الثالث.

انفرجت أسارير الراهب عن ابتسامة متشككة وقال:

ـ فماذا أنت في أعماق قلبك؟

قال ابن الغافل: إنني لا أومن بشيء، ولكن ربما استيقظت داخلي خلايا الإيمان التي ورثتها عن أجدادي.

ظل القس ينظر إليه غير مصدق، ثم أشار له أن يتبعهم فتبعهم. ضوء الشمس قوي والهواء راكد والمدينة عفنة كأن بيوتها قد امتلأت بالقتلى، كان هناك من هم مثله، يتبعون الجند والقساوسة، لا بد أنهم رددوا نفس الكلمات وكذبوا ذات الكذبة، ساروا إلى ساحة المسجد الكبير وابن الغافل منكس الرأس، لا يريد أن يتعرف على أحد ولا يريد لأحد أن يتعرف عليه، أوقفهم القس صفًّا واحدًا وهو يهتف بهم:

ـ سوف تنتظرون قدوم نيافة الكاردينال «خمينث».

رفع ابن الغافل رأسه فرأى معاول الهدم وهي تهوي على مئذنة المسجد، ورأى عمالًا آخرين يشدون حبلًا يرفعون به جرسًا ثقيلًا فوق المسجد، وآخرين يواصلون محو الآيات المحفورة على الملاط، ثم خيم صمت مفاجئ، وخرج من باب المسجد قس آخر بالغ الطول شديد النحافة

يمتاز عن بقية القساوسة بعباءته الحمراء في لون الدم، سار ببطء يتبعه رتل من الرهبان، فكر ابن الغافل، لا شك أن هذا هو الكاردينال، نظراته ثاقبة كالصقر يسلطها عليهم، يبحث في داخلهم عن ذلك المسيحي القديم أو المسلم المرتد.

أشار الكاردينال فاندفعت من داخل المسجد مجموعة من الجنود يحملون أكوامًا من الصحاف، ذخيرة مكتبة المسجد الكبير، نسخ القرآن والأحاديث والفقه والسير، ألقوا بها على الأرض وظلوا يوالون إخراجها من المسجد حتى صنعوا منها كومة عالية، ثم تقدم الكاردينال بنفسه وتناول شعلة من أحد الجنود وأضرم النيران في الكومة، ارتجف ابن الغافل. تلوت الأوراق وتصاعدت رائحة المداد المختلطة بالزعفران وخشب الصندل، تذكر آخر صلاة جمعة، والمصلين بملابسهم البيضاء، والصحاف مفرودة أمامهم، وهم يتمتمون بالآيات في همس خافت فيتكون من جماع هذا الهمس ما يشبه حفيف أجنحة الطيور وهي تنطلق للسموات البعيدة، ألسنة اللهب تزداد اتقادًا والدخان يخترق خلاياهم والسناج يسود وجوههم، وهم جميعًا واقفون عاجزون عن الحركة، والكاردينال يحدق فيهم أكثر مما يحدق في النار التي تبدو كأنها لن تخمد أبدًا.

وأخيرًا، بعد أن تحول كل شيء إلى سناج التفت الكاردينال إليهم، كانت النار قد عمدتهم وطمس السناج ملامحهم القديمة وقال:

ـ ستنقلون من بيوتكم القديمة إلى بيوت أفضل بعيدًا عن أحياء المسلمين القذرة، سوف نساعدكم حتى تكونوا مسيحيين طيبين.

ثم توقف أمام ابن الغافل، كأنه يحفظ ملامحه، ثم قال له في اهتمام: ماذا كنت تعمل من قبل؟

كأن الكاردينال كان ينفذ داخل طويته، لم يقدر على الكذب، قال: كنت عين عيون الملك.

اتسعت ابتسامة الكاردينال: سوف أتذكر هذا بالتأكيد.

ورفع الصليب الفضي الذي كان يحمله في يده، وقربه من وجه ابن الغافل الذي أرخى عينيه حتى لا يقابل نظرات الكاردينال، ثم مد شفتيه ولمس الصليب البارد.

قال له الكاردينال: آن لك أن تتزوج يا ألفونس، زواجك من إسبانية نبيلة سوف يحميك من خطر الردة.

ووضع يده على رأسه يباركه فارتجف ابن الغافل. هذا هو اسمه الجديد، ومع ذلك فإن العالم مليء بالحمقى الذين لم يغيروا أسماءهم ولم يكفوا عن التمرد. صودرت بيوتهم ونقلوا إلى الأحياء الفقيرة، وخطفت أولادهم ليتحولوا إلى شمامسة، وانتزعت الأرض التي يملكونها والثروة التي يتاجرون فيها، ومع ذلك ظلوا يرفضون الانصياع والدخول في دين السادة الجدد. كان الكاردينال قد حرم عليهم أشياء كثيرة، حوَّل مساجدهم إلى كنائس، وأغلق الحمامات، ومنع لبسهم اللون الأبيض وألغى كل بنود المعاهدة التي وقعها الملك الصغير - آخر الحمقى - مع الملكة المجيدة إيزابيلا، كان الكاردينال يبسط ظله على المدينة وابن الغافل يمشي في ظله، عبر المسافة الصغيرة من أن يكون عين الملك إلى عين الكاردينال، كانت المدينة مليئة بالكفار، والكاردينال كان صبورًا عليهم أكثر مما ينبغي، استدعى الفقهاء وأغراهم وناقشهم طويلًا، حاول أن يقنعهم بأن الله يقف دائمًا بجانب المنتصر، وما دامت المسيحية قد انتصرت فهي الحق، ولكنهم أخذوا يناقشونه ويفندون حججه، وهتف الكاردينال في حنق:

ـ هؤلاء الأغبياء، إنني أتمالك نفسي في صعوبة ويجب أن ألجأ معهم إلى العنف.

قال ابن الغافل: فلتناقش شيخهم «الزبيري» لو اقتنع فسوف يقتنع الجميع.

كان ابن الغافل يتوق لأن يعلن الزبيري تنصره، لو فعل ذلك فسوف ينعدل ميزان الكون ويكتسب كل شيء شرعيته، كانت المسافة قصيرة جدًّا، خطوة يكفي أن يخطوها الشيخ فيصبح كاردينالًا بدلًا من أن يكون فقيهًا، ولكنه رفض، هبطوا به من بهو المسجد الذي أصبح كنيسة إلى القبو الواسع الذي بني تحتها، منعوا عنه الطعام والماء، ثم بدأت عمليات التعذيب، رأى ابن الغافل أضلاع الشيخ وهي تعتصر، وجلده وهو يكوى بالحديد المُحمى، كان العذاب أليمًا، لماذا لا يستسلم؟ لماذا ينتفض جسده هكذا ثم يسكن تمامًا؟

كان أهالي المدينة قد تجمعوا يطالبون بعودة شيخهم، أخذوا يصيحون في غضب، ولكن الكاردينال خرج إليهم وهو يقول: بشراكم، لقد رأى الزبيري حلمًا يدعوه للدخول في النصرانية، ورفع إلى السماء كما رفع المسيح.

وصاح الناس في غضب جارف، تفجرت في داخلهم كل المرارات وكل قسوة الحصار، أخرجوا السيوف الصدئة والبنادق القديمة والسكاكين المثلومة واجتمعوا في حي «البيازين»، أقاموا المتاريس واشتبكوا مع الجنود، ورأى ابن الغافل وجه الكاردينال ممتقعًا وهو يطلب منه أن يعرف من هم رؤوس هذه الثورة، كانت طاقة الغضب تعم المدينة كلها، حاصروا قصر الحمراء وطالبوا برأس الكاردينال في مقابل رأس الشيخ الزبيري، وظل الكاردينال مختبئًا في القبو حتى أرسلت إيزابيلا المزيد من جنود قشتالة.

كان الرد رهيبًا، تحول حي «البيازين» إلى بحر من الدماء، وقتل جنود قشتالة كل من وجدوه أمامهم دون تمييز، اختلطت جثث الشيوخ والأطفال والنساء، كل الذين عجزوا عن الهرب دهستهم الخيل، وأعلنت إيزابيلا أنه يجب تقديم كل رؤوس الثورة إلى محاكم التفتيش، وازدادت سلطة الكاردينال، أصبح هو المفتش الأعظم الذي أنيط به أن يحمي حق المسيح في الأرض، وانتشر قساوسته في كل أرجاء المدينة كلها يقبضون على أي أحد لمجرد الشبهة.

صاحب السلطان كراكب الأسد، الناس تهابه وهو أدرى بما به، لا يذكر ابن الغافل من قال هذه الكلمات، ولكنها كانت تامة الانطباق عليه؛ لذا فقد قبل الزواج على الفور. كانت زوجته سمينة، كريهة الرائحة، بالغة العنوسة، ولكنها كانت تمت بصلة قرابة إلى المفتش الأعظم، قشتالية أصيلة، لا تستحم إلا فيما ندر، وتأكل اللحوم نصف نيئة، وتكره الخضراوات والفاكهة وسماع أي كلمة بالعربية، فهل يمنحه هذا بعضًا من الأمان؟

كان ابن الغافل يعيش كابوسه اليومي الخاص وهو يخوض في أقبية محاكم التفتيش، كانت قد استطالت وتلوت كالثعابين تحت سطح المدينة، وفي كل يوم تبتلع أجساد العاجزين عن التواؤم الروحي ولا تلفظهم إلا موتى، كان مفتشه الأعظم يجد متعة خفية في عمليات القتل البطيء وهو يستمع إلى التأوهات والصوت الخافت لتكسر العظام أو يشم رائحة اللحم المحترق، كان ابن الغافل خائفًا من أن يكون مصيره يومًا ما على آلة من مثل هذه الآلات التي تفنن المفتش في ابتكارها.

كان خائفًا، ولكنهم لم يكونوا خائفين، هدأت الثورة داخل المدينة كي تبدأ في الجبال المحيطة بها، ثار أهالي جبل البشرة والجبل الأحمر،

اعتصموا بمساكنهم وسط الصخور الوعرة، لم تكن مدافع «لومباردو» التي هزمت غرناطة قادرة على التعامل معهم، توجه إليهم جيش بقيادة أهم قواد قشتالة «ألونثو دى إجيلار» الذي أثبت صلابته على مدى أربعين عامًا في محاربة الأندلسيين، ولكن الصخور كانت في انتظاره، سلاح الأهالي الوحيد الذي وهبته لهم الطبيعة، انهالت على جيش «ألونثو» ودفن هو تحتها، كانت ضربة هائلة لم تصدقها إيزابيلا فأرسلت زوجها فرناندو على رأس جيش أكثر قوة ولكنه لم يكن ليجرؤ على صعود الجبال أو مواجهة الصخور، ولجأ إلى الأسلوب الذي يجيده: الحصار الشامل والطويل، كان يعرف أنهم يعيشون في هضاب وعرة، ماؤهم نادر وطعامهم قليل، وكان الزمن في صالحه، مات كل ما لدى أهل الجبال من حيوانات، وجفت المياه الشحيحة ويبست الخضرة، كان الخيار أمامهم محددًا إما التنصير، وإما عبور البحر إلى بلاد الإسلام البعيدة.

وبعد شهور طويلة لم يكن أمامهم إلا أن يستسلموا، بدأت صفوفهم الطويلة تهبط من بين فجاج الصخور، نسورًا مهيضة الأجنحة، تعاني من شظف الجوع، رفضوا التنصير وفضلوا السير إلى مصيرهم المجهول، وكان المفتش الأعظم سعيدًا، وكان ابن الغافل ما زال يسأل نفسه: وماذا لو تطامنوا ورضوا؟ هل كانوا سيتركونهم، أم سيبحثون لهم عن حجة أخرى ينتزعونهم بها من ديارهم؟

ثم حانت لحظة الميلاد، خرج الطفل من رحم المرأة الإسبانية كالزهور تخرج من أرض سبخة، تولدت حياة غريبة من أجساد متنافرة، انحنى ابن الغافل ورفعه بين يديه ورغمًا عنه تمتم ببعض الآيات القرآنية، ثم فطن إلى أن زوجته تراقبه بعينين متفحصتين تحاول أن تقرأ حركة شفتيه، رسم علامة الصليب على صدره في ارتباك ثم خرج يعدو، أخفض رأسه إلى الأرض خوفًا من أن يقابله أحد قساوسة محاكم التفتيش فيقرأ أفكاره،

شاهد نجوم السماء بعيدة، متألقة وغير خائفة، يا إلهي، كيف تخلقت هذه الحياة الجميلة، وكيف نبض بها جسد المرأة، وما هذه الغمغمات الخفية التي تدور حوله في الفضاء؟ ذكرى ضائعة، شيء ما تبدد واستعصى على الموت، نام على حافة النهر ثم استيقظ فجأة، تذكر التقويم القديم الذي رآه ذات مرة أمام الكاردينال قبل أن يحرق، اكتشف أنه قد حفظ منه معارج القمر وغرات الشهور، عرف يومها أنه في شهر رمضان فتعمد أن يأكل ويشرب أمام الجميع، كانت الخمر تقلص معدته ولكنه شربها، ولحم الخنزير يثير غثيانه ولكنه التهمه، ولم تغادر أيام التقويم مخيلته. نظر إلى السماء يبحث عن أثر القمر، ثم بدأ يعد على أصابعه كل الأيام التي توالت والأسابيع التي انصرمت، أيكون هذا هو فجر أول يوم من أيام العيد، وهذه الأصوات التائهة هي بقايا التكبيرات القديمة؟ كيف استطاعت هذه الأصوات الضائعة أن تقاوم الاندثار بعد أن انهار كل شيء؟

تسلل عائدًا إلى بيته، كانت نائمة والطفل هاجعًا بجوارها وهو يبتسم، أي حلم يدور في رأسه الصغير؟ أتراه هو أيضًا سمع نفس الأصوات؟ مد يده وحمله إلى صدره، سار به عبر الشوارع والساحات إلى الحارات الضيقة والأحياء القديمة، إلى حي «البيازين»، صعدت به الدروب، احتوته بيوت الحي المتلاصقة، أدخلته في رحمها، سمع نبض الأدعية وهي تسري في عروقه، نثار من الكلمات العربية البديعة المحرم النطق بها، رائحة الميلاد ودفء الأفراح القديمة، ثم سمع صوت التكبيرات، كان موقنًا أنها موجودة وحقيقية، آتية من خلف جدران صخرية سميكة، خافتة وعذبة ومتواصلة، دار حول الجدران حتى رآهم أمامه جالسين - رجالًا ونساء - في ثياب بيضاء، كما كانوا دائمًا وكأن الإسبان لم يوجدوا «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا» جلس وسطهم وهو يردد الكلمات دون وعي حتى فرغوا.

التفتوا إليه، لم يتعرفوا على وجهه، أو ربما تجاهلوا هويته القديمة، قدموا له أطباق اللبن والعسل، وبدأ الطفل يبكي فهرعت إليه بعض النسوة وحملته بين أيديهن وبدأن يهدهدنه، وصاحت إحدى النساء:

- هذا الطفل المسكين لم يختتن بعد.

وقال شيخ عجوز يشبه الشيخ الزبيري تمامًا:

- اليوم نقوم بختانه ونحتفل به.

كان الطفل يصرخ والجميع يهللون في فرح وهم يرددون التكبيرات وكان ابن الغافل سعيدًا، احتضن الطفل المرتجف وقد تطهر تمامًا، تطهرا معًا، جديديْن تمامًا، لم يدخلا هذا العالم الملوث ولم يسقطا خلف الأسوار، ولكن الوقت كان يمضي، ولحظات العيد تفر من بين أصابعهم، كان عليهم جميعًا أن يخلعوا ثيابهم البيضاء وأن يكفوا عن الحديث بالعربية، وأن يعودوا إلى حياة الخوف في شوارع المدينة، انتهى الطقس كالحلم، وكان على ابن الغافل أن يحمل ابنه ويعود به.

شوارع خالية، لا صوت إلا صوت قدميه وهما يتثاقلان فوق الأحجار البيضاء، كان الطفل نائمًا، ذهب الألم وحلت عليه السكينة، دخل البيت فوجدها متيقظة في انتظاره، كان المفتش الأعظم بذاته يقف خلفها، حدقا فيه بنظرات باردة، مدت يدها فأعطاها الطفل، اقترب المفتش ومد أصابعه الشبيهة بالمخالب وكشف عن جسده، تأمل آثار الختان وقال في صوت بارد:

- كنت أعرف منذ البداية أن في أعماقك مسلمًا لا يستحق سوى الموت.



ظلمة كثيفة، كأنها ذرات من قطرات معلقة في الهواء، تقف «ست الملك» بجانب نافذة قصرها الشرقي، تراقب دوران النجوم، بريق ساطع قبل الأفول، تمتد أمامها مدينة بائسة، يسري الخوف في عروقها، لا تنام إلا على مشهد القتل ولا تستيقظ إلا على أصوات العويل. عبرت ببصرها الساحة التي تفصلها عن القصر الغربي والتي يطلق عليها بين القصرين؛ الساحة التي يجتمع فيها الخائفون والمستغيثون حتى يرفعوا المظالم إليه؛ طفلها الدموي، وحشها المدلل، أخيها «الحاكم بأمر الله».

كان أصغر منها سنًّا وأكبر حجمًا وأقوى بأسًا، وبدا الأمر جد غريب عندما وضع رأسه على صدرها وبدأ يبكي، يطبق رأسه الثقيل على أنفاسها، طفلًا عملاقًا في الخامسة عشرة من عمره، تدخل أصابعها في شعره وتمسده حتى يهدأ، ورث عن أبيه مظهر الجبابرة القادمين من الصحراء، لكن نفسه الغريرة ما زالت قاصرة عن مجاراة جسده، أصبح خليفة وحاكمًا، ولكن الإهانة غصة في حلقه، يهتف من خلال عبراته:

ـ إنه «برجوان» الوصي على عرشي يا أختاه، يسخر مني، ولا يأبه



بأوامري، واليوم بالذات، كنا نتريض معًا على ظهور الخيل، وتعمد أن يثني ساقه فوق عنق الجواد بحيث يكون نعله في مقابل وجهي.

أخيرًا.. يلاحظ الخليفة الصغير إهانات «برجوان» التي لم تتوقف، كانت قد لاحظتها دون أن تجرؤ على الاعتراض، أصبح هذا الخصي الصقلبي بدرجة من القوة لا تستطيع وحدها مواجهتها، وضع أباهم «العزيز بالله» فيه ثقته المطلقة، وأعطاه لقب الأستاذ، أي ما يعادل لقب الوزارة، وأراد أن يكون وصيًّا على ابنه بعد أن يموت، لكنه أصبح يتصرف كحاكم مطلق، يتحكم الجميع داخل القصر، بمنْ فيهم الخليفة الصغير، يبعد رأسه عن صدرها حتى تلتقط أنفاسها، تقول له:

ـ لا تناقشه، لا تعاتبه، ولا تلمه، فقط.. اقتله.

عيونه مفزوعة ودموعه تجف فجأة، يرتجف صوته:

ـ كيف لي أن أفعل ذلك وأنا بهذا الهوان، وهو على هذه القوة؟

تقول له ثلاث كلمات، سيظل يذكرها ويعمل بها طوال حياته: «كل شيء قابل للقتل».

هكذا تتواصل صيرورة الكون، من لحظة الموت لا من لحظة الميلاد، إزاحة كل ما هو موجود ليفسح المجال لكل ما هو مولود، في تلك الليلة الفاصلة من حياته يسير «أبو علي منصور» الذي نصب سلطانًا على مصر وسنه لا تتجاوز الحادية عشرة واتخذ لقب الحاكم بأمر الله. خلف أخته «ست الملك»، عبرا ساحة «بين القصرين»، تهبط به درجًا حجريًّا لم يكن يدري بوجوده، وتدخله سراديب لا يعلم نهايتها، تنتهي به إلى ساحة واسعة بين طيات الأرض، تنيرها مشاعل معلقة على الجدران، يسمع صوت السيوف وهي تصطك، وصيحات النزال أشبه بدمدمات حيوانية، يظهرون أمامه، عصبة من الغلمان الترك، عرايا إلا من حزام من قماش يستر

عوراتهم بالكاد، مرد، لا أثر للشعر على رؤوسهم أو أجسادهم، ما يفعلونه لم يكن تدريبًا عاديًا، ولكنْ قتالًا دون رحمة، بلا مبالاة بما ينزفونه من دماء، يتحركون بدافع من العنف المطلق، لا يولد الإيذاء البدني بداخلهم إلا المزيد من شراهة القتال، ينظر إليهم مرعوبًا، وتتأملهم هي كالمنومة، كأن القوة المتولدة من خلال هذا التلاحم تغذي جسدها بطاقة خفية، يسمعها تقول في صوت خافت:

ـ موهبتي الخفية هي اكتشاف القتلة، هكذا حافظت عليك وعليَّ منذ أن مات أبونا.

ينظر إليها مندهشًا، كانت دائما أرقَّ وأكثر حنوًّا من أن تصدر عنها هذه الكلمات، في عينيها الآن قسوة غير متوقعة، تواصل القول، تردد سطورًا من كتاب محفوظ بداخلها:

ـ منذ الآن سيكون هؤلاء هم غلمانك، لا تخرجهم للنور إلا لينفذوا أمرك، ويفرضوا مشيئتك، كن ساخطًا دومًا، اجعلهم عطشى لرضاك، وعبيدًا لعطاياك، واجعل الموت أهون عليهم من عصيان كلمتك أو إثارة غضبك.

كلمات أكبر من أن يحتملها، ولكن هل يمكن أن تصمد أمام شخص مثل برجوان؟ لا تترك «ست الملك» له فرصة للتردد، تسير فيسير خلفها، تتوقف في ساحة «بين القصرين» الخالية، وتهتف آمرة:

ـ اطلب برجوان الآن، قل له إن أمرًا هامًّا يستدعي وجوده بين يدك في الحال، استقبله وأنت جالس على عرشك، لا تنهض عند دخوله، ومهما تصرف فقابل أفعاله ببرودة الصمت.

ينظر حوله، هبط الليل على المدينة ولفها، يشعر أنه أعجز من إزعاج «برجوان» في هذا الوقت، ولكن صوتها حازم، بارد ومحدد، لا يملك إلا

أن يطيعها، يرسل «غبنًا» خادمه المفضل بصحبة ثلة من حرسه، ويجلس في قاعة العرش مرتعدًا، كأنه لهيب واحدة من الشموع التي تحيط بالمكان، شحذت «ست الملك» نفسه بكلماتها، فأصبح كحد النصل، ولكنها تتركه وحيدًا في هذه القاعة الفسيحة، يجلس على عرش آبائه، ولكنهم لم يعانوا من الخوف الذي يثقل عليه الآن، يبدأ في الإحساس بالندم لأنه لجأ إليها، كان من الأسهل أن يعش في حمى «برجوان» ويتقبل إهاناته، ولكن فات الوقت. تقترب خطوات «برجوان» الغليظة، يسير حراسه من الصقالبة خلفه مثل ظله، يقتحم القاعة كعادته، مثيرًا أكبر قدر من الجلبة، محتقن الوجه من شدة الغضب، يقف أمامه وهو يزفر، يوشك الحاكم أن ينهض ليعتذر إليه ولكنه يتذكر أنه يجب أن يظل جالسًا، يتمسك بمقبض المقعد ليساعده على الثبات في مكانه، بينما يقول «برجوان» من بين أسنانه:

- أي أمر يجعلك تقلقني في هذا الوقت، بعد كل ليل مظلم هناك دائما صباح، كان عليك أن تنتظر.

يشعر الحاكم بجفاف حلقه، لا توجد عنده القدرة على مواجهة كل هذا الغضب، ينكمش أكثر وهو يسمع «الصقالبة» يزومون، يتقدم «برجوان» خطوة إضافية فيوشك أن يبول على نفسه، ثم تحدث معجزة الخلاص، يقفز من جوانب القاعة الغلمان المرد، رؤوسهم عارية، وصدورهم بلا شعر وسيوفهم قصيرة ومعقوفة، قرود بيض البشرة، يلمسون الأرض بخفة فيصدر عنهم حفيف مفزع، يتأملهم الجميع مندهشين، ولكن قبل أن تطرف عين أحد، يضعون سيوفهم في رقبة «برجوان» ورقاب حرسه. يترنح «برجوان» وهو ينظر إلى الحاكم غير مصدق، كبرت الوزغة فجأة وأصبحت ثعبانًا، تكتسي أرضية القاعة بدم لزج، تظل أطراف الأجساد تنتفض، ويظل الغلمان شاهري السيوف لآخر انتفاضة في آخر جسد، يعاودون الاختفاء بالسرعة التي ظهروا بها، يفيق الحاكم من هذا الحلم الدموي الغريب، يرفع رأسه

ليجد «ست الملك» واقفة أمامه في نهاية القاعة، تتأمل الأجساد المسجاة كأنها تريد الاطمئنان على جودة ما حدث، يشهق غير مصدق:

ـ لقد مات برجوان.

تردد الكلمات نفسها للمرة الثانية: كل شيء قابل للموت..

ليلة لا تنسى وكلمات لا تمحى، محبة الرعية أو كراهيتها، لا يعول عليهما، شكرها أو وعيدها لا يعول عليهما، شيء واحد فقط يعول عليه، مطلق وفريد، هو الخوف، تلك اللمعة المفاجئة التي تظهر في العيون، ويجعلها الدمع المحتشد غائمة الرؤيا والألسنة تلهج بالتوسل طلبًا للنجاة، هذا هو اكتشافه الجديد.

يحاول في البداية أن يبرر للجميع لماذا قتل برجوان، ولكن «ست الملك» تمنعه من أن يظهر كالمعتذر، الملوك لا يحتاجون مبررًا للبطش، ولا مسوغًا للعدل، يختارون فقط من ينفذ أوامرهم، لم يعد في حاجة لأوصياء، يختار الحاكم أمينًا جديدًا يضع سيفه في خدمته؛ القائد «حسين بن جوهر الصقلي»، الابن الأكبر للقائد الأسطوري الذي فتح مصر وبنى مدينة القاهرة، رجل متقشف، رفض كل مظاهر التفخيم والتكريم، اكتفى فقط بلقب القائد، ولم يدع خطوطه تتقاطع كثيرًا مع خطوط الحاكم، يختار أيضًا ابن النعمان قاضيًا، كان والده قاضيًا جليلًا هو الذي وضع القواعد الفقهية الأولى للدول الفاطمية، تراجع نفوذ الصقالبة من أعوان «برجوان» وتقدم المغاربة، بناة الدولة، تستقر الأمور ولكن نفس الحاكم لا تعرف طريقًا للاستقرار، يصبح مدمنًا لإحساس القوة المطلقة الذي تمنحها له لحظة القتل، القدرة على التحكم في المصائر، وضع نهايات الخلق.

يتذكر الرجل الذي جعل طفولته تعيسة بأوامره ونواهيه، الذي كان دائما ما يؤنبه لغبائه، يؤكد له أنه إذا ظل على هذه الوتيرة من قلة الفهم

فلن يظفر بالعرش الذي ينتظره، وقتها لم يكن قادرًا على إيقافه أو ردعه أو حتى شكوته لأبيه، يخرج الحاكم غلمانه الترك من ظلمة السرداب ليقتلوا مؤدبه ومعلمه القديم «أبا تميم السعيد»، تنتابه فرحة غامرة حين يراه صريعًا أمامه، الآن قد أتم تعليمه ولن يوجد من يؤنبه، يستمر بحثه المحموم عمن يستحق القتل، يتناهى إلى علمه أن والي الحسبة لم يعد يحسبها جيدًا، فالمال الذي يتسلل إلى جيبه أكثر من الذي يذهب للدولة، لا وقت للمحاسبة أو المراجعة، القتل أسهل، يقتل أيضًا وزيره «أبا فهد»، كان نصرانيًّا، لبث في منصبه ست سنوات كاملة، يصرف أمور الدولة بكفاءة، وذات لحظة يمازحه الحاكم قائلًا: كيف تكون وزيرًا لأعظم سلاطين المسلمين وأنت لست بمسلم؟ كان الرجل غبيًّا، لا يفهم في المزاح، لا يداهن ولا يروغ من السؤال، يقول بشكل قاطع إنه لا يفكر أبدًا في تغيير دينه، ولا يفكر الحاكم كثيرًا، فقد كان غلمانه الذين يتدربون في سرداب القصر متعطشين للضوء ورائحة الدم، ثم يحين الدور على «ريدان» حامل مظلته؛ لأن الشمس لسعت نصف وجه الحاكم الأيسر وهو يتجول في أسواق المدينة، وتجيء اللحظة الفاصلة عندما ينتابه غضب عارم على قائده المفضل وقاضيه العادل فيأمر بقتلهما. كانت حركة القاضي ثقيلة فاستطاع الغلمان أن يأخذوه على غرة، ولكن ابن جوهر الصقلي لاذ بالفرار حانقًا ومندهشًا، لماذا غضب عليه الحاكم فجأة؟ تضطرب القاهرة وهي تشاهد قائدها يهرب مذعورًا، تغلق الأسواق، ويحتمي الناس ببيوتهم وهم يرتجفون، أصبح البطش يطول أكبر الرؤوس، يختبئ ابن جوهر عند قبائل العربان في البحيرة، يرسل الحاكم إليه يطلب منه العودة، يؤكد له أنها كانت مجرد غضبة عابرة وقد زالت، ولكن ابن جوهر لا يأمن لوعوده، يَجِدُّ في الفرار بعيدًا نحو الشام، وتظل رسل الحاكم تلاحقه بالوعد والوعيد، والولاة التابعون له يضيقون الخناق عليه، وأهله المحاصرون في مصر

يستنجدون به. عالم مغلق، لا يوجد أمامه إلا منفذ واحد يقوده رغمًا عنه للقاهرة، لا يملك «ابن جوهر» إلا العودة خائفًا ومتوجسًا، تزايدت القبور التي تضم ضحايا الحكام، ولا بد أن هناك قبرًا في انتظاره، ولدهشته يستقبله الحاكم بالترحاب، يرتب له موكبًا حافلًا، ويقرأ قرار العفو علنًا وعلى رؤوس الأشهاد، ولا ينسى أن يهمس له معاتبًا:

ـ أهكذا تخاف مني يا أخي؟ وهل مثلي من ينسى فضل أبيك على دولتنا؟

يعيد له أمواله المصادرة، ويفرج عن أقاربه المحبوسين، ويعرض عليه أن يعيد المنصب واللقب، ولكن القائد يأبى، يريد أن يقضي أيامه بعيدًا عن أي مظهر من مظاهر السلطة، ولكن الحاكم يصر على أن يزوره، وعندما يتأخر يرسل إليه رسولًا، يزوره «ابن جوهر» بالفعل ثلاث مرات، ويخرج آمنا في كل مرة، وفي المرة الرابعة تريد «الحضرة» أن تستبقيه قليلًا، ثم يخرج بالفعل، ولكن جسدًا بلا رأس.

تتحكم فيه شهوة القتل فيقتل دون تمييز؛ قتل أعيان الدولة، وزعماء القبائل وقادة العسكر، وصبيان الحمامات، والمكارية الذين يسوقون الحمير، وشوَّاء لم تعجبه طريقته في قطع اللحم، وشيخًا أَمَّ الناس في صلاة التراويح في رمضان، وعددًا من الرواة لأنه شك أنهم يحرفون الأحاديث، وأحد النحويين لأنه أخطأ في الإعراب، ولا يكتفي بالقتل المفرد، يأمر ببناء سد على حمام كانت تستحم فيه النسوة وهم يغنين، ويجمع جواري قصره ويضعهن في صناديق ويلقيها في النيل، يتخلص في عام واحد من الآلاف من خاصة الناس وعامتهم، قتلهم ذبحًا أو حرقًا أو صبرًا، يصبح من النادر أن يغادر الحكمَ وزيرٌ أو قاضٍ أو كاتبٌ إلا وقد أهدر دمه بعد أن اتهم بالخيانة، أناس يدفعون حياتهم مقابل منصب لا يدوم إلا قليلًا، لا يكفون عن قبول المناصب حتى قبل أن يجف دم الذي سبقه، لا يقلل

شبح الموت من شهوتهم، يظل إغراء المنصب أقوى من تهديد السيف المصلت عليه، يشاهدون جميعًا فورات الدم التي تنتاب الحاكم ومع ذلك يضعون أنفسهم في أتونها، يكررون مأساة الخادم «غبن».

كان غلامًا أسود يتبع الحاكم مثل ظله، يحمي ظهره من أي سيف غادر، ويبلغ من رضا الحاكم عنه أن يعينه واليًا للشرطة والحسبة في القاهرة، ويمنحه لقب قائد القواد، ويعمل «غبن» بهمة في تنفيذ أوامر الحاكم؛ يمنع المسكرات، يقبض على من يأكل الملوخية أو يصطاد سمكًا بدون قشر، أو يمشي في جنازة أو يمضي لتقديم واجب العزاء، وعندما يمرض ذات يوم ويلزم بيته يسير الحاكم لعيادته ويقدم له هدايا ثمينة من المال والجياد، ثم ما يلبث، ودون سبب واضح، أن يأمر بقطع يده، وبرغم ذلك يبقيه في منصبه، ويصبح صاحب شرطة القاهرة مقطوع اليد، ثم يأمر فجأة بقطع لسانه دون أن يعزله أيضًا من منصبه، ولكن «غبنًا» يلزم فراشه، يظل ينزف ويهذي حتى يموت. كل عشاق المناصب كانوا شهودًا على ما حدث، وظلوا برغم ذلك يسعون لخدمة الحاكم، يتحول مئات القتلى إلى ألوف، حتى يبلغ العدد ١٨ ألفًا من الضحايا.

يخلق الحاكم حوله سياجًا من الرهبة والخوف، لا يجرؤ أحد على معارضته أو مجادلته، بل إن البعض كان يسقط مغشيًّا عليه حين يراه، ويسري المزيد من الفزع في أوصال المدينة عندما يقيم الحاكم مقبرة جماعية جديدة، يختار مساحة واسعة من الأرض عند سفح المقطم، تحيط بها أسيجة من أشجار السنط والغاب تتخللها صفوف من الصبار، وتوجد في الوسط صخرة محدبة كأنها نطع أعد لبتر الرؤوس، بقعة موحشة لا تصلح إلا لمجزرة مروعة، كل من له صلة بالحاكم اعتقد أنها أعدت له، اجتمع الغلمان وكُتَّاب الديوان وجباة الضرائب وشيوخ الحارات في أحد ميادين القاهرة، وأخذوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى أعتابه وهم

يطلبون العفو والمغفرة، يتوسلون لدفع ذنب لا يعرفون ما هو، يقبل الحاكم تضرعاتهم، ويصدر لهم رقعة بالأمان، ينتقل الفزع لليهود والنصارى فيسارعون هم أيضًا بالتضرع، ويستجيب الحاكم برقعة أخرى، يسري الفزع إلى تجار القاهرة وأرباب الحرف بها ومشايخ المساجد وأصحاب الإقطاعيات وتجار القوافل وتتوالى الرقاع، وتظل ساحة الموت مفتوحة لا توحي بأي أمان.

يخرج غلمانه الترك من سردابهم المظلم ويذهبون للساحة فلا يجدون من يقتلونه، يدورون فيها قابضين على سيوفهم، يزومون كحيوانات جوعى للدم، تزيد وحشة المكان من هياجهم يفكرون في الانطلاق للمدينة وذبح كل من توقعه المصادفة في طريقهم، ولكن تظهر من خلف أشجار الصبار رؤوس سوداء، تبعتها أجساد أكثر سوادًا يكسوها العرق، لا يحملون سيوفًا، ولكن سلاسل من الحديد في نهايتها رؤوس مدببة، يحيطون بالغلمان الترك ويحاصرونهم قبل أن يدركوا مغزى المعركة، وقبل أن يتخذوا أوضاعهم، ويجعلوا ظهورهم لبعضهم البعض، كانت السلاسل تلتف حول أعناقهم وتجرهم على الأرض، ومن بعيد يقف الحاكم فوق صخرة من المقطم يشاهد المذبحة التي تدور بين القتلة القدامى والجدد، الذين سيحلون بدلًا منهم، مثلما يعاني الضحايا من الخوف، يجب أن يعاني القتلة، الخوف يحكم الجميع، هو الوحيد الذي يجب بمنأى عنه لأنه من يصنع الخوف.

ولكن ريح الخوف تتسلل إليه رغمًا عنه، لا يستطع أن ينام الليل، لا يأمن للظلمة الشاملة، الليل هو ستر القتلة، لا بد أن هناك قاتلًا لا يهابه، في يده خنجر مسموم سيحدد مصيره، عليه أن يمنع الظلام من الدخول إلى قصره، إلى مدينته، يأمر أن يوقد كل ما في القصر من شموع، وتمتلئ الطرقات بالمشاعل، ويوضع أمام كل بيت قنديل يظل مضاء طوال الليل،

يظل يتجول مستوحشًا وباحثًا عن القتلة، لا يطيق الصمت، يريد أن يسمع الهمس الدائر وراء الجدران، فيصدر أمرًا آخر لتستيقظ المدينة كلها، تقام الأسواق وتفتح الحوانيت وتمارس الأشغال، تنقلب المواقيت، ويتحول الليل إلى نهار، يطوف بحماره الأشهب الذي يسميه «الأقمر» في أنحاء المدينة، كل شيء موجود إلا القتلة، تنبح عليه كلاب المدينة الجائعة وتثير فزع حماره، فيصدر أمره بقتل كل أنواع الكلاب إلا ما خصص منها للصيد، هذا أفضل ما اتخذه من قرارات. أصبحت شوارع المدينة آمنة أخيرًا. ولكنه يشاهد ما هو أخطر، نساء القاهرة يتجولن ضاحكات، تمنحهن الظلمة ستارًا من التخفي، يسرن منتشيات بسحر الظلمة، يتقبلن كلمات الغزل ويشاركن في مطاردات النشوة اللاهثة حتى الصباح، يشعر بالحنق عليهن لأنهن يحولن الظلمة، عدوته الرئيسة، لطقس من الاستمتاع والإفلات من الرقابة، يصدر أمره بعدم خروجهم ليلًا، ثم يشعر أن هذا ليس كافيًا، فيمنع خروجهن نهائيًّا، تصبح شوارع القاهرة جافة دون نساء تسير فيها، تغلق المحال التي تبيع أغراضهن، تدخل النساء إلى عالمهن السري خلف الجدران.

يسعى نحو معرفة المزيد من الأسرار، يكوِّن جيشًا خفيًّا من النسوة العجائز، يدخلن البيوت، يعرفن كل ما فيها من أسرار وفضائح، عيون مبثوثة تمده بأدق أسرار العائلات، نوايا الرجال ونمائم النساء وفضائح الأسر، يدرك أن الناس يتكلمون أكثر مما يفكرون، ويعلنون أكثر مما يضمرون،وأن غواية الجسد لا تقل عن سطوة المال، يمتلك في يده مفتاح هذا البلد الغريب الحافل بالعلاقات المعقدة، رخو ومترف، لم يجرب الشظف الصحراوي، ولم يعرف شدة العيش، يمسك رقبة الناس ويمتلك خفاياهم، لا يجرؤ أي من الأعيان الذين يقفون أمامه على أن يرفع وجهه أو يقابل عينيه، مهما تباهوا بقوتهم فهو يدرك أنهم الأضعف، وأنه الأعلى، قادر على أن يميتهم أو يتركهم يواصلون حياتهم التافهة، ولا تكف أسرار

النسوة العجائز عن التدفق، تخترق أجنحة القصر المواجه له، وتحمل إليه أسرار أخته الكبرى «ست الملك».

يقف أمامها هذه المرة وهو كائن مختلف، تبددت الوداعة من ملامحة، وغاضت نظرة البراءة في عينيه، لم تبقَ إلا نظرة قلقة، لا تستقر محاجرها، تكشف عن داخله المضطرم بالرغبات والكوابح، يلتقط أنفاسه بصعوبة، كأنه لا يجد هواء يلتقطه في جناحها، يقول بصوت متحشرج:

ـ هل صحيح أن الرجال لا يكفون عن التوافد إلى غرفة نومك؟

لا تخفض رأسها، ولا تهرب من عينيه، ترد:

ـ وهل صحيح أن ثيابك لا تفوح منها سوى رائحة الدم؟

يقول وجسده ينتفض:

ـ لا أحد يحاسب من يتحكم في المصائر. يومًا ما، سأمنح الحياة لمن أراهم جديرين بها، ولكنهم حتى الآن لا يستحقون سوى الموت، أنت حتى لا تدافعين عن نفسك، قولي لي كلمة فاصلة: هل لوث الرجال سريرك بمنيهم أم لا؟

تحافظ على ثباتها، يقف وحيدًا، ولكنها واثقة أن الجلاد مختبئ في مكان ما، ينتظر إشارة منه، يواصل كلماته القاسية:

ـ لا ضرورة لكلماتك، مهما قلت فلن أصدقك، ستجيب القابلات عن ذلك بعد أن يقمن بالكشف عليك.

تشهق فزعة، هل يمكن أن يعرضها لهذه الدرجة من الامتهان؟ قبل أن تتفوه بحرف واحد تجدهن يملأن الغرفة من حولها، نساء متشحات بسواد الغربان، أنوفهم معقوفة وأنفاسهن كالفحيح، يفرضن حولها دائرة قاتمة، تقلب نظراتها بينهن وتتطلع إليه مستغيثة، يعطيها ظهره ويغادر الغرفة،

تضيق الحلقة من حولها، يدفعنها بأصابعهن الشبيهة بالمخالب للفراش، ترى سقف الغرفة يهتز، العالم كله يهتز، رياح باردة تدخل جسدها، تتخلل طيات الثياب، تفتح لها الأصابع المعقوفة المنافذ، تصيبها برعدة ورجفة توشك أن تجمد الدم في عروقها، تزحف بين فخذيها، تتقلص عضلات جسدها، تحاول أن تبعدها، ولكن الأصابع مخولة للغوص بين طيات لحمها، أصواتهن خليط من الفحيح والضحكات المتواطئة، ورائحة زنخة تفوح من ثيابهن، كأنهن اكتسبن هذه الرائحة من الغوص في لحم الأخريات، تغمض عينيها حتى لا ترى وجوههن، ولكن الدموع تنساب رغمًا عنها، ستصل إليهن جميعًا، ستقطع كل هاتي الأصابع، مهما قلن لأخيها.. تبتعد رائحتهن أخيرًا، تضم ملابسها وتغطي لحمها العاري، تقفز من الفراش إلى باب الغرفة، تشاهدهن واقفات مع أخيها في نهاية الممر، يتحدثن وهو ينصت باهتمام، لن تهتم، تغلق الباب وتسده بالرتاج، لن يرغمها أحد على رؤيته مرة أخرى، الأمر فوق قدرتها، مهما بكت أو ارتجفت، هذه الإهانة فوق طاقة الاحتمال، لو لم يقتل هاتي القابلات في الحال فستعرف المدينة بفضيحتها، لقد استسلمت لهاتي القابلات لأنها أخذت على حين غرة، لن تستسلم بعد الآن، لن تدع أحدًا يأخذها على غرة بعد ذلك.

في منتصف تلك الليلة تجلس هادئة تمامًا، في كامل زينتها، كأنها عروس تتأهب للزفاف، تجلس أمام الباب الخلفي للقصر، خافضة الرأس لا تريد أن ترى أحدًا، أو يرى أحد انفعالات وجهها، لا ترفعها إلا حين يفتح الباب ويدخل رجل مقنع، يزيح اللثام يبدو وجه «الحسين بن دواس» بملامحه الحادة ولحيته المدببة، وعينيه المليئتين بالحيرة، يتأملها مندهشًا، حتى هذه اللحظة كان يظن أن في الأمر خدعة لاستدراجه للقصر، كان قد قاطع القدوم إليه، برغم أنه زعيم واحدة من أقوى القبائل المغربية، ويحمل

كل ألقاب التشريف، لكنه يفضل أن يبقى محتميًا بقلب قبيلته، لا يعرض نفسه لأهواء الحاكم ونوبات غضبه،ولكنه الآن لم يملك إلا أن ينحني ويقبل طرف ثوبها، يظل خافض البصر وهو يسمع صوتها:

ـ أعرف أنك لا ترغب في المجيء، لكنك تخليت عن حذرك واستجبت لدعوتي، وأشكرك على ذلك.

قال: لم أكن لأتجاهل رغبتك في المجيء إليك حتى ولو دفعت حياتي دون ذلك.

تشعر بالرضا لكلماته، صوته الرجولي الخشن يبدد الوحشة من الغرفة، ليس أمامها إلا أن تثق به، خيار أول وأخير، تطلب منه أن ينهض ليجلس مقابلها، تريد أن ترى وجهه وهو يستمع إلى كلماتها، لم تدرِ إن كان ما ستقوله سيبقيه متماسكا، أو يزعزعه من الداخل، تقول ببطء:

ـ لم أبعث إليك إلا لأمر جلل، لتنقذ الخلافة التي صنعها أجدادنا من الانهيار.

يقول في بلاهة: هل سيهاجمنا الروم؟

تقول: العدو أقرب إلى رقابنا، سيوفه مستعدة لبترها في أي لحظة، كل شيء يهوي، وهو يدفعنا جميعًا إلى حافة الهاوية، وما لم نوقفه فسنسقط جميعًا معه.

يدب الخوف في قلبه، يبلع ريقه متسائلًا:

ـ لعلك لا تعنين الإمام.. إنه معصوم.

تحدق فيه بعيون باردة، تغوص من ملامحها أي أثر للرقة، تقطع عليه حبل التردد:

ـ كل شيء قابل للقتل.. الحاكم أخي ولكنه عدوي، مولاك ولكنه

قاتلك، هو الذي يبقيك محبوسًا داخل قبيلتك، لو لم تطع كلامي وتصل إليه أولًا، فسيصل هو إلى رقبتك، لقد وصلنا جميعًا لخط النهاية، ولو ترددنا لحظة فسيحل بنا الدمار، سأقتل أنا على فراشي، وستباد قبيلتك.

يحاول النهوض فلا يستطع، يدرك أنها محقة فيما تقوله، لن يصبر الحاكم طويلًا على مروقه، فقط ينتظر اللحظة المناسبة للوثوب عليه، ينظر إلى «ست الملك» التي تقف منتصبة أمامه، لقد وثقت به وأعلنت عن نواياها، فهل يثق بها؟ كيف يمكن أن يقدر أحد على هذا الأمر؟ تقرأ أفكاره وتعاود الكلام في صوت خفيض:

ـ لم يعد أخي يتسرب إلا خلال الظلمة، أطفأ أنوار المدينة وحرم السهر على الجميع، ولا يتجول إلا منفردًا، في كل ليلة يخرج من باب النصر إلى المقطم، لا يصحبه إلا اثنان من «المكارية»، يسير عبر القرافة الموحشة والصخور الناتئة، حتى يصل إلى المغارة التي يراقب منها النجوم، لا أحد يرافقه، حتى صاحب الشرطة يبقى داخل السور، لا يفتح أبواب المدينة إلا عندما يسمع دقات أخي مع أول ضوء للفجر. في هذه الرحلة يكون في أضعف حالاته، متفردًا ووحيدًا، الصخور الجرداء، وضوء النجوم البارد تجعله يفقد شراسته، هذه فرصتك، خلاصك وخلاصنا جميعًا.

يحاول مداراة رجفته، يرى لمعة عينيها كأنها خنجر متأهب للطعن، ما زال مترددًا، يقول:

ـ وإذا لم يقدر رجالي على فعل ذلك؟

تقول على الفور: بدلًا من أن تكون مدبرًا لدولتنا وأهلًا لثقتنا، سيكون عليك الاختباء والبحث عن ملجأ خارج هذا البلد.

تنظر إليه وكلماتها المفعمة بالوعد والوعيد معلقة في الهواء، لا وقت للتراجع أو التفكير أو التردد، داخل هذا الجسد الأنثوي إرادة حديدية

اتخذت قرارها، عليه أن ينفي لحظة التخاذل والجبن التي اعترته، يشد قامته أمامها ليثبت لها أنه الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه:

- متى تريدين تنفيذ هذا الأمر؟

يلوح على شفتيها شبح ابتسامة واهنة، تتطلع من النافذة، إلى بقايا قمر في السماء، تقول:

- عندما يختفي هذا الضوء الفاضح للقمر، ستكون هذه ليلتنا.

... تلك هي الليلة، تتألق النجوم أكثر مما ينبغي، يتأملها الحاكم من نافذة غرفته، حروف غامضة تحدد له خطوط المصير، وتبزغ وسط أفلاكها شهب ضالة، تشق ظلمة السماء على غير هدى، لا توحي بيقين ولا تبعث على طمأنينة، يسير إلى غرفة أمه، طفلًا ضعيفًا يبحث عن حضن آمن، ترى صفرة وجهه والعرق الذي يكسوه، تقول متوسلة: بالله عليك يا بني، لا تهبط هذه الليلة، لا يوجد قمر والظلمة كثيفة.

ولكنه يختنق وجبل المقطم يناديه، لا يشع في النهار سوى الصهد، ولكن هواءه يرق في الليل كأنما تهب عليه رياح من جنان بعيدة، يسري في عظامه شوق لبرودة الليل، يهتف شاعرًا بالاختناق: لا أستطيع البقاء، يجب أن أنزل.

لا يبالي بتحذيراتها، يقفون في انتظاره عند باب القصر، الحمار الأشهب، والمكارية، وصاحب الشرطة والحرس وحامل الطبلة، يوشك الليل على الانتصاف، تدوي دقة الطبلة الأولى، ترتج قلوب الرابضين خلف الجدران، تتواصل الدقات كأنها وجيب قلب، ينسحب آخر الساهرين، وتطفأ القناديل، وتضع الأمهات أيديهن على أفواه أطفالهن حتى لا يصرخن، والإمام يعبر الدروب الضيقة فوق حماره، تتوافق دقات قلبه مع إيقاع الطبلة، بوابة المدينة الحجرية مفتوحة، يمر بين الحراس في

صمت، يشير صاحب الشرطة لهم، فيزيحون الأبواب الخشبية المغلفة بصحائف من الصلب، تصدر مفاصلها صرخة في مواجهة صمت الليل، يتراجع الجميع ليبقوا خلف أسوار المدينة، ويصبح الحاكم وحيدًا، يمتد أمامها رمل وصخور متناثرة ودرب وعر يؤدي إلى قلب الجبل، وفوق رأسه سماء خالية من أي سحب، نجومها أكثر سطوعًا، وشهبها تتساقط خلف حافة الجبل.

يرتجف حين يلمح ذلك النجم الذي يشع ضوءًا مائلًا للحمرة، جذوة نائية، يتمتم لنفسه في يأس: ظهرت يا ملعون، لكنه لا يتراجع، قدره أن يواصل الصعود، يتعثر الحمار حتى يصبح غير قادر على التقدم، يهبط من عليه ويبدأ الصعود الصعب على قدميه، كان جائعًا، ولكن من الأفضل أن يظل هكذا حتى الصباح، حتى تصبح روحه أكثر رهافة، وأكثر تقبلًا لإشارات الليل وأرواحه الخفية، ما كان سيكون، كل المصائر، مبتداها ومنتهاها مسطوران على لوحة القدر، من ذا الذي يبدل ما كتب في يوم الخلق الأول؟ يمسك المكاري بالحمار، ويجلس على إحدى الصخور، سيظل هكذا حتى يهبط الحاكم.

يبرز القاتلان في تلك اللحظة، مقنعين وملتفين بالسواد، في أيديهما خناجر مغربية، معقوفة ولها سنون، كانا مأجورين، مكلفين بقتل الرجل الذي يركب الحمار الأشهب، لا يهمهما شخصيته ولا منزلته؛ لذا ترددا للحظة، وجدا الاثنين مترجلين والحمار وحيدًا، وفي لحظات يحسمان أمرهما، يطبق كل واحد منهما على أحد الرجلين، ينغرس الخنجران في جسدي الحاكم والمكاري، في الوقت نفسه، يصرخ المكاري في فزع ويحاول الهرب ولكن الطعنات لاحقته، ويظل الحاكم واقفًا في مكانه، يتلقى الطعنات كأنها قدره المحتوم، يسيل دمه أسود بلون الظلمة، يحاول التحديق في وجه قاتله، ولكن الأخير مشغول بإتمام عمله، يواصل الطعن

حتى يوهن الجسد الضخم. نصل السكين بالغ الحدة، يغوص في لحمه ويخرج منه دون مقاومة، يمزق جسده، يفتح فيه منافذ لخروج الروح، وأخيرًا لا يستطع احتمال المزيد، ولم يكن انسحاب الروح من داخل هذا الجسد الضخم سهلًا، انطرح على الصخور وهو يهتز في تشنجات غير إرادية، يطفر ما فيه من دماء، يستنزف تمامًا قبل أن يهجع ساكنًا، ينتهي القاتل الآخر من مهمته، ويسود سكون تام، يلتفت القاتلان ليجدا عيون الحمار الواسعة تتأملهما، أحسَّا أنهما على وشك الانفضاح، يشرعان السكاكين مرة أخرى فيحس الحمار بنيتهما، يعدو فيسرعان خلفه، لا مخبأ له وسط الصخور، يتقافز القاتلان فوقها كطيور جارحة، يحاول الحمار المراوغة في يأس، ينقضان عليه، يهويان طعنًا على جانبي جسده، يصدر نهيقًا متوجعًا ويحاول معاودة الجري، يهوي القتلة على قوائمه فيهوي على الأرض متفاجئًا ومستغربًا، ثم يغمض عينيه في خوف وألم، يسكت الشاهد الأخير، ويسود الصمت تلال المقطم.

تبلغ الشمس ذروة الظهيرة دون أن تفتح أبواب المدينة، يتجمع الفلاحون الوافدون خارج السور، والأهالي والتجار داخله، يصرخون طالبين فتح الأبواب دون جدوى، لا بد من سماع دقات الحاكم، يصعد الحراس إلى أعلى الأسوار، يستكشفون المكان بحثًا عن أثر، تسري الأخبار سريعًا إلى «ست الملك» فتبدو عليها علامات الدهشة والانزعاج، تصر على الخروج على رأس رجال القصر لمعرفة ماذا حدث، تتوقف حركة المدينة، خائفة ومتوجسة، لا يقدر أحد على إظهار مشاعر الحزن أو الفرح، تفتح الأبواب فلا يجرؤ أحد على عبورها، يفحصون الدرب الصخري المؤدي للجبل، آثار المقتلة واضحة، في أول الدرب وجدوا الحمار الأبيض وقد بترت قوائمه وتلوث لونه الناصع بالدم، والذباب يحط على جثته، بعد خطوات قليلة يجدون جثة المكاري مبقور البطن،

ثم يجدون ثياب الحاكم، ممزقة من أثر الطعنات وملوثة بالدماء، لكنهم لا يجدون جسده، يستدعي الأمر مزيدًا من الجند وقصاصي الأثر والكلاب المدربة، يفتشون كل المغارات، ويقتفون آثار الأقدام حتى انحدار الجبل عند دير حلوان، لا وجود ولا شهود، تعود «ست الملك» للقصر لتدبر أمور الدولة السائبة، تقبض على ناصيتها وتعيد التوازن بين الفئات المتصارعة، الجنود الترك والصقالبة والعبيد والقبائل المغربية، تقسم أمام الجميع أنها لن تهدأ حتى يعود أخوها من غيبته، كل من حاولوا قتله سيدفعون الثمن، قليل من الناس يصدقون أنه قابل للموت، ويعتقد القسم الأكبر أنه مختبئ في مكان، يجهز لانتقام دموي، وقسم ثالث يؤمن بخلوده وأنه قائم على الزمان، يخرج الدعاة التابعون له، يدقون صدورهم، يعلنون عن غيبة الإمام وينتظرون قيامته، تفي «ست الملك» بوعدها، تعلن أمام الجميع أن «الحسين بن دواس» هو مدبر المملكة، وأنها ستتوارى وراء الستر مرة أخرى. يركب «ابن دواس» في ضوء النهار، تحيط به حاشيته، يسير وسط الدروب والحواري حتى يدخل مزهوًّا إلى قاعة العرش، يشعر أنه ليس مدبر الدولة فقط ولكنه منقذها، وسيؤكد مركزه ويدعمه حين يطلب «ست الملك» للزواج، يتقدم منها وهي جالسة على كرسي بالقرب من العرش، تمتلك أبهة السلطة ودلائل العزم، لكنها لا تمتلك رجلًا. من المؤكد أنها في أمس الحاجة إلى جسد ذكر تضمه إليها، ما إن يقدم لها عرضه حتى يوقظ بداخلها كل أشواق الحرمان، سيسحق جسدها الجائع ومن خلالها سيحكم هذا البلد، وتحت الغطاء نفسه سيحافظان بصورة حميمة على سر مقتل الإمام، كان قد عمل حسابه وقتل القتلة المأجورين ولم يبقَ إلا أن يتقدم منها لينال جائزته، لا ينحني أمامها أو يقبل طرف ثوبها، ينتصب معتدًّا مدركًا قيمة ما فعله وأهمية ما يقدمه، تنهض واقفة وتقول بصرامة:

ـ مرحبًا بك يا مدبر الدولة، كنت جديرًا بهذا المنصب لو لا أن يديك ملوثتان بدم الأطهار.

يرتج على «ابن دواس» دون أن يفهم مغزى هذا الاستقبال، لا تترك له وقتًا للفهم أو الرد، ترفع صوتها عاليًا ليسمعها جنود الترك وحرس الصقالبة المتحفزون:

ـ هذا هو الرجل الذي قتل مولاكم الإمام.

يشهق «ابن دواس» وقد أخذ بغتة، قبل أن يستدير أو يعترض كانت السيوف قد برقت تحاصره وتنغرس في كل مكان من جسده، يتلقى أنواع الطعنات، لا تترك له فرصة حتى للاحتضار، تتأمله «ست الملك» وقد تلون جسده بدمه، قضي على آخر من يعلم السر، بعد ذلك لن يهددها أحد، وستكون لها الكلمة لها وحدها حتى يعود الإمام.. إن كانت له عودة!



كان قد لبث في الحكم طويلًا، ستين عامًا كاملة، تواصل عهده وامتد ظله حتى عبر حدود مصر إلى سهوب الشام، وجبال اليمن جنوبًا، ورفعت الخطب باسمه على منابر بغداد ومكة، وشهد أيامًا من العز لم يشهدها ملك من الملوك، أعقبتها أيام من الشدة، جفت فيها الضروع وفني الخلق، ثم شاخ عقله، ووهنت عزيمته، وانسحب ظله فلم يعد يحيط إلا ببقعة صغيرة حول القصر الذي يعيش فيه، وسبحان الذي يغير ولا يتغير.

العشر الأولى: سنوات الصبا

كان «المستنصر بالله» في السادسة من عمره عندما نودي به سلطانًا على مصر، أحاط به الوزراء والقادة الضخام الحجم، وكان العرش أعلى من أن يستطيع الوصول إليه، والحرس يهزون رماحهم ويدقون صدورهم في أصوات مخيفة، ألبسوه عمامة ضخمة، وعباءة واسعة أخذ يتعثر فيها حتى انكفأ على وجهه، ووضعوا له درجًا خشبيًّا حتى يصل للعرش، وبينما كان القاضي يتلوا كلامًا غامضًا، كان «معد» الصغير يدور بعينيه بحثًا عنها، عن وجهها الأسمر وطولها الفارع وشعرها المهوش كرأس نخلة، يتمنى أن تنتهي كل هذه المراسيم المتعبة لتأتي وتأخذه في أحضانها بعيدًا عن الضجة



والزحام، وعندما صاح القاضي معلنًا أنه قد أصبح سلطانًا على مصر، وأن لقبه من هذه اللحظة أصبح المستنصر بالله الفاطمي، لم يدرِ لماذا يغيرون اسمه، ولا لماذا ينحنون أمامه ثم ينسحبون دون أن يديروا ظهورهم له، ويواصلون التحديق فيه بنفس النظرات الغاضبة، وعندما أصبحت القاعة خالية أخيرًا خرجت هي من وراء الستر، وجهها الأسمر مشرق بابتسامة رائعة، فقز من فوق العرش وارتمى في أحضانها وهو يهتف:

ـ أمي، أنا خائف منهم جميعًا.

احتضنته وقبلت جبينه، كان هو كل أملها ورهانها الأخير، قالت:

ـ لا تخف، سنستعين بمن هو أقوى منهم جميعًا.. «أبو سعد التستري».

جسدها يرتعد وهي تردد اسمه، تتذكر لمساته الأولى على جسدها البكر، رعشات الرغبة والخضوع، كانت جارية صغيرة حين جاءوا بها من السودان، جسدًا أبنوسيًّا غضًّا وجائعًا، وعندما عرضت في سوق الجواري اشتراها اليهودي أبو سعد التستري بثمن بخس، رأى فورة الرغبة المختبئة في جسد طفلة تنتظر من يكتشفها ويفجرها، نضجت في فراشه، تحولت إلى أنثى مكتملة تحت أصابعه، أصبحت محظيته وجاريته الأولى، وفي ذات ليله أقبل الخليفة الظاهر لدين الله الفاطمي ليسهر في مجلسه، ورآها تغني وترقص وتقدم أقداح الشراب، لم يستطع أن يرفع عينيه من عليها، ظل يشرب من يدها ولا يرى إلا ابتسامتها، هلالًا منيرًا وسط سمرة وجهها، و أبو سعد يراقبه بأعين ماكرة، وعندما طلب منه الخليفة أن يبيعها له، قال:

ـ إنها هي هديتي لك يا مولاي، على أن تهديني أرضًا مقطوعة بجانب بركة «الرطلي».

وتمت الصفقة في نفس الليلة، ظفر الخليفة بالجارية السمراء، واقتنص اليهودي قطعة كبيرة من الأرض، بنى عليها بيوتًا لأهله وعشيرته سميت فيما بعد «حارة اليهود».

اليوم يعاود نجم «أبي سعد» الصعود من جديد، يدخل قصر الخليفة المستنصر مدججًا بجيش من الحرس والكتبة وكلهم من اليهود، تستقبله أم الخليفة بجسد مرتعد وتطلب منه أن يشرف على إدارة أملاكها، ولكنه وأتباعه ينتهزون الفرصة ويمدون أصابعهم إلى كل مكان تتدفق منه الأموال، الضرائب والمكوس والجبايات، يبحثون خلف أموال الخليفة، وأنصبة العسكر، وريع القرى والدساكر، وبدأ الحنق يتصاعد لدى وزير الدولة «العلاجي» ولدى القادة القدامى من الترك والمغاربة، أدركت أم الخليفة ذلك فأنشأت حرسها الخاص، كلهم من السودانيين، يدينون لها بالولاء المطلق، وأطلقت عليهم الحرس الملوكي، وأضافت بذلك سببًا آخر إلى غيظ القادة و النزاعات المستمرة، وكان الخليفة الغلام آخر من يعلم بالجمر المضطرم تحت الرماد. في أثناء الاحتفالات بسفر الحجيج إلى مكة، سكر الجنود من كل الألوان، شهروا السيوف وبدأ القتال بين الترك والعرب واليهود والمصريين والسودانيين، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد قتل جمع هائل بمن فيهم أبو سعد التستري نفسه، وأحست السيدة السوداء بالحنق والغضب، وبدأت في الإعداد للانتقام من جديد.

العشر الثانية: سنوات النضج

كانت سنوات هادئة، ولكن جسد الخليفة كان مضطرمًا، بلغت الدولة أقصى حدها من القوة والمنعة والثراء، ولكن قوته ظلت ناقصة، ظلت أمه تحرك الجميع من خلف الستر، تملي أوامرها، وتختار عشاقها دون أن

يجرؤ أحد على معارضتها، وكان المستنصر يلقي على وزيره الأكبر أوامر متضاربة ومتناقضة ولكنها في الأغلب لم تكن تنفذ، كان كل شيء متاحًا أمامه ولكنه لم يدرِ ماذا يريد، إلى أن رأى «شاهي» أمامه، امرأة فارهة، لم يرَ أحدًا في جمالها، كانت زوجة «معز الدولة» والي حلب، لم يذهب المستنصر إلى مدينتها، ولكنها هي التي جاءت إليه بمفردها بعد أن تركت زوجها يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مدينته المحاصرة.

حين دخلت إلى قاعة عرشه أدهشها بياض المرمر الذي يكسو الأرض، حسبت أنها سوف تخوض في بركة من المياه، رفعت ثوبها وكشفت عن ساقيها، بلقيس جديدة، شامية وناصعة البياض، ليست بسواد أمه القاتم، وقفت أمام عينيها فرأى صفاء عينيها وسبائك شعرها، قالت وهي تحني رأسها:

ـ مولاي.. أرسلني زوجي لأعرض عليك السلام.

ولكنها زادت من اضطرابه، كان زوجها قد حاول أن يستقل بولايته عن سلطة الخليفة، واشتعلت بينهما حروب لا تنقطع، وبرغم أن «معز الدولة» قد استعان بالعباسيين وبملوك الروم، فإن جيوش المنتصر كانت له بالمرصاد، حاصرت مدينته ودكت أسوارها وأخذت تطلب رأسه، ولم تجد الزوجة الشهية والوفية من سبيل إلا أن تقطع الصحراء وتقتحم أسوار قصر الخليفة لتنقذ حياة زوجها.

كيف يمكن رفض طلبها أو رد وساطتها، طلب منها المستنصر بصوت منبهر أن تنزل على قصره ضيفة عزيزة، ووعدها بأن يبعث برسالة عاجلة لقائد جيشه حتى يتراجع عند أسوار حلب، وأفرد لها مكانًا خاصًا في الحريم، ظل مذهولًا في مكانه على العرش، وعندما جاءت أمه لتستجلي الخبر لم يطق النظر لوجهها الأسمر المليء بالتجاعيد.

في منتصف الليل ذهب إلى غرفة «شاهي»، وجدها نائمة تحت ضوء القمر، أكثر بهاء من ضوء النهار، نهضت فزعة وهي تقول:

ـ مولاي، ماذا سيقول زوجي؟

جذب رداءها وهو يقول: هو الذي أرسلك إليَّ.

كانت هذه تجربته الحقيقية التي لم ينسها قط، ونقطة تحوله أيضًا، لم يكتشف فقط الرجولة الكامنة في جسده الغض، ولكنه مدى السلطة المطلقة التي يتمتع بها، كان أول ما فعله في الصباح أن أمر أمه أن تتوارى داخل الحريم، وأن تكف عن إلقاء أوامرها للوزراء والقادة، وأن ينزع منها لقب السيدة صاحبة المقام، وأمر قائده «ناصر الدولة الطفيلي» أن يطارد كل السودانيين المسلحين من بقايا جيش أمه، وأن يدخل كل اليهود إلى حارتهم، ارتفع صوته عاليًا ونافذًا وآمرًا للجميع، كانوا يعلمون بزياراته الليلية لزوجة الوالي، ولم يتصوروا أن يدخل غرفتها غلامًا مراهقًا ويخرج رجلًا ناضجًا شديد الثقة بالنفس.

كانت مهمة «شاهي» كرسوله قد طالت أكثر مما ينبغي، وأدت من المهمة أكثر مما هو متطلب؛ لذا فقد أعلنت للمستنصر عن عزمها العودة إلى زوجها، ولكنه هتف بها:

ـ ولكن زوجك هنا؟

وعندما نظرت إليه في دهشة، سحبها من يدها وسار عبر ممرات طويلة، هبط بها فوق سلالم زلقة، وأدخلها إلى نفق رطب ومظلم، شهقت من الرعب، كان زوجها فعلًا في انتظارها، ولم يكن باقيًا منه إلا رأس معلق على سن رمح.

العشر الثالثة: سنوات القوة

من فوق كل المنابر، من نهر سلا بالمغرب إلى شط العرب بالعراق، ارتفعت الدعوات بنصرة الخليفة المستنصر، كان في عنفوان شبابه، والدولة في أوج قوتها، لا ببأس جيوشه فقط، ولكن بواسطة أتباعه الذين كانوا يواصلون نشر دعوته، استطاعوا أن يصلوا إلى بغداد، وأن يستولوا على عاصمة العباسيين للمرة الأولى، واضطر الخليفة المقتدي بالله للهرب باحثًا عن نصير وسط الأتراك السلاجقة. ارتفع الدعاء باسم المستنصر فوق منابر الحرمين في مكة والمدينة، ووصلت أصداؤه إلى جبال اليمن، لم تكن في الأرض كلها ـ في ذلك الزمن ـ دولة تضاهي قوته، ولا ملك في جاهه وسلطانه، ولا رخاء كالذي حدث في عهده، ولم ينسَ الناس تاريخهم الطويل مع الجوع والشظف إلا في تلك الأيام، ولكن هذا لم يدم طويلًا؛ لأن النيل كان قد بدأ يغضب.

العشر الرابعة: سنوات الشدة

غاض النيل، حان وقت الفيضان ولكن مياهه ظلت ساكنة أسفل الضفاف؛ مياهًا فاترة رخوة، لا تحمل تلك الحمرة المتوهجة التي يكتسبها النيل من تفتيت صخور الحبشة البركانية، ولا تتدفق بالغزارة التي تستمدها من بحيرات الزنج، كانت أعجز من أن تصل إلى الأرض التي امتلأت بالبذور واستعدت لاستقباله.

لم تأتِ السفن من الصعيد حاملة الغلال، وسحب التجار كل ما كان معروضًا منها في الأسواق، وتضاعفت الأسعار بين ليلة وضحاها، ولكن كانت هناك بقية من رخاء فائت، أحس الناس أنهم يستطيعون المقاومة حتى تنتهي تلك الغضبة المؤقتة للنهر، وحتى السلطان نفسه، لم ينتبه لما أصاب

النيل، كان مشغولًا بالصراع مع وزيره ناصر الدولة؛ النجم الجديد الصاعد الذي قمع السودانيين وقتل والي حلب، وأعاد اليهود إلى حارتهم. كانت أم الخليفة هي أيضًا التي اكتشفت مواهبه، أعجبها لون جلده الشاحب، وعيناه الملونتان، فقربته أكثر مما ينبغي، فتحت أمامه خزائن الدولة الممتلئة فأخذ يغرف منها، ولكن المستنصر كان قد سئم منها، من تقلب أحوالها وكثرة عشاقها، كان يعرف أن معركته معها خاسرة، فكلما تقدم بها العمر ازدادت تلهفًا على الجنس؛ لذلك قرر أن يشق جيش ناصر الدولة من حوله، فالجند يتبعون دائمًا قائدًا أوحد هو الذهب؛ لذا بذل منه الكثير، انشق جزء كبير من الجيش وتخلى عن الوزير، وخاض المستنصر أولى معاركه في مواجهة عشيق أمه وانتصر فيها، ولكنها لم تكن هزيمة نهائية، فقد هرب ناصر الدولة للإسكندرية وأخذ يستعد للمعركة القادمة.

وفي العام التالي النيل غاض أكثر، ظهرت القيعان الطينية للترع والرياحين، وانكشفت بقايا عظام الغرقى من حيوانات وبشر، كأنها تحذرهم من الكارثة القادمة. اشتدت أيام الجوع، توقفت الأفران عن العمل، وارتفع ثمن الرغيف الواحد في حارة القناديل إلى ١٥ دينارًا كاملًا، وخلت مخازن الخليفة من الغلال فهبط جنوده يضربون الناس في الطرقات ويخطفون ما في أيديهم من أقوات، أصبح هناك سعر للقطط والكلاب، من ظفر بها فقد ظفر بوجبة شهية وتم القضاء على جميع الخيل والبغال والحمير.

ظل النيل يغيض، نامت الطحالب على حصى القاع صفراء واهية، وبدأ المصريون يأكلون بعضهم البعض، بلا تردد ولا اشمئزاز ودون ضغينة، كانت هذه هي المرة الأولى وربما لن تكون الأخيرة، في البداية كانوا يستدرجون الأطفال والنساء إلى أماكن خالية ثم يقومون بذبحهم وبيع لحومهم، ثم أصبحوا أكثر جرأة، فأخذوا يقفون على أسطح المنازل

وهم يمسكون بحبال مربوطة في نهايتها كلابات من المعدن، يلقونها على المارة ويجذبون أجسادهم العالقة، حتى الخليفة نفسه أصابه الفقر والمجاعة، حاصره الجنود وأخذوا ما يقدرون عليه من نفائس قصره وهو عاجز عن ردهم، ثم هبط بنفسه جالسًا أمام القصر وقد كوم خلفه الأشياء الثمينة التي تركها له أجداده من سيوف ودروع مرصعة بالجوهر وأطباق من الذهب والفضة، ثياب وعباءات مطرزة بالذهب وخيوط الفضة، وهو يقول باكيًا:

ـ من يأخذ هذا مقابل رغيف من الخبز؟ من يتصدق على خليفة المسلمين؟

ونهبت مكتبة القصر التي كانت تحتوي على آلاف المجلدات، مزق الجنود الترك أوراقها ونثروها، وأخذوا أغلفتها الثمينة وجعلوا منها نعالًا لهم، خرجت نساء الخليفة هائمات على وجوههن، مكشوفات الرأس حافيات الأقدام، يستجدين الجميع ولو كسرة من الخبز، وعندما سقطن على الأرض من فرط الإعياء كان الجوعى في انتظارهن، وكانت هناك حارة في الفسطاط فيها عشرون بيتًا من أجمل بيوت القاهرة، بيعت كلها في مقابل طبق من الخبز، وسميت حارة الطبق حتى الآن، وهبطت سيدة من الأشراف من بيتها وحلت عقدًا من الجوهر كان حول عنقها وهي تناشد الجميع من أجل رغيف من الخبز في مقابل كل هذا الجوهر، ولكن لم تجد من هو على استعداد لمبادلتها، فألقت العقد وهي تقول: إذا لم تسد رمقي، فما فائدة أي جوهر؟ وسارت ذاهلة، وظل العقد في مكانه على الأرض لأيام عديدة دون أن يأبه به أحد.

وجف النيل أكثر حتى انشقت القيعان، فانتشر الوباء، امتلأت البيوت والقصور والمساجد والطرقات والأزقة بالموتى، في كل يوم كان يموت

أكثر من عشرة آلاف نفس جوعًا ومرضًا، لم يكن هناك من يقدر على دفن أحد، وركضت الفئران تنشر الطاعون في كل مكان، وأُفرغت قرى ومدن بأكملها من كل ما فيها من بشر وحيوان، تحولت إلى مقبرة مفتوحة لا يسمع فيها إلا دبيب الفئران ولا يشم غير رائحة العفن.

وعندما جاء ناصر الدولة أخيرًا من الإسكندرية لم يجد من يقاومه أو يواجهه، سار هو وجنوده وسط طرقات مليئة بالموتى، ودخل قصر الخليفة فوجده خاويًا ومعتمًا، لا يوجد به حارس واحد، دخل إلى الطرقات الممتدة، رأى الغرف كلها خالية، بلا أثاث ولا رياش، قاعة العرش كانت بلا عرش، وكان الخليفة يجلس على قطعة متهرئة من سجادة رومية، وليس أمامه إلا رغيف واحد من الخبز تصدقت به واحدة من أقربائه، وكانت عظامه بارزة ونظراته ذاهلة، ولم يدرِ من الذي يقف أمامه.

العشر الخامسة: سنوات البعث

استيقظ النهر أخيرًا، جاء حاملًا مياهه الحمراء المتوهجة، ارتفع حتى فاض على الضفاف، ولكن لم يكن هناك من يغرس أو يزرع، القرى خالية والسواقي صامتة، والأرض السوداء التي تهيأت وتغطت بالطمي تنتظر من يشقها ويخرج ثمارها، كان السيد الصامت الموت ما زال يفرض سطوته على الوادي الممتد، لأكثر من عام، والنيل يفيض ثم يغيض دون أن تدور ساقية، أو يشق باطن الأرض محراث.

ثم حدثت المعجزة المصرية التقليدية، ظهر الفلاحون، بذور الخلق الأولى، سر البقاء في هذا الوادي الصعب، الذين لا يملكون ولا يحكمون، ويمارسون إعمار الأرض بفطرة وتلقائية. ظهر قلائل منهم، الذين نجوا من

الجوع والوباء، خطوا على الأرض كأنها خطوات بدء الخليقة، دفنوا موتهم ورمموا ترعهم وأصلحوا سواقيهم وأخذوا يغرسون بذور القمح والذرة والشعير والكتان، صنعوا تلك اللمسة السحرية التي كانت دومًا تنقذ سكان الوادي من الانقراض، وتمكنهم من مقاومة الغزاة والأوبئة والفياضانات وعسف الحكام، وعلى مدى آلاف السنين، في كل يوم كدأبهم، كانت أجسادهم تتشرب ندى الفجر ولا يجف عرقهم إلا مع غياب آخر ضوء، بدأ الوادي يبعث من جديد.

أما في القاهرة فقد كانت الصراعات ما زالت محتدمة حول قصر الخليفة، لم تهدأ إلا بعد أن قتل ناصر الدولة ـ كالعادة ـ على يد واحد من أقرب الناس إليه، ثم أقبل حاكم عكا القوي بدر الدين الجمالي كي يهزم كل فلول المتمردين ويعيد بناء القاهرة المخربة من جديد.

أخيرًا.. العشر الأخيرة

كان السلطان جائعًا، وسيظل جائعًا، انتهت أيام الشدة ولم يغادر جسده وخز آلام الجوع، تكاثرت الغلال، وامتلأت الأسواق بالدواجن والزبد والجبن وسلال البيض، وعادت الحيوانات الضالة للتجول في الحواري، وتبادل الجيران الذين أكلوا لحم بعضهم البعض نظرات خجلى دون لوم أو عتاب، ولكن الخليفة ظل يستيقظ في منتصف الليل وهو يصيح:

ـ أنا جائع، أنا ميت من الجوع.

وفي البداية كان الطباخون يسرعون بإيقاد النار، وتدب الحركة في المطابخ السلطانية، يعدون سماطًا ضخمًا، ولا ينسون أطباق الفاكهة والحلوى، ولكن ما إن يأكل الخليفة لقمة أو اثنتين حتى يتقلص بطنه،

ويحتقن وجهه ويتقيأ كل شيء، ثم لم يعودوا يأبهون بصراخه، كانوا يعرفون أنه سيظل يتلوى من ألم الجوع حتى يأتيه رغيف الصدقة، كانت قريبته ما زالت تواصل إرساله، كانت هي اللقيمات الوحيدة التي تتقبلها معدته وتستقر في بطنه، كان يهدأ قليلًا، ولكن ما إن يشاهد الأسمطة التي يحتشد بها القصر، ويشم رائحة الطعام القادمة من المطابخ حتى تتلوى أمعاؤه ويعود للصياح من جديد: أنا جائع.. و تتواصل دورة الصراخ والبكاء.

وأخيرًا يموت المستنصر جائعًا بعد أن أطال البقاء، وتثاقل ظله فوق أرض الله وعباد الله.



حضر السلطان «صلاح الدين» كعادته بعد صلاة العصر، كانت حرارة الشمس قد هدأت قليلًا، و لم يهدأ العمل في موقع البناء، كانوا يعرفون أن هذا هو موعده اليومي لزيارة الموقع؛ حينها يتصاعد توتر مشرف البناء «بهاء الدين قراقوش» إلى قمته، ويتحفز الحرس كأنهم على استعداد للاشتباك مع أسرى الفرنج والعمال العاديين، تقدم السلطان وحيدًا كعادته، صعد بجواده التل الموازي لجبل المقطم، ظل واقفًا يتأمل مئات العمال الذين يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس، وأعمدة الغبار التي لا تكف عن التصاعد، وتكسو العمال والحفارين والبناة بطبقة هشة بيضاء، حدق السلطان في وجوههم، جميعها متشابهة خلف قناع الغبار الأبيض، هل تقدر هذه الوجوه المتعبة على أن تبني له حصنًا آمنًا، أم إن الخوف الذي يطل من عيونهم سيربض في مداميك الأسوار إلى الأبد؟ الأعداء كثيرون، الفرنجة في الشمال، وبقايا الفاطميين في الجنوب، وحتى الحشاشون القادمون من سهوب آسيا، ربما يوجد ملاذ آمن، بعد أن يتم بناء هذه القلعة، ولكن متى يحدث ذلك؟ كان العمال لا يكفون عن قطع الأحجار من جسد الجبل، حتى امتلأ بفجوات غائرة كعيون مفزوعة، ثم يجرونها منحدرين بها على السفح، قبل أن يتسلمها منهم آخرون يقومون



بنشرها وتسويتها، وعلى الجانب الآخر في اتجاه النيل، لا تتوقف قوافل البغال وهي تجر الأعمدة والكتل الحجرية التي تم اقتلاعها من المَعابد الفرعونية قبل أن تحملها المراكب من أعماق الصعيد، كانت القلعة تلتهم كل ما يصل إليها من أحجار ولا يبدو أنها في طريقها للاكتمال.

أقبل بهاء الدين قراقوش مسرعًا، تقافز فوق الصخور بقامته القصيرة وجسده المكور، انحنى أمام السلطان يقدم احتراماته، أخذ يسرد عليه ما تم إنجازه لهذا اليوم، أشار لأسرى الفرنجة الذين يحفرون الأساسات، و للصعايدة الذين يقيمون الأعمدة الفرعونية وللفلاحين الذين يحفرون بئرًا عميقة بحيث تستقي مياهها مباشرة من ماء النيل، ولكن السلطان قال له في صوت باتر:

ـ أريدك أن تبني سجنًا.

لم يستطع قراقوش أن يمنع نفسه من القول:

ـ سجن.. بالطبع يا مولاي سنفعل ذلك، ولكن لم يكتمل أي شيء بعد، لا الأسوار ولا التحصينات ولا أماكن الإقامة و...

قال السلطان في إصرار: ابنه في أي مكان.. ابدأ به أولًا.

ولم يملك قراقوش إلا أن ينحني طائعًا، أدار السلطان عنان جواده وتحرك منصرفًا، ظل قراقوش واقفًا متحيرًا وهو يقول لنفسه:

ـ أي سجن هذا؟ وأي سجين ينتظره؟ لا بد أنه أخطر عدو يواجهه السلطان.

جمع معاونيه بسرعة، فردوا الأوراق والرقع المرسوم عليها مخططات القلعة، وأخذوا يحاولون تحديد أي المواقع أكثر مناسبة لهذا السجن الجديد.

في تلك اللحظة كان السجين يعبر الصحراء، اختفت سهول فلسطين وقبلها رحلت روابي الشام، وتباعدت البيارات وأشجار الزيتون، لم يبق ممتدًّا أمامه إلا رمال جافة وصخور قاحلة، متاهة إلهية يبدو فيها الأفق أشبه بخط رفيع على وشك التبدد. كان يسير في المقدمة راكبًا بغلة، وخلفه الحرس فوق جيادهم يتابعونه بعيون ثاقبة، ما زال في أواسط العمر، ولكن التعب والإنهاك تركا على ملامحه تجاعيد غائرة، طالت لحيته وتمزقت ثيابه، وفاحت من جسده رائحة العطن التي تراكمت في برودة الزنازين، كان قادمًا من سجن متوجه لآخر، لا يفصل بين أسوارهما إلا هذه الصحراء، ولكن أحدًا من الحراس لم يكن يرى تلك الابتسامة الراضية التي لا تكاد تختفي من على وجهه، برغم الجوع الذي يمضه، والقيد الذي يدمي معصميه، كان سعيدًا بذلك العبور الشاق، وبسيره المتواصل على حافة العدم، كأن روحه القلقة تتوق إلى أفق جديد فيه السكينة والخلاص، كان جسده مثل فلك سابح في السموات، كل نقطة يقصدها يفارقها، في سعي دائم نحو ينابيع النور والمعرفة.

منذ أن شب في مدينة سهرورد وسط جبال فارس وقد بدأ في الترحال عبر السهول والقفار المختلفة، لا يتوقف إلا في أول مسجد يصادفه، ولا يتمهل حتى ينجذب إليه الناس، كانوا قد ألفوا هؤلاء الرحالة الذين لا يلبسون إلا خرقًا من الصوف ولا يأكلون إلا النزر اليسير من الطعام، وتكسو وجوههم هالة من المهابة لا تخبو، لكن الصحراء التي يعبرها الآن كانت مختلفة، لم يرَ مثل هذا التيه الموحش، ضاع فيه قوم موسى أربعين عامًا أو تزيد، لكنه كان موقنًا أنها ستؤدي به حتمًا إلى نهاية العالم، حيث تظهر أمامه «جبال قاف»، إحدى عشرة قمة تحيط بالعالم من كل الجهات، ولا يمكن اختراقها إلا بعد أن تشف النفس وتتحلل من كل الأوزار وتحل في الكون الأعظم.

من الخلف سمع صوت أحد الحرس صائحًا:

ـ يا شيخ سهروردي، سنتوقف ونقضي الليل هنا.

كان الأجدى أن يسيروا في برد الليل، ويرتاحوا في أثناء قيظ النهار، ولكن من يجازف بالسير في ظلمة هذه الصحراء، كانت الشمس تغرب، ولا يوجد إلا بضع من أشجار السدر المتناثرة، لا تصلح كمأوى، ولكنها كافية لتشعر المرء بالأمان وسط هذه الفلوات المفتوحة، ساعد الحرس الشيخ على النزول، فكوا قيود معصميه، وانتهز واحد من الحراس فرصة نزول العتمة وتجرأ على النظر في وجه السهروردي أخيرًا، قال له:

ـ مطلوب منا أن ننقلك إلى سجن آخر، لا أن نميتك جوعًا، فهل تكرمت وقبلت بعضًا من زادنا يا شيخ؟

قال: بوركت يا ولدي، تكفيني كسرة من خبز ورشفة من ماء.

قال الحارس: ولكن هذا ليس كافيًا لرحلة بتلك المشقة.

قال السهروردي:

ـ الجوع ليس مشكلة يا ولدي طالما أديم التفكير في هذا الملكوت، فكلما خضعت نفسي، وسهرت الليل خاشعًا ومتملقًا لله، أتت إليَّ خلسات لامعة كالبرق، فتأخذني إليها، تغيبني فيها، فتبسطني ثم تطويني.. لم يفهم الحارس شيئًا، بدت كلمات الشيخ صعبة المنال برغم رقتها وعذوبتها. بدا بريئًا بعض الشيء برغم يقين الحارس من أنه مذنب ويستأهل العقاب، فضل أن يبتعد، وترك الشيخ وحده يتأمل هبوط الليل.

ما زال هناك الكثير من الفلوات على السهروردي أن يقطعها قبل أن يصل إلى تلك المدينة البعيدة «القاهرة»، تباعدت الشقة بينه وبين جبال فارس، في البداية هبط إلى أصفهان ليتعلم دروس الفقه وأصول الشريعة،

واتسع عقله في أروقة المساجد، وسط الأرفف المزدحمة بعشرات الكتب والمخطوطات، وحتى في أثناء تعليمه لم يكن يكف عن السير والتجول فقد كان أستاذه «الفخر الرازي» هو شيخ المشائين، لا يكف عن المشي بين الأروقة وهو يحدث تلاميذه في أعوص المسائل الفلسفية، تمامًا كالأستاذ الأكبر «ابن سينا» الذي استمد أسلوب فلسفته من «أرسطو» المعلم الأول، تعلم من هذه اللحظة أن المعرفة لا تتراكم إلا من خلال الحركة، وكلما زادت المعرفة تضاعفت الأسئلة، وكل إجابة تولد سؤالًا جديدًا، وعندما أعيت مساجلاته وكثرة أسئلته أستاذه «الرازي» هتف به:

ـ ابحث عن أسئلتك في هذا العالم الواسع، فلن تعطيك إجاباتي إلا معرفة غاية في الضيق.

من أصفهان صعد إلى هضبة الأناضول، تقابل مع متصوفة «ديار بكر»، تعلم منهم أن عليه أن يقضي الليل كله ساهرًا حتى يرصد إشارات الكون ودوران الأفلاك، وفي «مارديني» انقطع للعبادة في صوامع الزهاد، وشارك الدراويش في ابتهالات الليالي الطويلة كلما بزغ قمر جديد، ثم انحدر بعد ذلك مع مياه نهر الفرات التي تندفع تياراته في اتجاه واحد، حيث تكون العودة مستحيلة. تجول في ساحات دمشق القديمة التي كانت تعلق الجراح بعد حروبها الطويلة مع الصليبيين، وجلس تحت أقدم عمود في المسجد الأموي، التف حوله المريدون والمستزيدون من العلم، ومن هناك وصل صيته إلى حاكم حلب؛ الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين، طلب منه أن يزوره حتى ينتفع بعلمه ويدخل في رعايته وحمايته، هل كانت استجابته لطلب الملك هي خطأه الأكبر؛ غواية مصاحبة السلطان التي جعلته يغير دروب رحلته، أم أخطأ حين غير خرقة الزهاد بعباءة الحكام؟

تأخر الليل وما زالت المشاعل موقدة في موقع البناء، واصل العمال نقل الأحجار وهم يسيرون نيامًا، تعالت أصوات غليان مراجل القطران، وانبعث الصهد من أكوام الحجر الجيري التي يتم إطفاؤها بالماء، وظل قراقوش ساهرًا وحوله كبار المعماريين ورؤساء طوائف البناء، كان يفكر في السجين والسجن الذي سيبنيه خصيصًا له، من هو؟ أحد قادة الفرنج؟ يجب إذن أن تكون الأسوار عالية وسميكة لتقاوم أي هجوم محتمل يقوم به جنودهم، أم متمرد من بقايا الفاطميين؟ هؤلاء لا يمكن ردعهم إلا بحفر نفق طويل تحت الأرض يدخلون فيه ولا يخرجون أبدًا، هذا يتفق وطبيعتهم في الاختفاء، أم فدائي من الحشاشين؟ الأفضل لهذا النوع أن يكون السجن حارًّا وخانقًا، ليتناقض مع جو سهوب آسيا الباردة التي يجيئون منها، فلا يقدر على التفكير ولا السعي للهرب.

كان قراقوش يريد إرضاء السلطان، ولكن المشكلة أنه قليل الخبرة في بناء السجون، فبالرغم من أنه أنشأ العديد من الأبنية، فإنه لم يكن بينها سجن جديد، فالسجون دائمًا ما تكون موجودة، جزءًا من تضاريس الطبيعة، كالجبال والمغارات والأنفاق، راسخة ورابضة ومتجهمة كدأبها منذ آلاف السنين، لم يقابل معماريًّا يزعم أنه أنشأ سجنًا من العدم، ربما زاد فيه أو عدل فيه أو أحكم منافذه، ولكنها كانت دائما موجودة قبله وسوف تظل حتى ينتهي العالم.

ظل يفكر حتى أصبح غير قادر على التفكير، والجميع يتطلعون إليه في صمت، قال أخيرًا:

ـ فلنجعله سجنًا واسعًا بعض الشيء؛ حتى لايظن السجين أن هذا قبره ونهاية حياته، فربما أفرج السلطان عنه، تكفيه نافذة صغيرة في أعلى

الجدار، تمنحه بعضًا من الضوء دون أن تعطيه الأمل، ولايجب أن يرى السماء حتى لا تنتابه الرغبة في الفرار والانطلاق، ولتكن الجدران عارية بلا طلاء حتى يحس بمدى خشونتها ويتحسر على نعومة الحياة خارجها، ولتكن الأرض جرداء لتسير الهوام والديدان بين أقدامه فيتعلم منها معنى الضعة والخذلان.

وانطلق الجميع ليجهزوا السجن بالمواصفات التي طلبها.

عندما وصل السجين إلى مشارف القاهرة كان الظلام سائدًا، ولكن المدينة بكتلها العملاقة بدت كحيوان رابض في جوف الظلمة، تحدق فيه مصابيح واهنة البريق، وترتفع ظلال عشرات المآذن، ملأ السهروردي صدره من عبق المدينة، خليط من روائح الرطوبة ومياه النيل والبرك والشجر ونفايات الناس، أخيرًا وصل إلى المدينة التي سمع عنها كثيرًا والتي ستكون نهاية مطافه، سيتمشى في أروقة الجامع الأزهر حتى تتعب قدماه، ثم يجلس في ركن من أركانه ليناقش أئمة المذاهب الأربعة، سيصعد للتكايا المتناثرة على جبل المقطم، ويتأمل حركة الأفلاك ويعرف كيف يستدير الزمن، كان يجب أن تكون الرحلة بهذه المشقة حتى تستحق عناء الوصول لهذه المدينة، كان متأكدًا أن محنته هذه سوف تزول وتفك القيود من حول معصميه فور أن يراه السلطان صلاح الدين، سيتأكد من صدق كلماته ويدرك كذب الوشاة وافتراءاتهم، وسيمنحه الحرية، وفرصة العيش في المدينة، اقترب منه الحارس وهو يمسك في يده عصابة سوداء، قال بنفس اللهجة المعتذرة:

ـ المعذرة ياشيخ سهروردي، إنها الأوامر، يجب أن أعصب عينيك قبل أن تدخل إلى المدينة.

قال الشيخ في شجن حقيقي:

ـ تريدون أن تحرموني من الرؤيا التي طالما تشوقت إليها، لا بأس سأرى المدينة بقلبي.

في هذه الليلة لم يستطع السلطان «صلاح الدين» النوم، كان متعبًا، أحس أنه خاض من الحروب ما يكفي لأعمار عدة رجال مجتمعة، وفي كل مرة كان يعتقد أنها الحرب الأخيرة، ولكن اللهب الكامن تحت الرماد كان يتقد من جديد، كل ما يتوق إليه هو أن ينتهي من بناء هذه القلعة؛ حتى يهجع بين أسوارها التماسًا للأمان، لليلة من النوم العميق، ولكن كيف يتحقق هذا، وتلك الجيوش الجَرَّارة لا تني تتجمع في سهول أوربا الباردة، منذ أن هزمهم في حطين، وطردهم من القدس، وهم لا يكفون عن الصراخ طلبًا للثأر؟ سمع صوت طرقات على الباب، من الذي يجرؤ على القدوم لغرفته في هذا الوقت المتأخر؟ لا بد أن هناك كارثة ما قد استدعت إقلاق راحته. نهض واقفًا، فتح الباب لم يظهر الخادم المخصص لخدمته، كان القادم شابًّا هزيلًا أشبه بطيف، يحمل ملامح صلاح الدين نفسها ولكن أكثر شبابًا، حدق فيه صلاح الدين في دهشة:

ـ أيها الفتى الغريب، ما الذي جعلك تترك مملكتك وتتسلل هكذا متخفيًا تحت الليل؟

أمسك الشاب بيد السلطان وحاول أن يقبلها، ولكنه أنهضه بسرعة وأخذه في أحضانه، اكتشف أن جسده كله كان يرتجف، كأنه قد عاد طفلًا صغيرًا يلتمس الأمان في أحضان أبيه، قال له:

ـ اهدأ يا بني، اهدأ أيها الملك الظافر، ما زلت طائشًا كالعهد بك، لا أتصور أن تترك مملكتك وتأتي هكذا مهما كان السبب.

قال الملك الظافر: جئت من أجل إنقاذ حياة إنسان يا أبي، شيخ جليل، استقدمته إلى حلب ومنحته الأمن والرعاية، ولا يجب أن أنكث بوعودي.

قال السلطان من بين أسنانه: وانظر ماذا كانت نتيجة ذلك.

أشار السلطان إلى أحد أركان الغرفة، كانت هناك منضدة مكوم عليها عشرات من اللفائف، من كل حجم ونوع، من الجلد والورق وقماش الكتان، دوائر متراصة، كأنها عيون غائرة تحدق فيهما دون كلل، قال:

ـ هذه هي الشكاوى التي وصلتني من كل مكان في الشام، من كل شيخ وعالم وفقيه فيها، من المساجد والمدارس والزوايا وحتى التكايا، كلها تتهمه بالكفر والتجديف.

ـ لقد استدرجوه يا أبي، نصبوا له من الكلمات فخاخًا.

ـ تقول كل الشكاوى أنه كفر وأنكر أن النبي محمدًا عليه الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء.

قال الملك الظافر متوسلًا:

ـ لم يفعل.. لقد ناظره علماء حلب ودمشق في كل مسائل الفقه والمنطق والكلام، وتفوق عليهم جميعًا بسعة علمه وحسن إدراكه، وقد أوغر صدورهم أنه أظهر جهلهم أمام العامة؛ لذلك استدرجوه إلى مناظرة مفتوحة في جامع حلب، وسأله أحدهم: «هل يقدر الله على أن يخلق نبيًّا آخر بعد سيدنا محمد؟ ولم يجب الشيخ إلا بقوله: «لا حد لقدرته».

قال السلطان: تلك الإجابة الغامضة هي التي أثارت كل هذه الفتنة.

ـ كان يتكلم عن قدرة الله التي بلا حدود.. ولكنهم فسروا الأمر بقولهم إن السهروردي يجيز خلق نبي آخر بعد خاتم الأنبياء. اجتمعوا وكتبوا

محضرًا بذلك، أرسلوه إليَّ، وعندما لم أجد موجبًا لفعل أي شيء ضده، قاموا بإرسال كل هذه الشكاوى إليك.

قال السلطان: إنها ليست مجرد شكاوى، إنها أعراض فتنة زرعت في الأرض وعليَّ استئصالها قبل أن تعصف بنا جميعًا، من أجل هذا استقدمت هذا الشيخ إلى هنا، لقد وقعت في خطأ كبير في زمن لا تحتمل فيه الأخطاء.

قال الظافر: عدني أنك لن تصدقهم يا أبي، لقد غير هذا الرجل حياتي وجعلني أرى الكون كما لم يكن من قبل، لا تسلبه حياته.

قال السلطان: ليتني أستطيع أن أعدك بذلك يا بني.

ساد الصمت، تأمل كل واحد منهما الآخر وهو يعيد حساباته، كان المظفر يفكر في أي ملك سيكونه لو لم يستطع الوفاء بوعد الأمان لهذا الرجل، وكان السلطان يفكر أن ابنه الغض لايدري أنه قد داس على عش الدبابير بقدميه، وأن المشايخ لن يكفوا عن الطنين إلا بعد أن يسقطوه من فوق عرشه.

عندما شاهد قراقوش السجين، كان أول شعور انتابه، أنه لم يكن يستحق كل هذا العناء، لا زنزانة ولا جدران، تكفيه حفرة صغيرة يوضع فيها حتى يتعفن دون أن يجرؤ على أن يخطو خارجها خطوة واحدة، ولكن عندما استقر الشيخ وفكوا القيود وفكوا الغمامة التي تحجب عينيه، بدا وجهه المتعب بوضوح، وتساقطت ذرات الرمل العالقة بلحيته، وشع ذلك الألق الأخاذ من عينيْه النافذتين، دبت في قلب قراقوش مشاعر من رهبة غير مفهومة، كان يريد أن يرحب به ساخرًا، ويصفعه ثم يركله شامتًا، ويذيقه مرارة السجن من اللحظة الأولى، ولكنه وجد نفسه يرتد

من أمامه، يتلمس الجدران وهو في طريقه للخارج، كانت لا تزال طرية، لم تتماسك أحجارها بعد، وأدرك أنها لن تصمد أمامه طويلًا.

ولكن عندما جاء السلطان في صباح اليوم التالي، ولم تكن الجدران قد انهارت بعد، وكان السجين نائمًا من شدة الإجهاد والجوع، وتعجب قراقوش من اهتمام السلطان بهذا الرجل، فتح باب الزنزانة وحاول أن يتقدمه للداخل حتى يوقظ السجين، ولكن صلاح الدين أشار له أن يبقى خارجًا.

أفاق السهروردي على صوت الجلبة، ولكنه لم ينهض من مكانه، اتخذ فقط وضعية الصلاة حتى لا يبدو شكله مكومًا ومتخاذلًا أمام أحد، تأمله السلطان قليلًا، هل هذا هو الإنسان التي تحدثت عنه كل هذه الشكاوى، أم إن هذا مجرد بقاياه؟ فكر في نفسه: يا له من جسد ضئيل قادر على إحداث فتنة كبرى، حدق الشيخ فيه أيضًا، أدرك أن السلطان شخصيًّا هو الذي يقف في مواجهته، ولكن لم يبدُ عليه أنه يأبه بذلك، قال في هدوء:

- لم تلقِ عليَّ السلام، ولم تعرفني بنفسك يا سيدي.

أحس السلطان بالغضب، هذا الشيخ النكرة يدعِي الجهل به، هتف من بين أسنانه:

- ربما كنت الوحيد بين العالمين الذي لا يعرف بالسلطان صلاح الدين.

لم يطرأ أي تغير على وضعية الشيخ، لم يحاول النهوض، ظل جالسًا كأنه متأهب للصلاة، قال:

- أراك ولا أشاهدك، فالبصر لا ينقل لي إلا نقاطًا ضئيلة منك، ولكني لا أشاهد غير جسدك الفاني، وجبروتك المحدود بقدرة الله الواحد القهار.

قال السلطان في ضيق:

ـ لا تتعب نفسك بالتلاعب بالألفاظ، لا أحب المتكلمة ولا المتصوفة ولا المتفلسفة، ولا أي هراء من هذا النوع، أنا رجل حرب وفعل، وأنت تقف في طريقي وتهدم كل ما أحاول أن أبنيه.

قال الشيخ: لم أقف في طريقك يومًا، ولكني أحارب الكفر بطريقتي، وقد هاجمت أعداءك من الحشاشين الذين يفسدون ما خلق الله، ويدمرون الوعي الذي خلق لإدراكه.

صاح صلاح الدين: ولكنك قسمت الأمة، قلت إن هناك نبيًّا آخر سوف يجيء.

ـ تحدثت عن قدرة الله، فالناس في حاجة دومًا لمن يضبط أمورهم ويقوِّم مفاسدهم، ويكون مأمورًا بإصلاح النوع، لا أحد يدري عن أي شيء يكشف الزمن.

قال السلطان بصوت عالٍ:

ـ سأقول لك عما يكشف الزمان، جحافل جديدة من جيوش الفرنجة، في الوقت الذي تشغل فيه أذهان العامة بكل هذه الألغاز، يفرضون هم في بلادهم ضريبة أطلقوا عليها ضريبة «صلاح الدين»، جمعوا بها أكواما من الذهب، وجندوا آلافًا من الفرسان، وصهروا عشرات الآلاف من الدروع والسيوف، لا تنكسر ولا تثلم، ستجيء سفن لا نستطيع إغراقها، وأبراج لن نقدر على إحراقها، كيف يمكن أن أقابل كل هؤلاء بأمة جعلتها أنت وأمثالك منقسمة على نفسها؟

سكت السلطان وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، كان قد عبر عن مخاوفه بشكل علني لم يقدر عليه من قبل أمام أحد، كان خائفًا ومتوجسًا طوال

الوقت، وبعد كل هذه الحروب لم يعد متيقنًا من قدرته على القيام بنصر حاسم، قال الشيخ:

نظر السلطان إليه، لم يكن هذا قراقوش الذي عرفه، ولم يكن ابنه هو نفسه، كما أنه ليس السلطان ذاته، كان عليه أن يحسم كل شيء حتى لا ينهار كل شيء، قال:

ـ لا أحد يريد أن يرى وجهه، أحضر سلكًا واخنقه من الخلف.



«كان، رحمه الله، من محاسن الدنيا وغرائبها، أنجب أربعة عشر ولدًا، ومات ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، ودينارًا واحدًا ذهبيًّا صوريًّا، ولم يخلف ملكًا ولا عقارًا ولا بستانًا، ولا قرية، ولا مزرعة..».

كان أول شيء فعله السلطان الناصر «صلاح الدين الأيوبي» عندما استيقظ من نومه في ذلك الصباح، هو أن استدعى تابعه «قراقوش» وهتف به:

- ابنِ لي قلعة في الجبل.. من الصخر الصلد، أريد أن يقف الموت عاجزًا عن اقتحام أبوابها.

كانت هذه أمنيته وهذا هاجسه منذ أن تعرض للاغتيال ثلاث مرات، في كل مرة يدخل القتلة إلى غرفته، في أيديهم خناجر مسمومة، يكفي خدش واحد منها حتى يموت الضحية، وكانوا يخطئونه فقط بفعل المصادفة، وكان يعرف أن زعيم الحشاشين الذي يسكن مع النسور في أعلى قلعة «الموت» في وسط خراسان، لن يكف عن إرسال القتلة إليه، لم يغفروا له أنه أزال الفاطميين من الوجود، قضى على دولة الأئمة التي يؤمنون بها.



وزاد هاجس الموت عند السلطان وأصبح أكثر إلحاحًا بعد أن انكسر في «الرملة» معركته الأولى وهزيمته الأخيرة، كان الإفرنج متأهبين له بعد أن أبلغتهم عيونهم أنه يعبر بجيشه صحراء سيناء الموحشة، لم يترك له الإفرنج الفرصة حتى يلتقط أنفاسه، هم الذين حددوا له زمان المعركة ومكانها، وهوت سيوفهم على جنوده المتعبين وصرعتهم في غضون ساعات قليلة، تناثروا على رمل الصحراء كعصف مأكول، لم يجدوا قلعة يحتمون بها ولا سورًا يختبئون خلفه، وتحولت سيناء،كالعادة، إلى شرك قاتل؛ شرك أخذ منه سبع سنوات كاملة حتى يعاودوا عبورها والقتال من جديد، وهذه المرة كان هو الذي حدد للإفرنج المكان في تل بفلسطين يدعى «حطين».

قال قراقوش مستفهمًا: يا مولاي.. أسوار القاهرة في حالة يرثى لها، فأين يكون موقع القلعة؟

قال السلطان: اختر من الأسوار أوسطها، وأكثرها مناعة، وأطيبها هواء.

وبدأ قراقوش في اختيار الموقع، علق قطعًا من اللحم بطول الأسوار، وكلف الحراس بمراقبتها، متى تفسد، ومتى يتغير لونها، وفسدت القطع كلها بين يوم وليلة إلا قطعة واحدة في مكان واحد لم يفسد إلا بعد يومين وليلتين، هذا هو الموقع الذي اختير ليكون قلعة للأمان.

تواصل العمل في القلعة ليلًا ونهارًا على مدى عامين، نقلوا الأحجار من المعابد والأهرامات القديمة، استخدموا المساجين وأسرى الإفرنج والعبيد والموالي، ونفدت الأحجار فشقوا صخور المقطم، ولم يكف البناء عن الارتفاع، وظلت المدينة الراقدة أمامه تتضاءل، امتد سور الأحجار المتجهة أمام المدينة كأنما يردعها عن أي محاولة للتفكير في مهاجمتها.

ركب السلطان وأخوه الكامل وصعدا الدرج الحجري معًا، اجتازا

الأبراج المنيعة حتى وصلا لأعلى مكان فيها، وللمرة الأولى رأى السلطان المدينة التي يحكمها في كتلة واحدة، نائمة تحت غلالة من الضباب، تحلم حلمًا غامضًا، ترتفع المآذن مثل أذرع لا تكف عن التوسل، في الغرب ينساب نهر النيل ساجيًا يخفي في داخله كل غموض السنين، كل الذين عبروا وحكموا، وفي الشرق ترتفع هامات النخيل وتربض الأهرامات، يمتد الزمن بلا نهاية بعمق السكون الغريب الذي يحيط بهما. أحس السلطان بالأسى، أدرك فجأة أن مدة حكمه وجيزة إزاء هذا الزمان السرمدي، كان يظن أنه امتلك هذه المدينة حقًّا، ولكنها بدت في هذه اللحظة أشبه بحيوان خرافي بالغ المهابة والجلال، عنَّ له أن يرتاح قليلًا ويخفي داخله كل نزوات المدن وأسرارها وخطاياها الصغيرة ومصادر قوتها ونقاط ضعفها، وتساءل صلاح الدين في حيرة عن أناس هذه المدينة الذين يحاربون في ضراوة ويستكينون في ضعة ويعشقون في وله ويضحكون حتى البكاء.

كان قاضي الزمان «القاضي الفاضل» قد قال له: إن هذه ثامن دار للحكم قد بنيت في مصر؛ واحدة قبل الطوفان في «إفسوس»، وعندما جفت المياه وتشكل طين الخلق أصبحت الدار في «منف»، ثم تنقلت شمالًا مع جيوش الإسكندر لتصبح في «الإسكندرية» على شاطئ البحر، ثم هبطت جنوبًا مع جيوش ابن العاص إلى «الفسطاط»، وجاء العباسيون فأقاموا مدينة «العسكر»، وتخاذلت العسكر فأنشأ ابن طولون «القطائع»، وحمل الفاطميون أعلامهم من الغرب فكانت «القاهرة»، دول إثر دولة، ومدينة تبزغ من أنقاض مدينة، ودورة الزمن لا تتوقف ولا تتمهل، أحس صلاح الدين أنه مهما امتلك فلن يمتلك مثل هذا البلد القديم المترب المتوهج المليء بالمقابر وبشائر البعث، هذا إن كان قد امتلكه حقًّا.

التفت إلى أخيه الكامل وهو يقول في تأكيد:

ـ هذا الملك لن يدوم لأولادي.

كان يعرف أولاده جيدًا، يحفظ وجوههم الأربعة عشر، كانوا جميعًا أضعف من أن يحكموا قبضتهم على هذا الكائن الخرافي المستعصي على الامتلاك، وحين قال الكامل:

ـ أدام الله عمرك يا أخي ومولاي.

التفت إليه، تأمله قليلًا كأنه يحاول أن يقرأ ملامحه، ثم قال: ربما يكون لك، ولأولادك من بعدك.

لم يحر الكامل حرفًا، كأن السلطان يقرأ الغيب، ولكنه لا يستطيع أن يوقف صيرورة الزمن، هبط من القلعة التي لم تكتمل وبدأ يجهز جيشًا للسير إلى بلاد الشام، وخرجت القاهرة كلها تودعه، معركة أخرى في حروبه التي لا تنتهي، وعندما جلس للراحة في أول ليلة من الرحيل، التف حوله الشعراء والفقهاء فسمع صوتًا غريبًا، يغني في أسى:

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشية من عرار

ووجم السلطان، ما بال هذا الرجل المغني يشدو بهذا الأسى، وكأن هذه العشية آخر الزمان؟ سأل من حوله عن مصدر هذا الصوت، لم يسمعه أحد غيره، أصر على طلب قائل الأبيات فلم يجدوه، وتطاير الحاضرون، ولم يكن هناك وقت يضيعه في التشاؤم أو التردد، فقد بدأت رحلة الحرب.

كانت المدن الواقعة في أسر الفرنجة تناديه، من الكرك إلى عكا وصور وصيدا، كان يوغل في القتال حتى يمتلك أعتى حصون الإفرنج، لعل أسوارها الحصينة تمنحه الأمان، ولكنه أمان زائف لم تمنحه لمالكيها الأصليين، ظل يحلم باكتمال تلك القلعة الغريبة على حافة المدينة

الغامضة، ولكن الحروب تواصلت والأيام تداخلت، باعدت بينه وبين حلمه مسافات من الرمل والمدن الساقطة وجثث الأعداء والأصدقاء وحسابات النصر والخسارة، وعندما قرر العودة إلى مصر أخيرًا داهمته الحمى الصفراوية في العشية، وصف له الأطباء نوعًا من نبات العرار فلم يعثر عليه وظل يحتضر حتى فاضت روحه مع قدوم الفجر، بعيدًا عن قلعة الأمان، لم يسكنها للحظة واحدة برغم أنه صاحب حلمها الأول.

.. فتح الولد الأكبر «العزيز» خزائن أبيه السلطان فلم يجد بها إلا عدة دراهم من الفضة ودينارًا واحدًا ذهبيًّا فجن جنونه، استدعى تابع أبيه الطواشي «قراقوش» وصرخ:

ـ أين ذهبت أموال الخزائن؟

قال الطواشي: ذهبت في جهاد الفرنج.

قال السلطان: وأين حصيلة المكوس والضرائب؟

قال الطواشي: ألغاها السلطان.

قال السلطان في أسى: لعن الله الفرنج فإن جهادهم مكلف، وغفر الله لأبي فقد أسرف في تدليل رعيته.

وفي اليوم التالي عادت كل المكوس مضاعفة.

ولأن أيام الحرب كانت طويلة، والموت قد ترك الموت بصماته في كل بيت، فقد خالف الملك «العزيز» سنة أبيه وتغاضى عن فتح الخمارات وأماكن الحشيشة وبيوت المزارات. بدأت هذه الأماكن تزحف من أطراف المدينة النائية إلى أعماق الحارات والأحياء، ورحب «العزيز» بذلك وأسرع بفرض المزيد من الضرائب عليها، وللمرة الأولى منذ سنوات

حملت أواني الخمر جهارًا، وتواصل دوران المعاصر حتى عز وجود العنب، ولم تتوقف طاحونة الحشيشة في حارة المصامدة، أما في قلعة الكبش فقد ارتفعت أصوات الغناء، وتغير صنف «البنات» فأصبحن أصغر وأكثر جمالًا، والتزم رجال «العزيز» بترك الزبائن على هواهم، فلم يتدخلوا إلا لقبض المعلوم وفض المشاكل.

ولكن طلبات «العزيز» لم تكن تنتهي، كان يريد أن يخرج من حالة التقشف التي فرضها أبوه عليه وإخوته، ولكن الخزانة ما إن تمتلئ حتى تفرغ، ونفدت كل حيله حتى إنه فكر في أن يجمع جيشًا يغزو به أخاه «الأفضل» ملك دمشق؛ لأنه عرف أن لدية خزينة مليئة بالدنانير الذهبية، ولكن الحل جاء إليه من مكان آخر، دون حاجة لحرب، فقد أقبل رجل مغربي، دخل المدينة من باب الفتوح وجلس بجانب الأزهر، وقال إنه قد اجتاز كل الصحارى سيرًا على قدميه لأنه يحمل أسرار الكشف عن الخبايا، كان يتحدث بكلمات غريبة ومبهمة جعلت الكثيرين يلتفون حوله، أصبح له أتباع ومريدون يصدقون كل ما يقوله، وكانت أولى معجزاته اكتشاف خبيئة قديمة في أحد الجدران؛ جرة صغيرة مليئة ببعض الدنانير الذهبية، ولكنها كانت كافية لاعتبارها معجزة حقيقية جعلت عدد الأتباع يتزايد، ووصل أمره إلى أسماع «العزيز» الذي كان شغوفًا بمتابعة كل أخبار الذهب، وأمر من حوله أن يحضروا له الولي المغربي، ولما مثل بين يديه، سأله:

ـ كيف تعرف أسرار الذهب المخبوء؟

قال الولي: أشم رائحته.. هبة أعطنيها الله.

قال «العزيز»: هل تشم أثر ذهب تركه بنو عبيد الفاطميون، أو بنو الإخشيد، أو حتى بنو طولون؟

قال الولي: أشم ما هو أبعد من ذلك، أكثر قيمة وأعلى قدرًا وأرفع ثمنًا وأكثر لمعانًا وأشد اصفرارًا، أراه وسط الظلمة والتراب القديم يتوهج كأنه شمس مدفونة.

أدرك «العزيز» أن السماء التي بخلت عليه طويلًا قد سخت فجأة وأعطته ميراث كل الحكام السابقين، وأخذه الولي المغربي من يده ونزل به من قلعة الأيوبيين، وعبرا قاهرة الفاطميين، واجتازا النيل الذي كان شاهدًا على الملك الذي لم يدم لأحد، وقفا أمام الأهرامات القديمة، وأشار «المغربي» إلى الهرم الأكبر وهو يهتف:

ـ هنا ترقد الخبيئة في انتظارك، شمس الفراعنة المتوهجة!

ولم يكن الحصول على الخبيئة سهلًا، كان على «العزيز» أن يحفر في صخر صلد، عجزت عنه دهور الزمن، ولكنه لم يتراجع، طلب من الولي تحديد الجهة التي يبدأ منها الحفر، رسم له على الرمل رسومًا غامضة، وأشار إلى مكان محدد، أمر «العزيز» باستدعاء كل البنائين الذين شاركوا في بناء القلعة وأمرهم أن يكونوا أكثر براعة وإتقانًا حتى ولو استلزم الأمر هدم الهرم كله، ومثلما تواصل صوت الأزاميل في عهد الأب، تواصلت أصوات المعاول في عهد الابن.

نصب «العزيز» خيامه أمام الهرم، وسكن الولي في القلعة، وظلت الطلبات تتزايد، ومثلما تضاعف عدد العمال عند سفح الهرم، ازداد عدد الجواري في غرفة الولي، وفرغت الخزانة مرة أخرى، ففرض المزيد من الضرائب، وقال «العزيز» للقاضي الذي جاء يشكو إليه هم الناس:

ـ كل هذا من أجل خير الرعية، عندما نكشف عن خبيئة الفراعنة، لن أعود في حاجة إلى دراهمهم الضئيلة.

وتوافد الناس عند سفح الهرم، أخذوا يصلون حتى يتدخل أجدادهم

وينقذوهم من بؤسهم اليومي، ولكن الهرم بقي صامدًا، كشفت قشرة الصوان التي تكسوه عن مدامك الأحجار التي لا تقدر عليها المعاول، كل حجر يسقط يكشف عن المزيد من الأحجار الأكثر صلادة والتصاقًا، والسلطان يواصل الإنفاق، ابتلعت نفقات الحفر كل الدنانير والدراهم، وكف الناس عن شرب الخمر وتدخين الحشيش لانشغالهم بأمر الخبيئة، فانخفضت الضرائب القادمة من بيوت المتعة، وبدأ العمال يهربون والناس ينصرفون، وبحث السلطان عن المغربي ذات صباح فلم يجده، الكل تخلى إلا السلطان، ظل مصممًا على هدم الهرم ولم يعد قادرًا على النوم، قضى الليالي الطويلة أمام الهرم يتأمله ويحلم بالانتصار عليه، تمامًا مثلما وقف أبوه من قبل أمام تل بفلسطين اسمه «حطين».

في دمشق، كان الملك «الأفضل» أيضًا ممتعضًا، منذ أن تولى ملك دمشق وهو يفكر متحسرًا:

ـ كيف أكون الأخ الأكبر ويكون نصيبي هو الأصغر؟

مصادفة قدرية وغير مبررة، أن يكون في دمشق عندما مات أبوه السلطان «صلاح الدين» فتصبح نصيبه من الملك، ويكون «العزيز» في مصر فتقع في يده، قسمة غير عادلة جعلت التضاريس تضيق من حوله، لا تتسع لحركته، يخرج للصيد فيهتف: ما أضيق الطراد، للنزهة فيحتج: ما أثقل الهواء، ويصعد إلى قمة جبل قاسيون فيصيح: ما أقل ما أخذت وما أكثر ما أخذوا. كان ضيق الصدر، ضيق النفس، يريد العالم بكل الامتداد الذي امتلكه أبوه ذات يوم وسارت فيه جيوشه.

أرسل يستدعي عمه «الكامل» الذي كان حاكمًا على حلب، كان كامنًا هناك كصقر عجوز يرقب أولاد أخيه وهم يتخبطون كأفراخ ذات زغب، تعري لحمها الطري بسذاجة للمخالب المتأهبة، يتذكر دائمًا نبوءة أخيه

الغريبة في تلك اللحظة الباردة فوق أسوار القلعة، سافر إلى دمشق حيث يجلس ابن أخيه غاضبًا متبرمًا فوق عرشه وهو يقول:

ـ ألست الأخ الأكبر؟ ألم أكن أستحق الملك الأكبر؟ ألم أكن أستحق الملك كله؟

وأومأ الكامل موافقًا وهو يقول: الحق معك يا ابن أخي.

انتشى «الأفضل» من موافقة عمه السريعة وعاد يقول:

ـ أليس لي أن أرجع ملك أبي الذي ذهب إلى من لا يستحقه، أن يعيد الحق لأهله؟

وأومأ «الكامل» مرة أخرى قائلًا: لم تخرج عن الصواب يا ابن أخي.

وصل الأفضل إلى السؤال الحرج: أليس لي الحق، كل الحق، في ملك مصر؟

وقال الكامل على الفور: هي لك يا ابن أخي.. لكن الرسائل لن تجدي، ليس لك إلا تجهيز الجيوش.

بدأ الأفضل يعد جيوشه على الفور، أحضر قواد أبيه الذين كانوا أخذوا سِنة من الراحة بعد أن مات السيد وأمرهم أن يجلوا الصدأ عن سيوفهم القديمة، دوى النفير، واستيقظت الجياد ووقف الأفضل والكامل على الأسوار يشرفان على إعداد كل التجهيزات، وتقدم أمير الجيوش ووقف أمامهما، وكان قد حارب طويلًا تحت إمرة السيد ويعرف آخر أمنياته، قال للملك الأفضل:

ـ كل شيء أصبح تامًّا يا مولاي، والجيش الآن مستعد للسير إلى عسقلان.

كان حصن عسقلان هو أعتى حصون الفرنج، وكانت أمنية صلاح الدين الاستيلاء عليه؛ لأنه لو سقط فسوف تتهاوى بقية حصونهم كالطيور الذبيحة، ولكن «الأفضل» رد على القائد في برود:

ـ لن يسير الجيش إلى «عسقلان»، الجيش سائر إلى مصر.

ولم يفهم قائد الجيوش شيئًا، أدار بصره بين الأفضل والكامل، ثم هتف في فزع:

ـ هل دخل الإفرنج إلى مصر؟

قال الأفضل بنفس البرود: هذه المرة لن نحارب الإفرنج.

وهبط القائد الدرج وهو لا يدري أين يضع قدميه، ولم تمضِ لحظات حتى خفتت صيحات الجند، وكفت الخيل عن الصهيل، وخيم على المدينة صمت قاتم، ولكن الأفضل ظل يواصل استعداداته، أمر الحريم أن يستعدوا للانتقال، والغلمان أن يخرجوا كل الأمتعة، لا جدوى من بقاء أي شيء يخصه في دمشق ما دامت قلعة الجبل في انتظاره، وجاء قاضي دمشق وخلفه مشايخ الجامع الأموي، كان القاضي منزعجًا:

ـ يا مولاي، هل نتبع شريعة الله، أم نعيد قابيل وهابيل؟

قال الأفضل: لم أطلب سوى حقي، ولو تنازل أخي عن العرش طائعًا فسيظفر بحياته.

قالوا: وإذا رفض؟

فلم يتكلم ولكن الجواب بدا في مضاء عينيه، انسحب الشيوخ بعد أن أدركوا أنهم غير قادرين على إقناعه على التراجع، ولكن التجار جاؤوا في الصباح، قالوا:

ـ سوف يزرع هذا العداء بيننا وبين تجار مصر، وقد مولنا الحرب معًا ضد الإفرنج، وقد ينتهزون فرصة الشقاق ويقطعون علينا طريق القوافل.

لم يأبه «الأفضل» بالرد عليهم، وبدأ جيشه في المسير دون أن يخرج أحد لوداعه، ظل الأهالي داخل بيوتهم، كانت هذه أسهل الغزوات ولكنها أكثرها مرارة، والجيش يقيم ويرحل في صمت، يمر عبر كل حصون الإفرنج دون أن يتعرض لها ودون أن تتعرض له، بشكل خفي كانوا يدركون غايته ويباركون خطوته.

وصلوا إلى حدود غزة، ولم تبقَ إلا خطوات ويدخلوا سيناء، وكان معظم الجنود يعرفون معالمها، فأجهش واحد منهم في البكاء، وظل «الكامل» صامتًا، لم يتكلم إلا عندما سار أمير الجيوش بجانبه ورأى رعدته فقال له:

ـ هل أنت خائف؟

قال القائد: لا والله، ولكن سوف ألقى فرسانًا حاربت معهم واختلطت دماؤهم بدمائي وتداخلت جروحهم في جروحي، فكيف ألقاهم وأواجههم دون خزي أو خجل؟!

وصمت الكامل قليلًا ثم قال: الله غالب أمره.

وعادت العيون التي أرسلها الأفضل في اليوم التالي لدخولهم سيناء، كل شيء هادئ لم يشعر أحد بقدومهم حتى الآن، وإذا سارت الأمور على هذا النحو فسيصلون إلى الصالحية دون جلبة، ويباغتون «العزيز» داخل القاهرة. شعر «الأفضل» بأنه قد ظفر بالمعركة مقدمًا، وأشار للجيش أن يواصل التقدم، ولكنه فوجئ بعمه «الكامل» وهو يقول له في حزم:

- تمضي وحدك إن شاء الله.

لم يدرك «الأفضل» معنى ما يحدث، ولكن حين نظر إلى وجه القواد والجنود أدرك أنهم جميعًا قد استدرجوه إلى أبعد مكان عن مملكته، أطاعوه حتى أضاعوه. كان برمًا بملكه الضيق الخانق فأعطوه ملك البراح الواسع، أصدر «الكامل» أوامره للجنود أن يرشقوه بالسهام إذا حاول أن يتبعهم، ثم استدار بالجيش عائدًا إلى «دمشق» وأصبح الأفضل وحيدًا فجأة، لا يشاركه أحد في ملك الخلاء.

تصارع الإخوة على رقعة الأرض حتى فقدوا كل شبر منها، كانوا أربعة عشر وخرج منهم خمسة من الملوك، خمسة من السيوف رفعوها على بعضهم البعض، كل واحد يريد توسيع رقعته على حساب الآخر، فلم يكن العزيز عزيزًا، ولا الأفضل فاضلًا، ولا الظافر ظافرًا، ولم تمضِ عشر سنوات على موت السيد حتى انتقل الملك بأكمله إلى عمهم «الكامل»، ثم إلى أولاد عمهم، وتحققت النبوءة الغريبة بأكملها.

لم يبقَ من الملوك الخمسة إلا ملك واحد كان أضعفهم.

كان الملك الظافر «خضر»، ابن صلاح الدين، شابًّا نحيفًا، لم يظفر بأي معركة، خفيض الصوت، يسكن أبعد البلاد؛ لذلك نسيه الملك الكامل وهو يواصل اقتناص الممالك، ونسيه أيضًا الملك العادل ابن الكامل، ربما نسيه الجميع، ولكنه لسوء الحظ أراد أن يذكر الجميع بنفسه.

ذات يوم والملك العادل جالس في قلعته جاء الرسول من تيماء يحمل رسالة من ابن عمه الملك المنسي تمامًا، لم يكن يطلب منه أكثر من السماح بالذهاب إلى الحج، مسألة لم تكن في حاجة أصلًا للاستئذان، وكان العادل رائق المزاج واعتبر الرسالة بمثابة اعتراف ضمني من آخر الإخوة بأنه لا يوجد إلا سلطان شرعي واحد وأن الممالك

كلها لا يجب أن تتصرف حتى في أدق أمورها إلا بعد استشارته، وفي لحظات من لحظات الامتنان التي لا تنتاب السلاطين إلا قليلًا، سمح للظافر بالحج، وأن يكون على رأس القافلة التي تضم كل حجيج الشام، فعل السلطان كل هذا بلا أي اهتمام، ولكن من الذي يستطيع التعامل مع حلم بلا اهتمام؟

مرت عشر سنوات ولكن حلم السيد كان ما زال حيًّا في القلوب، كأن الناس يحاولون من خلال ذكراه أن يقاوموا مذلة المهانات اليومية وتوالي الهزائم، وعندما سمعوا أن ابن صلاح الدين يقودهم في موسم الحج ذلك العام زحفوا إليه فقراء ومستضعفين وبؤساء يعانون من تحكم الولاة ومن بغي الفرنجة وضيعة الكرامة، جاءوا من المدن التي تحررت في زمن الحلم، وسقطت في زمن الذل، خلعوا ثيابهم القديمة ولبسوا ثياب الإحرام البيضاء ثم ساروا خلفه لعله يقودهم إلى فجر جديد لم يبزغ بعد.

وكان الظافر، الذي لم يظفر بشيء، مدهوشًا من هذه الجموع التي تحيط به وتدفعه إلى مقدمتها وترفع نداءات التلبية عاليًا، فتهز الصحراء النائمة، وتكشف عن جروحها الدفينة، وفي المساء جلس الملك خضر وهمس لأحد أصدقائه:

- إنني خائف من هذه الجموع، لا أريد أن يظن بي الفرنجة الظنون.

قال الصديق: تخلَ عن خوفك، بهذه الجموع لن يقدر عليك الفرنجة ولا غيرهم.

لم يفهم الملك، ولكن الظنون ساورت غير الفرنجة، حمل الحمام الزاجل أخبار الجموع الزاحفة إلى القاهرة، ودخل محمد ابن السلطان العادل إلى أبيه وهو يهتف:

ـ فلنستعد للحرب يا أبي.

ووقف السلطان مدهوشًا، وزادت دهشته عندما أضاف الابن:

ـ إنه «خضر»، لقد خرج يزحف في جموع غفيرة للاستيلاء على اليمن والتحصن بها.

قال السلطان مهونًا: لقد خرج فقط للحج.

الابن صاح في عصبية: إنه ذاهب لليمن، جموع مثل هذه لا تخرج إلا للغزو.

واقتنع السلطان سريعًا، لا يجب أن يثق السلطان في أحد، خاصة إذا كان ابنًا لصلاح الدين، عليه أن يقطع خط سير هذه الرحلة أيًّا كان هدفها، وأصدر أوامره فخرجت العسكر سريعًا، عبرت النيل والصحراء وسارت سريعًا لتسبقه في الطريق إلى مكة.

وعندما وصل الملك الظافر، الذي لم يكن مقدرًا له أن يظفر بشيء، إلى مشارف مكة، وجد في مواجهته صفوفًا كثيفة من العسكر، توقف الملك وتوقف الحجيج من خلفه، وتقدم قائد العسكر وهتف به في حزم:

ـ السلطان «العادل» يأمرك بالرجوع.

وقف الظافر مذهولًا: ولكنه هو الذي أذن لي بالحج.

قال القائد: إنه يعرف أن مكة ليست هي مقصدك، وثياب الإحرام هذه ليست إلا حيلة للتنكر، أنت تريد غزو اليمن والتحصن بها.

وهتف الملك الظافر متضرعًا:

ـ والله ما قصدي اليمن ولا خطرت ببالي، وإذا أردتم فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك وأعود إلى الشام.

وصاح القائد في وجهه: ارجع يا مشئوم.

فارتج على الملك، ولم يتمالك نفسه، فانخرط في البكاء، وأحاط به الجنود وقيدوه بالسلاسل، ووقف الحجيج في ذهول، وكانوا ينتظرون منه إشارة، قولًا، لو أنه فقط أحس بوجودهم إلى جانبه، ولكنه لم يرَ شيئًا من خلال دموعه الغزيرة، هل رأى أحد منكم حلمًا وهو يبكي؟

هذا هو ما حدث بعد موت السيد، تحولت كل الأحلام إلى دموع، وكل المواقع إلى أماكن للذكرى.



«يانايم.. وحد الدايم»

هكذا يهتف المسحراتي في طرقات الليل وهو يدق على طبلته، ولم يوحد «الدايم» أشتات من البشر كما وحد المماليك، فمنذ أن تجمعوا من سهوب «التركمان» الباردة، وجبال «البلغار» الوعرة، وفجاج «الصقالبة» المنعزلة، وقد وهبهم الله الدين واللسان والهوية وسلطان الأرض والخيل العتاق والجواري الحسان والغلمان المرد والقصور والخانات والوكالات والحواصل والضياع العامرة، علا نجمهم وزاد سعدهم فحكموا البلاد، وبغوا على العباد، وحاربوا وانتصروا وانكسروا ثم زالت دولتهم كأن لم تكن، وسبحان من له الدوام.

هجر المماليك ذاكرتهم القديمة، وعاشوا حلمهم الزاهي فلم يفيقوا منه إلا على الموت، إما بالاغتيال وإما بالخنق وإما بالسم وإما بالسجن مدى الحياة، ولكن أيًّا منهم لم يندم على هذا المصير.

كانت بداية كل شهر بالنسبة إليهم حدثًا يستحق التهنئة والاحتفال، ولا بد أن يصعد القادة والمشايخ والأعيان إلى القلعة لتهنئة السلطان،


وَمِنهُم جبرئيل

كانت شهورهم تعني امتداد الحياة بالغة العذوبة والقصر، ولكنهم أحبوا شهر رمضان على وجه الخصوص، أحبوا أيامه ولياليه ودورة هلاله، كانت هناك درجة عالية من الإحساس بكل لحظة من لحظاته؛ إحساس الجوع والشبع، والري والعطش، والابتهال والخوف.

في بداية كل رمضان، وسواء ظهر الهلال أو لم يظهر، يجلس السلطان على كرسيه بالقلعة ويأتي الوزير والمحتسب وخلفهما صفوف طويلة من الحمالين، يمرون أمام السلطان ومعهم الغنم وأكياس السكر والأرز والدقيق والزبيب والجوز واللوز والتوابل والبقول، يسيرون كالنمل صعودًا من أسفل إلى أعلى، ويغيبون في باب القلعة كأنهم يغيبون في بطن السلطان، يأتون من الحقول والبراري والقرى الصغيرة والدساكر إلى مخازن السلطان استعدادًا لصومه العظيم، ولا بد أنه كان يمد يده ويتحسس كل هذه الأشياء وإلا ما حرص كل السلاطين على إقامة هذا المشهد من كل عام، بعد ذلك ينسحب إلى غرفته، ويترك رؤية الهلال مسألة يقررها شيوخ الأزهر، لقد بدأ هو شهر رمضان بطريقته الخاصة.

ورؤية الهلال مشكلة أخرى، فالهلال يجب أن يرى، وشيوخ الأزهر عليهم أن يروه بالعين المجردة، ومعظمهم يعانون من ضعف في الإبصار، وغالبًا ما تهب من «المقطم» ريح رملية قاتمة تجعل الرؤيا متعذرة حتى من أعلى المآذن، الهلال يظهر أحيانا واضحًا كأنه سن ضاحك، وأحيانًا يبقى غائبًا، ويمضي اليوم التاسع والعشرون ويحل اليوم الثلاثون، ولكن قد تحدث المفاجأة في منتصفه. ففي عصر السلطان برقوق اضطربت القاهرة اضطرابًا كبيرًا عندما ثبت ظهور الهلال في منتصف النهار تقريبًا، ونادى قاضي «الشافعية» بالإمساك بعد أن كان الغداء قد وضع على الموائد،

وأسرع السلطان فطرد مدعويه وأمر برفع الصحاف وتجشأ وأعلن الصيام ولم يكن باقيًا على المغرب إلا عدة ساعات.

ولأن الصراعات كانت محتدمة بين من يحكم، ومن يعلم، فقد كانت مسألة رؤية الهلال تخضع أحيانًا لوجهات النظر، فقد حدث في ليلة الرؤية أن أعلن القضاة الأربعة ومشايخ الأزهر أن الهلال لم يظهر، وفي المقابل أعلن الوالي وأنصاره من الجراكسة أنهم قد رأوا الهلال من فوق مآذن مسجد المتولي، وكبر الناس وأضاءوا المشاعل واستعدوا للسهر، ولكن أحد المشايخ هبط غاضبًا وهو يصيح: «أطفئوا المصابيح يا حرافيش، أتصدقون الجراكسة وتكذبون العمائم؟ فأطفأ الناس المشاعل، ولكن الجراكسة عادوا ومعهم مزيد من الجند، وأصروا على أن الغد هو اليوم الأول من رمضان، فأوقد الناس المشاعل، وتوافد المشايخ من كل الأروقة، «أيعلمنا الجراكسة أمور ديننا؟»، فأطفأ الناس المشاعل، وأمسك أحد الحراس بذقن أحد المشايخ فضربه الشيخ بالمركوب، واشتبكت الأيدي وأوقد الناس المشاعل وأطفأوها عدة مرات، ثم صعدوا جميعًا إلى القلعة يحتكمون بين يدى السلطان.

نظر السلطان إلى الجراكسة الغاضبين، وللشيوخ بعباءاتهم الممزقة، وللسماء المظلمة الخالية من أي أثر، وكان الموقف حرجًا، لا يوجد هلال، ولكنه لو خذل الجراكسة فسوف يخذلونه، بينما المشايخ مقدور عليهم، لذلك قر قراره وأعلن أنه أيضًا قد لمح الهلال، وباتت القاهرة مقسومة، صائمة، ومفطرة.

على أي حال، فالرؤية يجب أن تثبت، ويجب أن يصعد القضاة والمشايخ للتهنئة، وأن يصعد أيضًا الخليفة العباسي لابسًا زيه الأسود،

كأنه يذكر الجميع بأنه ما زال في الأرض «أميرًا للمؤمنين»، كان موجودًا في مصر كضيف شرف، بعد أن أحرق المغول بغداد، فقد كل شيء ولم يبقَ له من الخلافة إلا اسمها وشارتها السوداء، ولا يخلو الأمر خلال هذه التهنئة من شكاية لرفع مظلمة، أو محاولة للتخفف من ضريبة فادحة، والسلطان يوافق أحيانًا، ويماطل أحايين كثيرة، السلطان الغوري كان يتذمر دائمًا وهو يقول: «الخزائن فارغة يا مشايخ، والجند طلباتهم كثيرة».

ويتوسل إليه المشايخ قائلين: «والناس مساكين يا مولاي السلطان وعيالهم كثيرة».

فيهمهم السلطان كأنه يشكو ذات نفسه: «العيال لا يملكون إلا البكاء، ولكن الجند يلعبون بالسيوف والمكاحل يا مشايخ».

أما السلطان «برقوق» فقد كان أجرأ الجميع، أعلن في أول ليلة من ليالي رمضان: «من كانت له ظلامة أو خصومة فليحضر بين يدي السلطان»، ولم يقع هذا الأمر لسلطان من قبله وهو من أحدث ذلك بين سلاطين المماليك، ففتحت القصور أبوابها ودخلت شكايا عامة والحرافيش وصغار التجار، شكايا متعددة ولكن الظلم واحد.

وقد حير السلطان «أشرف أبو المعالي» العلماء والمشايخ أكثر مما حيرهم هلال رمضان، ففي صبيحة اليوم الأول استدعاهم على عجل، ودخلوا فوجدوه جالسًا متجهمًا فوق العرش، ووزيره «منجك» بجانبه، وأحسوا بالخوف والحيرة، فظلوا صامتين، وأخيرًا تكلم الوزير بهدوء ورزانة: «السلطان يريد فتوى لإفطار رمضان».

ونظر القضاة بعضهم إلى بعض.. وهل يحتاج المفطر إلى فتوى؟ لم

يتكلم أحد، خيم الصمت كأن الوزير لم يقل شيئًا، واحتقن وجه السلطان غضبًا وهو يصيح: «هيه يا مشايخ، ماذا تقولون؟».

وتنحنح المشايخ، وبدأ القاضي المالكي بسرد أحكام الصوم ومبيحات الإفطار بصورة عامة، ولكن يفهم منها أنه لا يوجد في حالة السلطان ما يبيح الإفطار، وهتف السلطان في قوة: «أنا مريض يا مشايخ، ضعيف»، وتدخل الوزير ليحاورهم، لكن أحدًا منهم لم يستطع أن يقتنع بجدوى حاجة السلطان إلى فتوى كاذبة، إذا كان يريد أن يفطر فليفطر، ولكن السلطان ظل مصرًّا، كان يريد إفطارًا يرضى عنه الشرع، ولم يلن المشايخ برغم أنهم كانوا يرتعدون خوفًا، توعدهم السلطان، وأغراهم الوزير، وزمجر الحراس، ثم اهتدى أحد المشايخ إلى الحل، فليسافر السلطان، السفر عذر شرعي للإفطار، وصاح السلطان والوزير من شدة الانبساط، وفي اليوم التالي أعلن أن السلطان سيسافر لتفقد قلاع الإسكندرية ودمياط ثم يرحل بعد ذلك إلى الشام.

ولكن السلطان «قلاوون» طلب فتوى من نوع مختلف، ففي ليلة التهنئة بالرؤية كانت المناقشة محتدمة بينه وبين المشايخ حول مسألة كنيس اليهود في القدس، كان الكنيس قديمًا وآيلًا للسقوط، وكانت المشكلة: «هل يجوز هدمها لهذا السبب دون أن يعد ذلك اعتداء على أهل الكتاب، أم يعاد بناؤها كما كانت من قبل؟».

وانقسم المشايخ، بعضهم أفتى بجواز هدمها ما دام وجودها في هذه الحالة قد أصبح خطرًا، وبعضهم حبذ إعادة تجديدها، وظل السلطان يوازن بين الأمرين، ولأنه كان يميل للعمران لكل ما هو محسوس فقد أمر بإعادة بنائها وترتيبها على أحسن وجه، ولو كان قلاوون يعرف الغيب لما كان هذا اختياره.

ثم يصعد العلماء والمجاورون والقراء والمؤذنون إلى حوش القلعة حيث يبدؤون في تلاوة البخاري، ولعلها المناسبة الوحيدة التي ترتفع فيها الأدعية من القلعة، صافية، فيها شي ء من الانكسار، ومن الرهبة «يا رب يا ذا الجلال، اغفر لنا ذنوبنا»، كانوا يطلبون التوبة في هذه الليالي عن كل ذنوب المماليك منذ أن خطفوا واسترقوا وأسلموا وترقوا وملكوا وحكموا واستعبدوا مالكيهم، كانوا يطلبون التوبة عن أيام طويلة من النهب والتآمر وخيانة الأهل والغدر والزهو والملق والرفعة والانحطاط، والمشايخ يداومون القراءة والدعاء حتى الليلة الثامنة والعشرين من الشهر، فيختمون الختمة في اجتماع حافل يحضره السلطان والأمراء، ويخلع فيها عليهم الخلع، ويفرق صرر المال، ويطمئن أن عبق البخاري والأدعية الطيبة سوف تبقيه على العرش عامًا جديدًا.

وكان قلاوون هو أول من زاد في أعطية شهر رمضان، فقد أمر أن يفرق على الفقهاء والعلماء «توسعة» أي مبلغًا إضافيًا من المال لعيالهم، واستمر ذلك طوال فترة حكمه، ولا بد أن السلطان «الأشرف شعبان» قد فكر في شيء من هذا القبيل لولا أنه اكتشف أن الخزينة السلطانية قد سرقت واختفت منها عشرون ألفًا من الدنانير الذهبية، وارتج القصر، فقد كانت الخزانة في غرفة نوم السلطان، والسلطان قد تسحر ونام، والجميع قد حذروا السلطان من النوم بعد السحور بمن فيهم الأطباء، ولكنه نام واختفت العشرون ألف دينار، ولم يكن أمامه إلا الشك في خدمه وفي عبيده المقربين، وكانت المفاجأة عندما اعترف الجميع على «خوند سوار باي» محظيته الأثيرة.

إلى من يأمن المرء في هذا الزمان؟

وضع السلطان محظيته في السجن فلم تعترف، أمر بضربها بالسياط

فتحملت وخرجت بعد سنوات طويلة من سجن «العرقانة» وهي كهلة، وفاقدة السمع تهمهم بكلمات غامضة تحكي عن تجربة السجن الطويلة، ولا أحد يدري إن كانت قد سرقت النقود أم لا.

ولعل عقاب «خوند سوار»كان قاسيًا، ولكن العقاب لم يكن يقل قسوة بالنسبة إلى المفطرين؛ ففي عهد السلطان «الغوري» قبض على رجل وهو سكران في عز النهار فضرب بالمقارع وجرس بالقاهرة، وفي حادثة أخرى كبس الوالي بنفسه جماعة من الأروام والجراكسة كانوا يشربون الخمر، وقبضوا عليهم ووقع السلطان في حرج بالغ لأنه كان بينهم بعض أولاد الأعيان، وفي حديقة الأزبكية في وسط المدينة ألقي القبض على رجلين وامرأة كانوا يشربون الخمر في منتصف النهار، وكانت امرأة من الذكاء بحيث فرت من يد الحرس وطيف بالرجلين مقيدين في المدينة وهما يبكيان.

وفي عهد «قايتباي» بدأ رمضان بداية حزينة، فقد ثارت ريح عاصفة من جهة الغرب، وساد الظلام ثم بدأ المطر يتواصل في الهطول في غير أوانه، وعانت مدينة دمياط من قلع الأشجار وتهدم البيوت، ولكن الخبر المفزع جاء من المدينة المنورة،على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فقد هبطت صاعقة عظيمة في آخر الليل، فأحرقت منارة المسجد الشريف، والسقوف والحيطان والأعمدة والأبواب ولم ينجُ إلا القبة الشريفة، وقد رأى الحادث مؤذن المسجد فهبط وقد أصابه الخرس من هول ما رأى ولم يلبث ساعة حتى مات.

وعندما سمع السلطان هذا الخبر لم يتمالك نفسه فأجهش في البكاء، وبكى الوزراء والأمراء ومقدمو الجند، وتعالت التكبيرات في الأزهر وخرج العوام هائمين في الشوارع وأعولت النساء في البيوت، وسادت

المدينة كآبة الندم، وأخذ كل منهم يعزي الآخر، لقد حفظ الله القبة الشريفة وساكنها عليه السلام، ولكن كان للإفطار طعم الحنظل، وكان في الصوم العزاء، وأي عزاء.

وأفاق السلطان من الصدمة فشرع في تجديد المسجد الشريف ووجه للمدينة البنائين، وصانعي الرخام وعلى رأسهم أشهر بناء في هذا الوقت «ابن الزمن»، وشرع في بناء الجدران والمحراب، وهدم القبة القديمة، وكانت من الخشب، وبنى بدلًا منها قبة من الحديد المخرم، ولم تهدأ النفوس إلا بعد عامين من العمل حين اكتمل بناء المسجد ليصبح من أعظمها وأشرفها، حتى قيل إن السلطان قد صرف على بنائه نحو مائة ألف دينار.

وإذا كانت بداية رمضان حزينة بالنسبة إلى السلطان قايتباي، فإن نهايته كانت غامضة بالنسبة إلى السلطان «الناصر أبي السعادات»، ففي اليوم التاسع والعشرين اشتد الحر، وعز وجود السقائين، وتكالب الناس على الزوايا والجمال، حتى تعاركوا بالعصي، وفي وسط هذا التوتر أمر السلطان أن تدق «الكئوسات» في القلعة وصاح فيمن حوله: « أريد أن يكون العيد في الغد من هذا الشهر سواء رأوا الهلال أم لم يروه».

وأشيع هذا التهديد بين الناس، فركب قاضي القضاة الشافعية بغلته وصعد إلى القلعة، وعرفه أن العيد لا يجوز إلا إذا تمت رؤية الهلال في تلك الليلة، ولكن السلطان كان مصرًّا حتى إنه هَمَّ بعزل القاضي، لم يكن يريد للشهر أن يتم لأنه لو تم فسوف يكون الجمعة هو أول أيام العيد، وسوف يدعى للخليفة من فوق المنابر مرتين؛ مرة في خطبة صلاة العيد، ومرة في خطبة صلاة الجمعة، والدعاء للخليفة مرتين علامة على نهاية السلطان، هكذا يعتقد كل الناس، ويعتقد الناصر أبو السعادات نفسه،

ففي دورة الزمن المملوكي يتقلب الحظ سريعًا، وأيام أبي السعادات لم تكن سعيدة، يكفي أنه كان يتزين بزي المغاربة، وينزل للصلاة في الأزهر متنكرًا، ثم يجاذب الناس أطراف الحديث، وكان دائم السؤال عن سيرة السلطان، ودائمًا يسمع ما لا يسره.. ظل السلطان يصيح: «لا عيد يوم الجمعة»، ولكن القاضي كان مصممًا على أنه لا بد من رؤية الهلال، وصعدوا جميعًا إلى أعلى جزء في القلعة، وانتقى السلطان من رجاله أَحَدَّهم بصرًا وبثهم في كل مكان، فوق مآذن الأزهر وجامع المؤيد والمقطم وجلسوا يترقبون والسلطان يقضم أظافره والليلة مظلمة، داكنة، ولم يظهر الهلال، وصام الناس الخميس وعيدوا الجمعة ودعوا للخليفة مرتين ودعوا على السلطان مرتين فاستجاب الله للدعاء.

في الليل تهدأ القاهرة وتهجع على تكبيرات صلاة التراويح في جامع سيدنا الحسين، ثم تسود ساعات من السلام الجميل؛ ساعات هادئة بلا خوف من مداهمة الوالي أو الحارس أو المحتسب، ففي ليل رمضان تغل الشياطين بسلاسل من جهنم، ويسعى المجاذيب والدراويش بين الأزقة يتلمسون أطباق الحلوى، تقدمها لهم فتاة محجبة، ولكن عيونها حوراء وواسعة، تنظر إليهم فتزيد القلب المجذوب انجذابًا، ويطوف أصحاب النذور بقرب الماء المخلوط برائحة الورد، يسقون عطاشى الصوم، وفي منتصف الشهر، في منتصف ختمة البخاري يفرد القمر نوره وينام على البوابات العتيقة، وتتفتح أزهار «ست الحسن» وفي منتصف الليل يمر «المسحراتي» ويدق الطبلة كأنه وجيب قلب هذه المدينة الغافية.

(يا نايم، وحد الدايم)..

كأنه يضع بلسمًا على كل شقاء الشهور الماضية..

في صباح منتصف الشهر يبدأ موكب الكسوة الشريفة، بلونها الأخضر الزاهي من الحرير الدمشقي وخيوط الذهب والفضة ترسم الآيات الكريمة، والجمل يحملها، ويعبر الشوارع والدروب مختالًا، يعرف أي مكرمة فوق ظهره، هذا موكب الراحة الأخير، كأنه وداع لحلم مزدهر طال أمده.

الأحداث الصغيرة تتجمع وفلول بني عثمان تتجمع أيضًا في الشمال، والسلطان الغوري علق على أبواب القلعة مدفعًا قديمًا يطلق كل يوم من أيام رمضان طلقتين؛ واحدة للإفطار وأخرى للإمساك، ولكنه هو نفسه كان بحاجة لمن يوقظه، بحاجة لمن يقول له: إن هذا المدفع بالغ القدم لا يصدر إلا صوتًا عاليًا مزعجًا، أما مدافع بني عثمان فهي مهلكة، ستحصد حلم الدولة الزاهر التي هزمت التتار والصليبيين وسادت البر والبحر، وكان الغوري يعاني من اضمحلال في بصره، وكان كل يوم يقف في النافذة ويطل على المدينة التي تدين له بالخوف دون أن يراها جيدًا ويردد: «يا بصير، يا بصير». كان مشغولًا بخنق الأصدقاء في «العرقانة»، وتسليط أعوان «الزيني بركات» على الناس، ومغالطة تجار القوافل في الحساب، واحتكار صناعة السكر، وعندما وقعت أول معركة صغيرة بين جنوده على حدود الشام وبين جند العثمانيين في أحد أيام رمضان لم يتبصر، وظل يردد: «يا بصير، يا بصير»، ويتحسس الدنانير ويكدسها في خزائنه لعلها تعطيه إحساسًا بالحرية بدلًا من هواجس ذلك المملوك المشترى الراقد في أعماقه.

وفي آخر رمضان لم يكن هناك بُدٌّ من الخروج، رفع الأعلام وأرضى الأمراء والأتابكة، وأخذ الجيوش الجوانية وضمها إلى الجيوش البرانية، وسار إلى «مرج دابق» بعد أن كان بصره قد اضمحل تقريبًا، وخاض معركته الأخيرة بشجاعة تليق بوغد عجوز؛ لم يرَ حشود بني عثمان، لم يرَ بيارقهم

ولا أسلحتهم المصقولة الحديثة، ولكنه فقط سمع دوي مدافعهم كأنه يوم القيامة، وجمح به الحصان فألقاه على الأرض وداسته الخيول المنهزمة، لم يعرف لجسده طريق، ولم يبكِ له أحد على قبر، وزالت دولة الغوري كأن لم تكن، فسبحانك من لا يزول ملكه ولا يتغير على طول المدى.

ومثلما اختفى جسده، اختفى ماله، ففي اليوم الرابع عشر من الشهر نفسه وصل الخبر فجرًا إلى القاهرة، وكان الدوادار «طومان باي» يصلي بالناس في الأزهر فاغرورقت عيناه بالدموع، الهزيمة قاسية، وبقية الثمن لم يدفع بعد، استيقظت القاهرة واجفة، ترقب طومان وهو يسير بثوبه الخفيف الأبيض، خلفه الأمراء المقدمون وأمامه المصابيح والمشاعل، يخترق الطرق والحارات كأنه يبحث عن مخرج فترتفع له الأصوات بالدعاء، جاء اليوم يا طومان، كان محبًّا للعوام، لين الجانب، قليل الأذى، غير متكبر ولا متجبر، جاءه ميراث طويل من الملك مطعمًا بالدم دون أن يسعى إليه، وعندما جلس على العرش خطب له الأئمة من فوق كل المنابر، وهي المرة الأولى والأخيرة التي يخطب فيها للسلطان، فلم يكن يخطب إلا للخليفة، وفتح خزائن مصر، فوجدها خالية.

وكان اليوم التاسع من الشهر حزينًا، فقد استولى سليم شاه بن عثمان على دمشق، وملك قلعتها وقتل ستة وثلاثين من أمرائها، واختتم المشايخ البخاري في القلعة، وحضره السلطان فلم يخلع خلعة ولم يفرق صرة، كانت الجيوش الزاحفة تتقدم، والحرب الضروس تناديه والمصير التعس يمد خيطًا من الدم، من هزيمة «الريدانية» إلى أن علق جسده مشنوقًا على باب «زويلة»، ولم يأتِ عيد الأضحى إلا وقد نصر الله السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين؛ الملك المظفر سليم شاه.

أقبل رمضان التالي على مدينة مهزومة، يحكمها والٍ تابع للباب العالي بعد أن كان يحكمها سلطان له كل الأبهة والمجد، كان الوالي هو أحد المماليك الذي آمنهم طومان باي فخانوه؛ «خاير بك» الذي أصبح باشا، وأطلق الناس عليه خاين باشا، في الثامن من الشهر تزوج من خوند مصر باي زوجة طومان باي المقتول، كأنه أراد أن يرثه في كل شيء، وغاض النيل حنقًا وغضبًا، فلم يزد ارتفاع منسوب مياهه إصبعًا، وهدد العطش البلاد، وأشهروا في القاهرة أربع نسوة وهم على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد، قيل: إنهن يجمعن عندهن الأجانب من الأتراك في شهر رمضان، وبلغ حنق الناس مداه، فأخذوا يرجموهن بالطين والأحجار، كأنهم ينتقمون لكل مرارات الهزيمة، والسخط والأحلام المجهضة، وظل النيل يغيض، أربعة أعوام كاملة حكمها «خاين باشا» والنيل الذي يفي دائمًا في شهر رمضان قد أخلف مواعيده، مثلما أخلف خاين باشا مواثيقه، وعانى الناس من الجوع والعطش والقهر.

وكانت النهاية، مهينة وليست مأساوية، لمسة أخيرة على جرح مليء بالملح، جلس «خاين باشا» فتكاثر عليه المماليك والأمراء والمقدمون السابقون، كانوا يطلبون أعطية شهر رمضان، ولا بد أنه لمح في وجوههم بعضًا من عزة النفس التي لم تقتلها الهزيمة، وصرخ الباشا فيهم: «يا كلاب يا زرابين، أنتم بقى لكم وجه حتى تتكلموا، بيضتم وجوهكم في إيش؟».

وأمر الإنكشارية من حوله أن يضربوهم ويطردوهم من حول مقعده، فأسرع الإنكشارية بالعصيان وضربوهم ضربًا فاحشًا، وجاءت ضربة على كتف جاني بك الدوادار فخلعته، وبهدلوهم غاية البهدلة ونزلوا من القلة على أقبح وجه، وقال الشاعر المصري:

لما تكبرت الجراكسة التى كانت بمصر، أذلهم رب الورى..

هبطوا مكسوري الخاطر، أخفوا خجلهم بين الناس الذين ظلموهم كثيرًا، فلم يدرِ أحد أهم أحق بالرثاء، أم بالشماتة؟ وكان الجو حارًّا والأرض جافة والغلاء عامًّا، وانتظر الجميع حتى يأتي المساء وتهب نسمة عذبة من ناحية النيل، فترتعش القلوب، وتسود السكينة، وتدق الطبلة كالوجيب:

(يا نايم، وحد الدايم)..



لم يكن أحد يأبه باسمه، أو يراه أصلًا، برغم أن الغلام كان يتحرك في كل مكان، يمد النُّبَّلَ بالسهام أثناء المعركة، ويتذوق الطعام قبل أن يأكل القادة، ويحمل قراب النبيذ وهم يتسامرون، ولكن «كتبغا» كان أكثر ضآلة من أن يلاحظه أحد وسط هذا الجيش الجرار، الذي اجتاح العالم.

لم يلحظه أحد في تلك الليلة أيضًا، في هذا الاجتماع الخطير، وهو يقف متأهبًا لأي أشاره من قادة الجيوش، ولكنهم كانوا يجلسون منكسي الرؤوس، لا يجرءون على الكلام قبل أن يتكلم القائد الأعظم «هولاكو»، أمامهم خارطة مكونة من القش والأحجار الصغيرة توضح مسيرة الجيوش الظافرة، مجسدات مصغرة للمدن التي سقطت ونهبت واحترقت، خوارزم، بغداد، ميافارقين، دمشق وأخيرًا حلب، وغير بعيد منها توجد مجسدات للمدن التي لم تسقط بعد، عكا وغزة والقاهرة، وكان هذا الاجتماع سيقرر مصيرها، ولكن القائد العظيم كان مشغولًا بهَمٍّ آخر، تكلم هولاكو أخيرًا:

ـ جرؤ الموت على الخاقان العظيم «منكو خان»، أصبحت قبائل



المغول كلها في حاجة إلى خان جديد يضمها في قبضته، الرسل التي يبعثون إليَّ بها من «قراقورم»، لم تتوقف، إنهم جميعًا في انتظاري.

لم يكن هناك من هو أجدر منه أن يكون «الخاقان الأعظم» فهو حفيد جنكيز خان، وهو الذي حطم أعتى الأسوار، وأحرق كبرى المدن، وبعث بالخوف في أوصال العباد والملوك، ولكن أحد القادة تساءل متوجسًا:

ـ وماذا نفعل بدونك أيها القائد العظيم؟ نحن نستعد لأكبر المعارك، وفي انتظارنا تلك المدينة الغامضة «القاهرة» التي لا ندري من يحكمها.

قال هولاكو: سمعت عن هذا البلد كثيرًا، القدر وحده هو الذي يحدد من يحكم مصر، لا سلالة الدم ولا قوة السيف ولا بريق الذهب، القدر وحده يهبها لمن يشاء، وهي طيعة لحد السأم، قانعة كمذاق الموت، القدر وحده سيخبرنا من سيحكمها منكم.

لم يفرغ هولاكو من كلماته إلا وقد فتح باب الخيمة بلا استئذان، وخطا العراف الأعمى داخلًا، كأنه يعرف مدى حاجتهم إليه، حدق فيهم بعينيه الفارغتين، وحرك أنفه كأنه يتعرف عليهم من روائحهم، كان وحده من يستطيع أن يقرأ علامات الغيب، ويحس بدبيب القدر، وهو وحده الذي يحدد للقائد مكان المعركة وزمنها.

نهض هولاكو وتخلى له عن مكانه في صدارة المجلس، تراجع القادة جميعًا إلى أطراف الخيمة، سار بخطوات ثابتة حتى جلس في الصدارة، أدار وجهه بينهم كأنه يراهم ويقرأ ملامحهم المتوترة، قال هولاكو:

ـ يستعد قوادي لمواجهة بلد غامض يدعى مصر.. أريد أن أعرف من سيحكمه منهم ويكون ملكًا على عرشها؟

كأن العراف كان يعرف السؤال مقدمًا، أخذ يردد في صوت خافت

التمائم والتعاويذ الغامضة، وتأمله القادة الذين قهروا جيوش العالم بقلوب واجفة، كان مصيرهم محكومًا بالكلمات التي ستخرج من بين شفتيه، قال:

- «كتبغا» هو الذي سيحكم مصر.

ارتجف الغلام الصغير وهو يسمع اسمه يتردد على شفتي العراف، ولكن الأنظار كلها اتجهت صوب القائد العظيم «كتبغا»، قاهر ميافارقين ومدمر حلب، ابتسم هولاكو في رضا، لقد جاءت النبوءة بالشخص الذي يرضيه، أشجع قواده وأكثرهم قسوة وأقدرهم على الانتصار، هتف في ارتياح:

- فلتكن مشيئة القدر، منذ الآن أصبح «كتبغا» هو القائد الأعظم لكل جيوش المغول، وسوف أبدأ من الغد رحلتي الطويلة إلى «قوارقوم».

وكان القائد «كتبغا» على موعد في عين جالوت.

* * *

- لقد سعوا إلى حتفهم بأيديهم.

قال «كتبغا» سعيدًا وهو يتناول كأس النبيذ الصرف من يد غلامه «كتبغا».. رحل هولاكو سريعًا، ولكن الحرب جاءت أسرع. كانت عيون الجواسيس التي بثها في كل مكان قد أبلغته أن المماليك، ذلك الحرس الذي لا نسب له ولا جذور، قد استولوا على عرش مصر ويستعدون للخروج إليه؛ هؤلاء الحمقى يريدون مواجهته في العراء بدلًا من أن يخبئوا فرائصهم المرتعدة خلف الأسوار، عليه إذن أن ينتظرهم حتى يأتوا إليه، متعبين منهكين، فيقضي عليهم بضربة واحدة.

ولكن المماليك كانوا أكثر خفة ومهارة مما توقع، ساروا سريعًا بموازاة البحر وتجنبوا عبور الصحراء، وصلوا إلى غزة دون أن يكتشفهم أحد،

وباغتوا الحامية المغولية التي لم تكن محصنة بشكل جيد، قضوا عليها قبل أن تصل إليها أي نجدة، ثم واصلوا تقدمهم نحو الناصرة في قلب فلسطين.

لم يأبه «كتبغا» بهذا الانتصار الصغير، ونظر باستهزاء إلى جيشهم حين طالعه للمرة الأولى، كانوا جيشًا صغيرًا وناعمًا، مسربلًا بأردية من حرير، يعسكرون حول عين جالوت وسط سهل بيسان الممتد، يبدون في غاية الضآلة والضعف، أحس «كتبغا» بالغضب لأنهم يستهينون به وبقوته، لم يجرؤوا فقط على تحديه فقط، ولكنهم أرسلوا له أيضًا ذلك الجيش الهزيل؛ لذلك قرر أن يبدأ الحرب فورًا.

فوجئ المماليك بالهجوم المباغت، امتلأ السهل من حولهم بجند المغول، لم يحاولوا المقاومة أو التصدي، لووا أعنة الخيول وبحثوا عن طريق للهرب، توجهوا جميعًا للتلال القريبة حتى يحتموا خلفها، كان جبنهم متسقًا مع مظهرهم وسوء تقديرهم، شدد «كتبغا» وقواته في مطاردتهم وحاصرهم حتى لا يبقى منهم أحد، ثم حدث شيء غريب، توقف الجيش الهارب فجأة، أدار فرسانه أعنة خيولهم ووقفوا في مواجهة المغول، كأنهم جميعا قد قرروا الانتحار بدلًا من عار الهرب. انقض المغول وأحاطوا بهم واستعدوا لاستئصالهم، ولكن حدثت المفاجأة الثانية، خرجت من خلف التلال مجموعات كبيرة من الفرسان، مظهرهم مختلف، لا يرتدون الحرائر فقط، ولكن دروعًا من الزرد، وفي أيديهم سيوف معقوفة وباترة مصهورة من معادن مختلفة، وفي لحظات كانوا يحيطون بالجيش المغولي من كل جانب.

أحس «كتبغا» أن هؤلاء المخنثين قد نصبوا له فخًا مميتًا، ولكنه كان واثقًا في قوة النبوءة، فأخذ يقاتل بقوة، كان هو الذي يحاصر، ويباغت الجيوش، فكيف دارت الدائرة عليه؟ ألقوا عليه شبكة مجدولة من الأسلاك

الصلبة، تعثر جواده حتى كبا على الأرض، صاح في غضب، لم تكفه الهزيمة ولكنه وقع في الأسر أيضًا، لو أنهم تركوا له الفرصة لقتل نفسه، ظل مقعيًا مهانًا تحت الشبكة، تناثرت حوله الجثث، رفاق الانتصارات السابقة، موتى صامتون، ستتعفن أجسادهم في هذا السهل الواسع ولن تجدي معهم النبوءات.

عندما توقف القتال ساقوا «كتبغا» من رقبته، جعلوه يركع على ركبتيه أمام سلطانهم، كان مملوكًا نحيفًا ناعمًا مشذب اللحية اسمه «قطز»، كيف بالله استطاع هذا المخنث الانتصار عليه؟ قال له متهكمًا:

ـ أهو أنت، الذي تنبأ لك العراف بحكم مصر؟

ذهل «كتبغا»، شاعت الحكاية حتى وصلت لآذان الأعداء، قال:

ـ لم يتصور العراف أن يحكم هذا البلدَ واحدٌ من العبيد المجلوبين، قال السلطان: اقتلوه أمامي الآن.

كانت السيوف متأهبة، وملوثة أصلًا بالدماء.

* * *

ولكن الذين انتصروا معًا، أخذوا يتنازعون حول كل شيء، قسم المماليك الغنائم والأسلاب، ولكن كل واحد منهم ظل يعتقد أن القسمة لم تكن عادلة، سيق «كتبغا» الصغير وهو مربوط بحبل من عنقه وسط صف طويل من الأسرى، وعندما وصل الجيش إلى الصالحية فكوا قيوده، وأدرك أنه أصبح غلامًا تابعًا للقائد قلاوون، بدت أمامهم أرض خضراء وبحيرة المنزلة الممتدة، أصبح كل شيء آمنًا فجأة، وأصبح المماليك الذين كانوا أرقاء منذ أعوام قليلة يمتلكون مساحة شاسعة من الأرض،

ونفوسًا من البشر، ومدنًا وقرى ودساكر، تمتد من حدود السودان إلى ذرى الشام، ملكًا خالصًا لا ينازعهم فيه إلا بضع إمارات صليبية صغيرة ومرتعدة بعد أن سمعت أنباء انتصاراتهم.

ولكنهم لم يستريحوا، ولم يهنئوا، كان القائد الضخم «بيبرس» غاضبًا، نفس الغضب الذي كان يبدو عليه وهو يقاتل المغول، كان مخيفًا، يحف به الهواء وهو سائر فيصدر صوتًا عاليًا، وعندما خرج الجميع للصيد، أدرك «كتبغا» وهو يعدو مع بقية الغلمان خلف خيولهم أن شيئًا ما على وشك الحدوث، كان الجو معبئًا بالنذر، السلطان وحده هو الذي يضحك في انشراح، دخل بجواده خلف دغل من الأشجار فاندفعت كل الخيول وعندما دوت صرخة عالية، لم يتصور أحد أنها صرخة السلطان، أسرع بالدخول خلف الدغل ثم توقف مذهولًا.

كان الأمراء وقادة الجيوش الذين حاربوا معًا يقفون جامدين، وأمامهم يقف القائد القاسي بيبرس وسيفه يقطر منه الدم، وعلى الأرض يرقد السلطان «قطز»، بطنه مفتوح ودمه متدفق، يرفع يده متوسلًا، لكنهم يحدقون فيه بوجوه جامدة، بنفس الصرامة التي هزموا بها المغول، ظل السلطان يقاوم حتى همدت حركته تمامًا، وصاح بيبرس في الجميع:

ـ دعوه في العراء، وسوف تخلصنا الضواري من كل أثر له.

وبدأ الجيش الرحيل مرة أخرى إلى القاهره، كانت أكبر المدن التي رآها «كتبغا» وأشدها ازدحامًا، خرج سكانها جميعًا يهنئون سلطانهم بالنصر، ولكنهم فوجئوا أن الذي يتقدم الموكب سلطان آخر، كانوا مذهولين في البداية، ثم بدأوا يحيونه في تردد، ويهتفون له في خفوت، ولكن موكبه تواصل ووجهه الغاضب أصبح أكثر احمرارًا، فدخلت الناسَ الخشيةُ وأخذوا يهتفون بحياته بحماس زائد، كانت القاهرة دوما، ملكًا لمن

غلب، وأدرك «كتبغا» درسه الأول في هذا البلد الغامض: «اقتل سلطانًا تصبح سلطانًا».

* * *

عرش سائب، هدف لأي طامح، فلماذا لا يكون من نصيب غلام مغولي مهزوم ومجهول النسب؟ لم يعد «كتبغا» غلامًا، كان قد أخذ مساره الطبيعي وأصبح فارسًا، تحول من غلام هامشي إلى مقاتل شديد المراس، لم يعد الأمير «قلاوون» يحس بالأمان إلا وهو بجانبه، كان خائفًا منذ أن شاهد «قطز» صريعًا وسط أحراش الصالحية، ولو تهاون لحظة فسيكون هو الضحية التالية؛ لذلك حوَّل كل من يحيط به إلى مقاتلين، الأسرى والغلمان المجلوبين والأولاد المخطوفين، كون منهم حرسًا غريبًا متباين الأعراق، ولكن تجمعهم لغة واحدة هي لغة السيف.

نجا قلاوون من كل صنوف القتل المتربصة به، وأصبح سلطانًا لمصر بعد موت بيبرس، تذكر «كتبغا» تلك النبوءة البعيدة حين سار خلفه، سمعه وهو يقول له ممتنًّا:

ـ أنت درع حياتي يا كتبغا، ابقَ بجانبي ما دمت حيًّا، واحمِ أولادي بعد موتي، عاهدني على ذلك.

عاهده «كتبغا» برغم أنه كان يردد لنفسه دومًا القاعدة الأساسية: اقتل سلطانًا تصبح سلطانًا، لم يجرؤ على قتل أستاذه، لم تكن هناك مساحة كافية بينهما ليرفع فيها سيفه، ورحل قلاوون ليجيء من بعده ابنه «الأشرف خليل»، كان سلطانًا مبهرًا، لم يترك للجميع فرصة ليفكروا في استحقاقه للعرش الذي يجلس عليه، أعلن الجهاد على كل الثغور التي كان الفرنجة ما زالوا يمتلكونها في الشام، بدأ بثغر عكا الحصين، أخذه الفرنجة من يد صلاح الدين ومات قبل أن يقدر على استرداده،

ولكن السلطان خليلًا فعلها، حاصر القلعة حتى أسقطها، وبدأت بقية الإمارات الصغيرة في الانهيار، استولى على عشرة ثغور مهمة في أقل من خمسين يومًا، قضى بضربة واحدة على الفرنجة الذين استولوا على الأرض لعشرات السنين حتى ظن البعض أنهم لن يرحلوا أبدًا، صنع معجزة لم يقدر سلطان من قبله على صنعها، وأضيئت له الشموع وهو يدخل منتصرًا إلى شوارع القاهرة.

كيف يمكن أن يرفع سيفه في وجه سلطان مثل هذا؟

ولكن اللعبة لم تتوقف، لم يبالِ الأمراء المقربون من الأشرف خليل ببطولاته، قرروا أن دورهم هم أيضًا قد حان في اعتلاء العرش، كانت هناك رحلة صيد وخلاء وشهود متواطئون، شاهدوا مقتلة السلطان وباركوها في صمت، ولكن «كتبغا» تنبه هذه المرة، كان قويًا وقادرًا على القيام بفعل من أجل القبض على القتلة، وزاد من قوته وقوف الأمير «سنقر الشجاعي»، الذي كان قد حضر من الشام في زيارة قصيرة، بجانبه، قبضوا على القتلة ونصبوا «الناصر محمد بن قلاوون» الذي لم يكن عمره يتجاوز الأعوام التسعة سلطانًا على مصر.

طفل آخر في إيهاب سلطان يجلس على عرش سائب، ولكن كل واحد من الأميرين كان يتأهب ليسبق الآخر في صراعهما على العرش.

* * *

تشاجر الأميران معًا، لوح الأمير «يلبغا» بقبضته وهو يهتف: لقد قلبت عليَّ المماليك البرجية وحرضتهم ضدي، وحاول «سنقر الشجاعي» أن يصل إلى عنقه وهو يقول: وأنت جمعت ضدي كل أوباش المغول والأكراد، وكان السلطان الصغير يجلس على عرشه مرعوبًا، وهو يصيح بلا جدوى: اهدأ يا عمي، وأنت يا عمي الآخر، كانا نائبيْه، والوصييْن على

عرشه، ولكن كلًّا منهما كان يجذب لحية الآخر في حنق، ومن حسن الحظ أنهما لم يكونا يحملان السيوف، وعندما ازدادت حدة الشجار، لم يجد السلطان الصغير بُدًّا من أن يترك العرش ويجري إلى الحريم ليلقي بنفسه في حضن أمه أشلون خاتون وهو يبكي مرتعدًا.

لم يجد «كتبغا» بُدًّا من مغادرة القلعة، كان أعوانه فيها قلائل، يحيط بهم المماليك البرجية المتحفزون من كل جانب، سيوفهم جاهزة وسهامهم مصوبة، كان عليه أن يفلت سريعًا قبل أن يتخذوا قرارًا بقتله، وعندما سمع الباب الضخم وهو يغلق من خلفه أصبح متأكدًا أنه لن يفتح له طوعًا مرة أخرى، استأثر الشجاعي بالقلعة بمن فيها السلطان وأم السلطان.

أفلت «كتبغا» من الموت، ولكنه أصبح بعيدًا عن مركز السلطة، عليه أن يفتح خزائنه ويسابق الزمن ليجمع أعوانه وأنصاره قبل أن يكون لقمة سائغة للشجاعي، استيقظ المغولي القديم داخل «كتبغا»، كل الخبرات المتوارثة في حصار المدن والقلاع، أحاط أسوار القلعة بجنوده، ومنع السقائين الذين يحملون قراب الماء على ظهور حميرهم من الدخول، كان يعرف أن النيل غائض ولا توجد في بئر القلعة إلا مياه قليلة عطنة، ثم منع صعود باعة الألبان والخبز والخضار واللحوم و حملة الوقود والفحم والخشب.

ولكن القلعة ظلت صامدة لايظهر عليها وهن، ولا يبدي الشجاعي أي نية في الاستسلام، ومر أسبوع كامل قبل أن يشاهدوا راية بيضاء تلوح من خلف الأسوار؛ راية وحيدة يرفعها شخص مفرد، وحين ذهب كتبغا مترددًا إليها وجد «أشلون خاتون» تقف مرتعدة، وشعرها يتطاير مع الهواء، ووجهها الذي طالما اشتهاه الجميع جائعًا وشاحبًا، كانت من أصول مغولية مثله، قالت له:

ـ ماذا تريد أن تفعل بولدي؟

قال كتبغا:

ـ هو سلطاني، لا أنوي له شرًّا، ولا أريد إلا طاعته، ولو ترك أستاذي قلاوون بنتًا عمياء على العرش لأطعتها، كل ما أريده هو أن أؤدب الشجاعي الذي ألب عليَّ الجند وأثار الفتن.

كان لا بد من صفقة ما يعقدانها معًا، تخرجهما من ورطة الجوع والحصار، ومن حسن الحظ أن الريح قد هدأت وأصبحا قادرين على الحديث دون صراخ.

في اليوم التالي، استدعى السلطان الجائع نائبه الجائع سنقر الشجاعي، قال له في وهن:

ـ يا عمي.. نريد أن ننهي هذه المشكلة بينك وبين كتبغا دون مزيد من القتل والخراب، لقد أعطيتك ولاية حلب، فاخرج إليها آمنًا مع جيشك ولن يتصدى لك أحد.

كان حلًّا لا ينهي الصراع، ولكن يؤجله مؤقتًا، وكانت فكرة خروجه وجنده سالمين إلى إمارة غنية مثل حلب فكرة مغرية، يخرج ضعيفًا وجائعًا، ويعود قويًّا وقادرًا، وأقسم السلطان برأس أبيه إنه لا توجد مصيدة ما، وإن «كتبغا» موافق على خروجه سالمًا، فهو أيضًا لا يريد أن يدخل صراعًا غير مضمون النتيجة.

فتحت أبواب القلعة أخيرًا، ولم يحرك أحد من جنود كتبغا ساكنًا، خرجت ثلة من الجنود البرجية، وقفوا متحفزين شاهرين سيوفهم، وظل جنود كتبغا جامدين، خرج سنقر الشجاعي، واندس وسطهم بحيث أصبح محميًّا في المقدمة، وانتظر خروج بقية جنوده ليحموا

مؤخرته، ولكن باب القلعة بدأ في الانغلاق، لم يتركوا الفرصة لخروج بقية الجنود، فوجئ الشجاعي أنه يقف خارج الأسوار، وليس معه إلا أقل من ثلث جيشه، و «كتبغا» يقف أمامهم والسلطان وأمه يطلان عليه من فوق السور.

كانت معركة قصيرة، نتيجتها حاسمة، ذبح الشجاعي وقتل كل من معه من جنود، تكومت جثثهم على الممر المؤدي إلى أبواب القلعة، دخلها «كتبغا» أخيرًا وهو السيد الأوحد، وحتى المماليك البرجية الذين كانوا يناوؤونه أسرعوا يقدمون إليه فروض الطاعة والولاء، سار بخطوة واثقة إلى القصر الأبلق، كان السلطان جالسًا في انتظاره، واثقًا بأنه قد أنجز جانبه من الصفقة، ولكن «كتبغا» دخل عليه وقد أصبح أكبر حجمًا، سار نحوه مباشرة بخطوات سريعة، لم يتوقف حتى ليظهر أي بادرة احترام، اندفع نحوه، أمسك بخناقه وهو يرفعه من على الكرسي، هتف السلطان مذعورًا: ماذا تفعل ياعمي؟ دمدم «كتبغا» وهو يلقي به بعيدًا:

ـ ما كنت لأفعل كل هذا حتى يبقى غلام مثلك على العرش.

كان كرسي العرش ما زال دافئًا، ولكنه جلس عليه وهو يتنهد في ارتياح بينما تكوم السلطان الصغير في الركن وهو يجهش يالبكاء.



أمرت شجرة الدر جواريها: أحضرن كل صناديق جواهري.

كثيرة وثقيلة، مصنوعة من خشب الأبنوس والورد، ومشغولة بالذهب والفضة، فتحنها فامتلأت الغرفة بألوان الطيف، تألق اللؤلؤ الصافي، والذهب الداكن الصفرة، والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر كدم الحمام، والماس المضيء، انعكست ألوانها على وجهها الشاحب، تحسستها بأصابع مرتعدة، كانت باردة ككل شيء يحيط بها.

التفتت إلى الجواري مرة أخرى وأمرتهن: أحضرن الهون، ظللن واقفات لا يفهمن ماذا تعني، ولكن واحدة منهن كانت أكثر انتباهًا، ذهبت إلى مطبخ القصر حيث الهون النحاسي موجود في أحد الأركان، تفوح منه رائحة الثوم المهروس والبهار وجوز الطيب، حملت معه الذراع النحاسية الثقيلة وعادت به إلى السلطانة.

وللمرة الثالثة صاحت فيهن: اتركنني وحدي، فخرجن جميعًا.

أخرجت قطعة الجوهر الأولى، عصبة مشغولة من الدر الخالص، كانت تغطي بها جبينها فينعكس الضوء الناصع على وجهها، ومنها اكتسبت اسمها وصفتها، بلا تردد ووضعتها داخل الهون، بدأت تهوي عليه باليد



المعدنية، تقلبت حبات الدر تحاول الهرب، ولكنها واصلت الدق في إصرار، تفككت خيوط الفضة، تشقق الدر وراوغ قليلًا ولكنه استكان، انسحق في نحيب مكتوم. عندما لبست هذه العصبة للمرة الأولى لم يستطع الملك نجم الدين أن يقاوم فتنتها، كأن تألق الدر قد كشف عن مكامن الرغبة في داخلها، انساق إليها مسحورًا، أخذها إلى فراشه منذ الليلة الأولى التي دخلت فيها إلى قصره، لم يبالِ بانتظار إعدادها وتجهيزها كما هي العادة مع بقية الجواري، أو حتى تشفى من آثار قيود النخاس حول معصميها.

واصلت شجرة الدر الصحن وهي تمتم: لن أدع أي زانية أخرى ترتديه من بعدي.

كانت كل الزانيات، بمن فيهن جواريها الخصوصيات، ينتظرن اللحظة التي تسقط فيها، ليصبح كل شيء نهبًا لهن، لم تكن تصحن الدر فقط، كانت تصحن كل ذكرياتها مع الملك نجم الدين، تتساءل في حرقة: كيف تدهور بها الحال إلى هذا الحد؟ كيف أصبحت ملكة مصر، عصمة الدنيا والدين، مهددة من كل كلاب مصر؟ كيف هتك سترها، وتبددت هيبتها، وأصبحت نهبًا لكل طامع أو حقود؟

بدأ ذلك في ليلة مريرة ودعت سيدها ومولاها، الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان النهر ساكنًا، والسفينة جاهزة بملاحيها، التابوت في باطنها، لا يعلم ما بداخله إلا قلة معدودة، وكان قائد الجيوش فخر الدين واقفًا على حافة السفينة في انتظارها، أقبلت بطولها الفارع، وثوبها الأبيض المطعم بالدر، إلهة قمرية تخوض بقدميها في طين الشاطئ، ويبلل الماء البارد حواشي ثوبها، سألها في قلق: هل أحس أحد بنا؟ قالت: بعد كل ما بذلناه لم أكن لأسمح بهذا مهما كان السبب، بدأ «المراكبية» في ضرب

المجاديف متجهين للجنوب، الموج في عكس اتجاههم، ولكن الريح ملأت الأشرعة، ومن ناحية الشاطئ الآخر هبت رائحة اللحم المحترق، وبدت ألسنة من اللهب مشتعلة في بيوت الطين وصوامع الغلال، والتفتت نحو فخر الدين متسائلة، هز رأسه في بؤس وهو يقول: كانت هناك معركة طاحنة في الصباح، بدت أشجار النخيل تحت ضوء القمر هي أيضًا محترقة الهامات، قالت: إلى متى نستطيع المقاومة؟ قال: طالما بقي هذا الأمر سرًّا. كان هذا هو بالضبط ما تفعله، تضع الجسد في النعش وتحمل النعش بعيدًا قبل أن تفوح رائحة الموت، أمرت «المراكبية» أن يزيدوا من سرعة التجديف، تريد أن تصل سريعًا قبل أن يتحلل البدن، وتعود أسرع قبل أن يشيع الخبر، قالت: أريد أن أهبط إلى قاع السفينة، لا أريده أن يرحل وحيدًا للعالم الآخر، قال فخر الدين بصوت مكتوم: لقد رحل وانتهى الأمر، رمقته بنظرة قاسية، لم يمت الملك بعد، لقد حرصت على أن يظل حيًّا حتى وهو داخل النعش، سار خلفها واحد من «المراكبية»، أضاء لها الدرج المؤدي لقاع السفينة بواسطة شمعة، هبت رائحة ثقيلة مشبعة برائحة الخشب المتعفن والطحالب الميتة والقطران، وكان النعش مثبتًا فوق عوارض خشبية حتى لا يسقط ما بداخله، مغطى بعباءة خضراء من الحرير، العباءة نفسها التي كان يرتديها حين صعد إلى دست الملك، وضعتها على نعشه لتؤكد لنفسها أنه لم يمت بعد، أشارت «للمراكبي» أن ينصرف، تريد أن تبقى وحدها معه، تمامًا مثل ليلتهما الأولى معًا، حين أصرت على أن يخلي الجناح كله من الجواري والقهرمانات والخصيان، لم يعرف السبب إلا عندما سمع الأصوات التي تصدرها وهي تمارس الحب، ملتهبة ومتوفزة، لم تهدأ رغبتها طوال رحلتها الطويلة من جبال أرمانيه إلى سفوح الشام، أحبته في تلك الليلة كما لم تحب أحدًا من قبل، برغم الأيدي التي تبادلتها ظلت متأهبة ليضع فيها بذرته ويتكون ابنه «خليل»؛ الأمل العذب الذي لم

يعمر طويلًا؛ الحزن الذي سكن روحها حتى هذه اللحظة، أزاحت غطاء النعش قليلًا، أمسكت الشمعة وقربتها، تأملت وجهه الذي تكسوه الزرقة، ولحيته المسترسلة، هل استطالت قليلًا؟ كانت له ملامح خليل الراحل، همست له: إذا قابلت خليلًا قبله عني، أحست برغبة حارقة في البكاء، الرجال الذين أحبتهم تركوها وحدها، انهار الملك عندما سمع خبر سقوط دمياط في يد الفرنسيس، نقطة الضعف على السواحل مصر، سقطت للمرة الأولى عندما كان في الثانية عشرة من عمره، حاصرها الفرنجة وذبحوا أهلها جميعًا، يومها دق أبوه صدره في غضب وحزن، وعندما تولى الملك عاهد نفسه ألا تسقط هذه المدينة مرة أخرى، في المرة الثانية كان مستعدًّا لقدوم الصليبيين، جاء ملك فرنسا لويس التاسع، محملًا برؤى القديسين، أصابه المرض العضال طويلًا، وأعتقد أن خلاص جسده الواهن من كل هذه الأمراض لن يتحقق إلا بإراقة أكبر قدر من دم الكفرة المسلمين، فهم لا يدنسون بيت المقدس فقط، ولكن يدنسون العالم الذي خلقه الرب بأسره، ظل يعد لهذه الحملة ثلاث سنوات متواصلة، فرض ضريبة خاصة من أجلها، وتلقى مباركة بابا روما وموافقته، وحصل على الدعم المالي من نبلاء أوربا ومشاركة رعاياهم في زمرة المقاتلين، ودفعت دمياط من لحمها ودمها ثمن هذه المهمة المقدسة، كان الجيش المصري قد اتخذ معسكرًا بالقرب منها، مستعدًّا لمنع نزول الفرنجة، ولكن قائد الجيش الأمير فخر الدين، أصيب بهلع لا مبرر له، فعندما ظل لبضعة أيام لا يتلقى ردًّا على الرسائل التي كان يرسلها لقصر الملك الصالح بواسطة الحمام الزاجل، اعتقد أن الملك قد مات، جمع قواته وانسحب فجأة، ترك دمياط وأهلها عاريين تحت وطأة السيوف، لحظتها هتف الملك في مرارة: أما قدرتم أن تقفوا ساعة أمام الفرنجة؟ ولم يقم بعدها.

اهتزت السفينة وسط دوامات الماء، خيل لشجرة الدر أن الملك

يشهق، ويعاوده الموت من جديد، كانت بجانبه في لحظته الأخيرة، أدركت أن المصيبة قد تضاعفت، وأن التخاذل سيصيب الجميع، ستلحق المنصورة بدمياط، وتتسع حدود الدم لتغرق مصر كلها، همست له: اطمئن يا سيدي ومولاي، لم يعلم أحد بموتك حتى الآن، ما زالوا يقاتلون وهم يعتقدون أنك خلفهم.

اتخذت شجرة الدر هذا القرار وحدها، في اللحظة التي مدت فيها أصابعها وأسبلت عيني الملك الصالح، ظهرت شخصيتها الصارمة، هددت الخدم المقربين بالقتل لو أذيع الخبر، وأمرت الأطباء بمواصلة الزيارة اليومية، وأمرت الكتبة أن يرسلوا لها كل رقع المكاتيب ووقعتها بأحرف الملك، وختمتها بختمه، وواصلت الجلوس خلف الأستار، في كل ليله تقابل القادة ومقدمي الجنود، وتحدثهم في ثقة: يقول لكم الملك.. لا تتراجعوا من أمام فارسكور، قاوموا عند أشموم طناح، سدوا منافذ البحر الصغير، هكذا ظل الملك الصامت يتحدث على لسانها كل مساء، كان يجب أن تطلع الأمير فخر الدين على ما حدث، فبرغم هزيمته المخزية وضياع دمياط من يده فإنها لم تجد له بديلًا وسط كل هؤلاء المماليك المجلوبين، كانت تقود معركة أكبر من طاقتها، وتواجه تحديًا لم تحلم بمواجهته، ولكن لم يكن أمامها إلا أرض محروقة، وليس في ظهرها إلا جثة هامدة، فأين المفر؟

ولكن الجثة لم تكن لتبقى طويلًا في قصر المنصورة، كان يجب أن تنقلها قبل أن يشم الجميع رائحتها، قررت أن تذهب بها إلى القاهرة، إلى قصر الملك في جزيرة الروضة حيت تختفي كل الأسرار، وأن تبعث بالرسل سريعًا إلى ابنه توران شاه في قصره في قلعة «كيفا» على حدود الشام؛ حتى يأتي ويتسلم ملك أبيه ويكمل معركته.

تواصلت الرحلة، ومَرَّ الزمن كأنه يوم ممتد وثقيل على صدرها، وأخيرًا دارت السفينة حول جزيرة الوراق ودخلت إلى البحر الأعظم حيث توجد قلعة المقياس. آن للجسد المتعب أن يرتاح أخيرًا في ثرى قلعته، كان قد كره قلعة الجبل حيث حكم سلاطين بني أيوب الستة الذين سبقوه، فلم يستطع احتمال جو المؤامرات بداخلها، ورائحة الدم التي تفوح من أبهائها، أراد أن يكون هناك مكان جميل لحياته ولموته، أرسى «المراكبية» السفينة، وحملوا النعش للداخل، قالت لهم: عودوا للسفينة وابقوا على تأهب للرحيل، قال فخر الدين: أصبحت الرائحة لا تطاق، يجب أن نغسله ونكفنه سريعًا. لم يخجل من أن يبدي تأففه في حضور الملك، ولم تكن هي متعجلة لفراقه إلى هذا الحد، حضر المغسلون والمكفنون، أقسموا أمامها إن أحدًا لن ينبس ببنت شفة، ثم بدأوا عملهم، كان الجسد ضخمًا ولكنه رخو، أعضاؤه توشك على الانفصال عن بعضها، فهل ينفصل ذلك الملك الشاسع الذي خلفه هذا الرجل؛ ملك بني أيوب المليء بالجروح؟ متى يأتي توران شاه ويخلصها من هذا الحمل الثقيل؟ كانت تعرف أنه يكرهها ولا يطيق وجودها، ولكنها كانت تنوي الانسحاب من أمامه وأن تختفي خلف أستار الحريم، كل شيء انتهى، ولم يعد هناك رجل غير الملك الصالح جدير بلمس جسدها.

فرغ المكفنون من عملهم، استلزم الأمر كمية مضاعفة من الشيح والزعفران حتى لا تنفر الملائكة من رائحته، حفروا قبرًا في حديقة القصر، الآن سينام هادئًا بين الأسوار دون أن يستطيع الفرنجة الوصول إليه، أمرتهم أن يلفوه في عباءته الخضراء، وعندما حمله الخدم ارتفعت الصرخات الملتاعة من كل مكان في القصر. بكى الحرس والخدم وصرخت الجواري، وحاولت شجرة الدر أن تسكت الجميع، ولكنها وجدت نفسها تصرخ معهن، أخرجت من جوفها كل الصرخات التي

تأخرت طويلًا، وأخذت المعاول تهيل التراب على القبر حتى سدت الحفرة، وارتفعت أصوات المرتلين يرددون آيات القرآن، انسحبت شجرة الدر من أمامهم، لكنها لم تعد إلى القصر، لم تغير الثوب الذي جاءت به، ولا الوشاح الذي يغطي رأسها، عبرت فناء القلعة وهبطت على الدرج المؤدي للنهر، وكان فخر الدين ما زال يتبعها، وأشارت للملاحين فطووا الأشرعة وعادت السفينة تسبح مع التيار متجهة للشمال.

يد الهون ما زالت تهوي، تحول كل شيء إلى قطع وشذرات متكسرة، كان هناك طرق على الباب، وصوت متوسل من إحدى الجواري يهتف: افتحي يا مولاتي، هناك أشخاص يلحون في رؤيتك، ولكنها في تلك اللحظة كانت تمسك في يدها بالتاج الذي وضعوه على رأسها عندما تم اختيارها سلطانة لمصر؛ تاج من الذهب الخالص المطعم بالزبرجد، وضعته هو أيضًا وأخذت تهوي عليه. تلوت الحواف الذهبية، وانفصل الجوهر، وبدأ الدر في التفتت؛ التاج الذي وضعته على رأسي لن تلبسه زانية أخرى، وواصلت صحن كل شيء دون أن تأبه بالتوسلات القادمة عبر الباب.

في تلك اللحظة النادرة، أحنى الجميع رؤوسهم أمامها، القادة الذين حاربوا وأسروا ملك الفرنسيس، ثم تحالفوا وقتلوا توران شاه من بعده، الذين مهدوا الطريق أمامها للعرش، حتى عز الدين أيبك كبير المماليك، الذي قاد خطة قتل الملك السابق، انحنى هو أيضًا أمامها، كانت هذه لحظة مجدها التي لن ينساها أحد، ارتعد جسدها وهم يضعون هذا التاج على رأسها، كأنها تتلقى أولى لمسات المتعة، رددوا الحجج الشرعية وقبلوا الأرض فأنعمت عليه بالخلع والأموال، دقت الكوسات وصعد الشيوخ إلى المنابر وهم يهتفون: «واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة

المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح» كانوا جميعًا منتشين بالنصر برغم أن الحرائق لم تنطفئ، والجثث لم تدفن بعد، كان ملك الفرنسيس لويس التاسع قد دفع الفدية كاملة، وانسحب مَنْ بقي من رجاله، وتركوا خلفهم مئات القتلى، سيدفنون في أرض الفلاحين، وتتحلل عن أجسادهم كل نوايا الشر، لعلهم يساهمون في إعادة تخصيب الأرض التي أحرقوها.

كانت أيام الحرب قاسية، والفرنسيس يخترقون مخاضات الطين في الدلتا دون أن يقدر أحد على إيقافهم، وفرسان المماليك يناوشون ويتراجعون، لا يدخلون في معركة حقيقية، وعندما وصل الملك توران شاه من حصن كيفا، ودخلت شجر الدور خلف أستار الحريم كان الوضع قد أصبح بالغ السوء وأصبحت الحرب تدور في ضواحي المنصورة وقراها، ولم يكن أحد يعلم إلى متى يستمر التراجع، وإلى أي مدى ستتسع مساحة الأرض المحروقة. كان توران شاه يكره الجميع؛ يكره زوجة أبيه، ويكره مماليكه، ولا يرى في الفرنسيس إلا سببًا في تأخير انتقامه منهم جميعًا، وبحثت شجرة الدر عن مكان خارج القصر، ثم أخذت تبحث لها عن مكان خارج مصر كلها.

لكن ميزان المعركة تغير، قرر الصامتون أن يكونوا طرفًا في الحرب التي تأكلهم ويدفعون ثمنها، كانت قرى الفلاحين تحرق، ومحاصيلهم تصادر، وبهائمهم تباد، ونساؤهم تغتصب، لا قلاع تحميهم ولا أسوار تحيط بهم، كانوا وقودًا حيًّا لمحرقة لا تتوقف، لكنهم أدركوا أن الأمور لا يجب أن تستمر على هذه الحالة، خرجوا وهم لا يحملون سوى الفئوس والشقارف، وقد ربط كل واحد منهم على رأسه إحدى «حلل» الطهي المعدنية بدلًا من الخوذة، وأمسكوا في أيديهم أغطية الحلل بدلًا من

الدروع، هجموا على مؤخرة الفرنجة، على فرسان الهيكل ونبلاء أوربا، من فرنسا روبرت دي أرتوا، وشارل دي إنجو، وبيتر دو بريتاني. ومن نبلاء الإنجليز وليم أوف سليزبوري، ومن أسكتلندا باتريك أوف دونبار، بأتباعهم وخيولهم وعتادهم، هجموا على هؤلاء جميعًا في لحظات من اليأس والقنوط، لم يصدقوا أن هؤلاء الفرسان المدرعين ذوي الألقاب الفخمة قابلون للموت.

حرق الفرنجة قراهم في النهار، فحرق الفلاحون خيامهم في الليل، قتلوا بهائمهم فأصابوا خيولهم، تعلم الصامتون أن المقاومة لا الاستسلام هي التي تبقيهم على قيد الحياة، تجمع الفلاحون من كل القرى البعيدة وانضموا إليهم، كان الأمر أكبر من أن يترك لفلاحي المنصورة وحدهم، وحتى الصيادون جاؤوا من الإسكندرية ورشيد وفارسكور والمنزلة، شاهدوا سفن الإمدادات الطويلة التي سيرها الفرنجة في البحر الصغير للنيل، تمر عليه المؤن والعتاد آتية عبر البحر من أوربا إلى دمياط، ومنها تبحر عشرات السفن الأصغر حجمًا إلى البحر الصغير حاملة الرجال والمؤن والسلاح، إلى معسكر جيش الصليب على حدود المنصورة. ربض الصيادون يراقبون السفن، انتظروا حتى دخلت واحدة منها إلى مخاضة الطين؛ البقعة التي تكون فيها مياه النهر أقل ارتفاعًا والسفن أبطأ حركة، كأنها بطة عرجاء. كانت هذه فرصتهم ليهاجموا، استولوا على السفينة الأولى وقتلوا كل ما فيها من ملاحين واستولوا على عتادهم، ولكنهم كانوا خائفين من أن يعود الفرنجة ويستردوها، كان لا بد من جرها للشاطئ، خلعوا الصواري والدفة وكل الأشياء الصالحة للخلع، ربطوها بالحبال، تعاونت عشرات الأذرع القوية والإبل الصبورة على سحب السفينة من النهر، جعلوها تنزلق على جذوع أشجار النخيل حتى ابتعدت

عن الشاطئ، تمامًا كما فعل أجدادهم وهم يدفعون كتل الصخر التي بنوا بها الأهرامات. التاريخ لا يموت، وخبرات العمل والشقاء تتوارث وتبقى محفوظة داخل أنسجة البدن المصري، بهذه الطريقة استولى الصيادون والفلاحون على عشرات السفن، سحبوها واحدة وراء الأخرى، عبروا بها الأرض المحروقة، أنزلوها في الجهة الأخرى من النهر حتى أصبحت تحت إمرة الجيش المحارب، وسدت الطريق إلى المنصورة.

اكتشف الفرنجة أن النهر قد أصبح فجأة خاليًا، كأن مياهه قد تحولت إلى رصاص ذائب، ناءٍ وكثيف ومعاد. جفت الإمدادات، انقطعت الصلة بدمياط التي كان الملك لويس التاسع قد اختارها عاصمة لمملكته فيما وراء البحار، حتى أوربا لم تعد موجودة، قام فرسانه بهجوم يائس على المنصورة، ولكنهم انسحقوا، قتل صفوة جيش الفرنجة وأعظم الأسماء فيه، وظلت بقية الجيش محاصرة لا تستطيع التراجع ولا تقوى على الصمود، وعندما هجم عليهم فرسان المماليك كانوا مستسلمين لمصيرهم، وتوسل الملك إليهم باكيًا حتى لا يقتلوه. ساقوه أسيرًا إلى دار ابن لقمان، داخل حواري المنصورة التي كان يحلم بغزوها، بقي سجينًا فيها لمدة ٢٢ يومًا، بينما كانت أوربا كلها تعتقد أنه انتصر، وأن سلطان مصر قد عُرض عليه ولكنه رفضه حتى لا يحكم أمة من الكفرة، ولكن أصحاب النصر الحقيقيين كانوا يحتفلون بطريقة مختلفة، كل واحد كان ينسبه لنفسه، اعتقد السلطان توران شاه أنه انتصر بسبب قسوته على الأعداء، والمماليك لشجاعتهم في المواجهة الأخيرة، و شجرة الدر لحكمتها في لحظة فارقة بين النصر والهزيمة، ولم يأبه أحد بالصامتين الذين عادوا إلى حقولهم المدهوسة وقراهم المحترقة، يدفنون موتاهم ويأسون جرحاهم ويغرسون بذور الموسم القادم.

.. خلف الباب أصبحت الضجة أعلى من المعتاد، اختفت أصوات الجواري وحلت بدلًا منها أصوات آجشة لرجال غاضبين، تحولت التوسلات إلى أوامر: افتحي الباب وإلا سنكسره وندخل رغمًا عنك.لم تأبه بهم، كانت باب غرفتها أقوى من هذه التهديدات الجوفاء، تعودت أن تغلقه جيدًا حتى لا يغتالها أحد وهي نائمة، واصلت صحن مجوهراتها بالإصرار نفسه، كانت تمسك بقلادة من الياقوت الطبيعي النادر الوجود، أحمر كدم الحمام، حمله التجار من بلاد «سيام» البعيدة، ودفع فيه عز الدين أيبك نصف الغنائم التي غنمها في حرب المنصورة، انحنى أمامها قبل أن تسمح له بأن يضعه حول عنقها، هدية زواجه منها، لحظتها رأت تلك النظرة الجائعة في عينيه، ارتعدت لأنها اعتقدت أنه جائع إلى جسدها، ولكن جوعه كان أكثر شراهة مما تصورت، وضعت العقد في الهون وبدأت تهوى عليه، كانت قاسيًا وصلبًا، تلوت الحبات الحمراء حتى أصابتها الضربات المتلاحقة بالتصدع، انتشرت فيها شقوق دقيقة كتجاعيد الزمن، لم يتوقف الدق على الباب ولم تتوقف هي عن الضرب بيد الهون.

فقط.. ثمانون يومًا قضتها على عرش السلطنة، جلست على عرش الأيوبيين بعد أن كانت جارية في قصورهم، انحنى أمامها القادة المنتصرون الذين رفضوا توران شاه، هم أيضًا نالوا مكاسبهم، دخلوا الحرب مماليك مجلوبين وخرجوا منها أمراء، ولكن بيعتها ظلت ناقصة، كان يجب أن يأتي رسول بني العباس، حاملًا خلعة الخليفة «المستعصم»، يضعها على كتفها ويعلن مباركته لسلطنتها، كان هذا هو الإجراء الذي حرص عليه بنو أيوب منذ أزالوا ملك الفاطميين وأعادوا الدعاء لبني العباس؛ إجراء تقليدي ولكن لا بد منه، حدث قبلها مع سبعة

سلاطين دون أن يعترض الخليفة على واحد منهم؛ لذا أعدت شجرة الدر بنفسها مراسيم استقبال المبعوث، وأشرفت على تجهيز الهدية التي سيحملها عائدًا إلى بغداد، وصعدت إلى قلعة الجبل حيث اجتمع حولها الأعيان والأمراء ومقدمو الجند وقضاة المذاهب الأربعة، شخصت العيون للمبعوث وهو يدخل القاعة، لم يكن يحمل الخلعة السوداء، فقط رسالة مطوية عليها ختم الخليفة، كلماتها قليلة ولكن باترة: «إذا لم يكن لديكم رجال، فأخبرونا لنرسل لكم من يصلح للحكم، ما أفلح قوم قط ولوا أمرهم امرأة».

أحست فجأة أنها عارية تحت أنظار الجميع، نهضت من على العرش ودخلت للحريم، أسدلت خلفها كل الأستار، كان الخليفة العباسي قد حقق انتصارًا في بلد بعيد، لا يستطيع أن يحققه في بلده الذي يهدده المغول، كانت تستطيع أن تقاوم، أن ترفض الخطاب وتقتل حتى المبعوث، ولكن البيعة ستظل ناقصة، تستطيع أن تفرق العطايا والتقادم، وأن تستميل العامة وتضع المعترضين في سجن «المقشرة»، ولكن هذا أيضًا لن يكمل بيعتها، رفضت أن تقابل الجميع، ولكن واحدًا منهم أصر على مقابلتها؛ القائد عز الدين أيبك، كان أقوى من أن ترفض مقابلته، هو الذي قاد التمرد الأكبر وقتل آخر سلالة الأيوبيين، كانت تخشى حضوره، خاصة وهو يتفحص جسدها بعينيه النافذتين، لكنها خرجت لمقابلته، وعندما جلس في مواجهتها، أحست على الفور أنه يضع نفسه ندًّا لها، كان يحمل عرضًا لا يمكن رفضه؛ لأنه ينقذ عرشها، أو نصفه على الأقل، كان يعرض عليها الزواج، وعندما شهقت مندهشة، أكد أنه لا يريد أن يحولها من ملكة إلى زوجة كما تعتقد، لكنه يريد حل الإشكال الذي خلقه الخليفة وأن يكون بجانبها رجل تعتمد عليه في حكم هذا البلد الصعب.

ولكن عندما جمعهما الفراش في الليلة الأولى لعرسهما، أدركت أنها قد أساءت الاختيار، لم تجرؤ على إصدار صوت وهي تحس بأصابعه تندس في جسدها، كان خوفها منه أكبر من جوعها إليه، كان قد قبل بسهولة كل الشروط التي فرضتها عليه، ألَّا يحاول أن يقصيها عن العرش، وأن يأخذ بمشورتها في كل أمر، ولكن أهم شروطها هو ألَّا يرى زوجته القديمة «أم علي» ولا يذهب إليها بأي حال من الأحوال، كان وجود جسد آخر ينافسها مهينًا لجسدها، وقبل «أيبك» بالشروط بلامبالاة، كان المهم أن يعلو فراشها ويطأ جسدها ويشاركها عرشها.

واصلت الدق بيد الهون، تتناثر الذرات الحمراء، خرج مندفعًا من الهون، نثار من البلورات التي تشع منها ألوان متكسرة، ازداد عنفها وهي تهوي برأس الهون، كانت تعيش مع «أيبك» على حافة السكين، تكره كل شيء فيه، تكره رائحة جسده التي تشبه صنانة الخيل، وأنفاسه التي تفوح منها رائحة اللبن الخاسر، تكره سطوته وتكبره وإصراره على أن يمتطيها كأنها أحد جياده، كان هو أيضًا يكره إصرارها على أن تظل ملكة، ويكره القادة الذين يقدمون فروض الطاعة والولاء وأعينهم عليها، أصبح فراشهما باردًا، يضم جسدين متباعدين، بدأ يسعى لزوجته «أم على» سرًّا، وينزل إلى بيوت البغايا عند بركة الرطلي، دون أن تهتم شجرة الدر بذلك، ولكن النهاية جاءت حين استولى أحد أتباعها على رسالة كانت قادمة لأيبك من صاحب الموصل، كانت تحمل ردًّا واضحًا على رسالة أرسلها «أيبك» إليه يطلب منه الزواج بابنته ويعده فيها أن تكون ملكة على مصر، كان الرجل يعلن قبوله لعرضه ويطلب فصيلًا من الجند يصحبونها في رحلتها للقاهرة، أخذت شجرة الدر تغلي من الغضب، أدركت أن الأمور بينهما وصلت إلى مرحلة اللاعودة.

في تلك الليلة استدعته إلى فراشها، أظهرت له بوضوح أنه آن له أن يدفئ فراشها البارد، ماذا يفيد العرش لامرأة ترقد وحيدة ليلًا، وما فائدة السلطة إذا لم تشبع هذا الجوع الممض الذي تشعر به؟ أعدت له الحمام بنفسها، عطرته بمزيج من زهور طبيعية مقطرة من جبال الأرز، وأشعلت أخشاب البخور، ساعدته على خلع ملابسه، وهبط إلى المغطس أمامها، وذهبت لتحضر له منامته الحريرية، ولكنها لم تعد إليه، أقبل بدلًا منها أربعة من الخصيان الأشداء، يحملون قطعًا من الحبال المجدولة من القنب، لم يمكنه بخار الماء من رؤيتهم بوضوح، كانوا أشبه بظلال سوداء متداخلة، تقترب منه وتحيط به، وقبل أن يعرف ما حدث كانت الحبال تلتف حول عنقه، وتخنق أوردته، وسمعت شجرة الدر صرخاته المخنوقة وهو يحاول الاستنجاد، وقالت في سخرية: دع عروس الموصل تهب لنجدتك.

توقفت عن دق الهون، كانت ذراعها قد أصابها الكلل، وكل ثروتها من الجوهر والدر قد تحولت إلى شذرات متناثرة؛ حطام كحياتها وذكرياتها، الدقات على الباب قد أصبحت أعلى وأشد، كانت الجدران ترتج، والباب يوشك أن ينخلع من مكانه، لكنها لم تتحرك من مكانها، كل شيء قد انتهى ولم يعد في القلب منزع لكل هذه الخيانات، نال أيبك ما استحق، وعليها أن تتحمل غضبة أتباعه وزوجته الغيرى، أخذ الباب في الانفصال عن الجدران، تهاوت الأتربة والأحجار الصغيرة، ثم هوت الضلفتان على الأرض، وظهر الذين خلفه، لم يكونوا جنودًا، ولا مماليك من أتباع أيبك، كانوا جمعًا من العبيد الأشداء، يمسكون في أيديهم قباقيب خشبية، شهقت وهي تتطلع إليهم، أحست بإهانة بالغة، هتفت:

ـ هل هذا ما تحملونه لقتلي؟

قال كبيرهم: هذا ما أمرتنا به سيدتنا «أم علي».

هووا عليها بالقباقيب في وقت واحد، في اليوم التالي وجدت جثة الملكة المصونة ملقاة في خندق القلعة، تنهش جثتها كلاب الطرق، بينما استدعت أم علي المماليك وأكابر القوم ووزعت عليهم طبقًا من الحلوى باللبن لا زال يحمل اسمها حتى اليوم.

❖



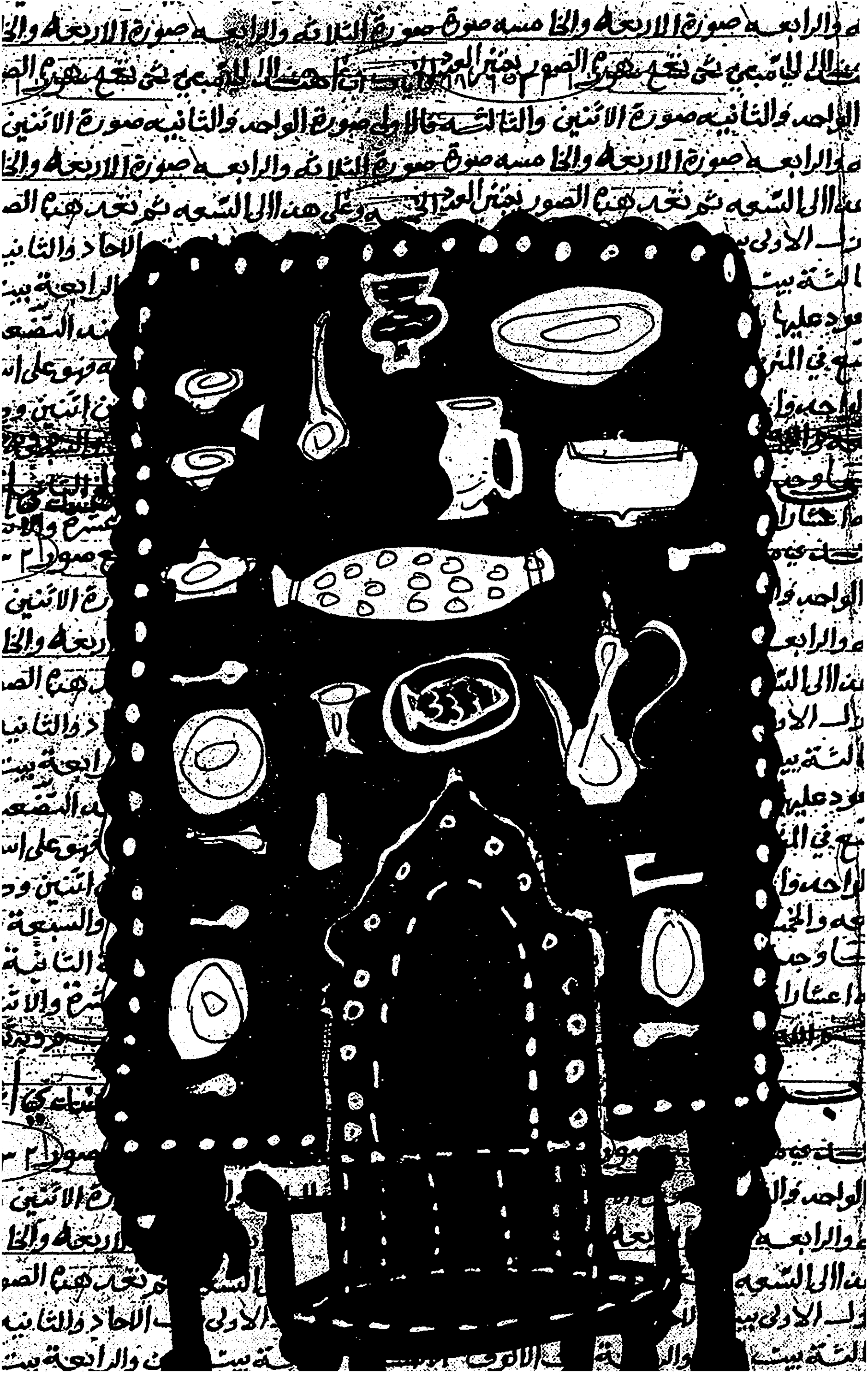
حين ارتفع «المؤيد المحمودي» فوق عرش مصر كانت له مواصفات ثلاث لا بد أن تجتمع لكل سلطان، قاض يأتمر بأمره وأثر يخلد ذكره وابن يرث عرشه.

بدأ السلطان عهده الزاهر بخنق كل الأمراء الكبار، ونفي الصغار، فلم تجرؤ الرعية على التنفس، أدركوا منذ أيامه الأولى أن وسيلته لحل أي مشكلة تواجهه هي القتل، ولكن المشكلة الوحيدة التي ظلت تؤرقه دون أن يجرؤ على حلها بنفس الطريقة هي ابنه «الصارمي إبراهيم».

وقف أمام أبيه في اجتماع لم يحضره إلا القاضي «ابن البارزي»؛ الشخص الوحيد الذي لم يكن يفترق عن السلطان، ولم يكن يخفي عليه سرًّا، قال الصارمي دون أن يأبه بوجود القاضي:

ـ لقد نويت أن أتزوج يا أبي.

استبشر السلطان خيرًا، استعرض في ذهنه الأمراء الذين لم يكن ينوى خنقهم في المدى القريب، تساءل: بنت من منهم تصلح لأن تكون زوجة لابنه؟ ولكن الصارمي واصل القول كأنه يقرر حقيقة لا رجعة فيها:



ـ سأتزوج «عائشة» بنت تاجر القماش في الموسكي.

صرخ السلطان على الفور: رقبتي دون ذلك.

فزع القاضي والسلطان وظل الصارمي هادئًا، كان السلطان يعرف منذ وقت مبكر أن ولده يهبط إلى حواري القاهرة، يجلس في مقاهي الغورية، ويشاهد «المحبظتية» في بركة الفيل ويلاعب الفتوات والعياق، كان يعتقد أنها نزوة، حالة من الملل يعاني منها من يعيش طويلًا وسط أروقة القصور، فالهبوط للحواري لا يليق بأي مملوك، فما بالك إذا كان ابن السلطان؟ قال الصارمي وهو يستعد للانصراف:

ـ إذا لم أتزوجها فلن أتزوج أبدًا.

وعندما انصرف، استدار السلطان صارخًا:

ـ ماذا أفعل يا قاضي القضاة؟ هل أضعه في السجن حتى يفيق؟

قال القاضي بفصاحة:

ـ إذا كنت تريده أن يكون أقل عنادًا، فقربه من الحكم ورقِّـه، اجعله مقدم ألف.

كان المنصب لا يزال أكبر منه، ولكن السلطان كان يريد من العامة أن يخافوا منه، لا أن يألفوا إليه، كما أن الزمان قد استطال والصارمي قد كبر.

كانت بشارة مولده في أيام المنفى الطويلة، حين كان المحمودي مغضوبًا عليه في بلاد الشام، وكانت طفولة إبراهيم شاهدًا على صراعات أبيه المريرة ضد السلطان فرج بن قلاوون، تفتح وعيه وهو يشاهد جثة السلطان الخاسر تلقى عارية من أعلى قلعة دمشق، مؤامرة محكمة أعدها

أبوه تخلص على أثرها من السلطان ابن قلاوون حين جاء لزيارته، أصبح العرش خاليًا، ينتظر عودته، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، و عندما عاد إلى مصر خرج أهلها يرتعدون خوفًا، نشروا أثواب الحرير تحت سنابك جواده، وحين بلغ «الصارمي» الحلم كان أبوه قد بدأ يخنق الأمراء.

أصبح «الصارمي» مقدم ألف، لبس الزرد وتقلد السيف، وظل متباعدًا عن أبيه، انشغل بمماليكه وبلعب الصولجان مع الرفاق، وأهداه السلطان جاريتين واحدة سوداء وأخرى بيضاء ولكنه أعادهما إلى أبيه دون تعليق.

ثم جاءت أيام الطاعون.

لعنة مختبئة في شقوق أرض مصر من أيام موسى فرعون، تستيقظ فتحول الناس الذين عاشوا طوال عمرهم تحت الشمس إلى حيوانات مرعوبة تختبئ في الظلام، تغمر أجسادهم بالقروح السوداء وتجعل شعرهم دائم التساقط وتحول الأظافر إلى ما يشبه المخالب، وفور أن أعلن عن ظهور أولى بوادر الطاعون أصدر السلطان أوامره فهبط جنوده على الأسواق وصادروا كل ما فيها من ثمار «اللارنج» وهو ثمرة لاذعة الطعم تشبه البرتقال، كان الأطباء قد أكدوا له أن التهامها هو وسيلته الوحيدة للنجاة من مخالب الطاعون، بعد ذلك أغلقت أبواب القلعة وأعلن المؤيد أنه لن يقابل أحدًا ولن يلمس أحدًا وسوف يقتصر نشاطه فقط على التهام اللارنج.

ولكن إبراهيم الصارمي دائمًا ما يفعل غير المتوقع، قاد المماليك الذين تحت إمرته وهبط بهم إلى حواري القاهرة، بدأ يواجه الطاعون؛ طاعون المرض وطاعون الناس، هاجم مخازن التجار وأخرج المؤن التي كانوا قد أخفوها حتى تباع بأعلى الأسعار، ثم بدأ يخلي البيوت

ويحرق الجثث ويطهر أماكن المرض بالجير الحي. لم يكن يهدأ طوال النهار، وكان ينام في الليل على الأرض أو على ظهر جواده، بدأ المماليك الذين خلفه في التساقط ولكنه لم يتراجع، أحرق جثثهم وجثث خيولهم، أخذ يمرق في المدينة مثل حلم غير آبه بلمسات الموت الأسود الغادرة، يقتحم أشد أحياء المدينة فقرًا وتعاسة، يحمل الغذاء للأحياء، والجير الحي للموتى.

وفي ذات ليلة رقد وهو يهذي باسم عائشة، كانت هذه هي لحظات ضعفه الوحيدة، وتجمع الفقراء، أحاطوا بالمسجد الذي كان ينام فوق إحدى حصائره وهم يتساءلون في حسرة: ماذا يحدث بعد أن يدفع الصارمي الثمن؟ ولكنه لم يمت، استيقظ مع ضوء الشمس، كانت المدينة هادئة، لم يرتفع فيها عويل جديد، ولم تلقَ في طرقاتها جثة متفحمة، تراجع الطاعون أمام الصارمي، دفعت المدينة الثمن غاليًا، ولكنها نجت كما تعودت أن تنجو، ودخل الطاعون شقوق الأرض ونام حتى يأتي أوان عودته.

فتحت القلعة أبوابها، كان السلطان قد أتى على آخر ثمرة من اللارنج وما زال يرتعد، ظل يرفض مقابلة الصارمي لمدة ثلاثة أيام حتى تأكد تمامًا أنه خالٍ من المرض، كان شاحبًا وهزيلًا كأنه مات وبعث في التو، هتف به السلطان غير مصدق:

ـ كيف فعلت هذا بنفسك؟ كيف أضعت نضارتك وسط حواري الحرافيش؟

قال الصارمى: وهل كنت تريد أن تحكم شعبًا من الموتى؟

واستدار لينصرف فجأة كعادته، ولكنه توقف ليقول قبل أن يخرج:

ـ لا تقلق من مسألة زواجي، ذهبت عائشة، أخذها الطاعون فيمن أخذ.

إن كل شيء يبدأ بالحلم، وكل حلم هو ضرب من الخيال، ولكن حلم المؤيد تحول إلى حقيقة مؤكدة، كان مملوكًا صغيرًا عندما تمرد ووضعه السلطان في سجن «خزانة شمايل» الموجود بجانب باب زويلة، كانت زنزانته مفروشة بهشيم عظام الذين سبقوه، وجدرانها مغطاة بعرقهم وعطنهم، وأقسم المحمودي وهو في قمة يأسه إنه لو أنقذه الله من هذا المكان فسوف يهدمه ويبني بدلًا منه مسجدًا، ولأن الأيام لا تلد إلا كل غريب فقد تحقق حلم السلطان ووقف يشرف بنفسه على عملية هدم السجن.

كانت جدرانه سميكة ومتماسكة، عندما تهوي عليها المعاول ينبعث الشرر وتتصاعد رائحة العفونة، ثم تكشف جوف السجن المظلم، الزنازين السوداء بما عليها من عطن وما في شقوقها من فئران وأوبئة، مخلوقات غريبة يبهرها ضوء الشمس، وتنتفض أجسادها حين تشم الهواء النقي.

كان السلطان يريد مسجدًا مختلفًا، فيه شيء من أبهته وسطوته، أمرهم أن يكسوا كل جدرانه بالرخام وأن يمدوا فيه حديقة تنعم فيها الأطيار بالحرية.

وكالعادة تحول حلم السلطان إلى كابوس على المدينة أن تدفع ثمنه، طاعون مختلف، فرضت على الناس ضرائب جديدة وانتشر الجند، صادروا كل أحجار البناء وهدموا الآثار القديمة، نزعوا أعمدة المعابد وهاجموا وكالات بيع الرخام، استولوا على شحنات السفن القادمة من بلاد الفرنجة، ثم اقتحموا قصور الأعيان وبيوت المستورين، نزعوا رخام الجدران والحمامات والفسقيات وظل المسجد يلتهم كل شيء والسلطان يطلب المزيد.

وعندما اكتملت عمارته لم ينسَ أن يسرق الباب الرئيس من مسجد السلطان حسن، والمنبر المنقوش من جامع قوصون، ثم جمع الأعيان والأمراء وهتف في قاضيه المفضل ابن البارزي:

ـ قد جعلتك خطيبًا لهذا المسجد.

وملئت الفسقية التي في باحة المسجد بعصير الليمون، ووقف الأمراء يغرفونه في الطاسات ويقدمونها للناس الذين هدهم بناؤه، وكان الصارمي واقفًا بعيدًا في أحد الأركان لا يكلم أحدًا. كانت احتجاجات العامة وتبرمهم من الظلم الواقع عليهم قد وصلت إلى آذان السلطان فامتلأ بالغيظ الشديد، وكان يدرك أنه إذا لم يسارع بإخمادها فسوف تتحول إلى صرخات.

وقف القاضي ينادي للصلاة واصطف الجميع انتظارًا لأن يتقدمهم السلطان، ولكنه لم يتحرك من مكانه، بقي مقيدًا في جلسته مربد الوجه وآلام المفاصل تعصف به، أعاد القاضي الآذان دون جدوى، وزأر السلطان كأنه أسد حبيس ولم يبالِ به الصارمي. هرع الأمراء، حملوا المقعد الذي كان السلطان يجلس عليه، أشار لهم بأن يصعدوا به إلى القلعة، واستقبلته جموع الناس في الخارج وهم يهتفون فيه في شماتة، صاح أحدهم:

ـ حل عن رقابنا يا سلطان.

زام السلطان وشرع الجند السياط ولم يتراجع الرعاع، هتف آخر:

ـ تنازل للصارمي عن العرش يا سلطان.

رفع الجند الرماح ولم تهدأ الصيحات الغاضبة، لاحقت السلطان من باب زويلة حتى القلعة، كانت الصيحات أشد وطأة عليه من آلام

المفاصل، كلهم عرفوا بعجزه فاستأسدوا عليه، صعد الأمراء به السلالم الحجرية إلى الحريم فصرخ يأمرهم بالتوجه إلى قاعة العرش، أجلسوه عليه ووقفوا جميعًا بين يديه، دبت في نفسه بعض الراحة وخف الألم، كلهم حضروا خلفه حتى القاضي، الوحيد الذي لم يبالِ بمأساته هو إبراهيم الصارمي، الوحيد الذي كان في حاجة ماسة إلى ولائه. في هذه اللحظة حدق في الأمراء بغضب فارتعشوا، كانوا يتساءلون على من منهم سوف يلقي السلطان ذنب آلام مفاصله ويقوم بخنقه.

لم تنفع دهون التمساح التي جاءت من السودان، ولا زيوت الهند، ولا «لبخة» الأعشاب من وادي النطرون، صرخ في الأطباء أن ينفضوا من حوله، وتقلب في سريره وحيدًا، كل يوم يحملونه من الفراش إلى العرش، ومن العرش إلى الفراش، النهار مؤلم والليل أشد ألمًا، ولم يأتِ الصارمي، جاءت قهرمانة القصر بعد أن يئس الجميع، قالت:

ـ رجل مثلك لا تلزمه دهون، إنما تلزمه رغبة امرأة.

أحضرت له جارية لم يرَ السلطان مثلها، نضرة كأنفاس الزهر، تجيد كل فنون العشق، دعكت ركبتيه براحتها فبدأ صدأ السنين الذي تراكم على مفاصله في الذوبان، انبعثت من خلايا جسده رغبة حارة أنهكتها الطموحات، تسربت حياة جديدة من جسدها الغض إلى جسده الهرم، انبعث من قطرات العرق الساخن، تلاطمت الدماء في العروق الواهنة فانتفضت وتقلصت، ألمًا ومتعة، عاد السلطان صغيرًا ورقدت المدينة تحت قدميه صغيرة أيضًا ومرتجفة، هكذا يستطيع أن يحكمها إلى الأبد.

ولكنه ذات يوم رآها تطل من نافذة تشرف على ساحة القلعة، كان مسترخيًا فوق سريره عندما أحس فجأة أنها ليست معه، اكتسى وجهها

بوهج من نوع خاص، وبدا في عينيها بريق نافذ، تتطلع في استغراق كأن هناك شيئًا قد أخذ كل مجامع جسدها إلى الخارج، خيل للسلطان أن خلاياها كلها تتحفز للانطلاق، نظر إلى حيث تتطلع، كان الصارمي يروض أحد الجياد، عاري الصدر، يمسك عنان الجواد في يد، ويمسك سوطًا في اليد الأخرى والجواد يصهل ويرفع قوائمه إلى أعلى فتتحفز كل عضلات الصارمي، يشد عليه ويقترب من رأسه فتختلط أنفاسهما معًا، وتخرج منهما رائحة نفاذة من العرق الحي، ولم تفطن الجارية قط أن السلطان يتطلع إليها، لم تستطع أن تخفي المشاعر التي تمور في داخلها، قالت:

ـ انا أعشق هذا الفتى.. أعشق الصارمي.

أمسك السلطان بذراعها وهزها بعنف:

ـ أنت جاريتي وأنا مولاك.. سأقتلك.

قالت: جسدك يقتلني في الفراش كل ليلة.

كان السلطان في حاجة ماسة إلى نصيحة القاضي. ماذا يفعل مع هذا الابن الذي تحول إلى كابوس؟ قال ابن البارزي:

ـ وقع المحظور وتآلفت قلوب العامة من حوله.. أرسله بعيدًا عن مواطن الفتنة.

وأعلن في المدينة أن «الصارمي» سوف يخرج على رأس «تجريدة» لقتال أمراء الشام الذين خرجوا عن طاعة السلطان، كان الخبر مفاجئًا، والأمراء البعيدون أقوياء، يجب أن يخرج لهم السلطان بنفسه حتى يحدث وجوده الرهبة الكافية في نفوسهم، ولكن الصارمي قبل المهمة

دون مناقشة، وبدأ يختار الذين سيرافقونه في التجريدة، اختار المماليك الذين رافقوه أيام الطاعون لأنه أدرك أن الموت أصبح مستعصيًا عليهم.

ولكن كبار الأمراء والقادة بدأوا يعتذرون عن مرافقته؛ منهم من تعلل بالمرض، أو بالاستعداد للخروج إلى الحج، أو بسبب تمرد العربان على حدود ضياعه، وقبل السلطان كل هذه الاعتذارات دون غضب ولم يبالِ الصارمي.

إن للصارمي أمورًا غريبة، لقد بدأ العامة يتطوعون لمصاحبته، الرعاع الذين كفوا عن القتال منذ أن خرجوا مع السلطان قطز لمحاربة المغول، استيقظوا فجأة وقرروا أن يشاركوا الصارمي، توافدوا على ساحة القلعة وهم يحملون السيوف الصدئة وقضبان الحديد والسلاسل والعصي، أعداد بلا حصر، معظمهم حفاة، لا يركبون شيئًا، يسعون راكضين وعلى استعداد لمواصلة هذا الركض حتى بر الشام، وبرغم اعتراض المماليك المحترفين فقد قبل الصارمي العامة على الفور، أمر بتدريبهم وإلباسهم الثياب النظيفة، بل وأعطاهم سيوفًا ورماحًا واعترض السلطان غاضبًا على تسليح العامة، ولكن القاضي طمأنه على أن العامة سواء كانوا بسلاح أو بغير سلاح فلن يعودوا من بر الشام.

خرجت «التجريدة»، وظل السلطان يراقبها بوجه جامد، لم يلتفت الصارمي نحوه، ولى بجواده إلى قلب المدينة فخرج العامة إليه يحملون سعف النخل والورد والرياحين، ظلوا يودعونه حتى أول الصحراء، وفي المساء جلس السلطان، وجلست إليه الجارية وعلى وجهها علامات الانكسار، قال لها السلطان:

ـ هل عاشرت إبراهيم الصارمي؟

قالت: كنت محظية من محظياته.

فلم يعد قادرًا على الاقتراب منها، أحس أن الصارمي لم يرحل بعيدًا، بقي يلاحقه، في عيون العامة كأنهم يتهمونه، وفي كلمات الأمراء وهم يداهنونه، جميعهم كانوا يعرفون في صمت وتواطؤ أن التجريدة كانت مأساة وأن السلطان قد أرسل ابنه وجزءًا من جيشه في مهمة انتحارية لا عودة منها.

لكن للصارمى أمورًا غريبة، فقد استطاع بجيشه الهزيل أن يقتحم أسوار «صفد»، وحمل النجابة الرسائل إلى القاهرة فلم يصدقها السلطان، كان متأكدًا أن «التمرغا» أمير صفد مقاتل شرس لا يستسلم بسهولة، فما الذي جعله ينهار أمام جيش جله من الهواة؟ أخفى الرسائل وحجز الرسل في مكان أمين، ومنع مدافع القلعة من الانطلاق كعادتها عند أي بشارة، وعادت آلام المفاصل تلح عليه، ولم تخفف الجواري من آلامه، كأنهن جميعًا كن يعانين من برودة غياب الصارمي، قال القاضي محاولًا أن يطمئنه:

ـ ما زالت هناك حمص وحلب ودمشق، سيعود مخذولًا وسينفض عنه العامة، ولن ينال منك إلا بقايا فتات العرش.

ولكن حمصًا ـ عليها اللعنة ـ سلمت هي أيضًا مفاتيح أبوابها، واستخذى أميرها تحت أقدام الصارمي وسار في ركابه إلى حلب، وزمجر السلطان في غضب ولم يطلق مدافع القلعة، ولكن الأخبار تسربت رغمًا عنه إلى حواري المدينة، خرج العامة والحرافيش، اجتمعوا في ميدان الرميلية وهم يهللون فأوشك السلطان أن يحصدهم جميعًا.

كان إبراهيم قد تخلق بطلًا رغمًا عنه، وكان يجب أن تسقط حلب ودمشق لأن للصارمي أمورًا غريبة.

شم الناس رائحة الصارمي قبل أن تعلن أخبار عودته، وسمعوا وقع سنابك جواده قبل أن يظهر قادمًا من ناحية الصحراء، خرجوا يستقبلون جيشه الغريب، أكثره من الفلاحين والرعاع وأقله من المماليك، جيش كبير لم يألفه أحد، أصاب كل أمراء الدولة الكبار بالفزع، حملوا محفة السلطان وهبطوا به لأسفل القلعة ووقف يستعرض الجيش المنتصر، كان جيشًا خشنًا بلا أبهة ولا بهرجة، أعلامه بقايا من مزق الملابس وأسلحته متنوعة من كل المواقع التي اقتنصوها منها، وكان وجه الصارمي جامدًا، أكثر سمرة مما يليق بمملوك، تباعدت الملامح بينهما ولم يعد أي منهما يشبه الآخر، توقف أمامه وحنى رأسه، لم يستطع السلطان النهوض ليحتضنه، ولكن مدافع القلعة أطلقت أخيرًا وهلل الرعاع في فرح طاغٍ، وقال السلطان:

ـ ستكون أتابك عسكر الديار المصرية، أما الليلة فسوف أقيم لك مأدبة في القصر الأبلق.

لم يبدُ على الصارمي أنه تأثر، هل كان هذا الثمن أقل مما يريد؟ تراجع الصارمي واحتوته جموع الناس، تداخلوا في العسكر، وتداخل العسكر فيهم، وتحولوا إلى كتلة واحدة متشابهة الملامح، أقامت له المدينة طقسها الخاص وظل السلطان وحوله الأمراء وخلفهم البيارق يرتعدون في الفراغ الطلق.

قال السلطان للقاضي: أنا خائف.

وقال القاضي للسلطان: الجميع خائفون، هذا الجيش الغريب لن يبقي هيبة لمملوك بعد اليوم.

حملوا السلطان إلى العرش فلم يخفف ذلك من آلامه، نظر إلى أسفل حيث توجد المدينة الفرحة التي أفلت زمامها من يده، لم تعد هذه مدينته وغدًا لن يكون هذا العرش عرشه.

قال السلطان للقاضي: كيف أتصرف؟

قال القاضي للسلطان: أنت سلطاني وتاج رأسي وأنا طوع بنانك، ولكن ليس للمماليك إلا طريقة واحدة يتصرفون بها في مثل هذه الأمور.

كانت المأدبة حافلة، حضر كل رجال الدولة أولًا، ثم نقلوا السلطان على محفته وأجلسوه متصلبًا وجلس القاضي بجانبه، وجلس الصارمي بعيدًا وفي مواجهتهما تمامًا، يا لهذا الوجه الجامد المليء بالحزن، كيف تدهورت الأمور إلى هذه الدرجة؟

أقبل الغلمان يحملون صحاف الطعام، والجواري يحملن أباريق الشراب، ولم يأكل أحد أو يشرب أحد، ثم دخل غلام أسود، يحمل طبقًا من البلور عليه فطيرة محشوة باللحم؛ الطعام الذي يفضله الصارمي والذى تعلم أكله في الحواري التي يهبط إليها. بدأ السلطان يأكل فأكل الجميع، ازدردوا الطعام في صمت وترقب، كان باردًا ماسخًا ما عدا فطيرة الصارمي التي كان البخار يتصاعد منها وهو يغرس فيها أصابعه.

ثم توقف الصارمي عن الأكل، لفظ اللقمة التي كانت في فمه وحدق فيهم جميعًا، حدق السلطان في ابنه، فتح فمه كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم زمه بعنف كأنه يكتم صرخة، حاول أن ينهض، سار مترنحًا، حاول أن يهرب منهم جميعًا حتى لا يروه ضعيفًا منهارًا، ولكنه سقط على الأرض، وصاح السلطان وهو جالس في مكانه:

ـ خيانة..مؤامرة.. محاولة لسم فلذة كبدي.

وانتفض الأمراء مسحوا أصابعهم في ثيابهم، هرعوا يحملون جسد الصارمي الذي كان ينتفض بشدة، صرخ السلطان يأمر بحضور كل الأطباء ولكن الأمراء ساروا بالجسد مبتعدين، اكتشف السلطان أنه أصبح وحيدًا فصرخ يأمر الغلمان أن يحملوه وأن يسيروا به إلى حيث يوجد الصارمي.

كان ممددًا على الفراش، تغمر جسده الأصفر الداكن موجات متعاقبة من التشنجات، يختلج وجهه بألم ممض وقاسٍ، خلعوا عنه ثيابه حتى يتنفس بحرية، نظر السلطان إلى جسد الصارمي العاري، لم يكن يعتقد أنه نحيل إلى هذه الدرجة، كأنه طفل صغير، استعار هذه اللحية وهذا الشارب من وجه آخر، عظام الجسد بارزة، وعروقه نافرة وحركة الأمعاء داخل البطن لا تكف عن التقلص، ود السلطان أن يمد يده ويلمسه ولكنه لم يجرؤ، هل يموت الصارمي حقًّا؟ ما أسهل أن يغتال الموت هذا الجسد الصغير، فجأة أجهش السلطان بالبكاء.

أمسك يد كبير الأطباء وهو يهتف به متوسلًا: أنقذوه.

انزوى في ركن الغرفة وهو يراقبهم محاولين إفراغ معدة الصارمي رغمًا عنه، ثم أخذوا يسكبون في فمه العقاقير والأعشاب ويضعون على أطرافه كمادات مبللة بالماء والثلج والجسد النحيل يهدأ قليلًا، ثم يعاود الانتفاض.

تسلل الخبر إلى المدينة؛ القاهرة التي عشقته كما لم تعشق مملوكيًا قط، خرجوا جميعًا من بيوتهم إلى ميدان القلعة، أوقدوا الشموع وحملوها في أيديهم وسط الظلام، كأنما يريدون أن يرشدوا روحه إلى طريق الخلاص، نظر السلطان إليهم في النافذة، آلاف الشموع المرتعدة في

الظلام، دموع مضيئة وصامتة لا أحد يصرخ ولا أحد يبكي، كانوا يبتهلون في صمت لكل الآلهة التي تقلبت عليهم حتى تنقذ شيئًا أحبوه.

وجاء كبير الأطباء ووقف أمام السلطان وهو يقول في حزن:

ـ نفذ قضاء الله، فليرحمه وليرحمنا جميعًا.

ذابت الشموع في أيدى الناس، ولم يهبط الجثمان إلا في الصباح، كان خفيفًا كأنه لم يعش يومًا ولم يهنأ يومًا، لا لمسة من العشق، ولا لحظة من الزهو، جاء الذين حاربوه معه وحملوا جثمانه، وجاء الذين صاحبوه والتفوا حوله، وظل السلطان فوق محفته بعيدًا وعاجزًا، أخذوه إلى الحواري التي أحبها، تمهلوا في كل الأماكن التي تعود أن يجلس فيها، كبّروا عندما تذكروا ضحكاته، وموكب السلطان يتبعهم صاغرًا، حوارٍ لم يرها من قبل برغم أنه يحكمها، وأناس لم يشهد مثلهم رغم أنه يملك رقابهم، يرددون التكبيرات في حرقة، تعويذة تدفع عن نفوسهم انكسار الحزن، وعندما وصلوا إلى القرافة الموجودة في باطن المقطم وبدا القبر أمامهم فاغر الفم أخذوا جميعًا يصرخون في لوعة، ما أفظع أن تدفن حلمًا ومع ذلك تبقى الشمس ساطعة ويبقى الكون قائم الأركان.

ظل السلطان خافض الوجه، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه أو مصافحته أو تعزيته، كان مهدود الحيل، منكس الرأس، جلس منزويًا في المسجد، وصعد القاضي ابن البارزي صديقه وصفيه إلى المنبر ليخطب خطبة الجمعة وذكر قصة النبي عليه السلام عندما مات ابنه وذكر كلماته الأخيرة:

ـ إن العين تدمع، وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

ورفع السلطان المؤيد رأسه وحدق في القاضي طويلًا، ثم هتف من بين أسنانه في صوت ممرور سمعه كل من حوله:

- يغريني على قتل ولدي ثم يندمني عليه، والله لن تفلت بها أيها القاضي.



لم تكن مجرد مدينة، ولكن بقعة من الأرض تلاقت فيها كل المصائر، وأصبحت شاهدًا على أطول حرب عرفتها البشرية استمرت على مدى قرنين من الزمن وسقط فيها خمسة ملايين قتيل وامتزجت فيها فورات الشجاعة بمشاعر الحنق والخسة.

ترددوا طويلًا قبل أن يسوقوا الخبر إلى السلطان الناصر «صلاح الدين»، كان يجلس في خيمته وقد امتلأ وجهه بالتعب،حارب طويلًا منذ أن أقبل صبيًّا صغيرًا من قريته النائية في جبال الأكراد إلى عرش مصر، كان يحسب أنه بعد أن انتصر في حطين وحيته القدس بدقات أجراسها قد وصل إلى نهاية المطاف، ولكنه اكتشف تحت أسوار عكا أن رحلة الجهاد ما زالت طويلة.

تجرأ أخوه الملك العادل في الدخول إليه وهو يقول في لهجة باترة:

ـ مات عيسى العوام.

رفع السلطان رأسه كمن تلقى ضربة مفاجئة، بدت في عينيه دمعة معلقة، ذلك المسيحي الطيب رفيق القتال،رسوله إلى المدينة المحاصرة،



كان يجالد البحر في كل يوم وهو يحمل الرسائل والأموال والتوجيهات إلى ساحل المدينة بعيدًا عن أعين الفرنجة، كان موته بالنسبة إليه نذير شؤم لمعركة غامضة لا يدرى كيف فرضت نفسها عليه، أضاف الملك العادل محاولًا التعزية:

ـ لقد أدى أمانته حتى وهو ميت، جرفت الأمواج جثته إلى ساحل عكا وعثر معه على الرسائل والأموال.

قال السلطان: لا حول ولا قوة إلا بالله.

هل يمكن أن تقاوم عكا حتى تأتيها جثة أخرى؟

كانت عكا في منتصف الصراع، أميرها ابن المشطوب وأهلها العرب خلف الأسوار يحاولون أن يبقوا صامدين تحت وطأة الضربات اليومية على الأسوار والحصار البحري لأسطول الفرنجة، كانت جيوشهم خارج الأسوار لا تكف عن التكاثر والسفن القادمة من كل بحار أوربا تلقي إليها مددًا من الرجال والمؤن والسلاح، منذ أن انتصر عليهم السلطان في حطين واسترد بيت المقدس والباباوات لا يكفون عن الصراخ من أجل الثأر وقطع أعناق كل المسلمين، جاء كونراد ملك أنطاكية بجيوشه الجائعة في البداية، ثم أقبل إمبراطور ألمانيا «بيربروس» ومعه مائة ألف مقاتل، ثم وصل «هنرى دى شمبانيا» يحمل صناديق الذهب وصكوك الغفران المباركة، ثم وصل ملك فرنسا «فيليب أوجست» على رأس جيش ضخم نصفه من القديسين ونصفه من اللصوص، فارتفعت التراتيل احتفالًا بمقدمه، واكتمل الحشد بمجيء «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا وأسطوله الضخم، ربع مليون جندي حشدتهم أوربا تحت أسوار عكا لأنها كانت طريقهم الوحيد إلى بيت المقدس الذي فقدوه..!

ولكن صلاح الدين كان يحاصرهم، يحيط بهم ويحاول أن يشق طريقه من خلالهم إلى داخل المدينة، ولكن هجومه كان أضعف من أن يجد ثغرة وسط هذا الحشد من الفرنجة.

أفاق صلاح الدين من حزنه وقال للعادل:

ـ أرسل إليهم الحمام الزاجل، اطلب منهم أن يصبروا حتى تأتي الإمدادات من الخليفة العباسي في بغداد، وسوف نفك الحصار.

وهذه المرة لم يجرؤ الملك العادل على إخباره بما حدث، فالخليفة الذي كان يعاني من شدة الحنق على انتصارات صلاح الدين لن يرسل أي إمدادات، كل ما فعله هو إرسال حملين من النفط وإذن منه أن يقترض من التجار عدة ألوف من الدنانير يستعين بها في الجهاد، كيف يمكن أن يقول له هذا؟ كيف يمكن أن يقول له إنهم ضبطوا رسولًا موفدًا من ابن المشطوب إلى ملوك الفرنجة يعرض عليهم تسليم المدينة مقابل أن يخرج هو وجنوده وأمواله سالمين؟ كان الأمر أسوأ بكثير مما يحسب صلاح الدين وقال الملك العادل في صوت مكتوم:

ـ الأمراء متذمرون، أمير الموصل وأمير سنجار يريدان العودة إلى ديارهما.

كان السلطان يعرف أن أيام القتال قد استطالت على الجميع، قال:

ـ صبرًا جميلًا، ملوك الفرنجة كل واحد منهم يكره الآخر وتكفي هجمة جيدة نقوم بها حتى يغرق الجميع.

وبدأ يعد لهذه الهجمة بنفس دقة يوم حطين، كانت تضاريس أرض المعركة محفورة في أعماقه، ومهما كانت قوة الفرنجة مجتمعة فسوف تكون الطبيعة بجانبه ولكن يبدو أن الوقت قد فات، ارتفعت من خلف

الأسوار صيحات عالية، وظهر الصليب عاليًا وجليًّا فوق أسوار عكا، ارتفعت صرخات الفرنجة مدوية تعلن انتصارها، لقد سلمت المدينة نفسها، أصابها اليأس وأصبح مصيرها محتومًا. ارتعد صلاح الدين وهو يحس بالانكسار، أنشب الفرنجة أظافرهم في أولى المدن التي حررها، وغدًا سوف تتساقط المدن، وبدلًا من أن يطاردهم، يقومون هم بمطاردته، صعد إلى تل قريب، وراقب المدينة من فوق ظهر جواده، وشم رائحة البارود القادم من المدينة، وشاهد ألسنة النيران، وقال في حرقة:

ـ لك الله يا عكا.

في اليوم الأول من سقوط المدينة قال ريتشارد قلب الأسد:

ـ ما أكثر ما لدينا من الأسرى، فلنفرغ منهم قليلًا.

وهكذا تم قتل ألفين وسبعمائة أسيرٍ من الذين أسلموا أنفسهم في يوم واحد، وحاول كل ملك أن يثبت أنه أكثر شجاعة من قلب الأسد فأعمل سيفه في الأهالي العزل، كأن هناك سباقًا محمومًا لزيادة عدد القتلى، تمامًا مثلما فعلوا في كل المدن التي دانت لهم.

«الرب يريدها..».

كانت هذه صيحة حربهم المقدسة، منذ أن خطب البابا «أريان الثاني» في مدينة لكيرمون الفرنسية، يعطي الإذن لكل قوافل الحجاج المسالمين إلى بيت المقدس لأن يصبحوا محاربين ولصوصًا وسفاكين للدماء وهم يحملون علامة الصليب المباركة، حالة من السعار أصابت الجميع من النبلاء حتى أفقر الفلاحين، تركوا محاصيلهم دون جمع واندفعوا وراء راهب حافي القدمين يدعى «بطرس الحافي» عبر مدن أوربا، كانوا يهربون من ظلم نبلاء الإقطاع إلى حلم الثراء في الشرق الغامض،

وإلى وعد الخلاص بالقرب من قبر المسيح، نهبوا كل المدن التي قابلتهم، وخربوا مدينة «بيزنطة» المسيحية دون رحمة، ثم اندفعوا عبر آسيا الصغرى إلى سوريا وفلسطين، إلى عالم إسلامي منقسم على نفسه لا يدري ماذا يحدث بالضبط، كانوا جوعى فاستطاعوا بسهولة أن يهزموا فرسان السلاجقة المتخمين، ولم يدرِ حكام بقية المدن الإسلامية الذين أحسوا بالشماتة في هزيمة السلاجقة أن الدائرة ستدور عليهم، وأن الفقراء العراة الذين اندفعوا من أوربا سوف يتبعهم الفرسان والنبلاء والملوك والقراصنة، سقطت «الرها» ثم سقطت «إنطاكية» وتكونت أول مملكة مسيحية قبل أن يستيقظ العالم الإسلامي من سباته، أدار الخليفة العباسي ظهره لما حدث، ولم يفق الخليفة الفاطمي في مصر حتى عندما سقط بيت المقدس، وخرج الناس في الشوارع يصرخون في جزع على ضياع أولى القبلتين، أعد الخليفة جيشًا سريعًا ما لبث أن لقي هزيمة مروعة، وتخاذل كل الأمراء دفعة واحدة وبدأوا يخطبون الود ويرسلون الهدايا ويدفعون الجزية للفرنجة، ولكن الحملات الصليبية الجديدة لم تتوقف، اكتشف تجار جنوا والبندقية الجانب المربح في الحرب المقدسة فأخذوا يمولونها ويجنون أرباحها، وزادت شراهة فرسان الصليب فاستولوا على سروج وحيفا وقيسارية واللاذقية، وامتلأت السهول والوديان بأعداد الهاربين من مذابح الفرنجة، وطن هارب لا يجد من يغيثه، أدرك الحكام المتناحرون فجأة أن ما يحدث ليس مجرد غزوة عابرة ولكن الفرنجة قد جاؤوا ليبقوا.

وبعد حوالى خمسين عامًا كان الحال سيئًا كما هو عليه، ثم ظهر في مدينة الموصل حاكم من نوع مختلف هو «عماد الدين زنكي»، أشبه بالشهاب وسط ظلمة حالكة، بداية لحلم الجهاد الإسلامي الذي طال

انتظاره والاشتياق إليه، نموذج الملك المقاتل وليس الحاكم الرخو الذي سئم منه المسلمون، وعندما سار بجيوشه من الموصل إلى حلب لم يفطن الفرنجة إلى أن القدر قد هيأ نوعًا آخر من الرجال سوف يواجههم، استطاع أن يستعيد مدينة «الرها» أولى الممالك الصليبية، وأن يفتح جبهة القتال التي طال انتظارها، وأن يمهد الطريق لظهور صلاح الدين.

كم عدد السنوات التي بقيت فيها عكا تحت الأسر: مائة عام، أم أكثر قليلًا؟

كم عدد الهجمات التي فشلت، والمعارك التي انتهت إلى غير طائل؟

لم يكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مشغولًا بذلك، كان ما يهمه أنه جلس أخيرًا على عرش مصر، خضع له الأمراء المتنافسون وأقسموا يمين الولاء والطاعة أو على الأقل تظاهروا بذلك.

ولكن بقيت آخر المشاكل بالنسبة إلى السلطان، «التقليدة» أي الأمر بتقليده على العرش؛ وثيقة يكتبها قضاة المذاهب الأربعة ويقدمونها للسلطان الذي يضع عليها ختمه، وبذلك يكون قد حدد من سيتولى العرش من بعده حسمًا لأي صراع، وكان القضاة يحفظون هذه الوثيقة حتى يموت السلطان ويأتي ولي عهده فيفتحوها ويقرأوا ما فيها وتكون سلطته كاملة من كل الوجوه.

ولكن قاضي القضاة حين فتح «التقليدة» اكتشف الجميع أنها خالية من ختم السلطان الأب، زمجر الأشرف مندهشًا وغاضبًا، وأقسم القاضي إنه قدم الوثيقة للسلطان السابق ثلاث مرات وفي كل مرة كان يرفض ختمها وهو يقول:

- أنا لا أولي خليلًا على المسلمين.

لأمر ما لم يكن السلطان راضيًا عن ترك العرش لابنه، ولكن كل الورثة كانوا قد ماتوا أو اغتيلوا أو أصيبوا بالجنون، ولم يبقَ إلا خليل الذي تناول التقليدة الخالية من الختم ومزقها وهو يقول:

ـ لقد امتنع السلطان عن أن يعطينى العرش ولكن الله أعطاني إياه.. وبدأ عهده.

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فالتقليدة الناقصة جعلت سلطته ناقصة، كان يحس بذلك في عيون الأمراء والأتابكة، وفي تفسيرات الفقهاء، وفي نكات العامة، قبض السلطان على القاضي ووضعه في أسفل السجون، وألغى نظام التقليدة، وقبض على معظم أمراء أبيه، ثم لم يجد بُدًّا من أن يدعو الجميع للجهاد ضد الفرنجة.

كان الفرنجة ما زالوا رابضين كأخطبوط عجوز، جسده في عكا وأذرعته ممتدة إلى صور وصفد وطرطوس، قطع له صلاح الدين ذراعًا فنبتت عشر أذرع، وقطع السلطان بيبرس خمسًا فنبتت عشرون، وعندما وقف السلطان خليل بن قلاوون فوق منبر الأزهر وطالب الناس بالخروج معه تذكروا جميعًا أن السلاطين وحدهم لا يمكنهم قتل الأخطبوطات، وإنما يقدر على ذلك حرافيش المدن وصعاليك الشوارع وفلاحو الريف وصيادو السواحل، وبرغم مماليك الأشرف الكثيرة فقد كان المتطوعون من عامة الشعب هم الأغلب، لم يبالِ أحد إن كان السلطان يريد أن يلفت الأنظار بعيدًا عن بيعته الناقصة أم لا، المهم أنه يدعو الجميع إلى شيء جدير بالاستجابة.

صنع النجارون المنجنيقات الضخمة التي تستطيع أن تحمل طنًّا من الحجارة، وصب الحدادون دبابيس من الصلب قادرة على اختراق أي

جدار، وجدل الصيادون الحبال الطويلة ووضعوا في أطرافها الخطاطيف، وحمل الفلاحون الفئوس وساروا جميعًا إلى عكا، فلك الله يا عكا.

كان الفرنجة على استعداد لأن يفقدوا كل شيء إلا هذه المدينة، تجمع خلف أسوارها كل فرنجة الشام بعد أن تناسوا خلافاتهم، وجاء إليها عبر البحر الملك هنري الثاني ملك قبرص، فاحتفلوا بقدومه وأشعلوا نارًا عالية لعل السلطان الأشرف يتراجع حين يراها، ولكن لم يكن لديه طريق آخر.

كان الملك هنري قد أدرك منذ أن صعد إلى الأسوار أن المعركة خاسرة، أرسل يسأل السلطان عن شروط الصلح، وكانت بسيطة وواضحة، الاستسلام بدون قيد ولا شرط، على أن يؤمن خروجهم وأموالهم من عكا، وكان الجواب هو الرفض، فبدأ السلطان القتال على الفور، ظل جيشه يرتطم بالأسوار كل يوم، يملؤها بالثقوب والنشابات، ويقذف المدينة بالأحجار وكريات النار، ويقترب منها بالأبراج، ويغرق كل السفن القادمة إليها، وأسرع الملك هنري بالفرار واقتحم جنود السلطان المدينة في يوم الجمعة، الساعة الثالثة عصرًا، نفس اليوم والساعة التي سقطت المدينة فيها من قبل.

لم يكن هناك بعد ذلك ما يمكنه وقف الملك الأشرف، سار إلى مدينة «صور» المنيعة، لم يكن أحد قد تعرض لها منذ أن أخذها الصليبيون حتى ولا صلاح الدين، ولكن منظر الجيوش المهيبة وذكرى سقوط عكا جعلا المدينة تسقط دون قتال، ثم سار إلى «صفد» فخرج ملك الفرنجة، وهو يبكي من القهر، وهرب أهل «انطرطوس» وألقت حاميتها بأنفسهم إلى البحر قبل أن يصل إليهم، انهار بناء الفرنجة الهش تحت قدميه، كأن

قلاعهم رمال تذروها الريح، حتى صلاح الدين نفسه لم يفعل بهم كما فعل الأشرف في هذا العدد القليل من الشهور.

كان متعبًا، منهكًا من كثرة القتال، وبرغم ذلك ما زال خائفًا من العودة إلى القاهرة حيث توجد مزق التقليدة الناقصة، فضل أن يتوجه إلى الشام، ولكن لم يكن هناك مفر من العودة إلى القاهرة، دخلها في منتصف الليل ولكن ما إن ظهر من باب النصر حتى وجد أهلها جميعًا في انتظاره، لم ينم منهم أحد حتى الأطفال، والشيوخ والمرضى جميعًا خرجوا إليه كل واحد منهم يمسك شمعة ليضيء بها طريق السلطان المجهد وطريق جنوده الذين حاربوا بلا هوادة، خيم على المدينة جو من الجلال المهيب بعد صخب المعارك، أحاطتهم أضواء الشموع المرتعدة كأنها وجيب كل القلوب، كانت دروب المدينة كلها مضاءة من باب النصر حتى القلعة، وألسنة اللهب ترسم في الظلام حروفًا مجهولة كأنها حروف التقليدة، ولكنها هذه المرة بيعة جديدة وكاملة تتوجه سلطانًا برغم أنف كل الأختام الناقصة.



دمشق خضراء، والتتار جراد جائع، وعندما وقف القاضي «ابن مفلح» على الأسوار يراقب جحافلهم التي تحاصر المدينة، أحس بخوف قاتل، كانت خيام الشعر منتشرة كالقروح على مدى السهول التي تحيط بالمدينة حتى نهاية الأفق، والأدخنة التي تتصاعد من نيرانهم المتفرقة تكون سحابة قاتمة، كانت أسوار دمشق عالية ومنيعة، ولكن القاضي شعر أنه يكفي أن ينشب التتار فيها أسنانهم حتى تتهاوى وتسقط.. تأمل الخيام الكثيرة وهو يتساءل في حيرة:

ـ ترى، أين خيمة «تيمورلنك» وسط هذه الخيام؟

كانت دمشق مدينة يتيمة، مقطوعة الصلة بكل ما يحيط بها من سهول وجبال، تعيش مأساتها الخاصة على حافة الجوع والانتظار الطويل، دون أن يبكيها أحد، سار القاضي في شوارعها الخالية، لم يؤذن أحد لصلاة المغرب، لم يكن هناك من يجرؤ على الصعود إلى المئذنة، أو أي مكان عالٍ وإلا طالته الأسهم، وكانت الأسئلة تهز القاضي من الداخل وتأكل روحه، هل سيهجم التتار هذه الليلة، وهل تستطيع مدافع السلطان القديمة الصمود في مواجهتهم؟



ترى، متى سقطت حلب، في الليل أم في النهار؟ كيف سقطت حماة؟ هل اقتحم التتار أبوابها، أم نقبوا الأسوار، والبهشا، وعنتاب، وعشرات المدن التي اجتاحوها؟ كيف لم يصل دخان الحرائق إلى أنف السلطان المملوكي، وهو جالس في مصر، يلاعب خصيانه الكرة في فناء القلعة؟

ضاعت مدن الإسلام بلا ثمن، كان القاضي يعشق دمشق، رائحة الأزقة، واتساع الساحات، وجلال المساجد والخانات، كانت تضاريسها مرسومة كالجسد الحي داخل قلبه، كأنها تعويذة رافقته في الصبا والشباب والكهولة، كان يقف في مواجهة قباب المسجد الأموي الخضراء التي ينام عليها الحمام، وأحس بالعجز. كان الجميع يؤجلون البكاء على دمشق إلى ما بعد السقوط، ولكن التتار لا يتركون شيئًا يبكي عليه.

كان القاضي يصرخ في نائب السلطان: لماذا لم ترسل في طلب النجدة من السلطان؟

وكان النائب يرد عليه، كما حدث هذا الصباح: هذه هي الرسالة السادسة عشرة التي أرسلها إليه.

ولم يكن أمام دمشق إلا الانتظار، والتتار يأكلون كل ما يحيط بالمدينة حتى حولوا حدائقها إلى صحراء جرداء، اكتشف القاضي أن قدميه قد قادتاه إلى سوق المدينة، لم يكن هناك بيع ولا شراء، لم يكن هناك إلا اللاجئون، بقايا المدن التي سقطت، الوجوه المفزوعة التي عاشت تجربة الموت والاغتصاب في حلب وحماة، أحاطوا بالقاضي مثل أشباح الموت، فأخرج كل ما في جيبه من دراهم وألقاها إليهم، ولكنهم ظلوا يحاصرونه بعيونهم المفزوعة، البنات اللاتي اغتصبن في المساجد أمام آبائهن، والحوامل اللاتي بقرن والأطفال الذين دهسوا، وتأملهم القاضي قليلًا ثم صرخ في حنق:

ـ أين أنت أيها السلطان المملوكي النجس؟

وفر هاربًا من حصارهم، ظل يتخبط في الأزقة حتى وصل إلى بيته، نزلت إليه الجارية السوداء وهي تحمل المصباح، وكانت ابنته «سارة» في انتظاره، وجلس بجانب النافذة يراقب المدينة التي أطبق الظلام عليها، وضعت الجارية الطعام أمامه ثم حملته دون أن يمس، وقبلت «سارة» رأس عمامته ثم ذهبت للنوم.

ولم يدرِ كم مضى عليه من الوقت وهو جالس هكذا، ولكنه أحس بحركة، فالتفت ليرى الجارية السوداء واقفة أمامه وهي تقول:

ـ هناك أمر يجب أن أتحدث فيه معك يا سيدي، كان يجب أن أحدثك به منذ زمن.

قال القاضي في حنق: ماذا تريدين؟

قالت: ابنتك سارة يا سيدي، إن لها حبيبًا يراسلها وتذهب لمقابلته.

ولو أن التتار جاؤوا في هذه اللحظة لكانت دهشة القاضي أقل، كانت الجارية تتحدث، وهو يحاول فهم تركيبة الكلمات الغريبة، يرى وجه سارة الوديع وهي جالسة تستمع إليه، تعيد تلاوة ما حفظته من القرآن، منذ متى وهي تخدعه؟ كيف حدث هذا؟

ـ اسمه حميد بن زيد، لا يوجد عمل محدد له، يعمل أحيانًا مع المماليك وأحيانًا ضدهم، ولست أدري يا سيدي، أهو لص، أم من رجال الشرطة.

اكتشف القاضي أنها تتحدث بحقد، وتعرف الكثير، وهي أيضًا متواطئة، فصرخ فيها:

ـ أيتها الغرابة السوداء، أنت ساعدتها على ذلك، ثم أفشيت بسرها حين اختلفت معها، أليس كذلك؟

وارتج على الخادمة، للحظة كانت قد نسيت أنه قاضٍ، يجمع باستنتاجاته ما لا يمكن جمعه، ويجعل الشاهد طرفًا في القضية، أسرعت بالهرب من أمامه، نهض القاضي وسار حيث ترقد ابنته، كم تبدو بريئة وغير قادرة على الخداع! تمنى لو أنه يجذبها من شعرها، ولكنها كانت تنام متكومة حول نفسها، خائفة حتى في أثناء النوم، وشعر القاضي بحزن شديد لأنه أحس أن كل شيء قابل للسقوط لا أسوار دمشق فقط.

في اليوم التالي أشرقت الشمس من خلف ظهور التتار شاحبة، ومرة أخرى رفعوا فوق الأعمدة الطويلة عشرات الفلاحين المصلوبين حتى تراهم المدينة المحاصرة بوضوح، واكتشف القاضي أنه كان طوال هذه الليلة يحلم أنه مصلوب هكذا، صرخ في وجه ابنته بأنها لن تخرج بعد اليوم من البيت، وهدد الخادمة بأنه سوف يبيعها في سوق المدينة لأحقر شارٍ بدينار واحد، وبدأت المدينة يومًا آخر من أيام الحصار.

لم يأتِ السلطان بعد، والسهام تنطلق لتعبر الأسوار، وتترك خلفها قتلى مجهولين ماتوا بالمصادفة، وسار القاضي محني الرأس، يسمع صرخات الترمل والجوع، ويشم رائحة العفونة القادمة من الجثث، وتزداد دهشته عندما يصل إلى مجلس القضاء فيجد المتخاصمين في انتظاره، يتصارعون حول الفتات؛ إرث ضائع، بضاعة فاسدة، أمانة مغدورة كأن التتار لا يقفون خلف الأسوار، وكان القاضي يشعر بالحنق عليهم، سواء أكانوا أصحاب الحق أم سالبين للحق، وعندما انصرفوا أخيرًا أخذ أنفاسه بعمق، واستعد للذهاب إلى القلعة، حيث يقابل نائب السلطان، ولكنه اكتشف متقاضيًا آخر ما زال يقف أمامه، شاب نحيف يبدو شديد الثقة بنفسه، سأله القاضي ببعض الحدة عن قضيته فقال الشاب:

- قضيتي شخصية يا سيدى القاضي، اسمى حميد بن زيد، وأود أن أطلب يد ابنتك.

صرخ القاضي وهو يرتعد: يا حراس، يا حراس.

ودخل الحراس مفزوعين، قفزوا فوق الشاب، والقاضي يواصل الصراخ:

- خذوه، ضعوه في السجن، لا تخرجوه أبدًا.

كان القاضي غاضبًا لدرجة أرعبت الحرس فجذبوا الشاب بعنف، لم يسمحوا له بأي اعتراض، ونهض القاضي مرتعدًا، عبر كل الطرقات وصعد القلعة، أحس أنه عريان، محاصر، سقط قبل أن تسقط مدينته، صعد القلعة ولأول مرة شاهد البشر على وجه نائب السلطان الذي صاح فيه:

- بشراك يا قاضي دمشق، السلطان قادم، وصلتنا رسله، وسوف يصل هو والجيش بعد ثلاثة أيام.

بعد ثلاثة أيام وصل السلطان «الناصر فرج»، وكانت سارة ما زالت مريضة في فراشها، ولكن القاضي أحس أن الروح قد عادت إلى دمشق، وبدت البشائر عندما اقتحم الجيش السلطاني قبضة حصار التتار في الجانب الغربي، واستطاع أن يشتتهم ويلقن تيمورلنك أول ضربة، لم تكن ضربة موجعة بشدة، ولكنها كانت كافية حتى تتنفس المدينة وتفتح أبوابها الخلفية كى تستقبل جيوش السلطان.

ووقف القاضي على باب القلعة ضمن مستقبلي السلطان، لاحظ أنه ما زال صغيرًا، في الثانية عشرة من عمره، عندما مات أبوه السلطان برقوق وتولى هو العرش، وفي الثالثة عشرة عندما ثار عليه نائبه على الشام «الأتابكي إيتمش»، واعتقد الجميع لحظتها أن السلطان الصغير سيفقد عرشه لا محالة، ولكنه ما إن سار على رأس التجريدة إلى الشام

حتى تخاذل كل الأمراء المتمردين، وألقوا بأنفسهم تحت أقدام السلطان ليعود منتصرًا، وها هو الآن في الرابعة عشرة من عمره وعليه أن يواجه تيمورلنك هذه المرة.

وعندما ارتفعت الرايات فوق الأسوار، كان تيمورلنك أمام خيمته فتمتم في غضب:

- إنهم يتجرءون على الفرح.

أجل، تجرأت دمشق، وسار السلطان الصغير وهو لا يكاد يرى بين أجساد الأتابكة والأمراء والقادة وزعماء العربان، وانتشر جنوده وسط المدينة كما ينتشر الأمل، صعدوا الأسوار وأطلوا على جنود التتار واشتموا رائحتهم العفنة، واجتمع مجلس الحرب في القلعة.. وحضرها القاضي، وامتلأ بالقوة وشعر أن دمشق قد تم إنقاذها بالفعل حتى إنه هبط من فوره إلى السجن، وبصق في وجه حميد بن زيد، وهتف به:

- لن تسلبني ابنتي، كما أن التتار لن يسلبوني دمشق.

لم يفهم السجين الشاب شيئًا، كل ما فعله هو أنه أحب فتاة نبيلة بطريقة أكثر نبلًا وأراد أن يتزوج بها، لم يدرِ أن القاضي ذات لحظة من لحظات الجنون قد وحد ابنته بالمدينة المهددة، ولكن أعلام الانتصار ظلت مرفوعة، فبعد أيام حلت ثانية بركات السلطان، فقد أخرج «جاليش» من قواته ما قوامه مائة جندي لكي يؤمن طريق الإمدادات عند جبل الثلج، وهناك اكتشف «جاليش» آخر من التتار من حوالى ألف جندي، وانقضوا عليهم في هجمة مفاجئة صاعقة، أنشبوا السيوف والرماح في أجسادهم حتى أفنوهم عن آخرهم، وتركوهم جثثًا متناثرة فوق سفح الجبل، ولم يصدق أحد تلك المعركة الغريبة التي لم تأخذ أكثر من ساعتين، ومع ذلك قضت على ألف جندي، ووقف تيمورلنك مذهولًا أمام خيمته ومساعده «ملك شاه» يقول له:

ـ مولاي الخان، لقد مات ابنك.

هدم التتار خيامهم، ورفعت دمشق أعلامها، وبدأت تستعد للجولة القادمة، وفي اليوم الثالث حدثت ثالثة بركات السلطان، استسلم خمسة من أكبر قواد التتار، ارتموا تحت قدميه وطلبوا الأمان، كانوا هاربين من غضب تيمور لنك، كان غضبه على مقتل ابنه عظيمًا، ولم يجد إلا القواد يصب عليهم شواظ هذا الغضب، وتوالت بركات السلطان، انضم إليه العديد من قبائل العربان، والعديد من أولاد الترك، وسارت قوافل السلاح من مصر، ورفع تيمورلنك الراية البيضاء يطلب التفاوض، وفَتَحَ بابًا صغيرًا من أبواب المدينة دخل منه الرسل، كان تيمورلنك حزينًا يريد العودة إلى بغداد، ولكنه يريد أولًا أن ينهي الحرب بينه وبين السلطان، فهو يخشى المطاردة، ويخشى تحالفه مع أولاد عثمان ضده، يريد حدًّا أدنى يتيح له التراجع عن المدينة التي استعصت في وجهه.

كان السلطان محظوظًا بالفعل حتى إن سارة اضطرت للتماثل للشفاء، وظل الولد المشاغب داخل السجن، وأخذ رسل التتار يقضون الساعات الطويلة على أعتاب السلطان، وانتهز أحدهم الفرصة وطلب أن يحتمي به، وأخيرًا اتفقا على كل شروط الصلح، ولم يبقَ إلا أن يتقابل السلطان والخان ليوقعا هذه الاتفاقية في صباح اليوم التالي.

وباتت المدينة في أسعد لياليها منذ شهور طويلة، خرج الناس إلى الشوارع، وأضاءوا كل الدروب، وكبر المؤذنون من فوق كل المآذن، ووقفت الصبايا في النوافذ يلقين بالزهور، وعندما جاء الصباح أخيرًا ارتدى القاضي أفخم عباءة، وأكبر عمامة عنده ثم سار إلى القلعة ليكون ضمن وفد الصلح الذي سينقذ المدينة.

ولكنه لم يجد سوى السكون؛ سكون مريب يخيم على كل شيء،

صمت موحش غريب لا يوازي الصخب الذي كان يشتعل في عروق المدينة، ماذا حدث؟ استعادت القلعة هيئتها الكالحة كأيام الحصار، وعلى وجوه الجنود الكآبة، حتى نائب السلطان كان واقفًا يتأمل من نافذة القلعة الجيوش التترية، وهتف في توجع:

ـ لقد رحل السلطان.

هتف القاضي في حسرة: رحل لماذا؟ لقد كان منتصرًا.

قال نائب السلطان:

ـ أرغمه الأمراء والأتابكة على ذلك، جاءته رسل من القاهرة ومن غزة أن هناك بعض الأمراء والعسكر ينوون خلعه من على العرش؛ لذا أسرع بالعودة حتى ينقذ عرشه.

هتف القاضي: ودمشق؟

قال النائب: لها الله.

وهبط خبر رحيل السلطان على المدينة كالصاعقة، خرج الناس في الشوارع يضربون كفًّا بكف، وصعد مؤذن المسجد الأموي يؤذن للصلاة، ولكنه انخرط في البكاء، كان السلطان لا يزال طفلًا في الخامسة عشرة من عمره، خيوله تنهب الأرض بحثًا عن عرشه المهتز.. ودمشق لا تزال رهينة في قبضة التتار.

خرج تيمورلنك من حزنه وصمم على أن تدفع دمشق الثمن مضاعفًا، سد الثغرة التي صنعها السلطان، وطوى راياته البيض وأخذ يمطر المدينة بالسهام النارية ويرفع أمامها جثث المصلوبين، ويرتطم بالأسوار في نوبات جنونية، ويطلب من المدينة أن تستسلم دون قيد ولا شرط، وصرخ القاضي:

- سوف يحرقون دمشق، كما أحرقوا بغداد وغيرها من المدن.

وقال نائب السلطان دون أمل حقيقي:

- سوف يعود السلطان بعد أن يؤدب العصاة، حتى ذلك الحين يمكننا أن نقاوم.

ولكن دمشق كانت وحيدة، أكثر من ذي قبل، وقال القاضي:

- فلنذهب للتفاوض مع تيمور لنك، فلنقدم له أي شيء يريده.

وهتف النائب: إنه لا يريد إلا حرق المدينة.

واحتدم الجدل، وأعلن القاضي أنه على استعداد لأن يذهب إلى آخر بقعة في الأرض من أجل إنقاذ المدينة، ولم يكن في حاجة إلى أن يذهب بعيدًا، فالتتار يقعون على مرمى سهم، ولكن من الذي يطلق سهمًا وهو مكبل بكل هذا الرعب؟

للمرة الأولى رفعت المدينة راية بيضاء، وصنعت محفة صغيرة ربطتها بالحبال، ركب عليها القاضي وثلاثة من كبار التجار، وهبطوا من فوق السور إلى أرض الحصار، بين أنياب تيمورلنك.

كان جالسًا في صدر خيمته وهم يتقدمون إليه محنيي الرؤوس، صامتًا، تفوح منه الرائحة العطنة نفسها، وسمح للقاضي بالكلام فتكلم، قدم اعتذار المدينة الطويل لأنها قاومته، وأسفها لأن ابنه مات على أبوابها، وذلها إذ تسأله: ماذا يريد؟ وابتسم تيمورلنك ابتسامة مخيفة وهو يقول في هدوء:

- ومن قال إنني أريد أن أحرق دمشق؟ إنها مدينة الأنبياء، إنه ثأر بيني وبين السلطان وجنوده الذين قتلوا ابني.

وقال القاضي ابن مفلح: ولكن السلطان رحل عنا يا مولاي.

قال تيمورلنك في ملل:

ـ أعرف ذلك ولكن نائبه ما زال موجودًا، وجنوده، وراياته، وما زالت المدينة تخضع له، وعليها أن تخلع طاعته أولًا، افتحوا لنا باب المدينة، ولو بابًا صغيرًا حتى نطرد نائب السلطان ونعلن خروج المدينة من طاعته.

وكان الاقتراح مثيرًا للرعب، وتحدث ابن مفلح ببلاغة، وخلع طاعة السلطان بالفعل، وحاول التملص من شرط فتح الباب، وكان تيمورلنك هادئًا، معجبًا بفصاحته حتى إنه قد قال له:

ـ كان الأجدر أن تكون أنت سلطان هذه المدينة، وقد أعتقتها لأجل خاطرك.

وعاد ابن مفلح إلى دمشق مزهوًّا، لقد دخل في طاعة تيمور لنك، وعلى المدينة كلها أن تدخل في طاعته إذا كانت تريد أنت تنقذ نفسها، وأخذ القاضي والتجار الثلاثة يحدثون أهل دمشق عن حفاوة استقبال تيمور لنك، وعتقه للمدينة إذا دخلت في طاعته، وهو لا يريد إلا بابًا صغيرًا؛ بابًا واحدًا يدخل منه بضعة من جنود، ليعلنوا أن المدينة قد خرجت من طاعة السلطان، ودخلت في طاعة الخان.

ورفض نائب السلطان، وانقسمت دمشق، كان القاضي وبقية الأعيان التجار يريدون فتح المدينة، ولكن بقية الجنود الذين سهروا على الأسوار، والناس الذين ماتوا بلا ثمن في الحواري، والأمهات والثكالى من المدن الأخرى، كانوا يرفضون أي وعد، فالتتار هم التتار، حاول ابن مفلح أن يفتح باب النصر، ولكن النائب هدده بالقتل، وكانت ليلة طويلة مليئة بالانقسامات.

وفي صباح اليوم التالي بدأ القاضي رحلته الثانية إلى تيمورلنك، وأخذ معه هذه المرة المزيد من التجار والأعيان والعلماء والقضاة والمشايخ، وكان الشيخ عبدالرحمن بن خلدون قاضي مصر ما زال في المدينة، وأراد

أن يعاين تيمورلنك عن قرب، ليكتب عنه في تاريخه، فأخذه ابن مفلح معه، وكان استقبال تيمورلنك حافلًا، فرش لهم الأبسطة ونصب الخيام، وجعل قواده وأمراءه وعلى رأسهم «شاه ملك» يسيرون في خدمتهم، وأخذ يتحدث حديثه العذب عن دمشق وعن فضلها على كل المدن، وأن التعرض لأي بيت من بيوتها أو مسجد من مساجدها جريمة لا تغتفر.

وأحس ابن مفلح أن تيمورلنك ليس عطن الرائحة إلى درجة كبيرة، وأنه يمكن التعود على جواره بشكل أو بآخر، وعندما حاول الوفد الرجوع إلى المدينة، أصر تيمورلنك على أن يقضوا الليلة في ضيافته، وأخفت رائحة الشواء رائحة العفونة المنبعثة من مئات الجثث التي بقيت بلا دفن على التلال، ووضع تيمورلنك على كتفي ابن مفلح فراء ثمينًا، وجعله يتصدر المجلس، وأخذ يقول له:يا نائبي، يا مشيري، وأحس ابن مفلح بزهو لم يشعر بمثله قط من قبل.

في الصباح صعدوا متخمين إلى الأسوار على وجوههم علامات الرضا وفي أيديهم رسالة من تسعة أسطر، ووقف ابن مفلح على باب الجامع الأموي وقرأها بصوت عالٍ: الأمان الأمان يا أهل دمشق، أمان مطلق بلا قيد ولا شرط، أمان من غدر الخان، وغدر الزمان.. لم يبقَ إلا أن نفتح الأبواب.

كانوا في نشوة وهم يفتحون الباب الصغير، اعتزل نائب السلطان الجميع في قلعته، وأصبح ابن مفلح هو الحاكم الحقيقي للشارع، ومن الناحية الأخرى من السور، كان شاه ملك وبضعة من الجنود يقفون في تلهف، واحتضنه القاضي، ورحب بالجنود، ثم قادهم إلى داخل المدينة، كان الناس ينظرون إليهم في خوف، كأنهم قادمون من كوكب آخر، كانت الأسواق خالية من الطعام والأرصفة مليئة بالجوعى، فأبدى شاه ملك أسفه على ذلك، ووعد بأن يتحدث مع الخان العظيم لكي يمد المدينة ببعض الأطعمة.

في اليوم التالي عاد وفد التتار، ازداد عدد الجنود قليلًا ولكنهم كانوا يحملون بعض الأطعمة ليست أطعمة كافية ولكنها بادرة على حسن النية، ولم يفكر أحد في إغلاق باب المدينة الصغير جدًّا في أثناء الليل، ولم يفكر الجنود في مغادرة المدينة، نصبوا خيمة صغيرة بجانب السور، وجلس قائدهم أمامهم يمنعهم من ارتكاب أي أخطاء، وفي اليوم الثالث كانوا أكثر عددًا، ولم يحملوا أي أطعمة، وجلس القاضي يمارس حكمه ودوره الجديد كحاكم لدمشق فوجد أحد القادة وقد جلس عن يساره، لم يفعل شيئًا، ولم يتدخل في شيء، ولكنه أخذ يتفرس في الجميع بعينيه الباردتين، وأصبحت الخيمة الواحدة عشرات الخيام في الأيام التالية، يقيم فيها عشرات الجنود المسلحين الذين لا ينامون الليل ولا يتبادلون مع أحد كلمة واحدة، ولكن الحالة ظلت هادئة وظل تيمورلنك خارج المدينة كأنه زاهد في دخولها.

ثم توغلوا في المدينة قليلًا، أزاحوا اللاجئين من على الأرصفة، وتكدسوا في الحوانيت المطلة على النواصي، ثم أحكموا قبضتهم تمامًا حول قلعة المدينة ونائب السلطان وبدأ الناس يشعرون ببعض القلق، كانوا يتكاثرون، لم يتصور أحد أن هذا الباب الصغير يمكن أن يدخل كل هذه الأعداد، ولم يعد من الممكن إغلاقه، بل من المستحيل الاقتراب منه.

وفي ذات يوم فوجئ القاضي بشاه ملك وهو واقف أمامه في لهجة حاسمة:

ـ لا أحد يصلي في جامع بني أمية، رجالي سوف ينزلون فيه.

وانصرف القائد دون أن يسمع ردًّا، وطرد المشايخ والمقرئين وطلاب الفقه، ورفعت الحصر والأبسطة، ووضعت على النوافذ حتى لا يرى أحد ماذا يحدث في الداخل، ثم انبعثت منه أصوات الطبول والضحكات

الماجنة، وهبط الجنود إلى أزقة المدينة السفلية، واقتادوا بعض الغواني إلى المسجد، لم يعد هناك أذان يرتفع، أو قرآن يتلى، ولم يجد ابن مفلح مبررًا يقدمه للناس، كان عليه أن يذهب إلى تيمورلنك ويروي له ما حدث، ووقف أمامه كانت رائحته قد ازدادت عطانة، وهتف ابن مفلح ببلاغته:

ـ لا يرضيك يا مولاي الخان العظيم أن يتحول بيت الله إلى ماخور.

ولكن تيمورلنك لم يتأثر بالبلاغة هذه المرة وقال له في برود:

ـ وأنت لا يرضيك أن تعيش دمشق، عالة عليَّ وعلى جنودي، مدينتك لم تدفع الجزية حتى الآن.

وفتح ابن مفلح في دهشة، تراجع تيمورلنك عن أول سطر من أسطره التسعة، وأضاف في صوت رهيب:

ـ عليك أن تجمع من أهل المدينة ألف ألف دينار. هيا، أمامك يومان.

وانصرف ابن مفلح مذعورًا، ودخل المدينة فوجد جنود التتار في كل مكان، كل نظرة من عيونهم تحمل وعيدًا، ومر بجوار المسجد فسمع الضحكات النسائية العالية مختلطة بأصوات الدفوف، كان بقية الفقهاء والتجار والأعيان صفر الوجوه، ونائب السلطان ما زال في قلعته، والسلطان بعيدًا لا يعرف أحد إن كان قد أدب العصاة، أم هم الذين أدبوه، وعاد القاضي يبرر كل شيء.

ـ لا بد أنه كان سيأخذ الثمن، ولو كان السلطان هو الذي أنقذنا، كان سيأخذ الثمن، المدن كلها تدفع ثمن حياتها للغزاة.

وانتشر القاضي وأعوانه في المدينة يطلبون الفدية، ودفع الناس بلا مقاومة تقريبًا، كانوا خائفين، يريدون أن يتخلصوا من هذا الكابوس، من الرائحة العطنة التي تملأ كل مكان، وبعد يومين من اللهاث المستمر اجتمعت الدراهم، وضعوها فوق بغل صغير ثم سار القاضي إلى

تيمورلنك، ولكنه رمق الأكياس في غضب بالغ وقال دون أن يأمر بإنزالها من فوق البغلة:

ـ ما هذا؟ لقد قررت أن تجمع من دمشق ألف ألف تومان، وكل تومان عندنا بألف دينار، اذهب واجمع بقية الجزية.

واحتقن وجه القاضي لم يكن يعرف الفرق بين الدينار والتومان، ولكن المزعج أن الخان العظيم ليس راضيًا.

ـ إذا لم تكن قادرًا على جمع الأموال بنفسك، أرسلنا معك من يساعدك.

وأحاط قواد تيمورلنك بالقاضي، كأنه قرد داخل طوق، ساروا به إلى المدينة، واحتج الناس فهاجموهم بالسياط ثم بالسيوف، فرضوا على كل رأس كبير أو صغير عشرة دنانير، نزعوا ذهب النساء وثياب الرجال، ومقتنيات التكايا والخانات، وثريا المساجد، اقتحموا البيوت المغلقة، ونبشوا في أسرة الحريم، ونقبوا الجدران بحثًا عن الأموال المخبأة، وكان ابن مفلح، يقيد الأشياء في دفتره، ويحاول كل فترة أن يحول الدراهم إلى دينار، والدينار إلى تومان، والإذلال إلى حصافة، والدم إلى ماء. كان التتار قد احتلوا كل المساجد تقريبًا، وارتفعت روائحهم العطنة بدلًا من البخور، وضحكاتهم الماجنة بدلًا من الأدعية، وهبط نائب السلطان مغلوبًا من قلعته بعد حصار استمر ثلاثين يومًا، قطعوا رقبته وحصدوا غنائمه واستولوا على كل الأموال التي تركها السلطان الهارب خلفه ولم يرضوا بإضافتها إلى دين المدينة الكبير، ومرة أخرى وضع ابن مفلح الأموال تحت أقدام تيمورلنك فقلب شفتيه بامتعاض وهو يقول:

ـ هذه بحسابنا ثلاثة آلاف تومان، وبقي عليكم سبعة آلاف.

ودار ابن مفلح كالمغيب عن وعيه، والأوامر تلاحقه، ونادى المنادي

في دمشق أن كل من كانت عنده ودائع للأمراء أو العسكر أو السلطان أن يحضرها، وأسرع الناس في جو الرعب السائد يخرجون ما لديهم، وهتف تيمورلنك غير راضٍ، ولا قانع:

-بقي عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد.

كان ابن مفلح قد ألف رائحة الدم والعفونة، ولا يدري إن كان ما يفعله هو حقًّا لإنقاذ المدينة أم لتدمير كل شيء، وهتف به تيمورلنك مرة أخرى:

- بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في المدينة من فرس وبغل وجمل وحمار.

وارتفعت أصوات الحيوانات تستغيث، اثنا عشر ألف دابة ساقها القاضي إلى الخان، ولكن طلبات الخان لا تنتهي.

بقي عليك أن تجمع لنا كل ما في البلد من سلاح، من السيف حتى السكين الصغير، وكانت السيوف مثلومة والسكاكين غير قاطعة فذهبت طائعة إلى تيمورلنك وأفاق ابن مفلح من غشيته قليلًا ليسمع باسم حميد بن زيد من جديد، كانوا يتحدثون عنه، الأمل الوحيد وسط الخوف الذي يأكل الروح، هرب من السجن وجمع بعض الرعاع السجناء وبقايا الجنود الذين حاربوا من فوق الأسوار، وأخذوا يغيرون على التتار بشكل مختلف، هاجموهم وهم سكارى داخل المسجد وكان تيمورلنك يوالي طلباته:

-بقي عليك أن تكتب لنا بأسماء حارات دمشق وعددها وخططها.

وكتب القاضي، وفرق تيمورلنك الأسماء بين قواده، ودخل الجنود المدينة كالبحر المتلاطم، يبحثون عن حميد بن زيد ويسلبون ويقتلون كل ما في طريقهم وهتف تيمور في القاضي:

ـ أحضر لي حميد بن زيد.

وأمهله يومين، ولم يكن غريبًا أن يعود القاضي إلى بيته فيجد الجارية مذبوحة، وسارة ممزقة الثياب مغتصبة الجسد، وجلس بجانبها يبكي في عجز، هو الذي قاد التتار إلى عتبة بابه وإلى جسد ابنته، حاول أن يغسل جروحها، ويستر عريها، ولكنها كانت تحدق فيه بعيون جامدة كعيون الموتى، كعيون المدينة التي ضاعت هباء، وفي منتصف الليل علت ضجة في أسفل البيت، أصوات جنود يصعدون الدرج ويقتحمون الغرفة، لم يكونوا من التتار، كان هو حميد بن زيد واقفًا في يده سيفه وخلفه أتباعه وصرخ فيه:

ـ هل طابت نفسك الآن يا عاشق التتار؟

وأوشك أن يهوي عليه بسيفه ولكن سارة أفاقت من غيبوبتها وصرخت، وخيم الصمت وقال أحد الرجال يستحث حميدًا:

ـ اقتل الخائن.

وقال القاضي في صوت مرتعش:

ـ اقتلني إذا أردت، ولكن خذ سارة بعيدًا، خذها عن طاعون التتار.

ولا يدري كيف حملها وذهب، ولكنه جلس في البيت الخالي، ظفر بحياة ليس لها قيمة إلا المزيد من العذاب، ترى ماذا سيقول تيمورلنك عندما يعرف أن حميدًا زاره في بيته؟

بعد ثلاثة أيام اقتحم جنود تيمورلنك عليه البيت، قادوه عبر شوارع المدينة، لم يكن هناك مكان خالٍ يضع عليه قدميه، فأخذ يدوس على الجثث المتناثرة، مثل بقية الجنود ومثل الكلاب الضالة التي كانت تلغ من لحومهم، أفرغ كل ما في بطنه ولكنهم دفعوه، تحولت المدينة كلها

إلى مقبرة واسعة، وتمنى في هذه اللحظة لو أن سارة لم تنقذه، ولو أن حميدًا هوى عليه بسيفه.

كان الجيش كله متأهبًا، وتيمورلنك فوق جواده، كان يحسب أنه الناجي الوحيد من مذبحة المدينة، ولكنه وجد صفًّا طويلًا من الأطفال، مربوطين حول أعناقهم بحبل واحد، كانوا مقعدين على الأرض يرتعدون، يبكون دون صوت تحت برد الليل وهتف تيمورلنك به:

ـ أيها القاضي، أتعرف من أنا؟

استخذى ابن مفلح، كان محطمًا تمامًا: مولاي الخان العظيم.

قال تيمورلنك: أنا غضب الله في أرضه، يسلطني على من يشاء.

وصرخ في جنوده وهو يشير إلى الأطفال: سيروا عليهم بالخيل، لن تكون هناك دمشق بعد الآن.

وصهلت الخيول في غضب جامح، وضاعت صرخات الأطفال، وأخذ القاضي يحدق في هذا المشهد الكابوسي بوجه جامد، ثم بدأت ألسنة اللهب تتصاعد من المدينة، من كل مكان، من أقصاها إلى أدناها، ولوى تيمورلنك عنان جواده وهو يقول:

ـ أيها القاضي يا عاشق دمشق، ها هي مدينتك، خذها.



لم يكن «بيبرس الثاني» يشبه بالتأكيد سميه الأول، كلاهما كان مملوكًا يباع ويشترى، وكلاهما أصبح سلطانًا على مصر يبيع ويشتري في خلق الله، ولكن فيما عدا ذلك كانت الشقة بعيدة بينهما.

بينما كانت تتلى مراسم تولي السلطان المظفر «ركن الدين بيبرس الجاشنكير» بوصفه السلطان الثاني عشر من سلاطين المماليك كان هو جالسًا على العرش غارقًا في التفكير، يتأمل الأمراء والقادة والشيوخ يقسمون بالطاعة والولاء، وشيوخ المذاهب الأربعة وهم منهمكون في تدوين وثيقة تولي السلطنة. انتهت الحروب الكبرى، ولم يبقَ إلا الصراع مع الرفاق القدامى، عاجلًا أو آجلًا سوف يشعرون أنه قد ابتلع لقمة أكبر من طاقته، كان هو الحلقة الأضعف بين المماليك المتصارعين، كانوا من القوة بحيث لم يستطع أحد أن يفرض إرادته على الآخر؛ لذلك اختاروه هو على أمل أن يركبوه جميعًا، ولكن حتى يأتي هذا اليوم عليه أن يؤمن نفسه ويحمي ظهره، كان الملك الظاهر بيبرس الذي سبقه على عرش هذه البلاد قد أنفق كل الذهب على محاربة الصليبيين والتتار، ولكنه لن يكرر هذا الخطأ.



في اليوم الأول من سلطنته استولى عل كل ما وجده في الخزائن من ذهب وفضة، ولكن ما فيها لم يكن كافيًا، استدعى الأمير سلار نائب السلطنة، قال له متوترًا:

ـ الخزائن فارغة، أفرغتها مبالغ الخلع والبيع وشراء الولاءات، لا بد من جمع ضرائب جديدة.

كان الأمير سلار عجوزًا محنكًا، بقي طويلًا في منصب نائب السلطنة لأنه لم يكن يومًا طامعًا في العرش، كما كان حريصًا على كبح جماح السلاطين دون أن يغضبهم، قال له:

ـ يا مولاي هذه بلاد روحها النيل، إذا وفا امتلأت البلاد بالغلال، وامتلأت الخزائن بالأموال، وإذ لم يفِ فقل علينا السلام.

سار السلطان ملهوفًا إلى شاطئ النهر، كانت بوادر وفاء النيل قد بدت ظاهرة للعيان، تغيرت المياه واكتسبت اللون الإفريقي الداكن، وتدافعت الموجات وهي مثقلة بالغرين ونثار البراكين، وعلى طول الضفاف كان الفلاحون قد استعدوا للولادة الجديدة للنهر مثل كل عام، شقوا الأرض وقلبوا تربتها وقسموها إلى أحواض ووضعوا البذور في أرحامها وانتظروا حتى تغمرها المياه.

ولكن النيل لم يفِ بوعده، توقف ارتفاع المياه قبل أن يصل إلى قياسه المحدد، خمس عشرة ذراعًا وسبع أصابع، لو زادت عن ذلك لكان الفيضان، ولو قلت لكان الشح والغلاء، ولكن النيل لم يرتفع بمقدار الأصابع المرجوة، وكان من المفروض أن يهبط السلطان من القلعة ليفتح السد ويضمخ مقياس النيل بالطيب والزعفران، ولكنه لم يفعل، ظلت الأرض عطشى والبذور جافة والنيل عاصيًا.

كان رد الفعل سريعًا في كل المدن، شحت الغلال وارتفعت الأسعار وخبأ التجار الأقوات، بدت ملامح المجاعة، وتشاءم الناس من وجه السلطان الجديد، ولكنه وجد في تلك المصيبة فرصة سانحة. كانت مخازن القلعة مليئة بالغلال، وبدلًا من أن يوزعها على الجوعى والمحتاجين كما جرت العادة، أخذ يبيعها بأعلى الأسعار، وضجت الناس من الغلاء، ولم يكن أمامهم إلا السخرية يقاومون بها حنقهم وجوعهم، ساروا في الشوارع وهم يغنون:

- يا سلطان يا ركين، من وشك غاض النيل.

وانتشرت الأغنية، عبرت الشوارع والأزقة وصعدت إلى مسامع السلطان في القلعة، كانوا يسخرون من اسمه ويحورونه من ركن الدين إلى ركين، صاح في جنده:

- هؤلاء الحرافيش قد أساءوا الأدب، ويجب أن يعاقبوا.

هجم الحرس على الأسواق والمقاهي وأماكن السمر، ضربوا من فيها بالمقارع وجروا قسمًا كبيرًا منهم إلى سجن العرقانة، ساد الرعب المدينة، وتوقف الغناء، هرع أهالي السجناء باكين إلى ساحة القلعة، يتوسلون للسلطان حتى يفرج عن أبنائهم، ولكن غضبه كان شديدًا، لم يخف إلا بعد أن فرض على كل واحد من السجناء عشرين قطعة ذهبية ليفرج عنهم، ودفع الأهالي صاغرين، ومن لم يقدر أهله على الدفع، ظل ملقى في غياهب السجن لا يعرف مصيره سوى الله، وظفر السلطان بمبلغ جيد من الذهب.

ثم جاءت مشاكل أخرى ولكن من الخارج هذه المرة، من الشام، حيث كان يوجد السلطان السابق الناصر قلاوون، كان قد عزل نفسه بنفسه

حين رأى تحكم كبار الماليك فيه، حتى إنه لم يكن قادرًا على إقامة وليمة أو شراء جارية إلا بعد أخذ الإذن من نائب السلطنة؛ لذلك فضل أن يخلع نفسه عن العرش ويلجأ إلى قلعة الكرك في الشام ليقيم فيها، ولكن عندما ضاق الحال بقادة المماليك في مصر، وعانوا من جشع السلطان، بدأوا يراسلون السلطان قلاوون، لعله يأتي بالخير على يديه، كتبوا يقولون له:

ـ «تعالَ وامتلك هذا البلد المكنوب، وخلصنا من هذا السلطان الشحيح».

ووقعت واحدة من الرسائل في يد السلطان الظافر بيبرس، جن من الغضب، أخذ يعدو في أروقة القلعة وهو يصرخ متوعدًا الخونة، وأمر بالقبض على كل من راسل وعرف وتواطأ، وكل من يفكر في المراسلة، كانت فتنة هائلة لم يشهد المماليك مثلها منذ أن قامت دولتهم، ألقي القبض على أكثر من ثلاثمائة من القادة ومقدمي الجند، قتلوا وضربوا وحلقت لحاهم وشواربهم وسيقوا إلى سجن الإسكندرية، ولم يكن هذا السجن إلا قبوًا هائلًا قل أن يخرج منه أحد وهو حي.

وبينما كان السلطان ينعم بالذهب الذي صادره من بيوت الأمراء المغضوب عليهم، كانت المدينة تعيش جوًّا من الرعب من بطش السلطان، لم يعد أحد يجرؤ على الغناء، ولم يعد أحد يجأر بالشكوى، ولم يعد هناك أمل في الخلاص.

ولا بد أن الأخبار السيئة قد وصلت إلى الشام، فقد تقوي عزم السلطان قلاوون الابن، استيقظت شهيته للعرش مرة أخرى، أيقن أن السلطة مرض لا بُرء منه، بدأ يقوم بزيارات لكل الولاة الذين يحكمون المدن الشامية، كانوا جميعًا من تلاميذ أبيه قلاوون الأكبر، هو الذي اشتراهم وأعتقهم وحولهم إلى حكام وقادة، طلب منهم أن يناصروه وأن يسيروا معه إلى

مصر، حيث الذهب والنساء والسلطة المطلقة، إغراء لا يستطيع أحد مقاومته، انضم إليه والي دمشق ثم والي حلب وحمص وصفد، جمعوا جيوشهم في جيش واحد وبدأوا في المسير.

وصلت الأنباء إلى السلطان المظفر، أدرك أن الخطر هذه المرة أكبر من أن يعالجه بالسجن أو القيام بضربة مباغتة، اجتمع مع نائب السلطنة الأمير سلار ليتدبرا فيما يعملان، قال سلار:

ـ لا مفر من أن نعد جيشًا نسيره إليهم قبل أن يباغتونا في ديارنا، لا بد من أن نجهز الأموال والنفقات والمؤن، لا شيء يصنع النصر مثل الذهب.

صاح السلطان مفزوعًا: ماذا؟ أضحي بالأموال التي جمعتها بشق الأنفس، ألا يوجد حل آخر غير مكلف؟

ولم يدرِ سلار ماذا يجيبه، تركه ليتدبر أمره.

قضى السلطان ليلة معذبة، كان الذهب الذي حلم به، والذي فعل المستحيل من أجل جمعه يوشك أن يتبدد من يده، نظر إلى المدينة الهاجعة تحت أعتاب القلعة، خائفة ومظلمة، كان واثقًا من أن سكانها يكرهونه ويتمنون هزيمته، وكان الرد الوحيد عليهم هو أن ينتصر، يؤكد لهم مدى قوته وسطوته، ثم يجعلهم بعد ذلك يدفعون الثمن، كل درهم سينفقه على الجيش سيسترده منهم مرة أخرى.

في الصباح المبكر جاء سلار وهو مربد الوجه، قال له السلطان:

ـ سنعد الجيش، وقد جهزت ما يلزم من ذهب، ولكننا سنزيد من ضرائب العام القادم.

ولكن سلار رد في اقتضاب: لا فائدة من ذلك، تسلل معظم الأمراء والقادة، وهربوا إلى الشام.

أصيب السلطان بالذهول، لم يتصور أن يتخلى عنه الجميع وأن يغدو فجأة بلا جيش، لم يحدث هذا لسلطان من قبل، تطلع إلى أسوار القلعة الهشة التي لا تستطيع حمايته، والمدينة الضيقة التي لا يمكن أن تُؤويه، هتف في حيرة: وما العمل؟

قال سلار: ليس هناك من حلٍ إلا أن تتنازل عن العرش وأن ترسل للناصر قلاوون تطلب منه العفو، حتى يحفظ عليك حياتك ويتركك تذهب إلى حيث تريد.

حضر شيوخ المَذاهب الأربعة، انهمكوا على الفور في إعداد وثيقة التنازل، دون أن يأبه أحد بالنظر إلى السلطان المذهول، وما إن فرغوا منها حتى انصرفوا سريعًا ليستعدوا لاستقبال السلطان الجديد، لم يكن هناك وقت للرثاء أو لتطييب الخواطر، حتى سلار نفسه حرص على أن يحمل وثيقة التنازل ويسير بها في اعتزاز، كانت هي التي ستضمن له أن يحتفظ بمنصبه مع السلطان الجديد.

كان الليل ثقيلًا، ووجد الناصر بيبرس أنه غير قادر على انتظار رد السلطان القادم، كان يجب أن ينجو مبكرًا قبل أن تتحول القلعة إلى فخ يقتنصه، هبط إلى الحظائر وأخذ أجود ما فيها من خيول، ووضع عليها كل ما جمعه من ذهب؛ الصديق الباقي بعد أن تخلى عنه كل الأصدقاء، اتجه إلى الباب الخلفي للقلعة المطل على قرافة المقطم.

كان الفجر يبزغ، والسماء يشقها ضوء رمادي خافت، الحرس نائمون، والمشاعل مطفأة بعد أن نفد منها الزيت، وسار السلطان المخلوع يجر

جواديه، أغلقت خلفه بوابة القلعة للمرة الأخيرة، سوف يواصل السير إلى أقصى بلاد الصعيد حيث لا يستطيع أحد أن يلحق به، ولكنهم كانوا في انتظاره، العوام والحرافيش الذين ضربهم بالمقارع وسَجَنَ أبناءهم وسلب أموالهم وباعهم القوت بثمن فاحش، الذين أهانهم وألقى الرعب في قلوبهم، كانوا يسدون طريقه بوجوههم الجائعة المغبرة، تطلع إلى الخلف حيث القلعة الصامتة المغلقة الأبواب، لا يوجد ما يحميه من هذا الغضب المستعر في كل العيون، كانوا يصيحون من بين أسنانهم:

ـ لن تفلت منا يا نحيس.

تردد صدى أصواتهم فوق تلال المقطم المتجهمة، أدرك أنها النهاية، كانوا قريبين منه لدرجة أن اشتم رائحة عرقهم، ورأى الرذاذ المتناثر من أفواههم، مد يده إلى الخرج الموجود على ظهر الجواد، لم يخرج غدارة ولا سيفًا، أمسك قبضة من قطع الذهب التي كانت تملأ الخرج ونثرها فوق رؤوسهم، في أول الأمر لم يفطنوا لما حدث، ظللوا يواصلون الاقتراب والتهديد، ألقى عليهم بالقبضة الثانية والثالثة حتى بدأ بريق الذهب يخطف بريق الصباح، تخلخلت حلقة الحصار من حوله، تركوه وأخذوا يدورون حول أنفسهم باحثين عن مكان الذهب المتساقط، وظل هو يواصل نثر الذهب وقد انتابته حمى الحفاظ على حياته، انشغلوا عنه جميعًا، تدافعوا ونثروا في عيون بعضهم البعض الحصى والتراب، تصاعد غضبهم وبدأوا في العراك، واستطاع بيبرس أن يلوي عنان جواده وأن يعدو مبتعدًا، كان قد أصبح مفلسًا ولكنه كان ما زال حيًّا، وهكذا اختفى عن أبصارهم ولم يسمع أحد عنه منذ ذلك الحين.



لا وقت للبكاء يا «خوند»؛ فاللعبة خاسرة والسلطان قد مات.

أغمض عينيه ومات ببساطة شحاذ، ترك القاهرة راجفة القلب من الفتنة، والنيل قد أبحر وأغرق القرى، وقافلة الحج فريسة في يد العربان، والعرش خالٍ. مسحت «خوند سعادات» دموع الحنق وهي تقول: خذلني السلطان «المؤيد».

كان وجهها يشع بدفء غاضب لم تكن حزينة على المؤيد برغم أنها كانت آخر زوجاته، الوحيدة التي أعطته الابن الذي يرث العرش، وها هو الابن نائم في المهد يمص أصابعه، عمره عام وثمانية أشهر، وسبعة أيام والسلطان ميت.

كانت تسمعهم، المماليك المؤيدية، والظاهرية، والأتابكة، ومقدمو الألوفات، ضباع جائعة، تجوس أروقة القلعة، يصعدون من أسفل، يريدون الانقضاض على جثة السلطان التي لم تبرد بعد، وفي مقدمتهم الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة كلهم يريدون العرش، وصاحب العرش يمص أصابعه.



نهضت خوند سعادات بطولها الفارع وبياضها المشرب بالحمرة، ونظرت من نافذة جناح الحريم، كانوا يصعدون سراعًا، وكل واحد منهم يستعجل نوال الإرث، ووجدت نفسها تهتف في فحيح غامض مليء بالرغبة والمرارة:

ـ من يأخذ عرشي، فسوف يكون السم من نصيبه.

في قاعة العرش وسط الصراع المحتدم، ظهر المملوك القصير لأول مرة، كان أمراء المماليك يقفون في مواجهة بعضهم البعض شاهري السيوف، وفي الوسط يقف الخليفة العباسي، والقضاة الأربعة، والعرش الخالي، متساوين جميعًا في القوة وفي الضعف، وهذه هي الكارثة، كما كان الخليفة العباسي يفكر، لا يوجد أمير بالغ القوة فيتسلطن ولا أمير بالغ الضعف فيبدأ رحلة الخضوع، الأتابكي الوحيد نائب السلطان الذي كان يمكن أن يقبض على العرش، هو «الطنبغا» ولكنه خارج البلاد، ذهب ليؤدب نواب الشام المتمردين لحساب سلطانه الذي اختطفه الموت.

هتف الخليفة: اهدأوا بالله يا أمراء.

بلا جدوى.. لم يكن للخليفة أي سلطة فعلية، وهذه هي إحدى المرات القليلة التي يغادر فيها قصره، ويظل واقفًا هكذا مرتعدًا؛ حتى يتم اختيار السلطان فيبايعه، ثم يهرع إلى قصره، ويظل مختبئًا حتى نشوب فتنة جديدة.

ثم اقتحم القاعة «الأمير طرطر» أمير المجلس بقامته القصيرة، وكان خلفه عشرات المماليك المؤيدية، وكان واضحًا أنه يوجد منهم المئات خارج القاعة، يملأون الإيوان السلطاني وقبة الهواء، وهتفوا بصوت كالرعد:

ـ لا نسلطن إلا ابن أستاذنا ومولانا.

وقال الخليفة مندهشًا: ماذا يا أمراء؟ إنه صغير، عمره عام ونصف.

تقدم الأمير طرطر مصححًا: عام وثمانية أشهر، وسبعة أيام.

وصرخ مملوك آخر يحرض الباقين: سوف نسلطنه ولو كان عمره يومًا واحدًا.

لم يتصور الخليفة أن طرطر بقامته القصيرة، الذي لم يبرز في أي وقت، هو الذي قاد كل هذه الحملة، لو أن الطنبغا موجود لقاد الجميع من أنوفهم، ولكن طرطر، مستحيل، قال الخليفة:

ـ مهما كان عمره فهو ما زال صغيرًا، وسوف تضيع أمور المسلمين بين الأمراء.

وأدرك الخليفة أنه كان مخطئًا في ظنه عندما هتف المماليك في صوت واحد:

ـ يكون الأمير «طرطر» مدير المملكة حتى يحضر الأتابكي الطنبغا.

وضرب الأمير الخليفة كفًّا بكف: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونظر إلى القضاة الأربعة في عجز، لم يكن لأي منهم القدرة على الاعتراض، كانوا يعرفون أنه لا يوجد من هو أحمق من مملوك عندما يتحامق، كان المماليك المؤيدية مصممين، يتكاثرون خلف «طرطر» داخل القاعة وخارجها، كأنهم يهبطون من الهواء، لم يتصور الخليفة من قبل أن السلطان المؤيد كان يمتلك كل هذا العدد من المماليك، والأغرب من هذا أنهم ما زالوا أوفياء له، والوفاء كان دائمًا عملة نادرة بينهم.

وفي النهاية لم يكن هناك مفر من الموافقة، وعندما سمعت خوند سعادات الخبر لم تصدق أذنيها، لم تكن تهتم بمن يكون مدبر المملكة، يكفي أن العرش لابنها، عندما يحين الوقت سوف تتخلص من أي مدبر.

وعندما جاؤوا ليأخذوه من الحريم إلى غرفة العرش أصرت «خوند سعادات» أن تصحب ابنها لتشاهد بيعته، حملته المرضعة وهي تسير بجانبها، على وجهها نقاب شفاف، يشع وهجها الخاص من خلفه، وعندما رآها طرطر ظل يحدق فيها مبهورًا، لم يتصور أن سلطانه الشيخ، كان يمتلك هذه المرأة التي لا تمتلك.

وضعت المرضعة الرضيع على العرش وحيدًا، لم يكن مرتاحًا لهذا الوضع، فقد أخذ يتحرك متحفزًا، والمرضعة تربت عليه لعله يهدأ، والخليفة يتلو مراسم البيعة، والقضاة الأربعة يؤمنون في صمت ووقار، وأعلن الخليفة عن مبايعته للسلطان «المظفر أبو السعادات أحمد ابن المؤيد»، وهتف المماليك، ودقت الكؤوس في صوت له دوي الرعد، حتى تسمع القاهرة كلها أن هناك سلطانًا جديدًا قد بويع، واستيقظ الطفل مفزعًا من هول الضجة، وانخرط في بكاء حاد مفزوع، وعبثًا حاول الجميع تهدئته.

أسرعت المرضعة تحمله، والأمراء يصدرون أصوات التلاطف، ويحركون قطع الزرد من على رؤوسهم، ويصفرون ويقلبون شفاههم، ولكن كل هذا زاد من فزع السلطان ومن حدة بكائه، ولم يبقَ هادئًا إلا خوند سعادات وهي واقفة بجانب العرش، وطرطر الذي ظل واقفًا في مواجهتها في أقصى القاعة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها وجهه، والمرة الأولى التي يرى فيها عينيها.

ولكن الأمر لم يقف عند البيعة وإخماد الفتنة مؤقتًا، كان الأمير «طرطر» زاهدًا في السلطة، أو على الأقل زاهدًا فيها بهذه الصورة الناقصة التي لا تحل ولا تبرم، في اليوم الأول أصر على جمع الأمراء والخليفة والقضاة، وأعلن أنه متورط، فلا هو يعرف أفكار السلطان الطفل، ولا يدري بنوايا

«الطنبغا» الغائب؛ لذا فهو يستعفي نفسه، وقد أثار هذا الزهد غير المتوقع ثائرة الكثيرين، وأصروا على التمسك به، هتف محتجًا:

ـ لا سلطة لي يا أمراء.

قالوا: بل لك كل السلطات ونحن أمراؤك.

اعترض صوت وحيد: حتى يحضر الطنبغا.

ولكن الاعتراض ضاع، ونهض «طرطر» وجلس على يمين العرش وأشهدوا الخليفة ووقع القضاة، وبدأ في اليوم نفسه في إصدار تغييرات بسيطة لا تكاد تذكر، فقد دفع الرواتب المتأخرة للجند، وأعفى الناس من عدد من الضرائب الباهظة، وانتظر عدة أيام ثم فتح السجون وأخرج منها أناسًا كان يعتقد أنهم موتى، ثم أدخل أناسًا غيرهم، ثم بدأ يغير مقدمي العشرات والألواف ونواب الإقطاعيات، غاصت أصابعه ببطء في لحم المدينة المستسلمة، كان مختلفًا، يفعل ما يريد دون أن يعلن عن نفسه ولا عن أعماله، وكانت خوند سعادات تحس بالحنق تجاهه، وتجاه ابنها الذي ما زال صغيرًا، برغم مرور شهر على توليه العرش، وطرطر لم ينسَ أن يزوره يومًا ما، لم ينسَ أن يصطحب معه الحلوى والألعاب ويتبادل كلمات قصيرة مع خوند سعادات التي ترد عليه دائمًا بلهجة جافة:

ـ كيف صحة مولانا السلطان؟ هل بكى في الليل؟!

السلاطين لا يبكون، حتى لو كانوا أطفالًا.. كان طرطر يبتسم، ويصدق، ويتراجع، ويظل يسمع صراخه طوال الليل من نافذة حجرته، ويجمع كل الخيوط في يديه، ويباشر الإصلاحات التي كان المؤيد قد تركها بدافع البخل أو التقاعس، كان الجميع يتساءلون: لماذا يشتغل بهذه المهمة والطنبغا عائد لا محالة؟ ولكن كانت لطرطر نواياه التي لم يعلن عنها، كان ينتظر هذه العودة بروح عالية، لم تغره السلطات الكثيرة التي

أصبحت بين يديه، ولا أحد يدري إن كان يتنبأ بالغيب أم لا، ولكن ذات يوم جاء رسول من الشام ووقف أمامه في مجلسه وأعلن بصوت واضح:

ـ الطنبغا انضم لحاكم دمشق، «جقمق الأرغوني»، وأعلن تمرده.

ولم يظهر على وجه طرطر أي انفعال، وكأنه كان يتوقع هذا النبأ، وخيم الصمت على شهود مجلسه، وأخيرًا قال طرطر ببطء:

ـ لقد أعطاني طرف مشنقته، لن يدخل مصر إلا وهو جثة هامدة.

وفي الليلة نفسها بعد أن انتشر الخبر في القلعة، أرسل طرطر رسولًا إلى خوند سعادات يطلب منها الزواج، ولكنها هتفت في استنكار:

ـ كيف يجرؤ هذا المملوك القصير القميء على طلب يدي؟!

ولم يرد طرطر الإهانة برغم أنها وصلت إليه كاملة.

أعلن الأمير طرطر مدبر المملكة أنه سوف يخرج إلى الشام ليؤدب المتمردين باسم السلطان، وتأييدًا لذلك سوف يكون السلطان في صحبته، وهتفت «خوند سعادات»: كلا، سوف يقتلونه في الطريق، ورد عليها طرطر بهدوء: إذا كنت خائفة لهذا الحد فسافري معه، وقبلت «خوند سعادات» التحدي، كانت فرصة عمرها أن يشتبك طرطر والطنبغا في قتال دامٍ، والأهم من ذلك ألا يكون هناك منتصر منهما.

سار الجيش إلى الشام، وفي مقدمته السلطان الذي وجد سببًا جديدًا للبكاء المزعج، وفكر طرطر، حتى لو انتصرت على الطنبغا وكل أمراء الأرض فلن أستطيع جعل هذا الطفل يتوقف عن البكاء. كان الطريق وعرًا، وخاصة خلال صحراء سيناء، وكل نواب الشام وفلسطين خلال عهد المؤيد ينقضون بالشمال ما أقروه باليمين، وما فعله الطنبغا هو أنه ضاع وسط المدن العاصية والحصون المتمردة، ولكن طرطر كان ينوي الانتهاء

من هذا الأمر، ومع أول مدينة قابلوها أعلنت الحملة هدفها بوضوح، لقد جاءت للتأديب ولم تأتِ للغفران لذلك كان هجومه على مدينة «صفد» بالغ العنف، ولم يكتف طرطر بالمدينة التي سقطت بين يديه ولكنه وضع لأميرها مشنقة عالية علقه عليها ليراها كل من في الشام.

توالى سقوط المدن، وهروب المتمردين، واكتساح الجيش، وبزوغ طرطر كقوة جديدة خارقة، وصلت رسالته المفزعة إلى دمشق، إلى أميريها جقمق والطنبغا، وقد جعلت هذه الانتصارات تحالفهما الهش يصيبه الوهن، تساءلا: ماذا نفعل؟ أنقاتل ونواصل التمرد حتى نهايته، أم نعلن الطاعة للسلطان؟ كان جقمق يرى أن من خلع طاعة المؤيد عليه المواصلة وخلع طاعة طرطر وسلطانه الصغير، ولكن «الطنبغا» كان يمر بحالة من القلق المرعب، لا يدري إن كان قد أصاب أم أخطأ، الوحيد فيهم الذي يعرف طرطر جيدًا؛ لذلك جمع أمراءه وقرروا العودة إلى طاعة السلطان مرة أخرى.

وقبل أن يلوح جيش السلطان في الأفق، اشتعلت الحرب بين الشريكين جقمق والطنبغا ضارية، دارت في كل شوارع المدينة، واستطاع الطنبغا أن ينتصر وأن يقتل حليفه السابق، ويعلن أن دمشق قد عادت إلى طاعة السلطان المظفر «أبي السعادات»، ولكن هذا كان متأخرًا، فقد وصل طرطر، ودخل بوابات دمشق دون أي مقاومة، وصعد الحصن ليجد الطنبغا طائعًا في انتظاره، ينحني أمامه، فقال له ببرود:

ـ لا تنحنِ أمامي، ولكن للسلطان.

وكانت خوند سعادات واقفة، فرأت الطنبغا وهو ينحني، وهو يقبل ثوب السلطان، وبدا عجوزًا منهكًا، أقصر قامة من طرطر، أخطأ التفكير

مرتين، وضيع العرش الذي اقتنصه طرطر، وبقي خانعًا والجيش السلطاني يحيط به، وطرطر يصرخ:

ـ خذوا هذا الخائن وضعوه في السجن.

وهتف الأتابكي مدهوشًا: لقد حاربت «جقمق» وانتصرت عليه.

واصل طرطر متجاهلًا كلماته: واقطعوا رأسه عند الفجر.

وأسرع الحرس يقودونه إلى السجن، وخيم الذهول على الجميع، كان طرطر آمرًا، ناهيًا، قاسيًا، لم يعد يستمد سلطته من اتفاقه مع الخليفة والقضاة، أو من الطفل النائم على العرش، لم يعد يستمدها إلا من طرطر القوي الذي كان كامنًا في داخله، التفت إلى خوند سعادات وهو يقول في حزم:

ـ خوند سعادات، هل تتزوجينني؟

ماذا يمكن أن تقول؟ لا تملك إلا أن تحني رأسها: أمرك مطاع، يا مولاي.

ولم يكف السلطان الصغير ليلتها عن البكاء، كان طرطر يسمع صوته قادمًا من غرفة المرضعة، وهو واقف بجانب النافذة يتطلع إلى المدينة التي أصبحت له، و«خوند سعادات» مستلقية يقظة فوق السرير، جسمها مليء بالجروح الصغيرة، كلما تحركت آلمتها، حتى إنها لم تجرؤ على النهوض لكي تهدئ من روع ابنها.

في صباح اليوم التالي فقد السلطان «المظفر أبو السعادات» عرشه، وفقدت خوند سعادات بهجة عرشها، ووضعهما معًا في السجن ريثما ينقلان إلى أحد سجون مصر، وأعلن عن تولي السلطان الظافر طرطر،

وأرسل بذلك رسالة إلى القاهرة ليجد البيعة جاهزة حال وصوله، وأن تتزين المدينة فرحًا بعهده.

وعاد الجيش على رأسه سلطانه الجديد، وقبل أن يصلوا إلى القاهرة انفصلت فرقة من الفرسان تضم السلطان المخلوع والزوجة المهجورة، واتجهت إلى الإسكندرية، وفي الوقت الذي كانت فيه القاهرة تستقبل سلطانها الجديد، وترش على موكبه أوراق الورد وماء الزعفران، كان سجن الإسكندرية يضم في أحشائه السلطان المخلوع، ويغيبه في زنازينه الرطبة، ويلفه بالروائح الكريهة، وبرغم أن الخليفة كان صادقًا في بيعته، وأن الأمراء راضون بسلطانهم القوي، والنيل وافٍ بالزيادة، فإن السلطان كان يعيش حالة من الرعب، كان بكاء الطفل يطارده، يسمعه من كل مكان في القلعة، وخاصة إذا جاء الليل، ثم بدأت تظهر على جلده بقع غريبة قاتمة، كأنها ديدان رفيعة تمتد وتلتهم جلده الأبيض وتفاقمت الحالة، حتى أحس كأن روحه تتآكل.

واجتمع الأطباء، فحصوه وتشاوروا ثم فحصوه، وأعلنوا أن السم يسرى في جلد السلطان، ثيابه كلها مسممة، وكذا أغطية فراشه وصرخ السلطان، وأمر بإحراق كل الثياب، وظل جالسًا طوال النهار والليل في حوض الماء، ولكن جلده كان يتساقط طافيًا أمامه، والآلام التي يحس بها تفوق أي ألم، تفوق الإحساس بالندم أو العزلة أو التكبر أو المباهاة، تفوق كل الرغبات والنوازع، وتقف به كل لحظة على حافة الموت، وفي الليلة الأخيرة ظل يصرخ طوال الليل، وكان صراخه من القوة بحيث ردد المقطم صدى صوته، وجعله مسموعًا بطول المدينة وعرضها.

ولم تستمر ولاية السلطان الظاهر طرطر إلا أشهرًا قليلة، ولكن سجن السلطان المظفر استمر طويلًا، فعندما جاء سلطان جديد لم يأبه بمن هو في سجن الإسكندرية، ولم يخطر ببال أي سلطان على العرش أن يخرج

سلطانًا آخر من السجن، حتى ولو كان طفلًا صغيرًا، وشب «المظفر» وسط الظلام والرطوبة ورائحة العفونة، تعوَّد على طعام السجن الخشن، وصليل السلاسل، وقرص الفئران، وزحف الحشرات، وصراخ الحرس في الليل.

وعندما كبر وتعلم الكلام وأخبرته أمه أنه كان سلطانًا على عموم مصر والشام، فلم يعرف ماذا يعني السلطان، ولا ماذا تعني مصر، ولا الشام، حاولت أن تقول له إنه خلف هذه الجدران الضيقة الخانقة يوجد عالم آخر، ولكن ماذا يعني العالم؟ ماذا تعني السماء والشمس والبحر واللون الأزرق والأحمر والأصفر؟ ماذا يعني العرش؟ لم يكن باقيًا في ذاكرته أي نتفة من الذكريات، اللهم إلا تلك الرجفة التي تعتريه، والتي لازمته منذ اللحظة التي تولى فيها العرش.

وكانت «خوند سعادات» ما زالت تحلم، تستقي الأخبار الشحيحة من فم الحرس وتواصل حلمها، أي سلطان يجلس الآن؟ وكيف صارت المماليك المؤيدية؟ وما أحوال مصر؟ ثم تجلس إليه كل مساء لتفهمه واجباته كسلطان، وعندما بلغ السابعة من عمره كانت قد أصبحت عجوزًا ثرثارة مزعجة، وحانت لحظتها الأخيرة، فأحس الطفل بالراحة لأنه سيتخلص من ثرثرتها، ولكنها مدت يدها وأخرجت من تحت حصيرة القش التي كانت تنام عليها خاتمًا صغيرًا كان يتألق في العتمة، طوال هذه السنوات الماضية كانت حريصة على إخفائه، وهتفت به:

ـ هذا خاتم السلطان المؤيد، أبوك احتفظ به.

وماتت قبل أن تشرح له ماذا يعنى الخاتم، ولكنه احتفظ به، وحسب أنه سوف يأخذ نصيبها من الطعام، ولكن الحراس احتجزوه لأنفسهم، وأصبح وحيدًا في الزنزانة، وفي ظلام الليل وهو يسمع قرض الفئران حوله، كان يخرج هذا الخاتم ويتأمله، ويعجب من أين يأتيه ذلك التألق

الواهن، لعله كان يحمل شيئًا ما إليه، حلمًا لم يحلم به قط، لعلها كانت على حق، لعله كان سلطانًا كبيرًا، ولكن ماذا يعني ذلك؟

ولا بد أن أحد الفئران التي كانت تشاركه في الزنزانة حمل إليه الطاعون الذي كان منتشرًا في المدينة في هذا الوقت، فقد أخذ يهذي طوال الليل، وظهرت عليه الأعراض في الصباح، فانتابت الحراس حالة من الذعر، أحسوا بخطورة أن يلوث ذلك السجن المغلق بهذا المرض، وقرروا أن يحضروا عربة خشبية وينقلوه بعيدًا عن السجن حتى يموت ويدفن دون أن تصيبهم لعنة الموت الأسود.

أحضروا العربة، ونقلوه وهم يحاذرون من لمسه، وفتح باب السجن لأول مرة منذ أن دخله وسارت العربة الخشبية القديمة، وصوت عجلاتها يصدر أزيزًا مزعجًا، وكانت الشمس مشرقة، تكاد تعمي عينيه، ما أغرب ذلك، وتلك السماء الزرقاء البعيدة والسحب البيضاء، والطيور العابرة، وهذا الهواء الخالي من العفونة، والبيوت التي تطل عليه، والناس الذين يسمع أصواتهم، هذا هو العالم الذي وصفته له أمه، وهذه لمحة من ملكه البعيد الذي لم يعرف عنه شيئًا، هل كان هو حقًّا سلطانًا على هذا العالم الواسع الممتد، الأرض والبحر والسماء؟ مد يده وأخرج الخاتم من جيبه وظل قابضًا عليه، وابتسم لأول مرة وهو يحس بالشمس تبعث في داخله دفئًا جديدًا، إحساسًا متأخرًا بالحياة، لو أنه يستطيع النهوض، والركض في هذه الشوارع، والغناء والهروب إلى الأبد من جدران الزنزانة ورطوبتها وعفونتها!

وتوقفت العربة بجانب البحر أخيرًا، وأحس بحذر شديد، وابتسم للسحاب وللطيور التي تحوم من حوله، وسمع صوت الحارس وهو يقول في تبرم:

ـ هيا نلقِ به في البحر..



كان «ياسف» اليهودي الملتزم بدار ضرب النقود يستعد للسفر إلى إسطنبول. متاعه قليل ورحلته طويلة، وزوجته «سارة» واقفة في الركن المعتم تراقبه دون أن تقدم له المساعدة، كان يلهث وهو يجذب الأربطة التي تحزم أمتعته، وحين تطلع نحوها، قالت:

ـ لن تتركني هنا وحدي، سأرحل معك إلى إسطنبول.

توقف «ياسف» في حيرة، تمتم مرتبكًا:

ـ ولكن سأقابل السلطان لأقدم له تقريرًا عن حالة العملة وكميتها.

قاطعته ببرود: أنا الجديرة بمقابلة السلطان لا أنت.

تأمل وجهه المليء بوهج الرغبة، ووجهها الشديد الفتنة الذي لم يستطع مقاومته، كان يشعره بالامتنان لأنها تملك كل هذا الجمال وتشاركه فراشه، ولكن أن تذهب معه لمقابلة السلطان، هذا فوق طاقته.

هبط «ياسف» إلى حارات «بولاق» الموحلة، كان الوقت صيفًا، ولكن الوحل لا يجف أبدًا في طرقاتها، توقف أمام دكان «صاروفيم» صانع الكعك الذي قال له:



ـ أحضر لى حفنة من تراب صهيون، وخذ وعدًا من السلطان.

ومرة أخرى تمتم «ياسف» حائرًا: أي وعد؟

وأشاح صاروفيم بيده قائلًا: وعد بأي شيء.. يكفي أن يعدك السلطان.

سار «ياسف» إلى المعبد، مسح قدميه في الحصير المجدول أمام الباب فازدادت وسخًا، كانت التمتمات العبرانية والمزامير الخافتة تبعث في داخله شعورًا بالوحشة، تعيده طفلًا صغيرًا، ووقف الحاخام بلحيته المسترسلة، وجد «ياسف» نفسه وهو ينحني أمامه في ضعة، وقال الحاخام آمرًا في اختصار:

ـ لا تعد إلا ملتزمًا للديار المصرية، أظهر للسلطان براعتك، وعده بتنفيذ أي شيء يطلبه.

كان النيل متكسر الموجات، ومصر نائمة تحت وطأة الكابوس العثماني، كابوس ترك ترابه المظلم عبر القرون على القصور والمساجد والخانات والوكالات والأسواق المسقوفة والحارات السد، بدأ الكابوس وقد فقدت مصر خمسين صنعة انتقلت بصانعيها إلى «إسطنبول»، ولم ينتهِ إلا بعد أن فقدت مصر كل شيء، كان المساجين في سجن «العرقانة» يحفرون نقبًا في الجدار لعلهم يخرجون إلى شمس جديدة، والباشا قد غضب فجأة على «كتخداه» نديمه وشريكه في المكوس فلم يتردد لحظة في خنقه وهبطت جثته من القلعة بدعوى أنه مات من التخمة، وكان إضراب العميان في الجامع الأزهر يدخل أسبوعه الثاني وقد أغلقوا المساجد وعطلوا الشعائر وأوقفوا الأذان لعل الملتزمين يفرجون عن أموال الأوقاف التي نهبوها.

وجاء الخبر إلى القاهرة أن السلطان «مصطفى خان» قد أنجب توأمين فعلقت الزينات ابتهاجًا، كأن الدنيا ينقصها المزيد من السلاطين، وهبت ريح شديدة محملة بالتراب الأسود فأظلم الجو، وكانت صلاة الجمعة قائمة وتحطم المنبر الذي يقف عليه إمام جامع ابن طولون، وصاح صائح أن القيامة قد قامت والساعة قد أزفت، فهرع المصلون وتدافعوا من باب المسجد ومات خلق كثير تحت الأقدام، ولم تقم القيامة ولم يعرف القتلة، وخرج «قبطاس بك» على رأس تجريدة عظيمة لتأديب الأعراب الذين يقطعون طريق الحج فهزمه الأعراب شر هزيمة، وجاء من الفيوم سيدنا «العليمي» آخر الأنبياء الكذبة وجمع خلفه المستضعفين والفقراء والشواذ واللصوص والبغايا وكل من له مظلمة، وكل من يحلم بالخلاص، وكل من في صدره نقمة، وتبعوه، وهو يهذي بكلمات غامضة فيوقظ الأحلام من تحت الرماد، وادعى الولاية وجاء إليه الناس من كل البلدان والكفور واختلط النساء بالرجال فقام عليه العسكر وقتلوه ودفن بناحية مشهد السيدة نفيسة.

وقف «ياسف» خاشعًا أمام مراد بك الدفتردار ملتزم عموم الديار المصرية كافة، وكان ميناء الإسكندرية مزدحمًا بالحمالين وموظفي المكوس، وقال البك:

- من يرافقك في سفرتك يا «ياسف»؟

اعتذر «ياسف» لأنه اضطر لاصطحاب زوجته، وتطلع البك إليها، كانت تقف على مقربة منهما، كل شيء فيها كان ينبئ أنها امرأة وحشية الجمال، واعترف البيك بينه وبين نفسه أن «ياسف» قد أحسن الاختيار، لم يكن غير موظف صغير بدار الضرب يقوم بإحصاء الوارد والمنصرف،

ولن يقف أمام السلطان إلا دقائق معدودة، يذكر فيها أرقامًا مبهمة يثبت فيها أن مجموع الجزية السنوية يتناسب مع دخول الزراعة ومكوس التجارة وسوف يصرفه السلطان وهو يتثاءب، ولكنه بمثل هذه الزوجة يستحق أكثر بكثير.

وكان ربان السفينة أرمنيًا ذا لحية كثة حمراء، دفع «ياسف» إلى مؤخرة السفينة وكاد يلقي متاعه في البحر، وترفق البك بالزوجة ولمس يدها وهو يصعد السفينة وأيقن أن هذه الرحلة التي كانت طويلة دومًا سوف تكون ممتعة هذه المرة. ازداد إحساس «ياسف» بالضآلة وهو يرى البك الدفتردار ينزل في «قمرة» فاخرة، ورفضت سارة أن ترضى بالمكان الذي فرضوه عليهما، طلبت منه أن يجلس على الأمتعة وسارت إلى الجانب الآخر من السفينة. أوشك أن يختنق بالبكاء، هل ذهبت إلى البك؟ هل أخذت بسطوته بهذه السرعة؟ ستنام في قمرته وتتركه هكذا نائمًا في العراء، ولكن «سارة» عادت بعد فترة غير كافية لأي فعل من الذي يظنه، كان يسير خلفها القبطان ذو اللحية الحمراء، وأشار له فحمل الأمتعة وأنزله في قمرة ضيقة ولكنها كانت أفضل من مراقبته الجرذان في قاع السفينة، ولم يجرؤ على النظر إلى وجه سارة، ولم يعرف كيف أقنعت القبطان سريعًا هكذا، وضربت المجادف الماء، وابتعدت الإسكندرية والأرض ولم يبقَ سوى النوارس.

وغاصت السفينة في زرقة صافية، ووقف «ياسف» على سور السفينة شاردًا فرأى الحاخام يصعد من جوف البحر ويأمره أن يعود ملتزمًا، والتفت إلى الخلف فوجد مراد بك الدفتردار واقفًا أمامه، وجهه غاضب، من فرط احتقانه أصبح قرمزيًا، ويزفر أنفاسه في غيظ، أحس «ياسف» بشكل ما أنه مذنب في حق البك، مد يده نحوه باستعطاف، ولكن مراد بك هوى على

وجهه بلطمة قوية ثم انصرف مسرعًا، أمسك خده الملتهب، كأنه يريد أن يخفيه عن الجميع، هبط مسرعًا إلى القمرة، كانت «سارة» ترتدي ثوبًا من الحرير يكشف عن نحرها ومفرق ثدييها، تقف أمام مرآة صغيرة وهي تمشط شعرها، وتتحرك فينبعث من جسدها وهج مشبع بالشهوة، كانت هادئة، ولكنه كان متأكدًا أن لها صلة بما حدث له، سألها بشكل مباشر:

ـ ماذا فعلت بالبك الدفتردار؟

هزت كتفها، وتهدل ثوبها، قالت: جاء إلى هنا، دخل القمرة دون إذن ووضع يده على صدري.

وأحس «ياسف» بيد باردة تعصر قلبه، وقال في لهفة: وماذا فعلت؟

قالت بلا مبالاة: ما يستحقه، صفعته وطردته.

ازدادت درجة فزعه، كان الرجل يرد له الصفعة إذن، عاد إلى سطح السفينة كالمجنون، يبحث عن البك ليسترضيه، ولكنه اصطدم بالقبطان الأرمني ذي اللحية الحمراء، أمره بالعودة فورًا إلى قمرته لأن هناك عاصفة على وشك الهبوب، كأنها لم تهب بعد، وكانت سارة لا تزال أمام مرآتها وقد تكاثرت زجاجات العطر، وأصداف البحر المتألقة، وثلاث لآلئ منثورة في علبة من المخمل لم يرها من قبل، وكانت هادئة تمامًا حتى إنه لم يجرؤ على أن يسألها أي سؤال.

وفي الأيام التالية بدأ البك معه لعبة غريبة، يصبح راضيًا ثم ينقلب غاضبًا، يبدأ معه بالإغراء ثم ينقلب إلى تهديد، لم يكن يدرك أن «ياسف» لا يملك أمرًا، وأنه مجرد ملتزم حقير في دار ضرب النقود، ومثلما يحصي النقود الذهبية دون أن يملكها، يتزوج سارة الجميلة دون أن يحكمها، كان

«ياسف» متأكدًا أن البك لم يرضَ بالخسارة، وأنه ما زال يحاول، ما زال يطارد، ولكنها تبدو ناعسة، تتصرف بنعومة كأنها حورية مغوية، ولكن الهدايا الغريبة تتكاثر، وثقة سارة في نفسها تزداد، ولكن في النهاية بدا أن البك لم يظفر بشيء؛ لأنه أصبح عصبيًّا وعدوانيًّا، تعمد أن يهين «ياسف» علانية أمام صغار البحارة والملتزمين والمسافرين وحين بدت إسطنبول انتاب «ياسف» نوع من الشلل وقد أدرك أنه لن يرجع حيًّا، أو على الأقل لن يرجع وسارة معه، وحين جلسا في الفراش معًا في الليلة الأخيرة قبل الوصول، قالت سارة بصوت خافت:

ـ ماذا طلب منك الحاخام حين ذهبت إلى المعبد؟

ضحك «ياسف» بمرارة وقال: طلب منى ألا أعود ملتزمًا للديار المصرية.

قالت سارة بهدوء: كنت أعرف أنه سيطلب منك ذلك.

ولم يغمض عينيه، رأى على الوسادة شعرة حمراء وخشنة، ملفوفة في حلقات، رأى أخرى تحت الغطاء، وفوق منضدة الزينة، وأخرى على ثوبها الحريري، التفت نحوها وهو يصرخ:

ـ سارة أيتها اللعينة، لماذا رفضت البك الدفتردار إذن؟

وقف «ياسف» أمام السلطان، يمسك كشوف الحساب وهو يرتعد، كان مبهورًا، لا يتصور رحلته من حارات بولاق الموحلة إلى بلاط الباب العالي يمكن أن تكلل بالنجاح، لم ينم، ولم تدعه «سارة» ينام، سهرت طوال الليل تعيد ترتيب كلماته وحساباته.

كان السلطان «مصطفى خان» ضخمًا كما يليق دائمًا بسلطان، ووقف

مراد بك الدفتردار في المقدمة يتكلم ويقدم تقريره المالي بلهجة رتيبة مملة وهو يبالغ في الانحناء والاعتذار عن كل هفوة، ثم أشار إلى «ياسف» ليتقدم أكثر، وينحني أكثر، ثم أخذ يتلو الأرقام، وانتبه الصدر الأعظم، وزير السلطان الذي كان يقف بجانب العرش، أن هذا الموظف يقدم عرضًا مختلفًا، أرقامه تؤكد أن خراج مصر أكبر بكثير مما يقوم الملتزمون بجمعه، والولاة بتوريده؛ لأنه لا يتم حصد المحاصيل في وقتها المناسب، ولا تخزن بشكل جيد، والمبالغ المفروضة على القرى أقل مما يجب، ولا تحصل بشكل جيد، وبسبب الرقابة الضعيفة تهرب مكوس التجارة لصغار الموظفين، ولو أن هناك ملتزمًا جيدًا فسيجمع ضعف هذا الخراج. اصفر وجه البك الدفتردار، وأراد أن يطبق على رقبة «ياسف» حتى يسكته، وهمس الصدر الأعظم في أذن السلطان، وأشار السلطان بيده فصمت «ياسف»، كان يلهث وقد أفرغ كل مايملأ صدره أخيرا، وقال السلطان في بطء:

ـ أتعني أن خراج مصر يمكن أن يزيد إلى ضعف هذا الرقم؟

أحنى «ياسف» رأسه مؤكدًا، وأصدر الدفتردار صوتًا مكتومًا، وألقى السلطان نحوه نظرة غاضبة، قال السلطان متشككًا:

ـ هل تستطيع أن تجمع الرقم الذي ذكرته؟

وظل «ياسف» صامتًا لبعض الوقت، وتقدمت سارة من مكان ما من ظلال القاعة، وضعت يدها على كتف زوجها وقالت:

ـ بفضل ثقتكم يا مولاي، يستطيع زوجي أن يفعل كل ما تريدونه.

ونظر إليها السلطان مبهورًا، لم يتساءل: ما الذي دفع هذه السيدة المجهولة فيما لا دخل لها؟ ولكنه كان مندهشًا لأن في رعيته مخلوقات

بهذا الجمال. فض السلطان مجلسه، ألقى على الدفتردار نظرة احتقار جعلته على وشك الموت، وفي المساء اكتشف أن «ياسف» مدعو لحفل عشاء أقامه السلطان. مرت سارة بذهنه وهي تدخل القصر ببهاء، وتجلس بجوار السلطان بكامل فتنتها، كان أقصى أمله أن ينتقم له أحد من الحاشية، ويدهس جسدها العنيد، ولكن السلطان دخل بنفسه في اللعبة، ولم يكن أمامه إلا أن يهرب بعيدًا، إلى أقصى نقطة في الدولة الواسعة.

كان «ياسف» متضائلًا فلم يأكل إلا القليل، ولم يقرب شراب السلطان، وكانت سارة جالسة بالفعل بجوار السلطان، ينصت لها، وينعم بالوهج الذي يشع من جسدها، متألقة كالعهد بها، وفي الصباح صدر «بيورلدي» سلطاني يعلن وضع مراد بك الدفتردار في السجن، ويعين «ياسف» ملتزمًا عامًّا تكلفة الديار المصرية.

كانت مصر تنتظر توالي الفصول وتغير الألوان على وجهها، في «أبيب» و«مسرى» و«توت» تصبح مصر لؤلؤة بيضاء، حين يفيض النيل المبارك، وتصبح الضياع على رواب وتلال مثل الكواكب الغرقى والماء يحيط بها من كل جانب، ثم يأتي شهر «بابة» و«هاتور» و«كيهك» فتصبح مصر مسكة سوداء، حين ينكشف الماء عن الأرض المخصبة بالغرين، المحملة بالوعود، وتبدأ الزراعات في التفتح كضحكات الأطفال، ويأتي شهر «طوبة» و«أمشير» و«برمهات» لتصبح مصر زمردة خضراء، ترتفع فيها النباتات والحشائش وتتفتح زهور البرسيم وحبات القمح ويطن النحل وتغني العصافير كأنها لن تعرف الجوع أبدًا، ثم تأتي شهور «برمودة» و«بشنس» و«بؤونة» فتصبح مصر سبيكة حمراء، وتحين مواسم الحصاد فيبيض الزرع ويصفر القمح وتتورد الحشائش مثل سبيكة من ذهب.

ولكن مصر ما زالت تنتظر لأن أيام الجفاف لا لون لها، فالنيل يغيض ليظهر الحصى، وينحسر لتبدو عظام الغرقى والمغدور بهم والمغتالين، ويجف ليظهر السمك الميت فتبدأ أيام الجوع، ينتصب المقياس عند الروضة مثل شاهد قبر، ينعي موت المياه المقدسة التي تصب من أنهار الجنة؛ لأن النيل سيد الأنهار وحين خلقه في أول ما خلق سخر كل نهر من المشرق إلى المغرب فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها وفجر الأرض له عيونًا، فلماذا لم يفِ بالميعاد هذا العام؟

النيل أخلف الميعاد، شعر بهذا الفلاح في القرى البعيدة، حين أخذ في كفه حفانًا من الماء فإذا به رخو فاتر بارد أخضر بلون الطحلب الراكد، لو وفى النيل لأصبح الماء حارًّا فائرًا بالزبد، متوهجًا بالغرين الأحمر، خصبًا بالحياة، وشعر بذلك جباة القرى، حين مروا على الحقول الخالية، والأرض المتشققة، وتطلعوا بطرف أعينهم للحيوانات والطيور التي يربيها الفلاح حتى يضمنوا وفاء ضرائبهم، وشعر بذلك الملتزم وهو يعد خيله وسوطه ليقوم بجولة إرهابية، ليخيف الفلاح، ويرعب النهر، ولن يشعر الباشا إلا متأخرًا، ولن يشعر به السلطان في أي حال، مهما حدث يجب أن يصل خراجه إليه وإلا قبض على الباشا وعزل الوالي وجرد الحملات على الفلاحين.

وسارت السفينة من إسطنبول إلى الإسكندرية، وخرج الباشا والوالي وخلفه فقهاء الأزهر، وقساوسة القبط وحاخامات اليهود إلى جبل الجيوشي، كل يستجير بطريقته، الأتراك يتمتمون بالتركمانية، والمسلمون يصلون صلاة الاستسقاء والقساوسة يبتهلون للعذراء المقدسة، واليهود ينتظرون قدوم «ياسف» وسفينته التي تخترق المتوسط، وليس للربان لحية حمراء،

والدفتردار في سجن الباب العالي، والقرى التي كانت آهلة قد خلت من ساكنيها، ماتت الدجاجة قبل أن يستولي عليها الجابي، وأصبحت الماشية هزيلة لا تدر لبنًا ولا تقدر على عمل، والأرض مشققة تجري فيها ديدان غريبة شرهة، والسفينة تسير وسط زرقة صافية كأنها تسبح إلى السماء، وكانت سارة أجمل مما ينبغي، وأصبحت لها القدرة على التمني:

ـ سنترك منزلنا في بولاق، ونسكن في قصر على بركة الرطلي.

وضحك «ياسف» وهو يقول: كيف نسكن وسط المسلمين، ونحن من يهود بولاق؟

وامتلأ البحر بالنوارس، وامتلأت شوارع القاهرة بالجوعى من أهل القرى والكفور، وجاءت خلفهم جرذان الحقول الجائعة، وامتلأت الأزقة بالشحاذين والعميان وجثث الموتى، يخرجون من مخابئهم كالوباء ليهاجموا الأسواق وأفران الخبز، واجتمع الفقراء، رجال ونساء وصبيان، صعدوا إلى حوش الديوان في القلعة، هتفوا في الوالي إسماعيل باشا:

ـ جوعى يا باشا.. فقراء يا باشا.

الأبواب مغلقة ومحصنة، والنوافذ بزجاجها الملون تتطلع إليهم في سخرية، وحمل الجوعى الأحجار وهشموا الزجاج الملون، هبطوا من حوش الديوان إلى حواصل الغلال في «الرميلة»،وحواصل الفول والشعير والقمح التي يملكها كتخدا الباشا وهجموا عليها، وكسروا الأبواب، ورفع أحدهم يديه الممتلئتين قمحًا فبكت كل النساء، وفرد الجميع ثيابهم يعبئونها خليطًا من القمح والفول والشعير ولم ينتظر الكثير منهم فأخذوا يمضغون الحبوب لعلها تعيد إليهم بعضًا من العافية، وجاء فرسان «الينكرجية» وخيولهم تصهل، هذه المرة لم تكن في أيديهم سياط لتأديب الرعاع ولكن سيوف باترة، اختلط

الدم بالقمح ورؤوس الأطفال بالفول والشعير، وركض الجميع، من موت السيف إلى موت الجوع.

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة أشبه بالرحيل داخل مقبرة، أصبح وجه سارة كئيبًا وفقدت الكثير من جمالها، من الذي يحلم بحكم الموتى؟ وفي شوارع القاهرة كانت جثث الطاعون لا تجد من يدفنها، والمماليك والبكوات وعسكر الوجاقات دخلوا خلف الأسوار، وتركت المدينة نهبًا مباحًا للوباء.

في بولاق كان اليهود في انتظاره وانحنى «ياسف» أمام الحاخام وهو يعرض أمامه «بيورلدي» السلطان، لم يكن هناك يهودي جائع، ولا مصاب بالطاعون، كانت سنوات التيه، السنوات السمان والسنوات العجاف قد تركت خبرات مترسبة، تعمل دائمًا على إنقاذهم، ومد الحاخام يده يبارك «سارة» و يأمر «ياسف» بممارسة عمله.

هدأت حدة الوباء قليلًا، وتحركت مياه النيل، التي تقطع رحلتها من خط الاستواء حتى المصب في المتوسط في مائة وخمسين يومًا، حملت الطمي لتطمر الشقوق وتخفي ما فيه من ديدان، وحان الوقت ليصعد «ياسف» إلى القلعة، وسار خلفه يهود بولاق، جمع من الأردية والقلاسين السوداء عبر الشوارع التي هددها الجوع.

وبدأ «ياسف» يحكم القاهرة، ويحكم مصر، وكان أول أمر أصدره هو الاستيلاء على قصر مراد بك الدفتردار على بركة الرطلي، وركبت «سارة» فوق بغلة مزينة من بولاق إلى قصرها الجديد يتبعها حرس يحميها. تصاعدت الضرائب وظلت المتاجر خالية إلا من إعلانات المكوس، والأسواق فارغة إلا من الحرس المسعور، امتلأ سجن العرقانة، وسجن

المقشرة، وجب القلعة، وانتشر اليهود مثل البثور على وجه المدينة، داهموا بيوت أولاد الناس ونقبوا جدران المتاجر وحاصروا الصناع داخل أحيائهم وأوقفوا جراية الأزهر، وإسماعيل باشا صامت لأن السلطان راغب؛ ولأنه يتوقع مكافـأة مجزية لقاء هذا الصمت، وسارة تستقبل قادة الشركس من كل نوع وتعقد تحالفها الخاص، وفعل «ياسف» كما أمره الحاخام، قام بتسليم الأرض التي تمت مصادرتها من الفلاحين لليهود، وكانت موافقة إسماعيل باشا شكلية، وتحول الملاك إلى أجراء، وتلاصقت ضياع المماليك والأتراك واليهود، ولم يبقَ شبرٌ خاليًا للفلاح، ومرة أخرى غادر الفلاحون قراهم غرباء، إلى شوارع المدينة، وساحات المسجد، مأوى الشحاذين والعميان.

ـ لا بد من قتل «ياسف».

صرخت كل الأصوات، خرج الباعة والتجار والفلاحون والحرفيون، من الأزهر إلى بركة الرطلي، إلى قصر الدفتردار، تطلعت «سارة» من خلف الستائر فوجدت الوجوه الغاضبة تحاصر القصر، لم تكد تهنأ به، لا وقت للتفكير أسرعت هي وزوجها بالهرب من الباب الخلفي، أسرعا متخفيين عبر الحواري إلى القلعة، وأحس إسماعيل باشا بالرعب، ولكنه وافق على أن يخبئ «ياسف» خاصة بعد أن وقع بصره على سارة، وتدفقت جموع الناس من البركة إلى القلعة. انضم الأمراء والصناجقة للعامة، كلهم يطالبون برأس «ياسف»، وتوصل الباشا معهم إلى حل يرضيه، ويرضي الأمراء.

ـ سنضعه في سجن العرقانة ونرسل إلى إسطنبول، ثم ننظر في أمره بعد أن يهدأ الجميع.

ورضي الأمراء، واقتادوا «ياسف» إلى العرقانة، ورضي الباشا لأن

«سارة» بقيت في حمايته، ولكن الناس لم ترضَ، لقد خدعت طويلًا، وجاعت طويلًا، ولم يعد يخدعها أي حل، تضاعف الجمع وهم في طريقهم إلى العرقانة، وكانت سيوف الحرس أعجز من أن تصدهم، وانفتحت بوابات السجن الصدئة، وهرب الحراس قبل أن يهرب السجناء، وظفر الناس بـ«ياسف» أخيرًا.

صعدوا به إلى تل المحجر وهو حي، وهبطوا به الرميلة وهو ميت، ساروا به إلى سوق السلاح تحت القلعة، جمعوا الحطب والأخشاب حول جثته، وفي المساء ارتفعت ألسنة اللهب، أسدل الباشا ستائره وأخذ يواسي الأرملة المنكوبة، وتنهد الناس في ارتياح منذ مدة طويلة، وظلت النيران مشتعلة، لعلها تضيء طريقًا ما، خلال كابوس الليل العثماني.



كانت «هوى» تنزف، أرادت طفلًا فلم تجد إلا الدم، وهواء القاهرة مشبعًا بالبارود، ورائحة دماء ضحايا الهزيمة الأولى، وصنوج الحرب تدوي عبر الحارات المملوكية القديمة، وتذكرت «هوى» وقع صنوج بائع العرقسوس، ومنادي الحنة وبائعي القرنفل، والبهارات وعقود الخرز الملون، وكل شذرات طفولتها في العطوف والحسينية، كانت تنزف وتغيب عن وعيها، يطاردها خيال زوجها «إسماعيل الكاشف»، أو الأغا أفندي كما تعودت أن تدعوه، مختالًا كالطاووس في ثياب الحرب، كأن ما يحدث هو مجرد فتنة مملوكية جديدة، يصعد المنتصر فيها إلى القلعة، ويفر المنهزم إلى الصعيد، كان إسماعيل الكاشف واثقًا من النصر على هؤلاء الفرنسيس الكفرة، مثل وثوقه من اختيار زوجة تركية بضة بدلًا من تلك المصرية النازفة.

كما يقول شيخنا الجبرتي: «هذه أولى سنين الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس الموضوع، وانقلاب المطبوع، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد



التدبير وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

في الأزهر يواصل الشيوخ اعتصامهم وهم يقرأون «البخاري»، وفقراء الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهمية يرفعون الرايات الملونة، يمضون بها كالمجانين عبر الطرقات المذعورة، يصرخون لعل الغمة تنزاح: «يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف»، عاد حاكم مصر الأول «إبراهيم بك» مكسورًا من «الرحمانية»، سألوه عن الأعداء فأقسم إنه لم يرَ أعداء، كل ما رآه هو صفوف زرقاء متراصة تظهر وتختفي وسط سحابات البارود الكثيفة، وأدرك العامة أن هذه الصفوف الزرقاء ستواصل تقدمها، وتقتحم عليهم الحواري والبيوت، نصبوا المتاريس من بر إمبابة إلى بولاق، ولكن أمراء المماليك فكروا بطريقة أكثر عملية، أخلوا قصورهم وأخفوا رياشهم، ورحلوا نساءهم وجواريهم إلى بر الصعيد.

وحتى «الأغا أفندي» انتهز فرصة سقوط «هوى» فريسة الحمى، فأخلى البيت من كل رياش ثمين، وكانت هوى تنزف، تتسرب الحياة منها قطرة فقطرة، والحمى تسري في أوصال القاهرة كلها، نذر المأساة تتجمع في إمبابة، حضرت المراكب والغلايين المشحونة بالمدافع، وبرغم هول الكارثة، ظل الشريكان في حكم مصر متخاصمين؛ كان إبراهيم بك وشريكه مراد بك يتحاشيان النظر إلى بعضهما، وكل واحد منهما يتحين الفرصة ليهرب قبل صاحبه، وأحضر «الإنكشارية» مدافع قديمة صدئة، وظهر أرباب الطرق الصوفية، وصعد عمر أفندي مكرم نائب الأشراف إلى القلعة وأحضر بيرقًا قديمًا متآكل الأطراف، نشره فتناثرت منه العتة، وكان الجميع في حاجة لأن يصدقوا أن هذا هو البيرق النبوي، وكان العالم كله يصب في بر إمبابة، و«هوى» لا تدري ماذا يدور حولها، ومتى هجرها «إسماعيل كاشف»، دون أن يأبه بالنظر إليها، وظل كابوسه باقيًا

على صدرها، كانت قد فشلت في أن تحبه، وأن تنجب منه ابنًا تحبه، تنافر الدم لدرجة الكراهية، تزوجت مملوكًا لم يكن يريدها طائعة؛ كان كل ليلة يأخذها عنوة كما تعود أن يأخذ كل شيء.

هدرت المدافع كأنها القيامة وتقدمت صفوف الفرنسيس الزرقاء، بحرًا زاحفًا لا يتراجع، اقتربت من المتاريس وانقسمت واستدارت وحاصرتها ودقت الطبول فانبعثت آلاف الطلقات المتتابعة، وسدت هوى أذنيها، وأحست بألم طاغٍ يقلص جسدها، ثم غابت عن الوعي.

لا تدري كم استمرت غيبوبتها، لكن عندما فتحت عينيها وجدت أربعة أوجه غريبة تطل عليها، شاحبة بيضاء مستطيلة عيونها زرقاء، أهذه وجوه الموتى؟ تمتم أحدهم بكلمات سريعة غاضبة، وضربها في جنبها بقسوة، صرخت وحاولت النهوض دون جدوى، فكرت مذعورة أنهم الفرنسيس، أين ذهب زوجها؟ لماذا تركها تحت رحمتهم؟ انفجرت في البكاء فتوقف الجندي الذي كان يضربها، أشار إلى اثنين أن يتبعاه، وبقي الثالث واقفًا على باب الغرفة وهو يراقبها، سمعت أصوات اقدامهم تجوس خلال المنزل، يفتحون الخزائن وينثرون محتوياتها، رفعت عينيها في بطء فرأت وجه الجندي الشاحب يتطلع إليها.

عاد الثلاثة وتحدثوا مع الرابع، تطلعوا إليها بشك واضح، ثم استداروا للانصراف وتلكأ الجندي الرابع قليلًا والتفت إليها، والتقت عيناهما في ومضة خاطفة، وهذه المرة لم تشعر «هوى» بالخوف، تركوها حائرة، توقف النزيف ولكنها لم تكن تستطيع النهوض.

كانت القاهرة قد عاشت ليلة غريبة بلا مماليك ولا جراكسة، ذهب الحكام القدامى قبل حلول الظلام، ولن يأتي الحكام الجدد قبل الصباح، وعاشت القاهرة أقصر فترة استقلال في تاريخها، هاجم الأوباش

والجعيدية قصور إبراهيم بك ومراد بك، ثم هاجموا كل بيوت الأمراء، وشبت نيران هائلة فصرخ الجميع: إنهم يحرقون بولاق، وازداد تدافع الهاربين وهرب الأعيان وأفندية الوجاقات والشيوخ ونقيب الأشراف، تركوا المدينة نهبًا للحرافيش.

وفي الصباح دخلت الطوابير الزرقاء المدينة وهي تدق طبولها، وضعوا شارات الجمهورية المثلثة الألوان على بوابات الحواري، والأسبلة، والمساجد القديمة، والقصور المهجورة، ودخل قائمقام ساري عسكر بونابرته فوق جواده يستعرض مدينته المغلوبة، ومر يوم طويل، وظلت «هوى» عاجزة عن الحركة، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب هل عاد الأغا أفندي؟ كلا.. لو أنه عاد فلن يطرق الباب بل سيدفعه بقدميه، سمعت خطوات مترددة، فتح الباب وبدا الجندي الرابع بوجهه الشاحب، بندقيته في يد، وصرة غريبة في يده الأخرى، شهقت خائفة:

ـ ماذا تريد؟

الغريب أن صوتها أصابه بالفزع، أوشك على التراجع، وضع الصرة على عتبة الغرفة وأخذ يشير إليها ويردد كلمات غير مفهومة، ارتعدت، ماذا يريد هذا الكافر؟ فتح الصرة فيها بعض الخبز والجبن والفاكهة، أسند بندقية على الجدار وفك الزر العلوي من سترته وتنهد في راحة وحاول أن يضحك، أن يزيل التوتر المخيم على الغرفة، ولكنها كانت تفكر.. لو أنه هاجمها فكيف يمكن أن تهرب؟ مد يده وتناول ثمرة «خوخ» وقضمها ثم لوى وجهه بطريقة مبالغ فيها ليظهر مدى طيب مذاقها، وعاود الضحك فابتسمت «هوى» أخيرًا، ومد يده بالخوخة فتناولتها، ولمست أصابعه فارتعدت، وعندما غرزت أسنانها لم تعد تشعر سوى بالحياة وهي تدب في داخلها، نسيت الأغا أفندي، والتهمت الخبز والجبن والفاكهة، وضحك الجندى النصراني فمسحت يدها

في صدرها بخجل شديد، جلس قريبًا منها دون أن تبتعد خوفًا، ظلا صامتين، كان هناك صمت وترقب، ثم بدأ يشير إلى صدره وهو يردد: نيكولا، نيكولا.. لم تفهم في البداية، ولم يكف هو عن المحاولة، ثم ضحكت، وأشارت إلى نفسها ونطقت اسمها أكثر من مرة حتى ردده في صوت متعثر.

بعد أيام قليلة اكتشفت القاهرة أنه لا فرق بين الحكام القدامى والسادة الجدد، فقد سكنوا في قصورهم، وجلسوا في مجالسهم، وخلعوا القبعات الزرقاء ولبسوا العمائم المزركشة، ورتبوا ديوانًا للمشايخ وأول ما طلبوه منه، أن يجمعوا خمسمائة ألف ريال من التجار على سبيل السلفة بطبيعة الحال، وعندما سألهم الشيوخ تخفيف المبلغ لم يجيبوهم، ثم بدأ الفرنسيس يصادرون الخيل والجمال والحمير وكسروا دكاكين سوق السلاح، وامتلأت شوارع القاهرة بهذه الحيوانات المصادرة وقد حملت بالفرش والصناديق والرياش، وقبضوا على البنائين والخدم والعبيد الذين يعرفون خبايا البيوت ليدلوهم على الودائع والدفائن، وأعدموا الأوباش بالرصاص وأخذوا منهم ما سرقوه، ثم قرروا خمسمائة ألف ريال أخرى على أهل الحرف على سبيل السلفة أيضًا، وشرعوا في تكسير أبواب الدروب والحارات ليفسحوا الطرق الضيقة أمام جنودهم.

واستردت «هوى» بعضًا من حمرة وجهها، ودب في بدنها دفء الحياة، تفتحت مثل زهرة شرقية، ووقف نيكولا مبهورًا أمامها وهو يراها للمرة الأولى تحت شمس أغسطس الحارة، نوعًا غريبًا من الجمال في بلد غريب، تولدت بينهما لغة مشتركة خليط من الكلمات المدغومة والإشارات واللمسات بفعل الضرورة والألفة، مد يدها يتحسس جسدها ويتأكد من عودتها للحياة فتركت له الفرصة، تعودت أن يأتي إليها كل يوم، ولكنها ترددت طويلًا قبل أن توافق على الخروج معه برغم أنه أفهمها أن هذا أصبح أمرًا عاديًا، نساء المماليك الهاربين يتلهفن على أي بذلة زرقاء.

عندما خرجت معه أخيرًا أحست أنها تواجه عالمًا جديدًا وغريبًا، منذ أن تزوجت الأغا لم تخرج من البيت، وكانت تعتقد أنها لن تخرج منه إلا إلى القبر، ولكنها سارت بجانبه وهي ترتجف، لا بد أن عشرات العيون تتابعها الآن من خلف المشربيات، لا بد أنهن يرددن الهمسات الشامتة، أوشكت على التراجع، ولكنه أمسك بيدها، قابل أصابعها في الهواء المفتوح وأمام الجميع، قالت مرعوبة:

- إلى أين نذهب..؟

قال ضاحكا: سنستأجر حمارين ونذهب إلى كل مكان.

أوشكت أن تسقط من على الحمار، ضحك عاليًا فضحكت وهي تداري خجلها، سار الحمار بها عبر دروب طفولتها الموحلة وهودج عرسها الغريب والحوانيت المغلقة وعليها الشارة المثلثة، كل شيء يبدو قديمًا وتعسًا، ولن يفيد بشيء سيره بجانبها، قالت: يا أبي أحضر لي مملوكًا صغيرًا ألعب به، فأصبحت لعبة أحد المماليك، أخذهما الحماران عبر الغورية إلى الأزهر. قالت: يا أمي اصنعي لي حجابًا للعشق فجاءها العشق ممتزجًا بالعار، كانت الشمس مشرقة ودافئة، ووجه نيكولا يكسوه العرق، جدران الأزهر محاطة بخيام الفرنسيس، والراية الثلاثية الألوان على بابه، أحاط بهما الجنود، صفقوا بأيديهم طربًا ودعوهما للرقص معًا، ومد أحدهم يده يمسك خصلة شعرها، وحاول آخر أن يقبل خدها، ردتهما بعنف، ولم يغضب نيكولا، ظل يضحك ويشاركهم في الدوران حولها، ماذا لو عاد الأغا الآن؟ ماذا لو عرفت أنها رأت الشمس ورقصت مع الفرنسيس. جذبها نيكولا إلى صدره وقبل شفتيها، هكذا أمام الجميع، كانوا أشبه بالأطفال دون لحى، ودون عمائم ضخمة، كأنهم كانوا يعبثون عندما أحرقوا القاهرة وعندما ذبحوا نصف المماليك في موقعة واحدة.

شهقت حين رأت بعضًا من المماليك جالسين في رواق المسجد، ملابسهم رثة، ووجوههم مغبرة، هل يكون زوجها من بينهم؟ أوشكت أن تهرب لولا أن نيكولا أمسك بيدها وجذبها قريبًا منهم، أخرج قطعة فضية وألقاها على الأرض، هرعوا، زحفوا على الأرض كالديدان، أنشبوا أظافرهم في وجوه بعضهم، لم يكن الأغا أفندي من بينهم، ازدادت ثقتها في نيكولا، لم تعد تهتم بمن يراها أو يتحدث عنها، لم ترد أن تترك الشمس، ولا الميادين المليئة بالشارات، ولا النزهة عند فم الخليج، ولا ركوب الحمير عند سفح الهرم، اكتشفت أنها ليست وحدها التي تستمتع بالعالم خارج البيت، كانت وسط عشرات النساء الفرنسيات، واللواتي فر أزواجهن، و الجواري اللواتي فررن من أسيادهن، يأكلن في المطاعم ويُرقصن في الخمارات، ويصفقن للألعاب النارية، ويحتفلن بقيام الجمهورية، وسقوط الباستيل، وتتفجر أنوثتها كل يوم تحت دفء الشمس وعبث أنامل نيكولا.

لكن إسماعيل كاشف لم يكف عن مهاجمتها في الكوابيس، وأهل البلد يتطلعون إلى وجهها في خوف وإلى ظهرها في احتقار.. أين تسيرين يا هوى، وما نهاية الطريق..؟

غاب نيكولا ثلاثة أيام، ذهب يطارد فلول المماليك التي تهاجم أطراف القاهرة، وفي غيابه تخيلت عودة الأغا أفندي أكثر من ألف مرة، وقع الأقدام، بريق العيون خلف المشربيات،وضجة البائعين وتوسل الشحاذين، كلها نذر متوالية، ثم جاء نيكولا ملطخًا بآثار السفر والقتال، احضنته كأنما تستنجد به، وشرح لها من خلال لغتهما المشتركة كيف هزموا المماليك وقتلوا عددًا منهم وأحضروا جثثهم إلى القلعة في عربة كبيرة.. وهتفت هوى:

ـ أريد أن أرى هذه الجثث.

قال لها إن الجثث ليست أكثر من جثث، بمجرد أن يراها ساري عسكر بونابرته، سيأمر بدفنها، لكنها أصرت على أن يقودها للقلعة، كانت رمادية، والمقطم متجهم الصخور، تناقش نيكولا طويلًا مع زميله الفرنسي، وأخيرًا أزاح الباب الصدئ وسمح لهما بالدخول، هبت رائحة عفنة فأوشكت أن تتقيأ، تناثرت أمامها جثث كثيرة،ممزقة بلا ملامح مميزة، يكسوها دم وبارود ورمل، كتل مشوهة من الملابس الممزقة واللحم المتناثر، فاغرة الأفواه، متحجرة العيون، أحست أنها تتوحد مع هؤلاء القتلى، وأنها مكسورة الخاطر بلا أي اطمئنان داخلي، كل الجثث تشبه إسماعيل كاشف، ولا يوجد بينها إسماعيل كاشف.

حين هبطت من القلعة كان ترتعد وضمها نيكولا فزادت رعدتها وتمتمت في مرارة حقيقية:

ـ لماذا لم يمت؟ لماذا لم يمت؟

لم يعد من المجدي أن تضحك بصوت عالٍ، أو تقلد اللهجة الفرنسية الناعمة،أو تجلس في المسرح وتتظاهر بالفهم، أو تلبس ثوبًا عاري الصدر أو تشرب دون إحساس بالخطيئة، الكوابيس الليلية أصبحت ألمًا ممضًّا، حاول نيكولا أن يخفف من كآبتها، نقلها إلى بيت فاخر يطل على بركة الأزبكية، كان لمملوك هارب، ولكن الأحوال لا تدوم لأحد، فر بونابرته من مصر بسبب خوفه من الإنجليز، وتولى بعده ساري عسكر جديد يدعى «كليبر»، لم يكن نيكولا يحبه كثيرًا لأنه كان عسكريًّا صارمًا، ولم تكن القاهرة تحبه أيضًا، بدأت تتحفز من جديد، تريد أن تطرد الجسم الغريب الذي يخز جلدها.

وشاعت الأخبار عن جيش تركي كبير في طريقه إلى مصر، على رأسه الوزير الأعظم يوسف باشا، وفرض الإنجليز حصارًا قاسيًا على الشواطئ،

تحول الفردوس الشرقي للفرنسيس إلى جحيم، أصبح نيكولا قاسيًا كأنه مملوك شرس، يهرب من الشوارع المعادية إلى جسدها، يؤكد على نجاح غزوته، ويمارس فيه حق السلب اليومي، وفي أحيان عندما يلامسها في خشونة كانت تهمس له: بالراحة.. يا أغا أفندي، وعندما ينقلب نائمًا لم تكن تحس بالأمان بجانبه، ظلت في الأزبكية فقط لأنها العودة للغورية.

وسمعت أخبار الصلح بين الأتراك والفرنسيس، ورأت بعض الفرسان الأتراك يتجولون في الشوارع بلا سلاح، غدًا سيأتي إسماعيل كاشف، ونيكولا لا يحس بها، كان مشغولًا يجمع ما يمكن جمعه ويربطه ويعده للرحيل، تمامًا مثلما فعل الأغا معها حتى لا يثير الناس ضده، لم تعد هناك لغة مشتركة بينهما، ثم دخل المدينة رسولان من أهم رسل الوزير الأعظم؛ أمير المكوسات ومحتكر الأقوات، وكان المطلب الأول لهما مصادرة أموال الأهالي وجمع مبلغ يكفي لخروج الفرنسيس، ودخول جيش السلطان نصره الله، ودفع الناس لأول مرة في التاريخ بنفس راضية، وتعالت الدعوات في شوارع القاهرة: سنة مباركة، وذهاب للكفرة.

ثم انهار كل شيء، لم يعطِ الإنجليز الأمان الكافي للفرنسيس حتى يعبروا البحر، كان الأتراك ينتظرون أن يحصلوا على كل شيء دون أن يفعلوا شيئًا، فاستدار الفرنسيس ناحيتهم وأطاحوا بهم كالعادة، وولى الوزير الأعظم الأدبار، واستيقظت القاهرة وقد أحست بالخديعة، ونزل الناس إلى الشوارع، انقضوا على جنود الحامية، وتجمع العامة على تلال باب النصر بأيديهم العصي والنبابيت والقليل من السلاح، اجتاحوا الأزقة، ووجدوا مدفعين قديمين في المطرية، واشترك الرجال والنساء والأطفال في دفعهما حتى الأزبكية وأخرج التجار أثقال موازينهم، ومزق الرجال قمصانهم، وتبرع العطارون بالبارود، وصنعوا من كل هذا قذيفة واحدة قذفوا بها بيت ساري عسكر، والله ينصر السلطان ويهلك

فرط الرمان، حفروا الآبار القديمة وأخرجوا منها قذائف مطمورة وفتائل وأسياخًا وتعاويذ مجهولة وأيقونات وجعارين، وصنعوا متاريس من كل التذكارات القديمة.

وكانت «هوى» وحيدة عندما هاجمها الحرافيش، جذبوها من شعرها إلى الوحل، ما كان يجب أن تكوني رخيصة إلى هذا الحد، فتحوا الخزائن ومزقوا الثياب الفرنسية والشارات والمناديل المعطرة، أثخنوا جسدها بالجروح، ولكن دوي المدافع أصم الآذان، عاد الفرنسيس وقصفوا المدينة بلا رحمة، وأطاحوا بالمآذن والقباب، وهبط القنبر الحارق على كل الربوع القديمة، ودار قتال ضارٍ في الشوارع، وخلف كل متراس.

جمعت «هوى» ما بقي من نفسها وعادت إلى الغورية، لم يلتفت أحد إليها، غرقت في غيبوبة جديدة تتداخل فيها صيحات القتال وقدوم الأغا وأول ليلة من ليالي زفافها، وعملية ختانها وهي صغيرة، اشتعلت الحرائق في كل بيت، وخلع المشايخ شارة الديوان وصعدوا فوق المآذن المكسورة يحرضون الناس على القتال، وتقلبت القاهرة على شواظ البارود عشرة أيام كاملة، وفرض الفرنسيس حصارًا قاسيًا، امتد الجوع بطول الأزقة، وأصبحت بولاق كتلة من اللهب، وطاف فارس من الفرنسيس يرفع راية بيضاء ويصيح:

ـ أمان، أمان، سوا، سوا.

فمن الذي ينصر السلطان ويهزم فرط الرمان والقتلى في الحواري لا تجد من يدفنها؟

مرة أخرى ذهب المهزومون للاعتذار، وجاء نيكولا إلى الغورية وعاود الاستيلاء عليها ثمنًا لانتصاره، وسارت خلفه وسط الحرائق والجثث والمتاريس والمدافع المحطمة والبيارق المكسورة، وفرض

جباة الفرنسيس غرامة قاسية وقادوا الشيخ السادات سجينًا إلى القلعة، ولم تكن هوى تنتمي لأحد.

وأعلن عن رؤية هلال رمضان، وصام الناس صومًا طويلًا لم يعقبه عيد، وكانت كسوة الكعبة تالفة، أكلت العتة أطرافها، ومحت الرطوبة نقوشها، وأصر الفرنسيس على خروجها وسفرها لتكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنساوية، وانتشر الطاعون، مات به مراد بك، كانت هذه هي حسنة الطاعون الوحيدة، وجاء الأتراك مرة أخرى، وواصل الإنجليز حصار الشواطئ وانهزم الفرنسيس هزيمة صغيرة عند الرحمانية ولكنها كانت كافية لبدء المفاوضة على الانسحاب من جديد، وأطلقوا سراح المساجين كبادرة حسن نية، وخرج الشيخ السادات محطمًا.. ودوى مدفع عند الغروب من قلعة الظاهر وأذن منها للعشاء ثم للفجر وتطلع الناس إلى القلعة في دهشة، وجاء الصباح فرأوا البيرق العثماني يرفرف عليها.

استعد الفرنسيس للرحيل، وسارت هوى خلف الجيش المنسحب.

هل هناك طريق آخر؟ سارت شمالًا حتى رشيد، وقفت وسط أرض الملاحات الموحشة: خذني معك يا نيكولا إلى بلدك الغريب، صاح فيها: تريدين الذهاب لمارسيليا؟ ماذا أقول لزوجتي وأولادي؟ توسلت إليه: هنا سيقتلونني.. فلم يبالِ، أعطاها قطعة ذهبية، ضحك الجنود وهم يلوحون لها، دوت أجراس السفن وكان لا بد من الرحيل، وأضيئت المنابر لمدة سبعة أيام، وتعالت التكبيرات، وبقيت وحيدة وسط شوارع، وكانت جرذان الطاعون كثيرة فاختبأت وسطهم، وأحست بطنها غريبًا فأدركت أنها حامل.

شيء يتكون في بطنها ويجب أن يعيش، حلمت به وانتظرته طويلًا. وليس ذنبه أنه جاء من نطفة ملوثة في زمن كله ملوث، من يملك أن يغفر

له مجيئه هكذا للحياة؟ فليعاقبوها لعل هذا يكون ثمنًا لخلاصه، عادت لتدور حول بيتها القديم، تريد جدرانًا لتحمي فيها بطنها، كان البيت مضيئًا ينبض بالحياة، هل يمكن للأغا أفندي أن يفهم؟ هل يمكن لأحد في هذا العالم أن يتسامح؟ طرقت الباب وجرت إلى أول الحارة، توقفت وهي تشهق، وفتح الباب وبدا إسماعيل كاشف واقفًا، أشار لها أن تأتي فسارت إليه ببطء، والهواء البارد يلفحها، ودخلت البيت مقرورة، كان مفروشًا بالرياش الثمين، ولا توجد فيه امرأة أخرى، تركها تتكوم في الركن مثل كلبة ضالة، وأشعل كل ما في المنزل من شموع ربما ليتفرس فيها جيدًا، ثم أحضر غليونه وجلس أمامها وأخذ يدخن في هدوء، وأخيرًا قال في صوت أجش:هل أنت حامل؟

قالت، أجل، في وهن، وساد الصمت، ثم قال: كم كان عددهم؟

توسلت وهي تبكي: يا أغا أفندي.

عاد يصرخ: كم كانوا؟

قالت: واحد فقط.

قال في برود: أمر لا يصدق.

وتركها متكومة في الركن، وانصرف إلى حجرته، وظلت جالسة ترتعد حتى الصباح.

وخرج إسماعيل كاشف مبكرًا بعد أن أغلق الباب خلفه بإحكام، صعد إلى القلعة، كان حسين باشا القبطان والي القاهرة جالسًا يحصي النقود التي جمعها على سبيل السلفة التي لم ترد قط، وقال إسماعيل:

ـ يا باشا عادت زوجتي واعترفت بالزنا مع الفرنسيس.

قال الباشا في اختصار: تكسر رقبتها فورًا.

قال إسماعيل: أفضل أن أفعل هذا بنفسي.

قال الوالي: عفارم أغا، اكسرها جيدًا أغا.

هبط إسماعيل من القلعة، والشمس غائمة، وهوى مكومة في الركن نائمة من الإجهاد والأحلام الخائبة، وفكر إسماعيل أن البيت لا يجب أن يتسخ بأي قطرة من دمها، أفاقت في ذعر وأصابعه على عنقها، كانت تحلم بالطفل الذي لن تلده أبدًا، وضغط الأغا، حاولت في وهن أن تقاومه، وتحشرجت أنفاسها، وفي ومضة واحدة، ضج في أذنيها صوت صنوج بائع العرقسوس، وأذان الفجر من المشهد الحسيني، وغناء الملاحين عند وفاء النيل، ونداء باعة الحنة والقرنفل والبهار وشغف الهوانم، وأطبق الظلام، ولكن الأصوات المتداخلة ظلت ترن في أذنها كأنها لم تمت.



كان شيخًا يفتقد للعدل، نصيبه من الزمان خمسون شهرًا من رمضان، امتلأت كلها بالعنف والفوضى والخوف وتقلب الأحوال، لم يمر منها شهر كالآخر، فماذا عن ذكريات الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي» وتقلباته مع الزمان؟

في رمضان تضاء المنارات، وترتفع الأدعية ويتجمع المصلون في صلاة التراويح بالأزهر، ويفتتح الفقهاء قراءة البخاري في القلعة، ويتجدد في ليلة القدر حلم الخلاص والعدل المفتقد، حدود الله التي كان الجبرتي يحلم أن تسود، بلا جبروت من القوي على الضعيف، بلا غش في المعاملات، أو طعن في الظهور، بلا تسلط ولا كذب ولا رياء؛ تلك الفكرة النقية عن العدل الإسلامي التي انبثقت أمامه من الكتب الصفراء، ضاعت وسط طوفان المظالم اليومية واختلال أمور الزمان.

خمسون رمضان وهو يؤرخ لكل هذا الكون المختل، تعلم من أبيه أن للكون مواقيت تحكمه، فلم يكن أبوه فقيهًا عاديًا يكتفي بالفقه وأحكام الشريعة، ولكنه كان ميقاتيًّا يهتم بعلم الرياضيات والفلك، ويجيد ـ على



وجه الخصوص ـ حساب الأشهر القمرية، بؤرة كل هذه المواقيت هو شهر رمضان، إذا اختل اضطرب الزمان كله.

وحتى بعد أن كف بصر الشيخ الجبرتي حزنًا وكمدًا لم يتوقف عن تسجيل أحوال الكون، ظل يبحث عن رابط لكل هذه الأشياء المتنافرة، هؤلاء المماليك الذين جاؤوا من السهوب البعيدة وارتفعوا في زهو، ثم هووا كالطيور المذبوحة، علماء الأزهر والمشايخ، وكان هو واحدًا منهم، قادوا الشعب مرة، وتلاعبوا به مرتين، وأجهضوا ثورته أكثر من مرة، الأشراف والمحتسبون اللصوص، والأغوات المرتشون، فقراء المجاورين، الشعراء الحالمون، الصناجقة، الأنبياء الكذبة، خدام المساجد، العربان، الدراويش، غراميات الهوانم، أسعار الأسواق، مواعيد الأوبئة، صعود النيل وهبوطه، عمارات المساجد والبيوت، والقنوات والترع، عالم هائل تشكل عبر العديد من حقب الزمن، ولادة عسرة شارك فيها المماليك والعثمانيون والفرنسيون والأرناؤوط والإنجليز.

خمسون رمضان لكل شهر منها مذاق مختلف، ولكن في حياة الجبرتي وفي تاريخه هناك رمضانات فاصلة لم يأتِ قبلها ولم يأتِ بعدها شبيه لها.

رمضان القهر ١٧٩٩م-١٢١٣هـ

تهب ريح باردة على المقطم، قادمة من زمن لم يأتِ بعد، ارتعد الجبرتي و بقية المشايخ، كانوا يقفون فوق أعلى قمة يحدقون عبثًا في السماء المظلمة لعل الهلال الغريب يبدو ولو للحظة خاطفة، لم يكن بين المشايخ اتفاق سابق ولم يصدر إليهم أمر مباشر، ولكنهم كانوا يدركون

جميعًا أن هذا الهلال يجب أن يظهر في هذه الليلة؛ لأن ساري عسكر الفرنسيس نابليون بونابرت لن يرضى بأقل من ذلك.

القاهرة أسفل المقطم، حيوان خرافي منكسر الروح، هيئتها غريبة تحت رايات الفرنسيس، مرة بطعم الهزيمة، والريح تزوم وتبعث الخوف في أحلام النيام، لا فائدة من التردد، وعندما قال الجبرتي بصوت خافت: لقد رأيت شيئًا يشبهه، لم يرفع أحد من المشايخ رأسه ليراجع كلماته، ولكنهم ضموا العباءات إلى أجسادهم وهمهموا: ثبتت الرؤيا.. وهبطوا.

لم ترتفع الأدعية ولم تضئ البنايات، وهنأ ساري العسكر المشايخ تهنئة مقتضبة، أكد لهم أنه كان ينوي الصيام معهم لولا أنه على سفر يضطره إلى أن يرحل بجنده إلى الشام ليقضي على أقرب الجيوش العثمانية إليه، وخصوصًا أمير عكا المدعو الجزار باشا.

كان يريد أن يترك القاهرة وهي مدينة منضبطة، لا يختل فيها شيء حتى الظواهر الطبيعية، فبعد أن فشلت ثورة المدينة منذ شهرين فقط لم يعد الفرنسيون يأمنون لشيء، حتى لتأخر الهلال.

كانت هذه كذبة الجبرتي، لا فرق أن يصوم الناس يومًا زائدًا؛ فالصيام كان دائمًا من شدة القهر، ومدافع الفرنسيس أشد قسوة من كل الفتاوى، تنزع ألفة العالم القديم وسكينته، كان الناس، للغرابة، قد ألفوا ظلم المماليك وجهل الباشوات وغطرسة الإنكشارية، كل الأشكال المشوهة من علاقة الحاكم بالمحكومين، وتعود أن يؤجل حلمه بالعدل عامًا بعد عام، ولكنه برغم كثرة معارفه، والمكتبة التي تملأ بيته، لم يكن يعرف شيئًا عن هؤلاء الفرنسيس حتى مرق «قنبر» مدافعهم من فوق رأسه، لم يكن وحده في ذلك، فحتى «مراد بك» كبير المماليك غرق في الضحك عندما

نقل إليه جواسيسه أن جيش الفرنسيس لا يملك خيولًا كافية وأن معظم أفراده يسيرون على أقدامهم، وقال مؤكدًا لمن حوله: سوف ندوسهم تحت سنابك خيولنا، وخرج إليهم وهو في أتم زهوه وأبهته، كان هو وفرسانه يركبون الخيول العربية المطهمة ويرتدون الملابس الحريرية ويتخذون الأسلحة المطعمة بالجواهر والياقوت، أما عمائمهم الضخمة فقد كان يعلوها ريش مالك الحزين، ووقف الفرنسيس في مواجهتهم، مربعات زرقاء كالحة اللون مرتعدة مبهورة بشمس الصحراء القوية وبمنظر الأهرامات الشامخة، وحين صرخ مراد بك يدعو جنوده للانقضاض عليهم انفتحت عليه أبواب الجحيم. لم يستطع أن يصل إليهم أو أن يرى وجوههم، كانت تفصل بينه وبينهم مساحة شاسعة من الرمل والبارود والجثث المتفحمة، هؤلاء المماليك الأوغاد خاضوا معركة انتحارية غريبة، لم يكونوا يفهمون ما يحدث بالضبط، ولم يكن في مقدورهم التراجع، عاشوا حياتهم الطويلة بلا شرف، سرقوا وغشوا وظلموا وأكلوا السحت، ولم يكن أمامهم إلا أن يموتوا ميتة شريفة، وعندما فتش الفرنسيون ثياب جثثهم وجدوها مكتظة بالدراهم، كانوا قد خاطوها في العمائم والأحزمة وتكة السراويل، وكانت سروج جيادهم مليئة بقطع الحلوى والسكر النبات، قاموا بآخر هجوم للفرسان في التاريخ، وبعد ساعتين فقط تبدد جيش المماليك وسقطت مدينة القاهرة.

فر الجبرتي مع مَنْ فروا خوفًا من أن تستباح المدينة المهزومة كأنها لم تستبح كل هذه القرون الماضية، ودخل نابليون القاهرة وكتب في اليوم الأول إلى زوجته: «من الصعب أن يجد الإنسان بلدًا أكثر غنى وشعبًا أشد بؤسًا وجهلًا وضراوة»، ولم يعد الجبرتي إلا بعد ثلاثة أشهر بعد رحلة هرب مروعة، شاهد قوافل الهاربين تستباح على أيدي العربان

وقطاع الطرق والمماليك والفارين، وبدأ للمرة الأولى يكتشف منهم هؤلاء الفرنسيس.

كان الجميع أجانب؛ مماليك وعثمانيين وشراكسة، ولكن الفرنسيس أجانب من نوع مختلف كأنهم جاؤوا من كوكب آخر، أصابوه بالحيرة والارتباك حين رأى دقة أعمالهم وحين خاطبوا جانب العقل فيه، شاهد آلات القياس والمعامل والمطبعة ومناظير الرصد، العلوم التي كان أبوه، وهو من بعده،جائعيْن إليها، كانوا في نظره أقل ظلمًا من المماليك والأتراك، يدفعون ثمن ما يشترونه ويعتمدون على التفاهم بدلًا من النهب، ولكنه لم يستطع أن يألفهم، كان في أعماقه يرفض أن يأتي العدل عن طريقهم وهم غير مسلمين، وعندما ثارت المدينة عليهم تجسد في داخله هذا الرفض.

شاهدهم يضربون الناس العزل بقسوة، يسلطون عليهم المدافع طوال اليوم، ويقتحمون الأزهر بخيولهم في الصباح، شاهد ذل المشايخ وانتهاك النساء، وتظاهر بونابرت بالإسلام وارتدائه العباءة والعمامة بشكل يثير الضحك والفجيعة فهتف: «يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف».

وفي اليوم التالي تقابل مع الشيخ الشرقاوي، كان كل منهما يعرف أنه قد كذب وأن الهلال الذي يصوم الجميع لرؤيته كان كاذبًا، ولكن الذي خفف عليه هو بدء رحيل بونابرت إلى الشام. وقفا معًا ليشاهدا خروج الحملة؛ جنود قصار القامة، يحملون الأثقال الكثيرة، خلفهم محفات النساء والجواري البيض والحبشيات اللاتي استولوا عليهن من بيوت المماليك المهزومين، وتزين أكثرهن بزي النساء الإفرنجيات، كانت رغبتهم في مطلق الأنثى سببًا آخر في عدم اقتناع الجبرتي بهم،

فالعدل الإسلامي يجب أن يأتي من أكثر الطرق نقاء، وظل الجبرتي طوال شهر رمضان يسجل انتصارات هذا الرجل الذي لا ينهزم أبدًا، وهو يعبر الصحراء يستولي على العريش ثم غزة وخان يونس ويافا، وتبقى معركته الفاصلة تحت أسوار عكا، بدا واضحًا أن الجزار لن يلبث أن يسقط مع أول أيام العيد ولكن الجزار باشا لم يسقط.

رمضان الثورة ١٨٠٠م - ١٢٤١ هـ

لم يظهر الهلال، ولكن ظهر أغا تركي «عثمانلي» فخم، اخترق المدينة في زهو المنتصرين يتزاحم الرجال والأطفال لرؤيته، وترتفع أصوات النساء بالزغاريد كأن هذا الأغا هو أول بشائر الخلاص من الفرنسيين، ما أغرب دورة الزمان، منذ عام واحد فقط، لم يكن هؤلاء الفرنسيون قابلين للهزيمة، لكن بونابرت يعود خائبًا بعد أن عجز عن اقتحام أسوار عكا، وما يلبث أن يتسلل عائدًا إلى فرنسا وجيشه محاصر من البحر بسفن الإنجليز ومن البر بجيوش الترك، ومن الداخل بحرافيش الناس وأهل البلاد الذين رفضوا أن يتآلفوا معه، لم يكن أمام الفرنسيين إلا الاستسلام وقبول مساعي الصلح والانسحاب بشكل مشرف.

وجد الجبرتي قليلًا من الوقت للذهاب إلى تحية الأغا مع بقية المشايخ، اكتشف أن الأغا كان مفطرًا وعلل ذلك بأنه على سفر، واكتشف أيضًا أنه ليس أغا مهمًّا، إنه أغا الجمارك والمكوس، لم يكن يحمل الحرية ولكنه فرمان بطلب النقود؛ ثلاثة آلاف كيس لترحيل الفرنسيين، وثلاثة آلاف كيس أخرى لدخول العثمانلي، وعلى الناس أن يدفعوا للاثنين معًا، وبرغم ذلك وافقوا وهتفوا: «سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكفرة»،

وطاف الأطفال في الشوارع وهم يهتفون: «الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان».

ساد الوئام بين الفرنسيين والعثمانلي أخيرًا، أصبح هدفهما المشترك هو استنزاف كل درهم من الناس، سمح لهم بنزول القرى والبنادر لفرض الإتاوات ومصادرة المحاصيل، وبدأ الفرنسيون يجمعون سلاحهم ويبيعون أمتعتهم وأخلوا كل القلاع خارج القاهرة، بل وأخلوا أيضًا قلعة الجبل، وكان الأتراك مشغولين بجمع الأموال فلم يتنبه أحد لأهمية احتلال القلعة، وعاد إبراهيم بك اللص المملوكي القديم يطلب الكساوي والثياب والطرابيش له ولمماليكه، وجلس الوزير الأعظم مصطفى باشا في بلبيس ينتظر اللحظة المناسبة التي يقفز فيها على المدينة.

ولكن الأمور لم تسر سيرها الطبيعي، اختلف جندي فرنسي مع إنكشاري، حول امرأة، أو كيس من الدراهم، أو غلام أو كأس من الخمرة، ولكن كل واحد رفع السلاح وبدأت الاشتباكات بينهما في شوارع المدينة، وساد المدينة جو من التوتر، وزاد هذا التوتر عندما اكتشف الفرنسيون أن الأتراك كانوا يخدعونهم، كانوا يريدون أن يقدموهم فريسة سهلة للأسطول الإنجليزي الذي كان واقفًا يتحين الفرصة في انتظارهم، واكتشف «كليبر» ساري عسكر الفرنسيين الجديد أن هذا الاستسلام على طول المدى لن يحقق له شيئًا حتى الإفلات بجلده، فقرر أن يلقن الأتراك درسًا، جمع جنوده، وهجم على جنود الوزير الأعظم، ولم يكن الوزير ماهرًا في القتال مهارته في جمع الأموال، فانهزم سريعًا وفر بسرعة أكبر.

ومن خيبة الأمل، من قسوة الإحباط بدأ الناس العزل ثورتهم الثانية قبل أن تندمل جراح الثورة الأولى، أغلقوا أبواب المدينة وأقاموا المتاريس

وأنشأوا معملًا للبارود، واجتمع الحدادون والسباكون ليصنعوا مدافع بدائية، وبدأوا القتال، وكالعادة رد الفرنسيس بوحشية مبالغ فيها، حاصروا المدينة ومنعوا عنها الطعام والمؤن ثم أخذوا يصلونها بالمدافع، ولكن الثورة استطالت وهم يتقاتلون من متراس إلى متراس، ومن مسجد إلى مسجد، مواجهة مستمرة ودامية خاضها المصريون من فرط الحنق ورغبتهم في الخلاص وخاضها الفرنسيس بوحشية اليائس الذي لا يجد لنفسه مهربًا آخر.

أصابت هذه الثورة الجبرتي بهزة عنيفة جعلته يتنبه الآن فقط أن القوة الحقيقية للأهالي؛ للحرافيش والزعران، الذين خاضوا معركة رهيبة امتدت لكل مكان، لقد رفضوا الخلاص على أيدي الزعماء الأتراك، كذلك رفضوا توسط المشايخ بينهم وبين الفرنسيين من أجل الصلح، وقاتلوا على أنقاض مدينة نصف محترقة حتى كانت لحظة النهاية، غيمت السماء غيمًا كثيفًا وأرعدت رعدًا مزعجًا وأمطرت مطرًا غزيرًا وسيلت سيلًا كثيرًا وهجم الفرنسيس على مصر وبولاق من كل ناحية؛ لم يبالوا بالأمطار لأنهم في خارج الأقبية وهي لا تتأثر بالمياه كداخل الأبنية، وقاتل أهل بولاق جهدهم، ورموا أنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحاصروهم من كل جهة، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله، وصار القتلى مطروحين بالطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور.

خيم صمت الهزيمة على المدينة المحترقة، ولكن «كليبر» دفع ثمن هذه الوحشية، فبعد شهر ونصف فقط على إخماد الثورة انتقم شاب من مدينة حلب يدعى سليمان الحلبي للشعب كله حين طعنه طعنة نجلاء وهو يتنزه في حديقة قصره بالأزبكية.

اختطف الجنود عمامة الجبرتي من على رأسه فأخذ يجري في الشوارع، أحس أن جسده كله قد تعرى، وعندما وصل إلى بيته في الصنادقية كان يرتعد وظل عاجزًا عن لقاء الناس أسبوعًا كاملًا.

كانت الإهانة هي الفعل اليومي في شوارع القاهرة، وخطف العمامة هو أهون هذه الأفعال، فاليد التي تخطف دون أن يحاسبها أحد أيضًا يمكنها أن تهوي بالسيف دون حساب أيضًا. جاء رمضان هذا العام دون بهجة فلم يعمل له أي احتفال أو تطلق له المدافع خوفًا من عربدة الجند، كان العثمانلي قد كسبوا معركة لم يخوضوها واستباحوا مدينة لم يفتحوها، دخلوا يحملون الخلاص من الكفرة فأصبحوا هم أشد كفرًا، دخل الوزير الأعظم مصطفى باشا على رأس موكب النصر الطويل وسط عساكر مختلفة؛ أرناؤوط، بنكرجية إنكشارية، عساكر شامية، مماليك مغاربة، كتبة أغوات وقضاة عسكر، دخلوا دخول الظافرين بعد أن انسحبت جيوش الفرنسيس، وفور أن استقروا في أماكنهم القديمة أعلن القاضي التركي أن مصر «دار حرب»، وبالتالي فإن للجيش التركي حق الفتح، وبذلك تصبح أرض مصر كلها ملكًا للسلطان، وثار شيوخ الأزهر، فالقاضي يعطي بذلك فتوى شرعية تبرر السلب وتبيح النهب، وبرغم إسقاط هذه الفتوى فقد مارست الطوائف التي دخلت في صحبة الوزير عملية النهب بطريقة فجة، في كل يوم كان لصوص الإنكشارية يهبطون على الأسواق كالجراد، يقتلون بلا تمييز ويغتصبون النساء، وينتهكون الغلمان، حتى إن الجبرتي حذر ابنه خليلًا من الهبوط في الشارع لأي سبب من الأسباب.

وجاء رمضان قاسيًا، غيمت السماء كأنها تعلن عن عدم رضاها وهطل

المطر حتى انهارت البيوت القديمة على رؤوس ساكنيها، وأراد الوزير الأكبر أن يسافر فصادر كل السفن الكبيرة الموجودة في الإسكندرية ووصل الباشا الجديد ففرضوا ضريبة جديدة وأكلوا المزروعات قبل أن يكتمل نموها. سار الأرناؤوط في الأسواق يجاهرون بالإفطار ويصادرون السمن والأغنام والخضراوات حتى امتنع وصول الفلاحين إلى المدينة.

كأنه لا يوجد خلاص من هذه الفوضى المروعة.

ذهب الجبرتي إلى نقيب الأشراف السيد «عمر مكرم»، ألا يوجد خلاص يا سيدنا؟ كان يبحث عن دور له هو وبقية العلماء، فالأمور تتردى إلى حضيض مؤلم، وطلب منه السيد عمر مكرم أن يمر عليه الليلة بعد الإفطار، وبعد أن صليا العشاء معًا سارا وسط الدروب الضيقة، أمامهما خادم يحمل مصباحًا وخلفهما حارسان، وكان الجبرتي قد ربط عمامته حول رأسه بإحكام، سارا إلى بركة الأزبكية فبدأ الجبرتي يشعر بالخوف؛ فهذه المنطقة حيث تجتمع القصور والبيوت السرية والغواني تصل فيها عربدة الجند إلى ذروتها، وكان عمر مكرم يسير واثقًا، وتحققت مخاوف الجبرتي فظهرت فرقة من الجنود الأرناؤوط «أشر من مشى على الأرض»، وتوقف الجبرتي ووضع يده على رأسه، ولكن الجنود أفسحوا طريقًا للسيد، رحبوا به، قادوهما معًا إلى منزل كبير ومجلس واسع مليء بكبار الأرناؤوط والقادة، وفي الوسط كان «محمد علي» قائدهم الأكبر جالسًا، تعرف عليه الجبرتي على الفور برغم أنه لم يشاهده إلا في موكب الوزير الأعظم، عندما صافحه كانت يده صلبة باردة كأنها قطعة من الصوان وعيناه ـ مثل الذئب ـ نافذتَيْن تحملان صرامة لا تعرف الرحمة. جلس الجبرتي وشرب القهوة ورد على كلمات الترحيب ولكنه لم يشعر بالراحة، كان يرتجف كلما وقعت عينا الذئب عليه، وبدأ محمد علي يسأل عن كل شيء؛ الفيضان والضرائب

والمكوس وأنواع الزراعات وتجارة البهار والإقطاعات، وعندما عرف من السيد عمر مكرم أن الجبرتي يسجل حوليات التاريخ يومًا بيوم وأنه ألف كتابًا بعنوان «مظاهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس» وأهداه للوزير الأعظم الذي أرسله السلطان فأمر بترجمته إلى التركية، عندما علم ذلك اتجه بكليته إليه وأخذ يمطره بالأسئلة عن المماليك والحرافيش والزعران والفرنسيين والتجار، وجاهد الجبرتي حتى يجيبه إجابات مراوغة، كان هناك شيء في هذا الرجل جعله يأخذ جانب الحذر منه، ولكن كان من الصعب تضليله، فهو يتمحص كل إجابة ويعرف الكثير مما يسأل عنه، كان يريد التأكد من أشياء بدت غامضة لدى الجبرتي وهو الذي خبر صنوف لصوص هذا الزمان، ولكنه فكر في نفسه أنه إذا كان هذا الرجل لصًّا حقًّا فهو أكبر هؤلاء اللصوص وأعلاهم شأنًا، وراقب السيد عمر مكرم وهو يتحدث معه بود زائد، ويجيبه عن كل ما يطلبه، وعندما عادا، كان المساء باردًا والمدينة نائمة والكلاب تنبح، وجد الجبرتي نفسه يسأل السيد ذات السؤال السابق:

ـ لم تقل لي يا مولانا، كيف يكون الخلاص؟

ولم يتح الظلام للجبرتي أن يرى التعبير المرسوم على وجه السيد عمر مكرم، ولكنه سمعه يقول في تأكيد حازم:

ـ خلاصنا سوف يكون على يد هذا الرجل.

رمضان الأحزان ١٢٣٧م ـ ١٨٢٢ هـ

لحظة سلام نادرة تلك التي تتبع صلاة الفجر، فالمدينة التي سهرت طوال الليل حتى موعد السحور تبدأ غفوتها الأولى قبل شروق الشمس،

والفجر يبزغ في جلال وهدوء من خلف تلال المقطم ويتسلل الضوء بين بقايا الأدعية والصلوات، هذا هو صباح ليلة القدر.

المقرئون الذين سهروا في القلعة حتى أتموا تلاوة البخاري لم يعطهم الباشا شيئًا، انصرفوا منكسي الرؤوس، وظل خليل بن عبد الرحمن الجبرتي ساهرًا في قصر الباشا، يمارس وظيفته الجديدة التي ورثها عن أبيه وجده «الميقاتية»، أن يكون مؤقتًا للصلاة ولظهور هلال رمضان وشوال، وعندما بدأ اللون الرمادى يغطي المدينة هبط من القلعة في طريقه إلى «الصنادقية»، لم يكن باقيًا على العيد إلا يوم أو يومان وسوف يزف إلى عروسه التي اختارها أبوه له؛ ابنة صديقه الشيخ الخشاب.

هبط خليل سلم القلعة الحجري الطويل، وركب بغلته وضم العباءة حول صدره، بدأ ينحدر في درب المحجر الضيق، ولكنه وجد خمسة رجال يسدون عليه الطريق كانوا يرتدون زي الأرناؤوط ويمسكون السيوف، ولأول وهلة حسب أنهم لصوص يريدون سلب نقوده وبغلته ولكنه رأى بينهم وجهًا يعرفه حق المعرفة، إنه محمد بك الدفتدار زوج ابنة الباشا شخصيًا، وصهر الباشا لا يمكن أن يسرق بهذه الطريقة وقبل أن يتساءل خليل عما يحدث كان الدفتردار يتقرب منه وهو يغرس سيفه في بطنه صائحًا: حتى يكف أبوك عن قلة أدبه في حق الباشا!

شهق خليل وغرس الأربعة الآخرون سيوفهم في جسده، تصالبت السيوف فلم يسقط من على البغلة حتى نزعوها من جنبه، هوى على الأرض فحملوه ووضعوه فوق ظهر البغلة مرة أخرى، كانت تعرف طريقها جيدًا إلى بيت سيدها في الصنادقية، وعندما فتح أهل البيت الباب وجدوا الجثة باردة وقد استنزفت كل قطرة من دمائها، كانت البغلة كلها مغطاة بالسائل

الداكن اللزج، تأمل الجبرتي وجه ابنه مدهوشًا كأنه يراه للمرة الأولى؛ فمًا مفتوحًا من فرط الدهشة، وعينيْن محملقتين من هول المباغتة، رسالة لا يخطئ أحد فهمها، قال في مرارة: فعلها الباشا، ولم يكن هناك أي عزاء، كيف يمكن أن يحلم بالعدل وفي الدنيا رجال من أمثال محمد علي؟ أنزلوه وغسلوا جسده الممزق وطيبوه بالزعفران وأدخلوه في الأكفان، كأن كل الصفحات الكثيرة التي عكف الأب على كتابتها قد تحولت إلى كفن لابنه، تلقى العزاء وهو لا يرى من يعزونه، الآن انتهى زمن الكتابة وأصيب التاريخ بالموت، خرج إلى شوارع المدينة؛ مدينة غريبة وضع محمد علي بصماته على كل مكان فيها، هدم وأبدل وصادر وامتلك، لم يترك لأهلها سوى المقابر، جلس في مكان خارج القاهرة فوجد القلعة في مواجهته، تطل عليه في شماتة، الآن فقط انقصفت الأقلام، «انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتون متباعدون مشردون استوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرناؤوط، صاروا يقبضون خراجك، ويحاربون أولادك، ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك، ويهدمون دورك، ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك، ويطمسون بهجتك ونورك، قضي الأمر، وخلصت مصر لمحمد علي ولا حول ولا قوة إلا بالله».

لم يستطع الجبرتي أن يحب محمد علي، لم ينسَ تلك البرودة التي كانت تطل من عينيه النافذتين في تلك الليلة الرمضانية البعيدة، لقد عارض طويلًا في أن يعمل ابنه معه ولكن الباشا هو الذي فرض عليه ذلك، أراد أن يضعه رهينة بين يديه لعله يتراجع فيكتب التاريخ كما يريده الباشا لا كما كان يحدث، حتى حركة الزمان أراد تاجر الدخان أن يتدخل فيها.

كيف يمكن أن يحبه وهو الذي أخلف كل وعوده؟

تعهد للعلماء بتحقيق العدل بين الرعية وضمن السيد عمر مكرم هذا التعهد برقبته، جعلهم يقفون خلفه حتى صعدوا به إلى القلعة برغم أنف السلطان، وبدأ ميزان العدل في النقصان، وكان أول ضحاياه هو عمر مكرم نفسه، نفاه بعيدًا وحرم عليه دخول القاهرة، ووعد المماليك بأن يعيد لهم مجدهم الغابر ثم ساقهم إلى القلعة وشرب معهم القهوة وتضاحك لمدة ساعة ثم أمر جنوده بأن يذبحوهم جميعًا، وعد الفلاحين بتقسيم الإقطاعات القديمة ورفع ظلم الملتزمين والمحتسبين عن أعناقهم ثم سلب منهم كل ما يملكون، أصبح هو المالك الوحيد لكل مصر، بطينها ونهرها وناسها، حقق فتوى القاضي التركي بطريقته الخاصة، حتى ضيعة الجبرتي الصغيرة التي كان يعيش على إيرادها سلبها محمد علي، ترك له الكفاف وهم العيال وضيق المعاش.

كان فقيهًا ولا يمكن أن يكون غير ذلك، كان يحلم بالعدل الإسلامي ولا يمكنه أن يحلم حلمًا آخر، وعندما خرج الوهابيون من عرض الصحراء يطالبون بالإسلام نقيًّا كما أنزل وجد نفسه يتعاطف معهم، وجد فيهم البديل لكل العذابات التي شاهدها الإسلام على أيدي شواذ الأرض، ولكنه شاهد جيش محمد علي وهو يستعد للخروج لمحاربتهم، شاهد جنوده وهم يأكلون ويشربون في وضح النهار، وهم يصيحون: «نحن مسافرون للجهاد»، لم يكونوا جيشًا ولم يكونوا مجاهدين كانوا بؤرة حقيقية للفساد، يسكرون ويزنون ويلوطون.

كيف كان يمكنه أن يسكت على كل هذا، ومحمد علي يمتلك الصناعات ويزيف العملة ويحاول أن يغريه بالمناصب أحيانًا، وبالموت في سجن القلعة أحيانًا أخرى؟ يكلف صديقه الشيخ حسن العطار بكتابة تاريخ مضاد لتاريخه، أدرك الجبرتي أن الزمان لن يستدير إلا دورة واحدة،

عليه أن يكون شاهدها الوحيد، لقد كلفته الحقيقة غاليًا، ذهب البكاء ببصره ولم يعد قادرًا على التدوين، وأصابه العجز والشيخوخة، فلم يعد قادرًا على فهم هذا العالم الغريب.

جلس حزينًا في داره، مريضًا، أعمى تقريبًا، ومات في صمت، وبعد فترة قصيرة احترق منزله في الصنادقية بصورة غامضة، وأتى على المكتبة الكبيرة التي ورثها وأضاف إليها، وأتى على جزء كبير من التاريخ الذي دونه ولم يُكتب له أن ينشر قط.



لم يكن هناك من يستطيع أن يقاوم «محمد علي باشا القوللي»، فلا الذين حاربوه استطاعوا الصمود في وجهه، ولا الذين عاونوه استطاعوا أن يجاروا خطوات صعوده، كأن ريحًا عاصفة، أطاحت بكل مفردات الزمن القديم؛ المماليك والأمراء والشراكسة والمشايخ، حتى إن النيل ارتعد خوفًا منه، وغاضت مياهه في أول سنوات عهده.

عندما بدأ رحلة الصعود كان يسكن في أحد قصور الأزبكية، وسط الناس، يسمع أصواتهم، ويرى أحجامهم الحقيقية، ويهتز عند ثورتهم، ويلين في وقت شكواهم، ويعطي للمشايخ فروض الطاعة الكاذبة، ثم صعد إلى القلعة، مكمن النسر الذي يداوم النظر إلى فريسته، بجانب فوهات المدافع المسلطة على البيوت، وابتعدت أصوات المدينة، وتضاءل حجمها، وأصبحت عاجزة مبسوطة الشوارع، والميادين والقصور، وتحول أناسها إلى كائنات صغيرة، تدب بلا صوت، وتسعى دون جدوى، ولا تملك حيلة أمام تماسك الصخر، وارتفاع الأسوار، وهنا أدرك تاجر الدخان القديم أنه لا يوجد من يقاومه، وحين أتاه علي بك الدفتردار طالبًا الزواج من ابنته، قال في اعتداد:



ـ أريد لابنتي زفافًا لم يحدث من قبل؛ لأن مصر لم ترَ حاكمًا مثلي من قبل.

كان يستعد لمحاربة الوهابيين، ويجهز جيشه للسفر إلى الصحراء العربية، كانت هذه هي أوامر الباب العالي، وتحمس لها الباشا؛ لأنها توافق أطماعه الشخصية، بدأ سريعًا في تجهيز العسكر، وصادر كل ما وجده في طريقه من مؤن ودواب، حتى إنه صادر سفينتين محملتين بالبن كانت في ميناء السويس، وأخذ يفكر فيمن سيتولى الحكم مدة غيابه، لكنه غير رأيه فجأة، وعاد من السويس سائرًا طوال الليل، لا يرافقه غير دليل واحد، وفور وصوله القلعة أمر أن تضرب كل المدافع، حتى يعلم الجميع أنه عاد، فاستيقظت المدينة مرتعبة، اعتقدوا أنها مؤامرة على حياته، وأن الألفي بك كان يستعد لغزو القلعة، لكن إسراع الباشا بالعودة أفسد ترتيبه، ولكن الباشا لم يكن يريد الخروج، فليكن القائد هو ابنه طوسون باشا، وليكن يوم الخروج سريعًا، وأرسل الباشا إلى كل الأعداء القدامى من المماليك، كانوا قد ظفروا بأمان الباشا الهش، ويعيشون في قصورهم القديمة، وسط حالة من الأمل والخوف، لا يعرفون إلى أين يتجه مزاج الباشا المتقلب، لكنه حين أرسل يدعوهم للمشاركة في موكب طوسون باشا تلقوا هذه البادرة الطيبة بمزيج من الامتنان والرضا، كانوا، مثل كل اللصوص القدامى، قد عانوا فجأة من وطأة الشيخوخة، ومن قلة الحيلة في مواجهة ذلك الألباني الذي كان شديد البراعة، متغير الأساليب بحيث لا تتوقع ما سيقوم به.

وكأنه الوهج الأخير قبل الأفول، خرج المماليك من ديارهم، لبسوا الثياب الحريرية المزركشة، وتحلوا بالفراك، ووضعوا على رؤوسهم العمائم الضخمة المرصعة بالجواهر، وركبوا الجياد المطهمة، واتجهوا إلى القلعة، كأنهم يتحدون قدرًا غريبًا، حدد لهم لحظة النهاية بدقة، دخلوا

من باب «العزب» الضيق في نشوة من سئم كل شيء، ورأتهم القاهرة وهم يتجمعون، ويسيرون في الحواري المتربة، مثل بقع زاهية الألوان.

تلقاهم الباشا مبتسمًا، وأجلسهم بجانبه، وطافت عليهم فناجين القهوة من البن المصادر، وقال لهم:

ـ ستكرمون ابني حين تسيرون في موكبه، وستكرمون ابنتي حين تباركون زفافها.

وأحس المماليك بالخجل، أثنوا على ولده، واعتذروا عن الذين لم يحضروا، كان بعض منهم ما زال هاربًا في أقصى الصعيد غير آمن للعيش في ظل الباشا، لكن الباشا قال في سماحة:

ـ سوء تفاهم بين الإخوان في طريقه إلى الزوال.

ثم طلب منهم النصح والمشورة في حملته القادمة، وعن أفضل الطرق لوقف مشايخ الأزهر عند حدهم، وأنجع الأساليب لجبي الضرائب، ثم دقت الطبول، فنهض الباشا، ونهض المماليك، وتقدم طوسون باشا حاملًا اللواء، فأدركوا أنه قد آن للموكب أن يتحرك.

سار الفرسان في المقدمة، وتبعهم والي الشرطة والأغا والمحتسب ثم الوجاقلية والأرناؤوط، وكان المماليك في وسط الموكب تمامًا، وبعدهم فرسان الأرناؤوط، ثم الأعيان، ثم طوسون باشا، وبدأ الموكب في الانحدار من أعلى القلعة، وسط ممر وعر، تحيط به الصخور من كل جانب، وشعر المماليك بشيء من الزهو والتألق يعود إليهم، حتى إنهم لم يسمعوا شيئًا.

لم يسمعوا باب العزب وهو يغلق في دوي مكتوم، كأنه إغلاق القبر، ولا همهمات جنود الأرناؤوط وهم يتسلقون الصخور بعيدًا عن الممر الوعر، ولا «تكات» الزناد وهي تتراجع لتفسح المجال لرصاصة الرحمة الأخيرة، لكنهم ساروا حتى رأوا بقية الموكب قد غادرت الممر، والباب

قد أغلق دونهم، والتفتوا إلى الخلف فشاهدوا آخر جنود الأرناؤوط يتسلق الصخور، وعبرتهم لحظة وجيزة من الحيرة، تضامت فيها صفوفهم، وصهلت فيها خيولهم، ثم انطلقت رصاصة من إحدى النوافذ، كانت إشارة البداية، وبعدها انهمر الرصاص كالمطر، وتحولت السماء إلى فوهات من نار، وتثاقل الهواء بالبارود الأسود، وتخبط المماليك في الممر الضيق الخانق، ولم يكونوا يحملون إلا السيوف وخناجر الزينة، لم يتصوروا، وهم الذين تربوا على سنوات الغدر، أن يغدر بهم بهذه الصورة الباترة المريعة، وبدأوا يتساقطون من فوق الجياد، وقد اخترقت الرصاصات أجسادهم، وخلع بعضهم الفراك والأردية الثمينة، وحاولوا تسلق الصخور، لكن الطلقات عاجلتهم، واجتاز سليمان باشا الممر وجسده ممزق، ووصل إلى سراي الحريم، ورأى وجه العروس الصغيرة تطل عليه، فأخذ يصرخ:

ـ أنا في عرض الحريم، في عرض العروس.

لكن الجنود انهالوا عليه بالسكاكين الطويلة، فصلوا رأسه، وظل طوسون باشا واقفًا ممسكًا باللواء، منتظرًا أن يواصل الموكب سيره، ترامى على أقدام جواده المماليك الجرحى، وهم يصرخون:

ـ نحن في عرض سيدنا.

لكن سيدنا ظل جامدًا، والسكاكين تهوي عليهم، وتكدست الجثث في الممر الضيق، حتى بلغ ارتفاعها أمتارًا، وظل الباشا صامتًا، لا يتحرك في مكانه، كان وجهه الغريب قد أصبح مليئًا بالرهبة، حتى لأقرب الناس إليه كأن هذه الطلقات هي دقات قلبه، وصوت إرادته التي سوف يمليها منذ هذه اللحظة دون أن يقدر أحد على مقاومتها، ودخل طبيب الباشا الإيطالي وهو يهتف:

ـ انتهى كل شيء، يوم سعيد لسموك.

فنهض الباشا واقفًا، وطلب قدحًا من الماء، وقال بصوت كأنه خارج من قرار عميق:

ـ نظفوا المكان، يجب ألا يوجد في موكب العروس أي ذرة من الدم.

ثم بدأ يختار الداز، كانت العروس خجولًا؛ لذا فقد اندهش الجميع عندما قالت:

ـ لا أريد السكن في القلعة، أريد قصرًا وسط المدينة.

وقال الباشا الفرح بابنته: اهبطوا بها إلى مدينتنا، ودعوها تختَـرْ أي قصر تريد.

سدت العروس أنفها وهي تجتاز الحواري، وانفرجت أسنانها وهي تعبث بقدميها العاريتين في مياه بحيرة الأزبكية، وأكلت قطعة صغيرة من الحلوى بعد أن صادر الحرس عربة حلواني، ثم نزلت من «المحفة» وركبت أحد الحمير، وهنا رأت الدار التي كانت تبحث عنها، فهتفت من أعماق قلبها:

ـ لا أريد إلا هذه الدار.

كانت هذه دار إبراهيم باشا، آخر لص من لصوص المماليك، لم يقدر عليه أحد، لا نابليون، ولا محمد علي، ولا الأرناؤوط، لكن الزمن هو الذي قدر عليه، مات فوق جواده وهو يدبر آخر المؤامرات، لكن ابنه مرزوق باشا سار إلى القلعة، ومات مختنقًا تحت الجثث، ولم يبقَ في القصر إلا بقايا الحريم والخدم، يعيشون لحظة الحداد، بعد أن منحهم الباشا الأمان.

دق الأغا عليهم الباب ليخبرهم أن لديهم زائرًا رفيع المقام، وأسرعوا من خلال حزنهم وقهرهم يفرشون كل ما لديهم من سجاجيد وأبسطة، لكن العروس الخجول رفضت أن تدخل في وجودهم، فأسرع الحرس فأدخلوا أهل البيت في غرفة الكرار؛ حتى ترى العروس باحة البيت، ثم حشروهم في غرفة المسافرين حتى ترى الحديقة، ثم صعدوا بهم حتى

ترى الإيوان والمجلس، ثم أنزلوهم سريعًا حتى ترى مكان الحريم، ثم هبطوا بهم من السلم الخلفي حتى ترى مجلس البيوت المطل على الشارع، ثم أخرجوهم ريثما تلقي العروس نظرة عامة إلى المكان، ثم أغلقوا الأبواب، ولم يسمحوا لأي منهم بالدخول.

وضحك الباشا وهو يهتف: هذه الصغيرة قد أحسنت الاختيار.

وعادت الفتاة الخجول تقول: أريد أثاث الأمراء، أنا أميرة، ولا أريد إلا أثاث الأمراء.

وفي صباح اليوم التالي امتلأت ساحة القلعة بقطع الأثاث، كل ما تم نهبه من بيوت الأمراء، جاءت وتجمعت كأنها أضلاع عارية، وامتلأت النوافذ المحيطة بالساحة بالعيون، أثاث غريب يضوي في وهن، بقايا مَنْ تسلطوا وارتفعوا، شيء من رائحة عطرهم، مختلط بلمسة من العطن، ربما كانت رائحة الزمن، وربما كانت بقايا رائحة عرق الذين صنعوها ثم لم يروها، وحرم عليهم حتى لمسها، كان ما فيها من ذهب وفضة ومينا وخشب وصدف قد تشكل وطوع وأخذ شيئًا من صدأ السنين، فتخلت عن جمودها المعدني، واكتسبت مسحة خفيفة من البعد الإنساني، غير قادرة على البوح، لكنها مفعمة بالإيحاء، حتى الباشا قد تأمل الأثاث وهو صامت؛ أثاث أمراء وعصور ودول، هل يمكن أن ينتهي مصير أثاثه على هذه الصورة؟! ومن أعلى النوافذ كانت العروس الخجول ترقب الأثاث المقدم إليها.

ولم تطق صبرًا، هبطت ولمسته بيدها، تسربت إلى داخلها كل تباريح الأيام الماضية، وشعرت أنها قد ورثت فجأة كل متع الحكام القدامى، وتناهى إليها من خلال صمت الحكام الداعر المهيب كل ما يحمل من رغبات مكتومة، تكونت وتراكمت ووضعت سرها الدفين بين نقوش الفضة والمينا.

ولم يقطع الصمت إلا صوت العروس الخجول، وقد ارتعش من شدة الرغبة وهي تهتف:

ـ أريد هذه، وهذه، وهذه.

اختارت كل شيء تقريبًا، وأمرتهم أن يذهبوا به إلى دارها، وابتسم الباشا؛ لأن الشراهة قد أنست العروس خجلها، وقال:

ـ لا يتم هذا إلا في موكب عظيم.

ثم بدأ يعد الطريق الذي يصل القلعة بيت العروس، لم يكن إلا شبكة متداخلة من الحواري والأزقة والعطوف، نسيج المدينة الحي، تشابك مع مرور الأيام وزحف البيوت من قلب المدينة القديمة؛ مدينة لا تتوسع بقدر ما تزداد تعقيدًا، وخلال هذه الشبكة كان على موكب بنت الباشا أن يجد طريقه، وأحضر الباشا مستشاره الفرنسي، فتأمل الطرق قليلًا، ثم قال في حيرة:

ـ إنه أشبه بقصر التيه يا باشا.

ولم يكن الباشا ضليعًا في معرفة الأساطير، فقال في إصرار:

ـ أريد أن يمر الموكب، وأن يشارك فيه الجنود والمشايخ وأصحاب الحرف.

ازداد تعقد الموقف، فهناك عربات وخيول وجنود ومتفرجون عليه أن يجد لهم مكانًا وسط بيت العنكبوت الذي يحيط بالقلعة من كل جانب، وهبط «المسيو» وأتباعه، وهم يحملون المقاييس، وأحاطته المدينة من كل جانب، واكتشف أنها مدينة قد بنيت على الخوف، ليست فقط مكانًا للتواجد والبقاء والتمتع، مدينة تحاول ضم أضلاعها لعل هذا التلاصق الحميم يمنحها قدرًا من الأمان، اكتشف «المسيو» أنها مدينة حارة، لكنها ليست مشمسة، فعلى الرغم من كل نهار ساطع ما زالت تخشى الضوء، أحس «المسيو» بالاختناق، فأمسك المقاييس وأمر أتباعه أن يهدموا كل ما يقابلهم من بيوت.

صرخ الناس، فحضر جنود الأرناؤوط وضربوهم بالسياط، وألقوا

أثاثهم في الشارع، واتهمهم «المسيو» بأنهم ضد التقدم، وأمر أتباعه بمواصلة الهدم، فأزالوا المصاطب وأبواب الحارات والحوانيت، وامتد الشارع كأنه جرح دموي في جسد المدينة، ترك نصف غرف البيوت، ونصف قاعات الحمامات، ونصف مساحات المنازل والحوانيت، وضاعت كل أصوات الاحتجاج، وانسحب الناس بعيدًا إلى أطراف المدينة، لعلهم يختفون عن أعين سكان القلعة.

ثم واجه «المسيو» أولى المشكلات الحقيقية، مبنى صغير مترب، عليه نقوش وآيات مطموسة، وأشكال من الفسيفساء معظمها قد تساقط، وقبة نصف مهدمة، ومقام تكسوه كسوة خضراء متربة، كان واقفًا في منتصف المقياس بالضبط، فأمرهم أن يزيلوه، لكن العمال رفعوا المعاول ثم توقفوا، وصرخ «المسيو» حتى احمر وجهه، وهتف به رئيس العمال:

ـ يا جناب «المسيو» هذا مقام ولي من أولياء الله، الشيخ العليمي.

صرخ «المسيو»: لا بد من هدمه فورًا.

وهذه المرة لم يعترض العمال وحدهم، لكن بقية الناس صرخوا، وتدافعوا، وتصايحوا، ولم يبالوا بسياط الأرناؤوط، ولا بتهديدات الباشا، لم يتحركوا بمثل هذا العنف والغضب عندما هدمت بيوتهم، لكن غضبهم كان عاتيًا من أجل هذا البناء المتداعي، وبدا الأمر لغزًا جديدًا أمام «المسيو» الذي اضطر إلى أن يتراجع، وأن يراجع كل المقاييس، ليكتشف أن الطريق يجب أن ينحرف، وواصل الشق، وبقي المقام صامدًا.

ثم بدأت العروس تأخذ الهدايا، جلست أم العروس بنفسها لتستقبلها، وجلست بجانبها أم العريس صامتة تمامًا، تشعر أن ابنها هو مجرد إضافة يمكن إزالتها بإشارة إصبع، لا مجال لقبول أي هدية صغيرة بأي شكل، فحجم الهدية دليل على سطوة الباشا، وعلى الأعداء أن يبادروا بتقديمها قبل الأصدقاء؛ ليثبتوا حسن نواياهم، حتى أقارب القتلى عليهم أن يخرجوا آخر بقايا الكنوز، ويرسموا على الوجوه آخر الابتسامات،

ويسيروا إلى القلعة صاعدين السلم الحجري، غير آملين إلا في همهمة من الرضا الغامض.

وكان يجب أن تأتي زوجة الألفي بك شخصيًّا، فلم يعد يجديها الجلوس في بيت متواضع على حافة المدينة، كانت قد فقدت زوجها الذي مات غمًّا وقهرًا، وفقدت قصرها مرتين؛ مرة حين أخذه بونابرت، ومرة أخيرة حين أخذه أعوان الباشا الجديد، لم تبقَ لها إلا ذكريات قديمة عن سطوة زوجها التي ضاعت، كانت تصعد السلم، تحمل هديتها المتواضعة؛ حليها ومجوهراتها التي تحمل رائحة عرقها سنوات طويلة، لكن زوجة الباشا قلبت فيها ثم قلبت شفتيها في ازدراء وهي تقول:

ـ أهذه هدية تليق بزوجة من كان أميرًا وحاكمًا لمصر؟

ورفستها بقدميها، وحبت المرأة العجوز على ركبتيْها ويديها حتى التقطتها، عقودًا من الدر والياقوت، لحقتها الشيخوخة، فخبا بريقها، هبطت العجوز، ثم صعدت بعد يومين، تحمل الهدية نفسها مضافًا إليها كل النياشين والأوسمة التي أهداها الإنجليز لزوجها، آخر الوعود وآخر الأحلام في أن يصبح سلطانًا على البر كله، لكن زوجة الباشا رفستها بقدمها وهي تقول:

ـ أين أنت من القصر الذي كان زوجك يفك أخشابه، ثم يحمله على ظهور الجمال، ثم يركبه في أي مكان يشاء من الأرض؟

قالت الزوجة في انكسار: تكسرت أخشابه وزالت أيامه.

ولم ترحمها زوجة الباشا، حملت العجوز سيوف زوجها المثلومة ودروعه الصدئة، وأضافتها إلى الجواهر القديمة والنياشين، وصعدت القلعة، ووضعتها أمام زوجة الباشا التي صرخت في فزع حقيقي:

ـ هدايا زفاف، أم إعلان للحرب، أما كفانا ما لقينا من عصيان زوجك؟

وهبط البغل الذي كان يحمل هدايا السيدة سريعًا، وهبطت السيدة بنفس سرعته، دون أن تلحق به، ذهب البغل إلى سوق البغالين حيث تم تأجيره من قبل، واختفت السيدة في الأزقة الضيقة، حيث لم تظهر بعد ذلك قط.

وأخيرًا جاء يوم الزفاف، يوم الخميس الموافق الثالث عشر من يناير عام ١٨١٤ ميلادية، سبقته حركة محمومة بين أصحاب الحرف، من أجل إعداد العربات التي سوف تشارك في هذا الموكب، فرض شيخ كل حرفة على أتباعه مبلغًا من المال، أحضروا الأخشاب والأقمشة والأصباغ، وأعد فوق كل عربة حانوتًا مصغرًا، الحلواني والشربتلي والعطار والحريري والعقاد والزيات والحداد والنجار والقزاز والخياط والطحان والفَرَّان والجزار والبناء والمبلط والمبيض للنحاس والسمكري وحتى المراكبي شارك في الموكب، إحدى وتسعون عربة كاملة، كما أحصاها شيخنا الجبرتي، وأمام كل عربة يسير أهل الحرفة، وهم يحملون الطبول والمزامير، ويلبسون الثياب الفاخرة التي استعاروها.

كان موكب الزفاف يشبه في ترتيبه وتنظيمه الموكب نفسه الذي رتبه الباشا يوم المذبحة، في أوله كان الفرسان الولاة الذين كانوا يحاربون بجنون، ويخسرون بلا شرف، ويبيعون ذمتهم بأبخس الأسعار، ثم بعدهم سار والي الشرطة الذي كان راتبه الأساسي من الإتاوات التي يدفعها اللصوص، ثم بعد ذلك المحتسب الذي كان الباشا معجبًا بمهارته الفائقة في مغالطة الحسابات، ثم فرسان الإنكشارية الذين لم يكسبوا أي معركة قط إلا أمام الناس العزل، ثم بقية التجار والأعيان، ولم يكن هناك مكان للمماليك؛ لأنه لم يعد هناك مماليك.

بدأ الموكب يتحرك، والمدافع تدوي في كل جهات المدينة، من القلعة، ومن بولاق، وعبر بر الجيزة، وبدت المدينة تستعد لاستقبال هذه اللحظات الفرحة التي فرضت عليها قسرًا، وبدأ الموكب يشق طريقه في

الشارع الجديد، وبدت العروس الخجول جميلة على الرغم من أنها كان تشبه أباها كل الشبه، ولم يكن هناك من يقاوم محمد علي باشا.

عندما أصبح الموكب في منتصف الشارع تمامًا بدأت الشمس تغيب ببطء خلف سحابة متجهمة، ودون أي تمهيد بدأ المطر يهطل تمامًا مثلما هبط الرصاص كالمطر، انفتحت أبواب السماء، واندفعت المياه من كل اتجاه، وتحول الطريق الجديد إلى مصيدة موحلة، وبدأ فرسان الإنكشارية في الانزلاق، وهرولت النساء اللاتي حضرن للفرجة من فوق أسطح الحوانيت نصف المهدمة يبحثن عن ملجأ، وأصبح الموكب في حالة يرثى لها، وتعثر الرجال بالحمير، وتعثرت الحمير بالعربات، وانزلقت المحفة، فوقعت العروس، وأنهضوها بطينها، وأعادوها إلى الداخل، ثم أسقطوها مرة أخرى، فأصبح ثوبها الناصع أسود، وأخذت تصرخ، فانهدت الزينات فوق رأسها، وتكونت لها لحية من الطين، تشبه لحية الباشا الكبير شخصيًا، وظل المطر متواصلًا حتى هرب الجميع، وصمتت كل الأصوات، وخلت كل الطرقات، وتوقفت كل المدافع.

ووصلت العروس إلى دارها قبل الغروب بقليل، وعند ذلك صفا الجو، وانكشفت بيوت النور، ووافق ذلك اليوم ثالث عشرة طوبة، من شهور القبط المحسوبة، وحصل بذلك الغيث العميم النفع لمزارع الغلة والبرسيم.

وبهذا تم الزفاف، وبهذا شهد شيخنا الجبرتي عليه رحمة الله..



عندما صدر الجنيه المصري عام ١٩٢٤ استقبل الجميع الصورة المطبوعة عليه بدهشة بالغة، ولم يتعرف عليها أحد، لم تكن على الجنيه صورة للسلطان العثماني الذي كانت مصر ولاية تابعة له على مدى ما يقارب نصف قرن، فقد كانت الدولة السنية في ذلك الوقت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكان سلطانها «محمد السادس» يبدو رجلًا طاعنًا في السن كدولته، شاربه أبيض وكثيف ومتراخ، وفي عينيه نظرة ساهمة وحزينة، جاء إلى العرش بفعل المصادفة؛ لأن كل الذين كانوا أقرب منه للعرش قد انتحروا أو أصيبوا بالجنون، وكانت دولته قد تلقت هزيمة مروعة في الحرب العالمية الأولى، وبعد أن كانت تحتل رقعة هائلة من العالم أصبح قلبها محتلًا، تعبث فيه الجيوش الإنجليزية والفرنسية وحتى اليونانية، وكان احتلال هذه الدولة الأخيرة أقسى على قلب السلطان من بقيتها، فالأتباع السابقون تحولوا فوق أرضه إلى سادة آمرين، وكان أمله معلقًا بقائد وحيد كالذئب الأغبر، هو «مصطفى كمال»؛ حتى ينقذ مملكته وعرشه، ولكنه كان يدرك أيضًا، بحكم خبرته الطويلة، أنه ما إن يستأثر هذا القائد بالسلطة حتى يعزله من عرشه، كان مثل كل السلاطين في نهايات الدول، خانعًا وطيبًا، مستسلمًا لقدر السقوط الذي يلاحقه؛ لذلك لم يكن


NATIONAL BANK OF EGYPT
ONE

غريبًا أن يركب السفينة ذاهبًا إلى المنفى طائعًا بعد سنوات قلائل من عهده لتنقضي من بعده دولة آل عثمان إلى الأبد.

ولم يكن الجنيه أيضًا يحمل صورة «مصطفى كامل»؛ الرجل الذي بذل سنوات عمره القصير، ليعلم المصريين أن يكونوا جديرين بمصريتهم، أن يستيقظوا من سباتهم العميق، ومن رضوخهم لإهانات الاحتلال الإنجليزي، ومن تقبلهم لصنوف الحكام الجائرين الذين يقهرونهم بدلًا من الدفاع عنهم، كان هو الوحيد الذي ناصب اللورد كرومر العداء وقت أن كان حاكمًا مطلقًا يتذلل له الكبراء والوزراء والسلاطين، كان مصطفي كامل أفندي نحيل القامة، أخذ شهادة القانون من باريس، ورأى كيف تعيش الأمم الحرة، فوقف يدافع عن أرواح الفلاحين في قرية دنشواي، كان الزعيم الوحيد، وربما حتى الآن، الذي أصر على ألا تذهب أرواح المصريين بلا ثمن، وأنهم مثل بقية الخلق، نفوس فطرها الله، لها حياتها الخاصة وتواريخها الخاصة ولا يجب أن تهدر، بحجة أن أعدادها كثيرة، وأنها كحبات الليمون، تعصر دون أن تحصى، ولكن عزيمته كانت أقوى من جسده، وكانت روحه الوثابة أكبر من أن تسكن في هذا الهيكل النحيل؛ لذا غادرته وهو في سن السادسة والثلاثين، وتركت في قلوب المصريين حزنًا آسيا حتى الآن.

ولم يكن الجنيه أيضًا يحمل صورة الملك الجديد «فؤاد الأول»، بشاربه المبروم وصدره المنفوخ والنياشين التي تغطيه والتي لا يعرف أحد من أين جاءت، كان ملكًا غريبًا على الجميع، واحدًا من أمراء أسرة «محمد علي» التي كان يسري الدم المجنون في عروقها من الجد الأول، ولكنه كان أقلهم ذكرًا، كان أبوه إسماعيل حاكمًا مليئًا بالأحلام العظيمة، ساذجًا ومسرفًا من الناحية المالية، وقع في فخ الديون الأوربية، وما زال

الفخ منصوبًا حتى الآن، وكان أخوه الخديوي توفيق أشهر الخونة الذي قضى على ضباط جيشه الوطنيين، وقدمهم لقمة سائغة للمحتل البريطاني، فأي مجد، أو أي جدوى من أن تظهر صورته على جنيه الدولة المستقلة حتى ولو كان هذا الاستقلال اسميًّا؟

كانت على الجنيه صورة شخص غريب لا يعرفه أحد؛ فلاح مصري، لونه يحمل سمرة الجنوب، ولحيته يخالطها الشيب، ونظرته فيها نوع من القناعة والرضا بالمقسوم، على رأسه عمامة، وفوق كتفه عباءة بسيطة، دون أبهة ولا نياشين، واعتقد الجميع أنها صورة للفلاح المصري الذي طالما وهب الحياة لهذا الوادي، وأن هذا اعتراف متأخر بالجميل، جاء من أرومة ألبانية تركية طالما امتصت دمه، ولكن الأمر كان أبعد ما يكون عن ذلك.

بدأت الحكاية برافض للعرش، كان هو الأمير «كمال الدين حسين» الذي يتحدث بلهجة قاطعة:

- لا أريد أن أحكم مصر، ولا أريد أن أقيد نفسي بعرشها.

نظر إليه السلطان «حسين كامل» مذهولًا، كان راقدًا فوق فراش مرضه الأخير، وقد جفت مياه الحياة من بدنه، ولم يعد في انتظاره سوى القبر، ولكن كلمات ابنه ملأته بالغضب، قال في مرارة:

- لقد فعلت ما لم يفعله أحد، وقبلت بما لم يقدر أحد على قبوله؛ حتى تجلس حضرتكم على هذا العرش.

قبل الإهانات وقام بالتنازلات، وتحمل سخرية جرائد المعارضة، وقصائد الزجل المسمومة، ونظرات الاحتقار من زوجته وزوجة ابنه، وقام بالتذلل أمام صغار الموظفين الإنجليز، وتحمل مقاطعة طلبة المدارس

لاستقباله، قبل السلطان حسين كامل كل هذا، مقابل شيء وحيد، أن ينتقل العرش من بعده إلى ولده الوحيد، ولكنه يقف أمامه الآن عنيدًا ورافضًا، كانت ملامح الشاب الصغير أقرب إلى شاعر حالم منها إلى أمير تركي عتيد، يميل دومًا إلى العزلة والانطواء، مع نوع من الرهافة الأنثوية طالما كرهها السلطان، ولا بد أن تربيته وسط خمس من الأخوات البنات قد تركت أثرها في شخصيته، قال الأمير:

ـ لا يهمني ما فعلتم، لن أجلس على هذا العرش الملعون ما دمت حيًّا.

صاح السلطان بكل ما فيه من قوة الاحتضار:

ـ لن تبقى حيًّا بعد اليوم؛ لأنني سأنهض وأخنق حضرتكم بيديَّ هاتين.

وفوجئ السلطان بابنه يخرج من جيبه مسدسًا ويوجهه إلى رأسه، ويهتف في صوت صارم:

ـ لا داعي أن تتعبوا فخامتكم، سأقوم بذلك الآن، أمامكم.

شهق السلطان، أحس بقلبه على وشك التوقف، صاح به:

ـ أخفضوا المسدس واذهبوا إلى حيث تشاءون، لعنة الله عليكم وعلى العرش.

أغمض السلطان عينيه وتذكر اللحظة التي عرض فيها عليه هذا العرش الضائع، كان أتون الحرب العالمية الأولى مشتعلًا، والإنجليز الذين سلخوا مصر عن الدولة العثمانية، وفرضوا حمايتهم عليها يبحثون عن حاكم يطيع أوامرهم، وكان الخديوي عباس، الحاكم السابق، قد غادر مصر دون أن يستطيع العودة، كان قد راهن على فوز ألمانيا وحليفتها تركيا في الحرب، وكانت النتيجة أنه ظلْ منفيًّا رغمًا عنه بجانب السلطان العثماني وهو يتلقى الهزائم، وانتهى أمره حين عزله الإنجليز نهائيًّا.

لم يكن الأمير حسين كامل يرفض العرش حقًّا، حتى ولو حاول الإيحاء بذلك، كل ما في الأمر أن زوجته «ملك هانم» كانت تدين بالولاء لأم الخديوي السابق عباس، لم تنسَ أنها كانت واحدة من جواريها، وظلت تُذكِّره في الفراش كل ليلة أن قبوله العرش هو نوع من الخيانة لابن ولية نعمتها، والأهم أن ابنه الوحيد الأمير كمال الدين حسين، كان متزوجًا بابنة الخديوي السابق، وكانت زوجة الابن أيضًا ترى أن حماها سيكون الخائن الأكبر إذا قبل هذا العرش، ولم ينصفه الإنجليز أيضًا، لم يعطوه لقب الملك بدلًا من لقب الخديوي الذي ألغي مع انفصال مصر عن تركيا، كان الإنجليز لا يرون إلا ملكًا واحدًا للكون هو الجالس على العرش البريطاني، أعطوه لقب السلطان، ولا شيء غير ذلك، لا حرية في اختيار علم سلطنته، ولا أعضاء وزارته، ولا استقلاله المالي، لم يكن من حقه أن يطلب، واجبه فقط أن يطيع.

وظل الأمير حسين كامل يتحجج ويؤجل قبوله للعرش، ولكن ما إن علم أن أغا خان يزور القاهرة بدعوة من السلطات الإنجليزية حتى أصيب بالذعر، اعتقد أن زعيم الطائفة الإسماعيلية قادم لكي يجلس على العرش، وربما كان الأمر كذلك بالفعل، فالإنجليز كانوا قد ضاقوا ذرعًا بتردده؛ لذا فقد تخلى فجأة عن تعنته الشكلي ووافق على القبول بشرط وحيد هو أن يرث ابنه العرش من بعده، وحتى في هذا الأمر لم يأخذ إلا وعدًا غامضًا، ولم يوافقوا عليه إلا بعد سنوات من التوسلات.

ولكن ها هو كل ما عمله يتردى، والأمير العاصي ينصرف من أمامه فرحًا بحريته، ولم يبقَ أمام السلطان إلا أن ينتظر الموت وهو يردد لنفسه:

ـ غدًا سوف تتنازع كلاب أسرة «محمد علي» على هذا العرش الخالي.

وبالفعل كان هناك قابل للعرش، المصادفة هي التي جعلته يركب السفينة الإيطالية في هذا الوقت، كانت سفينة الأمير «فؤاد» تستعد لدخول ميناء الإسكندرية، كان ما يشغله وقتها، وهو يراقب البيوت البيضاء وصفوف النخيل التي تقترب، هو كيف يتسلل من السفينة إلى المدينة دون أن يعرف أحد أنه كان مسافرًا في أدنى درجة بها، دون قمرة ولا جناح يليق به أميرًا وشقيقًا لسلطان مصر، كان قد أفلت من روما ومن ديون القمار، ومن الراقصات اللواتي كتب لهن شيكات بلا رصيد ومن قروض محال الرهونات، العشرون عامًا التي قضاها متسكعًا في أوربا قادته إلى الإفلاس، لم يبقَ إلا أن يعود إلى القاهرة ليختفي في صمت؛ حتى لا يعلم أصحاب الديون فيها بوصوله، وتبدأ المطاردة من جديد، في تلك اللحظة اقترب منه تابعه «إدريس الأقصري»؛ الرجل الوحيد الذي بقي معه بعد أن هجره الجميع، كانت الابتسامة تنير وجهه الأسمر، وبرغم سنوات أوربا فقد ظل محتفظًا بجلبابه وعمامته الجنوبية، لم يتخلَ عنهما وهو يتسكع في إثر سيده، بادر بالقول:

ـ يا أفندينا، لقد رأيت رؤيا أريد أن أقصها عليكم.

لم يلتفت فؤاد إليه، كان ما في داخله من هموم أكبر من الاهتمام بحلم تافه لفلاح من الجنوب، وكانت صافرة السفينة تزعق طالبة الإذن بدخول الميناء، ولكن «إدريس» العنيد أصر على مواصلة الكلام:

ـ لقد حلمت أنك أصبحت ملكًا لمصر.

وانتبه فؤاد فجأة، كلمات مستحيلة من فرط غرابتها، كان يعرف أن السلطان مريض، ولكن هناك وريثًا ينتظر العرش، وفوق ذلك، فهناك في الأسرة من هم أكبر منه سنًا وأكثر نفوذًا، وكان دائمًا ما يشعر بالغربة في

ذلك البلد الذي لا يجيد لغة أهله، ولو كان الأمر بيده لقضى كل حياته في الخارج، ولولا هذه الديون الثقيلة التي تطارده ما فكر في العودة إليه قط، ولكن «إدريس» عاد يلح بالقول:

ـ رأيتكم يا أفندينا وأنتم تجلسون على عرش قصر عابدين، ورأيت رشدي باشا الوزير الأكبر وهو يقبل أياديكم، وكل الأمراء وعلى رأسهم الأمير عبد المنعم جميعهم ينحنون أمامكم.

صاح فيه فؤاد أخيرًا: اصمت.

دخلت السفينة إلى الميناء بالفعل، وفؤاد يرتجف خوفًا من أن يتعرف عليه أحد، ولكن كلمات الأقصري، رغمًا عنه، كانت تطن في أذنيه، توقظ داخله أمنية مستحيلة، وهي الإنقاذ الوحيد من ورطته ومهانته التي طالت أكثر مما ينبغي، قال وهو يضحك في جفاف:

ـ لقد كبرت وخرفت يا «إدريس».

وبدآ يستعدان للنزول من السفينة، ولكن ما إن خرجا من بوابة الميناء حتى كانت المفاجأة الأولى في انتظارهما، كان هناك بائع صغير يحمل جريدة المقطم الداكنة الأوراق وهو يصيح بأعلى صوته.

ـ اقرأ آخر خبر، الأمير كمال الدين حسين يتنازل عن العرش، اقرأ المقطم.

وتوقف الأمير فؤاد وتابعه، نظر كل منهما إلى الآخر مذهولًا، اشترى نسخة من الغلام، ولأن الأمير لم يكن يجيد العربية فقد أعطاها لتابعه الذي أخذ يقرؤها بلهجته الصعيدية المتكسرة، كان الخبر صحيحًا، وكان الأمير كمال الدين حسين قد أرسل خطابًا رسميًّا بذلك، ولكن هناك خبرًا آخر

في نفس الصحيفة، الأمير عبد المنعم أكبر أفراد الأسرة وابن الخديوي عباس يستعد للذهاب إلى إنجلترا، وهتف فؤاد في خيبة أمل:

ـ لقد ذهب ليطالب بعرش أبيه، وسوف يظفر به.

ولم يزد الأمر عن مجرد حلم لفلاح عجوز، لم يأبه أحد بالأمير الغريب العائد، حتى ولا الدائنين، كأنهم قد يئسوا من استرجاع ديونهم، وحتى عندما طلب فؤاد الإذن لمقابلة أخيه السلطان المريض، لم يَأذن له، لم يكن يريد أن يمنحه مالًا، ولا أن يدخله إلى منطقة الضوء، ويلفت أنظار الإنجليز إليه، ظل في داخله أمل واهن أن يتراجع ابنه الوحيد، و بالفعل أرسل خلفه رئيس وزرائه رشدي باشا ليرجوه ويتوسل إليه ليعدل عن قراره.

وظل فؤاد حبيس كآبته، لا يقدر على التجوال أو الذهاب إلى أي مكان، وبدأ يرمق «إدريس» الأقصري في عداء، وأحس الأخير بالذنب فأخذ يخفض رأسه خجلًا، ولكن فؤادًا لم يكن يعلم ما يدور في الخفاء، لم يعلم أن طلب الأمير عبد المنعم قد رفض، وأن الإنجليز قالوا له بوضوح إن حقه في العرش قد سقط مع خلع أبيه، ولم يعلم أن كمال الدين حسين غادر مصر بصحبة زوجته الثانية، الفرنسية الأصل، بعد أن صرح بأنه مسلم حقًّا ولكن لا وطن له؛ لذا كان غريبًا بالنسبة إلى الأمير المفلس أن يستيقظ في الصباح ليجد دعوة لمقابلة حضرة جناب اللورد «وينجت»، طلبًا غريبًا ومفاجئًا من المندوب السامي الحاكم الحقيقي لمصر.

توقف فؤاد مذهولًا أمام اللورد، كان قد ارتدى أفضل ما لديه من ملابس، وحاول أن يبدو معتدًّا بنفسه دون أن يكون مفرطًا في الغرور، ولكن «وينجت» نظر إليه من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، يريد أن يقدر حجمه قبل أن يقدم له أي عرض، لم يطلب منه الجلوس، ولكنه قال في لهجة عسكرية صارمة:

ـ سنقوم بدفع كل ديونك.

ولهج الأمير بالشكر بالتركية والإيطالية، ولكنه كان يحس بالإهانة، فقد بدا في سلوك الحاكم والذي كان عسكريًا سابقًا أنه الذي يكره هذا النوع من المقامرين من أمثاله، ثم قال له أخيرًا:

ـ لقد اختارتك حكومة صاحب الجلالة لتكون ملكًا على مصر، أعتقد أنه عرض مناسب لك، لا تعلن هذا الأمر حتى يموت السلطان، وعليك أن تلتزم بالأوامر التي سوف نوجهها إليك.

انصرف الأمير الذي أصبح ملكًا وهو مذهول، مصفر الوجه، لدرجة أن المنتظرين في قاعه المندوب السامي حسبوا أنه تلقى توبيخًا مميتًا، كما هي عادة «وينجت» مع الأمراء المفلسين، لم يتفوه فؤاد بكلمة واحدة إلا بعد أن عاد إلى بيته، وجد «إدريس» يصلي صلاة الظهر، ظل واقفًا حتى فرغ من الصلاة، تطلع كل واحد منهم إلى الآخر، وابتسم فؤاد أخيرًا بعد سنوات من العبوس، وهتف به:

ـ انهض يا «إدريس» بك.

ولم يستطع «إدريس» بك النهوض، ظل جالسًا مذهولًا على سجادة الصلاة، وعاد فؤاد يقول:

ـ لقد تحقق حلمك الغريب، وسوف تكون صورتك على أول جنيه تصدره حكومتي.

وفي يوم ٤ يوليو ١٩٢٤ صدر أول جنيه مصري عن الدولة المصرية التي ظفرت باستقلالها الشكلي وهو يحمل صورة «إدريس» بك الأقصري، وأصبح واحدًا من أندر العملات في مصر والعالم.

